المنتخب من مدوَّنات التراث

عزيز العظمة

المسعودي



عزيز العظمة

المسعودي

AL MAS'UDI

Editor:

AZIZ AL-AZMEH

First Published in July 2001

BEIRUT - LEBANON

ISBN 9953 21 043 8

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: تموز/يوليو ٢٠٠١

فهرس المحتويات

القسم الرابع
التاريخ

القسم الخامس
تواريخ الأمم

القسم السادس
شذرات من تاريخ الخلافة الإسلامية

المقدمة

لم يستبقِ الزمان لنا من أخبار حياة المسعودي إلاّ القليل القليل، وليس لنا العلم بأسباب ذلك سوى التخمين أنّ تقلّبه في البلدان وغربته المستمرة قد غيّباه عن أعين معاصريه ممن اشتغل بتدوين أخبار العصر، وأن هذا الغياب عن نطاق اهتمام المعاصرين له ليس بعيد الصلة عن عدم قيامه بوظيفة حكومية أو دينية أو تعليمية. والحال أننا لا نعلم كيف عاش المسعودي وكيف موّل رحلاته ودراساته المستفيضة، ولا نكاد نعرف عنه إلاّ أنه عراقي المولد والمنشأ، وأنه ـ حسب ابن حزم ـ ولد في بغداد لأسرة كوفية تعود بنسبها إلى عبد الله بن مسعود الصحابي وأنه توفي في فسطاط مصر في العام ٣٤٥/٩٥٦هـ. على الأرجح، بعد إقامة طويلة في مصر والشام وأنه قد زار الكثير من البلدان الآسيوية والافريقية ـ وربما البعض من أوروبا من سياق أسفاره المستمرة التي امتدت بين السنتين ٣٠٣ و٣٣٦ للهجرة. كما أننا نعلم أنه درس على بعض كبار عصره من العلماء في غير مجال، كالطبري والصولي ووكيع الضبّي وابن دريد والزجّاج وسنان بن قرّة بن ثابت، وأنه عرف بعض كبار المتكلمين كالجبائي والأشعري، وناقش أبا القاسم البلخي والنوبختي. وساجل أبا بكر الرازي. ثم إن مصدرنا الرئيسي للعلم بتجاربه وتنقّله مستقى من القليل الباقي من أعماله ـ أي «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وكتاب «التنبيه والإشراف» اللذين يشير فيهما المؤلف إلى مناقشات اشترك فيها وأمور شهدها في بلدان زارها وبعض الشخصيات التي انتقاها (وليس منها الرؤساء على العموم)، كما أن كتابيه المذكورين يشكلان المصدر الرئيسي لمعرفتنا بمؤلفاته الأخرى التي يراوح عددها بين الخمسة وثلاثين والتسعة وثلاثين.

لم يستبقِ لنا التاريخ من المسعودي إذن إلاّ كتابين إضافة إلى إحالات على كتب أخرى. أي أنه لم يتبقّ لنا منه إلاّ النص. لن أخوض الآن في النظريات الحديثة حول المؤلف أو غيابه، وجلّ ما أودّ الإشارة إليه هو أن النص المتاح لنا يتموضع في فضاء أوسع بكثير من فضاء المؤلف الفرد ولعله أكثر فائدة للقراءة التاريخية، هو فضاء العصر: إننا نعلم أن كتابي المسعودي ـ حسب ما جاء فيهما ـ قد ألّفا في الفترة ما بين ٣٣٢ ووفاته عام ٣٤٥ (٩٤٥ و٩٥٦)، وأنهما ألّفا خلال فترات إقامة

المسعودي في أماكن عديدة لم يسمّ المؤلف منها إلاّ الفسطاط، أي أنهما أُلّفا في فضاء الحضارة العربية. ولئن دلّ هذان الكتابان على فكر هذا المؤلف الفرد، إلاّ أن دلالتهما على معارف ذلك العصر وعلى ذهنية ومشاغل الفئة المثقفة فيها أبلغ وأفصح.

إن مروج الذهب ومعادن الجوهر و كتاب التنبيه والإشراف كتابان بالغا الثراء في مادتهما الموضوعية. ومن الخطأ اعتبارهما كتابين في التاريخ على الرغم من احتوائهما على أقسام تاريخية هامة. إنهما كتابان في الأخبار: أخبار الخلق، ونشوء الكون، وصورة الأرض، والبحار والأنهار والجبال، والحيوانات، والعقائد والأديان والفرق، والمناظرات بين أهل المقالات (ومنها بعض مناظرات المسعودي ومناقشاته مع الصابئة وأهل الحديث وكبراء القساوسة)، وأنساب الأمم وتواريخ ملوكها وعاداتها وتقاويمها واعتقاداتها، والغرائب والعجائب، والجغرافيا والجيولوجيا وعلوم الحكمة والطبيعة.

على هذا ليست الكتابة التاريخية فيهما بالأساسية، على الرغم من أن أكثر الدراسين الحديثين قد استخدموا المادة التاريخية فيهما على شكل أساسي واستنتجوا بذلك الاستنتاج الناقص أن المسعودي مؤرخ في المقام الأول: لم يكن المسعودي مؤرخاً، بل كان إخبارياً، جامعاً للمعارف المتعلقة بالأمم والبلدان بغض النظر عن كونها تاريخية أو طبيعيّة أو إثنولوجية أو عقيدية. وإن كتابي المسعودي (كما يتبيّن من فهرسة الإثنين) ينمان عن تشوّق قد يلامس الهوى الشبقي لمعرفة حاضر البلدان والأمم وتواريخها. ولئن تضمن كتابا المسعودي تواريخ لدول الإسلام والصين والإفرنجة وغيرهم مرتبة على التتالي كما نرى في كتب التاريخ على العموم، إلاّ أننا نرى على صورة جلية أن التتالي التاريخي ليس إلاّ عنصراً واحداً من عناصر المدوّنة المسعودية، وهي ولو كانت مبنية على التتالي، إلاّ أن محتواها يتجاوز محتوى الكتابة التاريخية العربية على العموم، التي اقتصرت بصورة شبه حصرية على أخبار الملوك والحروب من دون الدخول في العادات والتقاليد والديانات والعقائد والعلوم الطبيعية وغير ذلك مما نجده عند المسعودي ــ وهذا أمر ثمّنه ابن خلدون كثيراً في تناوله لمؤلفنا.

على ذلك، إن الحريّ بنا أن نصنف كتابي المسعودي على أنهما كتابان في الأدب بمعناه الأوسع: نعرف جميعاً أن كتب الأدب كالعقد الفريد مثلاً كتب أخبار يتجاوز محتواها الموضوعي «الأدب» بمعناه الضيق الذي يشير إلى نصوص الشعر والنثر، بل هي كتب في الأخبار والمعارف على صورة عامة. هي كتب ألفت في أول أمرها (المعارف لابن قتيبة) لتهذيب أرباب دواوين الخلافة والسلطنة، وأنها اتسعت في مجالها الموضوعي لتشمل المعارف بعامة مما يلائم ثقافة البلاطات وأعضاءها من أصحاب الندامة والظرف والأخبار، مما شكل جملة من المعارف التي تميزت بها خاصة البلاط تميزاً ثقافياً واجتماعياً عن عامة الشعب وعن أرباب الديانة معاً (ولو كان بعض أرباب الديانة من فقهاء وقضاة أصحاب ثقافة أدبية رفعية: الشريف المرتضى على سبيل المثال)، ثم انتشرت بعد ذلك لدى الخواص بعامّة. وإن الطابع الأدبي لكتابي المسعودي ــ مع احتوائهما على أخبار البلدان وعجائب البحار والديار وعلى المعارف الخاصة بالعلوم الطبيعيّة ــ ليزداد رسوخاً في أذهاننا إن عاينّا الترتيب الموضوعي لهما، حيث نرى أن المؤلف يذهب إلى هنا وهناك في تناوله تفاصيل موضوعه على نحو

يشير إلى التداعي والاستطراد الذي يسم كتب الجاحظ الذي يشير إليه المسعودي مراراً.

إلاّ أن ذلك جميعه لا يمنعنا من اعتبار المسعودي ــ أو بالأحرى كتابيه ــ على أنهما كتابان يتضمنان تناولاً متكاملاً لجملة مواضيع تتطابق في أكثر من ناحية مع ما يعرف اليوم على أنه تاريخ الحضارات. ومع أنه من الممكن استناداً إلى كتاب المسعودي المفقود والمعنون «كتاب تقلّب الدول وتغيّر الآراء والملل» الاقتراح بأنه من الممكن أن يكون قد قدّم نظرية ما في التحول التاريخي، إلاّ أنه علينا الاقتصار على ما بين أيدينا من مدوّنته. وإن ما بين أيدينا يشير إلى أن في المروج والتنبيه العرض الأكثر تكاملاً الناشيء عن الحضارة العربية الكلاسيكية لجملة تواريخ الأمم باعتبارها تواريخ للأمم بالمعنى الواسع: أي أنها أمم ذات بلدان ومساكن تشكل أمزجتها وسجاياها، وذات عقائد وديانات وتقاليد ورسوم إضافة إلى دولها التي تشكل على صورة شبه حصرية مادة الكتابة التاريخية العربية[1].

ولكن علينا توخي الحذر في المقارنة بين نصوص المسعودي حول الشعوب والأمم وديارها وعاداتها وأديانها وتواريخها، وبين التأريخ الحديث للحضارات، على الرغم مما بين الإثنين من تشابهات تشي بخلف بعض النظريات الحديثة في الحضارة أكثر مما تشي بحداثة المسعودي، وخصوصاً تلك النظريات التي ترى في تواريخ الشعوب تواريخ لطبائع ثابتة، لا تاريخية، قارّة، قائمة في تاريخ طبيعي للسجايا. إن تاريخ المسعودي للحضارات تاريخ لطبائع ثابتة، يغلب عليه الاعتباران الطبيعي ــ المناخي والنجومي، أي تأثير النجوم على المناطق المختلفة من العالم. ويغلب فيه أيضاً الجانب الإخباري على الجانب التحقيقي. فإن المسعودي يعلن مراراً أنه جمع أخبار الأمم التي زارها والتي اهتم بها، وأخبار الملل والديانات التي ساجلها وسجّل ما لديها، من دون أن يكون هذا التسجيل ــ إلاّ في بعض التفاسير ــ متجاوزاً الوصف إلى التحليل. بعبارة المسعودي، إن كتابيه كتابا خبر، وليسا بحثاً ونظراً في هذه الأخبار.

والحال أن المسعودي يتجاوز قول المعتزلة على سبيل المثال في اعتماد العقل معياراً للنقل، ويثبت الكثير من العجائب والغرائب استناداً إلى قوله بالمعجزات الإلهية، وإقامته التمايز الكلامي بين «الإحالة في العقل» و «الإحالة في القدرة»، أي القدرة الإلهية القادرة على تجاوز ما تسمح به الطبيعة وما قد يقرّ به تالياً العقل. وهو في هذا الأمر كما في غيره، إبنٌ بار ووفي لعصره، العصر الذي تداخلت فيه الخوافي بالعيان، والذي لم يقرّ بالأولوية المطلقة للعقل في أي شأن كان. وإن المسعودي ولئن قال بالقياس (في مجال الجغرافية مثلاً)، ولئن ناقش الشرعيين وعارضهم بالطبيعيين والحكماء، وعلى الرغم من إقراره بأن الأمم قد تنال الكمال المجتمعي من دون رسالة إلهية (ويسمي هذه الأمم الطبيعية في تمايزها عن الأمم الشرعية كالمسلمين واليهود والمسيحيين)، إلاّ أنه يقرّ الأثر النجومي في شؤون الأرض، ويقرّ الروايات الدينية في شؤون التاريخ البشري، ويقرّ التدخل الإلهي

(١) نحيل القارئ على كتابينا **الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية**، ط. ٢، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٧، الفصل ٢، و **العرب والبرابرة**، بيروت ولندن، دار رياض الريس، ١٩٩١.

في تفاصيل شؤون الدنيا. ولكن هذا لم يمنعه من إعمال العقل هنا وهناك في تقديم تفسيرات طبيعية للشؤون الخوارق وللعجائب التي اعتبرها صحيحة، كالغيلان والنسناس والعنقاء والكهانة.

ليس غريباً على ذلك أن يفتتح المسعودي تاريخه للأمم بسرد تفصيلي لأسطورة خلق متكاملة يروي فيها خلق الكون والجن وآدم، ويسرد فيها الرواية الشيعية عن خلق محمد والأئمة قبل آدم، وأن يقتبس فيها شعراً منسوباً لآدم ولإبليس. وإن تاريخه للأمم، على ثرائه وتحريه الأخبار وخصوصاً العجيب منها، يتضمن ما كان متداولاً في عصره مما لم يعد مقبولاً في ضوء المعارف العلمية والتاريخية الحديثة. من ذلك على سبيل المثال استنتاجه أن عبارة «العبرية» آيلة عن عبور إبراهيم — وهو شخصية ليست متحققة الوجود ـ الفرات مثلاً، دون التيقّن من الأصول اللغوية للعبارة. وهو في إيراده أخبار البحار والسيلى (كوريا اليوم) يسرد الكثير من الأمور التي يأباها العقل، ويقبل الأخبار الذاهبة إلى وجود الحميريين التبابعة في التبت التي قرر أن الحميرية لغتها. وهو يخلط بين ملوك البابليين والفرس، وبين آلهة بابل وملوكها جاعلاً من مردوخ ملكاً، ويخلط بين القياصرة، جاعلاً من أغسطس يوليوس، ويساوي بين بطليموس الملك وبطليموس العالم الفلكي والجغرافي، إلى غير ذلك مما لم تتح له معارف عصره غيره.

خلاصة القول أن المسعودي بن عصره، وأنه يؤدي لنا بياناً شاملاً عن معارف ذلك العصر وإمكاناته العقلية والذهنية، من دون المزج بين الخرافة وبين اعتبار ضرورات الطبائع واعتبار الحكمة ودون تقويم هذه بتلك. وإننا نقدم للقارئ في هذه المجموعة صورة شاملة عن آرائه في الكون والأرض والبلدان والشعوب والتواريخ، مما يتيح للقارىء تكوين صورة متكاملة وحيّة عن ذهنية مثقف متنوّر وعالم، ولكنه مثقف عائد للقرن العاشر وليس للقرن الواحد والعشرين.

* * *

كان المسعودي موضوعاً لكتابين ممتازين باللغة الإنكليزية لمؤلفين عربيين:

TARIF KHALIDI, ISLAMIC HISTORIOGRAPHY: THE HISTORIES OF MAS'UDI, ALBANY, 1974.

AHMAD SHBOUL, **AL-MAS'UDI AND WORLD**, LONDON, 1973.

ثبت المصادر

المسعودي، **التنبيه والإشراف**، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي، القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٨.

المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٦ أجزاء (مرتّبة على تسلسل الفقرات)، تحقيق بربيه دي مينار وبافيه دي كرتاي، تصحيح شارل بلاّ، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٥.

هذا ولم نستق أية نصوص من **أخبار الزمان**، لأن النسخة المتوفرة بين أيدينا بعيدة النسبة غاية البعد إلى المسعودي (أنظر كتاب طريف خالدي الآنف الذكر، ص ١٥٤ ــ ١٥٥)، ويبدو أن أصول المخطوطة الصحيحة قد تلاشت وضاعت مع مرور الزمن.

ثبت مؤلفات المسعودي المفقودة[1]

ما يلي لائحة بالكتب المفقودة الأكيدة النسبة إلى المسعودي:

في الأخبار:

ـ أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الحالية والممالك الدائرة
ـ الكتاب الأوسط
ـ الفنون والمعارف فيما جرى في الدهور السوالف
ـ ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور
ـ الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار
ـ نظم الجواهر في تدبير الممالك والعساكر
ـ وصل المجالس بجوامع الأخبار
ـ مقاتل فرسان العجم
ـ مظاهر الأخبار وطرائف الآثار في أخبار آل النبيّ
ـ الأخبار المسعوديات
ـ راحة الأرواح.
ـ حدائق الأذان في أخبار (آل؟) بيت النبي وتفرقهم في البلدان

(١) استقينا هذا البيان من كتاب طريف خالدي الآنف الذكر، ص ١٥٣ ـ ١٦٣.

في الديانات والعقائد والفرق:

ـ المقالات في أصول الديانات

ـ سر الحياة

ـ رسالة البيان في أسماء الأئمة القطعية

ـ كتاب الانتصار

ـ الصفوة في الإمامة

ـ الاستبصار في الإمامة

ـ الدعاوي الشنيعة

ـ المسائل والعلل في المذاهب والملل

ـ خزائن الدين وسرّ العالمين

ـ الإبانة عن أصول الديانة

ـ الاسترجاع في الكلام

ـ كتاب الزاهي

في علوم الحكمة والطبيعة:

ـ كتاب الزلف

ـ المبادئ والتراكيب

ـ طب النفوس

ـ النهى والكمال

ـ الرؤوس السبعية

في الفقه وأصوله:

ـ نظم الأدلة في أصول الملّة

ـ الواجب في الفروض واللوازم

ـ نظم الأعلام في أصول الأحكام

ـ هذا إضافة إلى الكتاب المذكور في نص هذه المقدمة، **كتاب تقلب الدول وتغيّر الآراء.**

القسم الأول

العلم بالأخبار

١

مخطط مروج الذهب والغرض منه(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه التوفيق

الحمد لله أهل الحمد ومستوجب الثناء والمجد وصلّى الله على محمّد خاتم النبيّين وعلى آله الطاهرين وسلّم تسليماً،

في ذكر جوامع أغراض هذا الكتاب

١ ـ قال المسعوديّ: أمّا بعد فإنّا صنّفنا كتابنا في أخبار الزمان، وقدّمنا القول فيه في هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها وبدائع معادنها وأصناف مناهلها وأخبار غياضها وجزائر البحار والبحيرات الصغار، وأخبار الأبنية المعظّمة والمساكن المشرّفة، وذكر شأن المبدأ وأصل النسل وتباين الأوطان، وما كان نهراً فصار بحراً فصار برّاً وما كان برّاً فصار بحراً على مرور الأيام وكرور الدهور، وعلّة ذلك وسببه الفلكي والطبيعي، وانقسام الأقاليم بخواص الكواكب ومعاطف الأوتاد ومقادير النواحي والآفاق، وتباين الناس في التاريخ القديم واختلافهم في بدئه وأوليّته من الهند وأصناف الملحدين وما ورد في ذلك من الشرعيّين وما نطقت به الكتب وورد على الديانيّين.

٢ ـ ثم أتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة والأمم الداثرة والقرون الخالية والطوائف البائدة على اختلاف أجناسهم وتغاير أنواعهم واختلاف أديانهم، وما مضى في أكناف الزمان

(*) مروج الذهب، الفقرات ١ ـ ٣٣

من حِكَمهم ومقائل فلاسفتهم وأخبار ملوكهم وأخبار القياصر إلى ما في تضاعيف ذلك من أخبار الأنبياء والرسل والأتقياء إلى أن أفضى الله بكرامته وشرّف برسالته محمداً نبيه صلى الله عليه وسلّم: فذكرنا مولده ومنشأه ومبعثه وهجرته ومغازيه وسراياه إلى أوان وفاته، ثم اتصال الخلافة واتساق المملكة بزمن زمن ومقاتل من ظهر إلى الطالبيّين إلى الوقت الذي شرعنا فيه تصنيف كتابنا هذا من خلاف المتّقي لله أمير المؤمنين وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط في الإخبار عن التاريخ وما اندرج في السنين الماضية من لدن البدء إلى الوقت الذي عنده انتهى كتابنا الأعظم وما تلاه من الكتاب الأوسط، فرأينا إجمال ما بسطناه واختصار ما وسّطناه في كتاب لطيف نودعه لُمع ما في ذيْنك الكتابين مما ضمّناها، وغير ذلك من أنواع العلوم وأخبار الأمم الماضية والأعصار الخالية مما لم يتقدّم ذكره فيهما.

٤ ــ على أنّا نعتذر من تقصير إن كان أو نتنصّل من إغفال إن عرض، لِما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار تارةً على متن البحر وتارةً على ظهر البر، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند والزنج والصّنف والصّين والزابج، وتقحّمنا الشرق والغرب، فتارةً بأقصى خراسان وتارةً بوسائط أرمينية وآذربيجان والرّان والبيلقان، وطوراً بالعراق وطوراً بالشام نسري في الآفاق سرى الشمس في الإشراق، كما قال الشاعر:

تيمّم أقطار البلاد فتارةً
لدى شرقها الأقصى وطوراً إلى الغربِ
سُرى الشمس لا ينفكّ تقذفه النّوى
إلى أُفق ناءٍ يقصّر بالرّكبِ

٥ ــ قال المصنّف: ثم تفاوضنا أصناف الملوك على تغاير أخلاقهم وتباين هممهم وتباعد ديارهم وأخذنا بمسلك مسلك من موافقتهم، على أن العلم قد بادت آثاره وطمس مناره وكثر فيه الأغبياء وقلّ الفهماء، ولا تعاين إلا مموّها جاهلاً ومتعاطياً ناقصاً، قد قنع بالظنون وعمي عن اليقين، لم نر الاشتغال بهذا الضرب من العلوم والتفرّغ بهذا الفن من الآداب حتى صنّفنا كتبنا من ضروب المقالات وأنواع الديانات،

ككتاب الإبانة عن أصول الديانة، وكتاب المقالات في أصول الديانات، وكتاب سر الحياة، وكتاب نظم الأدلة في أصول الملّة وما اشتمل عليه من أصول الفتوى وقوانين الأحكام، كتيقّن القياس والاجتهاد في الأحكام ووقع الرأي والاستحسان ومعرفة الناسخ من المنسوخ وكيفية الإجماع وماهيته، ومعرفة الخاص والعام والأوامر والنواهي، والحظر والإباحة، وما أتت به الأخبار من الاستفاضة والآحاد، وأفعال النبي صلعم، وما لحق بذلك من أصول الفتوى ومناظرة أبناء الخصوم فيما نازعونا فيه وموافقتهم في شيء منهم.

٦ ـ وكتاب الاستبصار في الإمامة، ووصف أقاويل الناس في ذلك من أصحاب النص والاختيار وحجاج كل فريق منهم، وكتاب الصفوة في الإمامة، وما احتواه ذلك مع سائر كتبنا من ضروب علم الظواهر والبواطن والجليّ والخفيّ والداثر والوافق، وإيقاظنا على ما يرتقبه المرتقبون ويتوقّعه المحدثون وما ذكروه من نور يلمع في الأرض وينبسط في الجدب والخصب، وما في عقب الملاحم الكائنة الظاهر إنباؤها المتجلّي تأويلها، إلى سائر كتبنا في السياسة، كالسياسة المدنية وأجزاء المدينة وملّتها الطبيعية وانقسام أجزاء الملة والإبانة عن المبادئ، وكيفية تركيب العوالم والأجسام السماوية، وما هو محسوس وغير محسوس من الكثيف واللطيف، وما قال أهل النحلة في ذلك.

٧ ـ وكان مما دعانا إلى تأليف كتبنا هذه في التاريخ وأخبار العالم وما مضى في أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيَرها والأمم ومساكنها، محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء وقفاها الحكماء، وأن نُبقي للعالم ذكراً محموداً وعلماً منظوماً عتيداً، فإنّا وجدنا مصنّفي الكتب في ذلك مجيداً ومقصّراً، ومسهباً ومختصراً، ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام حادثة مع حدوث الأزمان، وربما غاب البارع منها عن الفطِن الذكي، ولكل واحد قسط يخصّه بمقدار عنايته، ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله، وليس من لزم جمرات وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزّع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخرج كل دقيق من معدنه وأثار كل نفيس من مكمنه.

١٦ ـ وقد وسمت كتابي هذا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، لنفاسة ما حواه وعظم خطر ما استولى عليه من طوالع بوارع ما ضمّنته كتبنا السالفة في معناه وغرر مؤلفاتنا في مغزاه، وجعلته تحفة للإشراف من الملوك وأهل الدرايات مما قد ضمّنته من

جمل ما تدفع الحاجة إليه وتنازع النفوس إلى علمه من دراية ما سلف وغبر من الزمان، وجعلته منبّهاً على أغراض ما سلف من كتبنا ومشتملاً على جوامع يحسن بالعاقل الأديب معرفتها ولا يعذر في التغافل عنها؛ ولم نترك نوعاً من العلوم ولا فنّاً من الأخبار ولا طريقة من الآثار إلا وقد أوردناه في هذا الكتاب مفصّلاً أو ذكرناه مجملاً أو أشرنا إليه بضروب من الإشارات أو لوّحنا إليه بفحوى من العبارات.

١٧ ـ فمن حرّف شيئاً من معناه أو أزال ركناً من مبناه أو طمس واضحة من معالمه أو لبس شاهدةً من تراجمه، أو غيّره أو بدّله أو انتخبه أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو أضافه إلى سوانا، فوافاه من غضب الله وسرعة نقمه وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره ويحار له فكره وجعله مُثلةً للعالمين وعبرة للمعتبرين وآية للمتوسّمين، وسلبه الله ما أعطاه وحال بينه وبين ما أنعم به عليه من قوة ونعمة مبدع السموات والأرض، من أيّ الملل كان والآراء، إنه على كل شيء قدير؛ وقد جعلت هذا التخويف في أول كتابي هذا وآخره ليكون رادعاً لمن ميّله هوى أو غلبه شقاء؛ فليراقب أمر ربه وليحاذر منقلبه، فالمدة يسيرة والمسافة قصيرة، وإلى الله المصير.

١٨ ـ وهذا حين نبدأ بجمل ما استودعناه هذا الكتاب من الأبواب وما حوى كل باب منها من أنواع الأخبار، إن شاء الله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم.

في ذكر ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب

١٩ ـ قد قدّمنا فيما سلف من الكتاب ذكرنا لأغراضه، فلنذكر الآن جملاً من كمية أبوابه على حسب مراتبها فيه واستحقاقها منه، لكي يقرب تناولها على من يريد إن شاء الله تناول ذلك.

باب ٢٨ ـ في ذكر الروم وما قاله الناس في بدء أنسابهم وعدد ملوكهم وتاريخ سنيهم وجوامع من سيرهم،

باب ٢٩ ـ في ذكر ملوك الروم المتنصّرة وهم ملوك القسطنطينية ولُمع مما كان في أعصارهم،

باب ٣٠ ـ في ذكر ملوك الروم بعد ظهور الإسلام إلى أرْمَنُوس وهو الملك في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة،

باب ٣١ ـ في ذكر مصر وأخبارها ونيلها وعجائبها وأخبار ملوكها،

باب ٣٢ ـ في ذكر أخبار الإسكندرية وبنائها وملوكها وعجائبها وما لحق بهذا الباب،

باب ٣٣ ـ في ذكر السودان وأنسابهم واختلاف أجناسهم وأنواعهم وتباينهم في ديارهم وأخبار ملوكهم،

باب ٣٤ ـ في ذكر الصقالبة ومساكنهم وأخبار ملوكهم وتفرّق أجناسهم،

باب ٣٥ ـ في ذكر الإفرنجة والجلالقة وملوكها وجوامع من أخبارها وحروبها مع أهل الأندلس،

باب ٣٦ ـ في ذكر النوكبرد وملوكها والإخبار عن مساكنها،

٢٤ ـ باب ٣٧ ـ في ذكر عاد وملوكها ولُمع من أخبارها وما قيل في طول أعمارها،

باب ٣٨ ـ في ذكر ثمود وملوكها وصالح نبيّها عم ولمع من أخبارها،

باب ٣٩ ـ في ذكر مكة وأخبارها وبناء البيت ومن تداوله من جرهم وغيرهم وما لحق بهذا الباب،

باب ٤٠ ـ في ذكر جوامع من الأخبار في وصف الأرض والبلدان وحنين النفوس إلى الأوطان،

باب ٤١ ـ في ذكر تنازع الناس في المعنى الذي من أجله سُمّي اليمن يمناً والعراق والشام والحجاز،

باب ٤٢ ـ في ذكر اليمن وأنسابها وما قال الناس في ذلك،

باب ٤٣ ـ في ذكر اليمن وملوكها من التبابعة وغيرها وسيرها ومقدار سنيها،

باب ٤٤ ـ في ذكر ملوك الحيرة من اليمن وغيرهم وأخبارهم،

٣٣ ـ قال المسعودي: فهذه جوامع ما حوى هذا الكتاب من الأبواب، على أنه قد يأتي في كل باب مما ذكرنا من أنواع العلوم وفنون الآثار والأخبار ما لم تأتِ عليه تراجم الأبواب، وهي مرتّبة على حسب ما قدّمنا من أبوابه على تفصيل منّا لتاريخ الخلفاء ومقدار أعمارهم بأبواب نفردها عن سيرهم وأخبارهم، ثم نعقب بعد ذلك

بالغُرر من أخبارهم والعيون من سيرهم والجوامع مما كان في أعصارهم، وأخبار وزرائهم وما جرى من أنواع العلوم في مجالسهم، ملوّحين إلى ما سلف من تصنيفنا وتقدّم من تأليفنا في هذه المعاني والفنون.

وعدة ما يشتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب مائة باب واثنان وثلاثون باباً، أولها ذكر جوامع أغراض هذا الكتاب، والثاني ذكر ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب، وآخرها ذكر من حجّ من أول الإسلام إلى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

٢

كتاب التنبيه والإشراف(*)

قال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: أما بعد، فإنّا لما صنّفنا كتابنا الأكبر في (أخبار الزمان ومن أباده الحدثان) من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة، وشفعناه بالكتاب الأوسط في معناه، ثم قفوناه بكتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) في تحف الأشراف من الملوك وأهل الدرايات، ثم أتلينا ذلك بكتاب (فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف) وأتبعناه بكتاب (ذخائر العلوم، وما كان في سالف الدهور) وأردفناه بكتاب (الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار)، ذكرنا في هذه الكتب الأخبار عن بدء العالم والخلق وتفرقهم على الأرض والممالك والبر والبحر والقرون البائدة، والأمم الخالية الداثرة الأكابر كالهند والصين والكلدانيين ــ وهم السريانيون ــ والعرب والفرس واليونانيين والروم وغيرهم، وتاريخ الأزمان الماضية والأجيال الخالية والأنبياء، وذكر قصصهم وسير الملوك وسياساتهم ومساكن الأمم وتباينها في عبادتها، واختلافها في آرائها وصفة بحار العالم وابتدائها وانتهائها واتصال بعضها ببعض وما لا يتصل منها وما يظهر فيه المد والجزر وما لا يظهر، ومقاديرها في الطول والعرض وما يتشعب من كل بحر من الخلجان ويصب إليه من كبار الأنهار وما فيها من الجزائر العظام وما كان من الأرض براً فصار بحراً، وبحراً فصار براً على مرور الأزمان وكرور الدهور، وما قاله حكماء الأمم في كيفية شبابها وهرمها وعلل جميع ذلك، والأنهار الكبار ومبادئها ومصابها ومقادير مسافاتها على وجه الأرض من ابتدائها إلى انتهائها، والأخبار عن شكل الأرض وهيئتها

(*) التنبيه والإشراف، ١ ــ ٦.

وما قالته حكماء الأمم من الفلاسفة وغيرهم في قسمها، والربع المسكون منها وحدبها وأنجادها، وأغوارها وتنازع الناس في كيفية ثباتها وتأثيرات الكواكب في سكانها، واختلاف صورهم وألوانهم وأخلاقهم، ووصف الأقاليم السبعة وأطوالها وعروضها وعامرها وغامرها ومقادير ذلك، ومجاري الأفلاك وهيئاتها واختلاف حركاتها، وأبعاد الكواكب وأجرامها واتصالها وانفصالها وكيفية مسيرها وتنقلها في أفلاكها ومضاداتها إياها في حركاتها ووجوه تأثيراتها في عالم الكون والفساد التي بها قوام الأكوان، وهل أفعالها على المماسة أم على المباينة عن إرادة وقصد أم غير ذلك وكيف ذلك وما سببه؟ وهل حركات الأفلاك والنجوم جميعاً طباع أم اختيار؟ وهل للفلك علة طبيعية فاعلة في الأشياء المعلولة التي هو مشتمل عليها ومحيط بها؟ والنواحي والآفاق من الشرق والغرب والشمال والجنوب، وما على ظهر الأرض من عجيب البنيان، وما قاله الناس في مقدار عمر العالم ومبدئه وغايته ومنتهاه، وعلة طول الأعمار وقصرها وآداب الرياسة وضروب أقسام السياسة المدنية، الملوكية منها والعامية، مما يلزم الملك في سياسة نفسه ورعيته، ووجوه أقسام السياسة الديانية، وعدد أجزائها، ولأية علة لا بد للملك من دين، كما لا بد للدين من ملك، ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، ولمَ وجب ذلك وما سببه؟ وكيف تدخل الآفات على الملك، وتزول الدول، وتبيد الشرائع والملل؟ والآفات التي تحدث في نفس الملك والدين، والآفات الخارجة المعترضة لذلك وتحصين الدين والملك، وكيف يعالج كل واحد منهما بصاحبه إذا اعتل من نفسه أو من عارض يعرض له، وماهية ذلك العلاج، وكيفيته وأمارات إقبال الدول، وسياسة البلدان والأديان والجيوش على طبقاتهم ووجوه الحيل والمكايد في الحروب ظاهراً وباطناً، وغير ذلك من أخبار العالم وعجائبه.

وأخبار نبينا صلى الله عليه وسلّم ومولده. وما ظهر في العالم من الآيات والكوائن والأحداث المنذرات بظهوره قبل مولده من أخبار الكهان وغيرهم، وما أظهر الله سبحانه على يديه من الدلائل والعلامات، وجوامع المعجزات، ومنشئه ومبعثه وهجرته ومغازيه وسراياه وسواربه ومناسره إلى وفاته، والخلفاء بعده والملوك والغرر من أخبارهم، وما كان من الكوائن والأحداث والفتوح في أيامهم، وأخبار وزرائهم وكتابهم إلى خلافة المطيع.

وذكرنا من كان في كل عصر من حملة الأخبار، ونقلة السير والآثار، وطبقاتهم من

عصر الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من فقهاء الأمصار وغيرهم من ذوي الآراء والنحل والمذاهب والجدل بين فرق أهل الصلاة ومن مات منهم في سنة سنة إلى هذا الوقت المؤرخ.

وذكرنا في كتاب (نظم الأعلام في أصول الأحكام) وكتاب (نظم الأدلة، في أصول الملة) وكتاب (المسائل والعلل في المذاهب والملل) تنازع المتفقهين في مقدمات أصول الدين والحوادث التي اختلفت فيها آراؤهم، وما يذهب إليه من القول بالظاهر وإبطال القياس والرأي والاستحسان في الأحكام إذ كان الله جل وعز قد أكمل الدين وأوضح السبيل وبيّن للمكلفين ما يتقون في آياته المنزلة وسنن رسوله المفصلة التي زجرهم بها عن التقليد ونهاهم عن تجاوز ما فيها من التحديد، وما اتصل بذلك من الكلام في أصول الفتوى والأحكام، العقليات منها والسمعيات، وغير ذلك من فنون العلوم، وضروب الأخبار مما لم تأت الترجمة على وصفه، لا انتظمت ذكره.

رأينا أن نتبع ذلك بكتاب سابع مختصر نترجمه بكتاب (التنبيه والإشراف) هو التالي لكتاب (الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار) نودعه لمعاً من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها، وكيفية أفعالها، والبيان عن قسمة الأزمنة وفصول السنة، وما لكل فصل من المنازل والتنازع في المبتدأ به منها، والاسطقسات وغير ذلك والرياح ومهابها وأفعالها وتأثيراتها، والأرض وشكلها وما قيل في مقدار مساحتها وعامرها وغامرها والنواحي والآفاق وما يغلب عليها وتأثيراتها في سكانها، وما اتصل بذلك وذكر الأقاليم السبعة، وقسمتها وحدودها وما قيل في طولها وعرضها، وقسمة الأقاليم على الكواكب السبعة، الخمسة والنيرين.

ووصف الإقليم الرابع وتفضيله على سائر الأقاليم وما خص به ساكنوه من الفضائل التي باينوا بها سكان غيره منها، وما اتصل بذلك من الكلام في عروض البلدان وأطوالها، والأهوية وتأثيراتها وغير ذلك. وذكر البحار وأعدادها وما قيل في أطوالها وأعراضها واتصالها وانفصالها ومصبات عظام الأنهار إليها وما يحيط بها من الممالك وغير ذلك من أحوالها.

وذكر الأمم السبع في سالف الأزمان، ولغاتهم وآرائهم، ومواضع مساكنهم وما بانت به كل أمة من غيرها، وما اتصل بذلك. ثم نتبع ذلك بتسمية ملوك الفرس الأول، والطوائف، والساسانية على طبقاتهم وأعدادهم ومقدار ما ملكوا من السنين وملوك

اليونانيين وأعدادهم، ومقدار ملكهم، وملوك الروم على طبقاتهم من الحنفاء، وهم الصابئون والمتنصرة، وعدتهم وجملة ما ملكوا من السنين، وما كان من الكوائن والأحداث العظام الديانية والملوكية في أيامهم، وصفة بنودهم وحدودها ومقاديرها وما يتصل منها بالخليج وبحري الروم والخزر، وما اتصل بذلك من اللمع المنبهة على ما تقدم من تأليفنا فيما سلف من كتبنا وذكر الأفدية بين المسلمين والروم إلى هذا الوقت وتواريخ الأمم، وجامع تأريخ العالم والأنبياء والملوك من آدم إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وحصر ذلك وما اتصل به ومعرفة سني الأمم الشمسية والقمرية وشهورها، وكبسها ونسيئها، وغير ذلك من أحوالها وما اتصل بذلك من التنبيهات على ما تقدم جمعه وتأليفه، وذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومبعثه وهجرته وعدد غزواته وسراياه وسواربه وكتابه ووفاته والخلفاء بعده والملوك وأخلاقهم وكتابهم ووزرائهم وقضاتهم وحجابهم ونقوش خواتيمهم. وما كان من الحوادث العظيمة الديانية والملوكية في أيامهم وحصر تواريخهم إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٤٥ للهجرة في خلافة المطيع منبهين بذلك على ما قدمنا ذكره من كتبنا.

وإنما اقتصرنا في كتابنا هذا على ذكر هذه الممالك لعظم ملك ملوك الفرس وتقادم أمرهم، واتصال ملكهم، وما كانوا عليه من حسن السياسة وانتظام التدبير، وعمارة البلاد، والرأفة بالعباد، وانقياد كثير من ملوك العالم إلى طاعتهم وحملهم إليهم الأتاوة والخراج، وإنهم ملكوا الإقليم الرابع وهو إقليم بابل أوسط الأرض وأشرف الأقاليم. وأن مملكتي اليونانيين والروم تتلوان مملكة فارس في العظم والعز، ولما خصوا به من أنواع الفلسفة والمهن العجيبة والصنائع البديعة، ولأن مملكة الروم إلى وقتنا هذا ثابتة الرسوم منسقة التدبير، وإن كان اليونانيون قد دخلوا في جملة الروم منذ احتووا على ملكهم كدخول الكلدانيين ـ وهم السريانيون سكان العراق ـ في جملة الفرس الأولى لغلبتهم عليهم.

فأحببنا أن لا نخلي كتابنا هذا من ذكرهم، وإن كنا قد ذكرنا سائر الممالك التي على وجه الأرض وما أزيل منها ودثر، وما هو باقٍ إلى هذا الوقت وأخبار ملوكهم وسياساتهم وسائر أحوالهم فيما سميناه من كتبنا، على أنّا نعتذر من سهو إن عرض في تصنيفنا مما لا يسلم منه من لحقته غفلة الإنسانية، وسهوة البشرية، ثم ما دفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار، وتواتر الأسفار طوراً مشرقين وطوراً مغربين كما قال أبو تمام:

خليفة الخضر من يربع على وطن   في بلدة فظهور العيس أوطاني

بالشأم قومي وبغداد الهوى وأنا   بالرقتين وبالفسطاط إخواني

وكقوله أيضاً:

فغربت حتى لم أجد ذكر مشرق   وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

خطوبٌ إذا لاقيتهن رَدَدْنني   جريحاً كأني قد لقيت الكتائبا

ونحن آخذون فيما به وعدنا، وله قصدنا. وبالله نستعين، وإياه نسأل التوفيق التسديد.

٣

شذرات في التأليف(*)

ونحن وإن كان عصرنا متأخراً عن عصر من كان قبلنا من المؤلفين، وأيامنا بعيدة عن أيامهم، فلنرجو أن لا نقصر عنهم في تصنيف نقصده وغرض نؤمه وإن كان لهم سبق الابتداء فلنا فضيلة الاقتداء، وقد تشترك الخواطر وتتفق الضمائر، وربما كان الآخر أحسن تأليفاً وأتقن تصنيفاً لحنكة التجارب وخشية التتبع والاحتراس من مواقع الخطأ. ومن هاهنا صارت العلوم نامية غير متناهية: لوجود الآخر ما لا يجده الأول، وذلك إلى غير غاية محصورة ولا نهاية محدودة. وقد أخبر الله عزّ وجل بذلك فقال ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾. على أن من شيم كثير من الناس الإطراء للمتقدمين وتعظيم كتب السالفين ومدح الماضي وذم الباقي. وإن كان في كتب المحدثين ما هو أعظم فائدة وأكثر عائدة. وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم، فينسبه إلى نفسه. فلا يرى الأسماع تصغي إليه ولا الإرادات تيمم نحوه، ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة ثم ينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ومن قد طارت أسماؤهم في المصنفين فيقبلون على كتبها، ويسارعون إلى نسخها لا لشيء إلا لنسبتها إلى المتقدمين. ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ومنافسته على المناقب التي يخص بها، ويعنى بتشييدها وهذه طائفة لا يعبأ بها كبار الناس، وإنما العمل على ذوي النظر والتأمل الذين أعطوا كل شيء حقه

(*) التنبيه والإشراف ٦٦ ـ ٦٧.

من العدل، ووفوه قسطه من الحق، فلم يرفعوا المتقدم إذ كان ناقصاً، ولم ينقصوا المتأخر إذ كان زائداً، فلمثل هؤلاء تصنف الكتب وتدون العلوم.

ودللنا[١] في هذا الكتاب بالقليل على الكثير وبالخير اليسير على الجليل الخطير، وذكرنا في كل كتاب من هذه الكتب ما لم نذكره في الآخر مما لا يسع تركه ولم نجد بدّاً من إيراده، لما دعت الحاجة إلى وصفه، وأتينا على أخبار أهل كل عصر وما حدث فيه من الأحداث وما كان فيه من الكوائن إلى وقتنا هذا، مع ما أسلفناه في هذا الكتاب من ذكرنا البر والبحر والعامر من الأرض والغامر والملوك وسيرها والأمم وأخبارها؛ وأرجو أن يفسح الله لنا في البقاء ويمدّ لنا في العمر ويُسعدنا بطول الأيام، فنعقب تأليف هذا الكتاب بكتاب آخر نُضمّنه فنوناً من الأخبار وأنواعاً من ظرائف الآثار، على غير نظم من التأليف ولا ترتيب من التصنيف، على حسب ما يسنح من فوائد الأخبار ويوجد من نوادر الآثار، ونترجمه بكتاب وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار، تالياً لما سلف من كتبنا ولاحقاً بما تقدّم من تصنيفنا.

ـ وجميع ما أوردناه في هذا الكتاب لا يسع ذا الدراية جهله ولا يُعذر في تركه والتغافل عنه؛ فمن عدّ أبواب كتابي ولم يُمعن النظر في قراءة كل باب منه لم يبلغ حقيقة ما قلنا ولا عرف للعلم مقداره؛ فلقد جمعنا ما فيه في عدة من السنين باجتهاد وتعب عظيم وجولان في الأسفار وطواف في البلدان من الشرق والغرب في كثير من الممالك غير مملكة الإسلام؛ فمن قرأ كتابنا هذا فليتدبره بعين المحبّة وليتفضّل بهمته بإصلاح ما أنكره منه مما غيّره الناسخ وصحّفه الكاتب، وليرعَ لي نسبة العلم وحرمة الأدب وموجبات الدراية وما تجشمت من التعب فيه، فإنّ منزلتي في نظمه وتأليفه بمنزلة من وجد جوهراً منثوراً ذا أنواع مختلفة وفنون متباينة، فنظم منه مسلكاً واتخذ علقاً نفيساً ثميناً باقياً لطالبه؛ وليعلم من نظر فيه أني لم أنتصر فيه لمذهب ولا تحيّزت إلى قول ولا حكيت عن الناس إلا محاسن أخبارهم ولم أعرض فيه لغير ذلك.

ولولا[٢] أنّ الكتاب يرد على أغراض مختلفة من الناس لما هم عليه من اختلاف الطبائع والتباين في المراد لما ذكرنا بعض ما نورده فيه من أنواع العلوم وفنون الأخبار، وقد

(١) مروج الذهب، الفقرتان ٣٦٠٨ ـ ٢٦٠٩.

(٢) مروج الذهب، الفقرة ١٣٦٩.

يلحق الإنسان الملل بقراءة ما لا تهواه نفسه فينتقل منه إلى غيره؛ فجمعنا فيه من سائر ما يحتاج الناس من ذوي المعرفة إلى علمه ولما تغلغل بنا الكلام في نظمه وتشعّبه واتصاله بغيره من المعاني مما لم يتقدّم ذكره، وقد أتينا على مبسوط سائر ما ذكرناه على الاتساع والإيضاح في كتابينا أخبار الزمان والأوسط بحمد الله وعونه.

القسم الثاني

السماء والأرض

١

الطبائع والأفلاك(*)

فلنبدأ بذكر الفلك الذي نبهنا الله سبحانه عليه، وأشار في نص الكتاب إليه لما فيه من عجائب حكمته ولطائف قدرته وخصائص التدبير وبدائع التركيب التي تدل بعجائب نظمها وغرائب تأليفها على وحدانية مبدعها وأزلية منشئها. قال الله جل وعزّ ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أن تدركَ القمرَ ولا الليلُ سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون﴾، أي في دائرة منها يكونون ـ إذ اسم الفلك يدل على الاستدارة في لغة العرب، والفلك السماء. قال الله عز وجلّ، ﴿لخَلق السمواتِ والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثرَ الناس لا يعلمونَ﴾.

قال المسعودي: وقد تنازع الناس في الفلك ممن سلف وخلف. فقال أفلاطون وثامسطِيوس والرواقيون وعدة ممن تقدم عصر أفلاطون وتأخر عنه من الفلاسفة إنه من الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، إلا أن الغالب عليه النارية، وليست ناريته محرقة إنما هي مثل النار الغريزية في الأبدان، وقال آخرون إنه من النار والهواء والماء دون الأرض.

وذهب أرسطاطاليس وأكثر الفلاسفة ممن تقدم عصره وتأخّر عنه وغيرهم من حكماء الهند والفرس والكلدانيين إلى أنه طبيعة خامسة خارجة عن الطبائع الأربع ليست فيه حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة، وأنه جسم مدوّر كري أجوف يدور على محورين وهما القطبان، أحدهما رأس السرطان ومنتهى بنات نعش، من تلقاء نقطة

(*) التنبيه والإشراف، ٦ ـ ١٥.

الجنوب، والآخر رأس الجدي، وفيه كواكب مثل بنات نعش من تلقاء نقطة الشمال. وخط الاستواء في وسط الفلك وهو خط ما بين الشمال والجنوب وأوسع فيه من نقطة المشرق إلى نقطة المغرب، وهو منقسم بأربعة أرباع كل ربع منها تسعون درجة على خطين يتقاطعان على مركزه وهو موضع الأرض منه أحد الربعين، وهو أحد القطبين: نقطة الشمال وبإزائه نقطة الجنوب. والربع الثالث نقطة المشرق وبإزائها نقطة المغرب. وهو يدور دوراناً طبيعياً دائماً وبدورانه ودوران الكواكب التي فيه تنفعل الكيفيات وانبسطت الأركان الأربعة وهي النار والماء والهواء والأرض، فيتصل ركنان منها وهما النار والهواء بالعلو، وركنان منها وهما الماء والأرض بالسفل. ثم تتحرك هذه الكيفيات بتحرك الجواهر العلوية والأجسام السمائية على حسب مداراتها ومسيرها وحركاتها وتأثيراتها. فيتحرك الركنان الأعليان بتحرك الكيفيات والركنان الأسفلان بتحرك الركنين الأعليين. وتهب بذلك الرياح الاثنتا عشرة، فتنشأ السحائب وينزل القطر ويتصل بذلك الآثار العلوية، ويتصل بالآثار العلوية الآثار السفلية الموجودة في الحيوان والنبات البري والبحري وفي الجواهر والمعادن، حتى يكون التدبير في جميع هذه العوالم متسقاً مطرداً، متصلاً بعضه ببعض بالفعل، كامناً بعضه في بعض بالقوة، حتى تظهر آثار الصنعة، وأمارات الحكمة، ودلائل الربوبية، وترتبط المعلولات بعللها، وتشهد للصانع بصنعته، وبدائع حكمته.

وجعل عز وجل الفلك الأعلى، وهو فلك الاستواء، وما يشتمل عليه من طبائع التدوير. فأولها كرة الأرض يحيط بها فلك القمر ويحيط بفلك القمر فلك عطارد، وبفلك عطارد فلك الزهرة، وبفلك الزهرة فلك الشمس، وبفلك الشمس فلك المريخ، وبفلك المريخ فلك المشتري، وبفلك المشتري فلك زحل وبفلك زحل فلك الكواكب الثابتة، وبفلك الكواكب الثابتة فلك البروج وبفلك البروج فلك الاستواء وهو المحيط بها والمحرك لها. ومن ذوي المعرفة بعلم الأفلاك والنجوم من يعد فلك الاستواء، وفلك لبروج الثابتة فلكاً واحداً؛ لما يرى من تجاذبهما، واتفاق أقطارهما بمراكزهما.

والأرض في وسط الجميع مركز له كالنقطة في وسط الدائرة. والفلك متجاف عنها من حيث ما أحاط بها بميل ما نحو وجهها الذي يكون حيثما كانت، وهو أعلى الفلك على سمت رأسك، فذلك نصف قطر الفلك الأعلى أخذ منه نصف قطر الأرض، وهو يدور عليها من المشرق إلى المغرب على أوسع موضع فيه على نقطتين وهميتين متقابلتين

في جنبي كرته. إحداهما القطب الشمالي وهو على شمال مستقبل المشرق، والثانية القطب الجنوبي، وهو على يمين مستدير المغرب، ويسميان المحورين تشبيهاً بقطب الرحى.

ولهذا الفلك نطاق يفصل كرته في متوسط ما بين قطبيه، ويفصل محاذاته كرة الأرض بنصفين. وهذا النطاق يسمى فلك معدل النهار، لاستواء الليل والنهار فيه، ويسمى الفلك المستقيم لاستواء مطالعه ومغاربه، واستقامة مدرجه في أرباع الفلك وما بينها على نظام واحد، وكل جزء من أجزاء هذا النطاق وإن اتسع فإنه كيفما انحدر في بسيطي الكرة إلى المحورين قلّ عرضه ودق حتى تجتمع أجزاء الفلك كلها من فوق الأرض وتحتها في نقطة المحور. ومن كان تحت هذا النطاق فإنه ينظر المحورين يطوفان على أفق المواضع والفلك يدور منتصباً فوق رأسه.

وأكثر هذه الأفلاك مسيرها من المشرق إلى المغرب موافقة في مسيرها لمسير الفلك الأعلى. ومنها ما يكون مسيره موافقاً لمسير الكواكب من المغرب إلى المشرق، فما كان من الفلك آخذاً من الشمال إلى الجنوب سمي العرض، وما كان آخذاً من المغرب إلى المشرق سمي الطول.

والأرض من الفلك بمنزلة النقطة من الدائرة. بعدها من كل نقط من النقطة الأربع التي ينقسم الفلك عليها بُعد واحد، ومن مركزها إلى كل نقطة تسعون درجة، وقطر الدائرة مائة وثمانون درجة. وهي تنقسم في نفسها مثل هذه الأربع نقط من الشمال والجنوب والمشرق والمغرب، إلا أنها غير ذات نسبة من الفلك كما أن الفلك لا نسبة له من الدائرة، والجرم الذي من نهاية حضيض فلك القمر إلى نهاية العالم في العلو طبيعة خامسة ليست بحارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة ولا مركبة من شيء من هذه الطبائع الأربع. وهذا الجسم هو الجسم الفلكي، ونهايته مما يلينا أعني كصورة باطن كرة.

والعناصر أربعة نار وهواء وماء وأرض. فاثنان من هذه العناصر حاران وهما النار والهواء، وهما يتحركان بطبعهما صعداً إلا أن أسبقهما إلى العلو النار؛ فهي طافية على الهواء؛ والنار يابسة والهواء رطب. واثنان باردان وهما الماء والأرض وهما يتحركان بطبعهما سفلاً عند حركتهما، إلا أن أسبقهما إلى السفل الأرض، والأرض يابسة، والماء رطب. فلقد حصل بما ذكرنا أن الحرارة تفعل الحركة صعداً، وأن البرد يفعل الحركة

سفلاً، وأن اليبس يفعل السبق إلى الموضع الأخص بكل واحد منهما وأن الرطوبة تفعل الثقل في الحركة، فما كانت حركته صعداً سمّوه خفيفاً، وما كانت حركته سفلاً سموه ثقيلاً.

وأنه لا فراغ في جرم العالم، وأن الأجسام إذا حميت احتاجت إلى مواضع أوسع من المواضع التي كانت فيها، فما تحدثه الحرارة فيها من تباعد نهاياتها عن مركزها، وأنها إذا بردت صارت بضد ذلك لأن البرد يفعل تقارب نهايات الأجسام من مركزها، فتحتاج إلى مواضع أصغر من مواضعها.

وأن الحرارة والبرودة تتبادل المواضع فإذا كان ظاهر الأرض حاراً كان باطنها بارداً، على ما تكون عليه السراديب وغيرها من أعماق الأرض وأغوارها في نهار الصيف من البرد، وإذا كان ظاهرها بارداً كان باطنها حاراً على ما عليه السراديب وغيرها في ليالي الشتاء، وأن الحرارة ترفع من كل جسم رطب لطيفه ولا أولاً حتى تجف أرضيته فيتحجر أو تفنى جملته.

وأن الشمس إذا كان مسيرها في الميل الشمالي عن معدل النهار حمي الهواء في ناحية الشمال وبرد الهواء الجنوبي، فيجب من ذلك أن ينقبض الهواء الجنوبي ويحتاج إلى موضع أصغر، ويتسع الهواء الشمالي، ويحتاج إلى موضع أوسع، إذ لا فراغ في العالم. فبالواجب أن يكون أكثر رياح الصيف عند من هو في ناحية الشمال شمالية لأن الهواء من عندهم يتحرك إلى ناحية الجنوب، إذ ليس الريح شيئاً غير حركة الهواء وتموجه، وكذلك يجب أن يكون أكثر رياح الشتاء جنوبية لتحرك الهواء إلى ناحية الشمال لمسير الشمس في الشتاء في الميل الجنوبي. وما أبين للحس من مسير الشمس في الشتاء في الجنوب وفي الصيف في الشمال، لما نراه في الشتاء من طول ظلال المظلات، وبعد جرم الشمس في سمت رؤوسنا من خط نصف النهار.

قال المسعودي: وفيما ذكرنا من قسمة الأفلاك وتراكيبها وما يلينا من الكواكب ـ النيرين والخمسة ـ تنازع بين الأسلاف والأخلاف. من ذلك ما ذكره بطليموس القلوذي في كتاب المجسطي، وفي كتابه في الهيئة أنه لم يظهر له أن الزهرة وعطارد فوق الشمس أو دونها. وحكى يحيى النحوي وهو المعروف بالحريص الإسكندراني في كتابه الذي دل فيه على أن العالم محدث ونقضه لكتاب برقلس في قدمه ورده على أفلاطون وأرسطاطاليس وأفلوطرخس وغيرهم من القائلين بقدمه أن أفلاطون كان يزعم

أن القمر أدنى الأفلاك إلينا وفلك الشمس يليه ثم فلك عطارد ثم فلك الزهرة كذلك على ما رتبه الباقون.

وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا السالفة تنازع الفلاسفة وغيرهم من حكماء الأمم في هيئة الأفلاك وتراكيبها والنجوم وتأثيراتها في هذا العالم الأرضي وما يمين العالم وما شماله، وما خلفه وأمامه وتحته وفوقه. وما ذكره أرسطاطاليس في المقالة الثانية من كتاب السماء والعالم عن شيعة فيثاغورث في ذلك وما ذهب إليه من أن للسماء يميناً وشمالاً، وأماماً وخلفاً، وفوقاً وأسفل. فيمنة السماء الجهة المشرقية، ويسرتها المغربية، وأعلاها القطب الجنوبي وهو فوق القطب الشمالي وهو أسفل وما اتصل بذلك.

قال المسعودي: وأكثر من نشاهده من فلكية زماننا ومنجّمي عصرنا مقتصرون على معرفة الأحكام تاركون للنظر في علم الهيئة، ذاهبون عنها. وصناعة التنجيم التي هي جزء من أجزاء الرياضيات، وتسمى باليونانية (الأصطرونوميا)، تنقسم قسمة أولية على قسمين (أحدهما) العلم بهيئة الأفلاك وتراكيبها ونصبها وتأليفها (والثاني) العلم بما يتأثر عن الفلك. فليس العلم الثاني وهو العلم بتأثيرات الفلك وما يوجب من الأحكام بمستغنٍ عن العلم الأول، الذي هو علم الهيئة، إذ التأثيرات واقعة بالحركات وتبدل الأحوال، وإذا وقع الجهل بالحركات وقع الجهل بالتأثيرات.

ذكر البيان عن قسمة الأزمنة، وفصول السنة وما لكل فصل من المنازل، والتنازع في المبتدأ به منها والأستقسات، وما اتصل بذلك

الأزمنة أربعة: الربيع، الصيف، والخريف، والشتاء. فالزمان الأول الربيع وهو طبيعة الدم حار رطب، مدته ثلاثة وتسعون يوماً وثلاث وعشرون ساعة وربع ساعة، وذلك من عشر تبقى من آذار إلى ثلاثة وعشرين يوماً تخلو من حزيران، وهو من نزول الشمس أول دقيقة من الحمل، وهو الاستواء الربيعي إلى دخولها أول دقيقة من السرطان، وهو المنقلب الصيفي.

والزمان الثاني: الصيف وهو حار يابس، سلطانه المرة الصفراء؛ مدته اثنان وتسعون يوماً وثلاث وعشرون ساعة وثلث ساعة، وذلك من ثلاثة وعشرين يوماً تمضي من حزيران إلى أربعة وعشرين تمضي من أيلول، وهو من دخول الشمس أول دقيقة من السرطان

إلى دخولها أول دقيقة من الميزان.

والزمان الثالث: الخريف، وهو بارد يابس، سلطانه المرة السوداء مدته ثمانية وثمانون يوماً، وسبع عشرة ساعة، وثلث خمس ساعة. وذلك من أربعة وعشرين يوماً تمضي من أيلول إلى اثنين وعشرين يوماً تخلو من كانون الأول وذلك من نزول الشمس أول دقيقة من الميزان، وهو الاستواء الخريفي إلى نزولها أول دقيقة من الجدي، وهو المنقلب الشتوي.

والزمان الرابع: الشتاء، وهو بارد رطب سلطانه البلغم، مدته تسعة وثمانون وأربع عشرة ساعة من تسع تبقى من كانون الأول إلى أحد وعشرين يوماً تخلو من آذار، وذلك من دخول الشمس أول دقيقة من الجدي إلى نزولها أول دقيقة من الحمل.

فما أعجب وأتقن اشتباك أمر العالم بعضه ببعض ونظمه! إنّا إذا خرجنا من ربع الصيف إلى ربع الخريف؛ فإنّا نخرج من ربع حار يابس إلى ربع بارد يابس فاختلف الربعان في الحر والبرد، واتفقا في اليبس. وإذا خرجنا من ربع الخريف إلى ربع الشتاء خرجنا من ربع بارد يابس إلى ربع بارد رطب، فاختلفا في اليبس واتفقا في البرد. وإذا خرجنا من ربع الشتاء إلى ربع الربيع خرجنا من ربع بارد رطب إلى ربع حار رطب فاختلفا في الحر واتفقا في الرطوبة. فقد تبين أنّا لم نخرج من ربع حار رطب إلى ربع بارد يابس ولا من ربع بارد رطب إلى ربع حار يابس.

فتأمل حكمة البارئ جل وعز في نظمه الاستقسات الأربعة في العالم السفلي أعني الأرض والماء والهواء والنار، فإنك تجدها على هذا الترتيب مؤلفة. تجد الأرض وهي باردة يابسة ثم الماء وهو بارد رطب ثم الهواء وهو حار رطب ثم النار وهي حارة يابسة، فالماء الذي يلي الأرض يوافقها في البرودة ويختلفان في الرطوبة واليبس، والهواء الذي يلي الماء يوافقه في الرطوبة ويختلفان في الحر والبرد، والنار التي تلي الهواء توافقه في الحر ويختلفان في اليبس والرطوبة. وكذلك أيضاً الزمان فإنه مقسوم بأربعة أقسام فقسم ربيعي دموي هوائي، وقسم صيفي صفراوي ناري، وقسم خريفي سوداوي أرضي، وقسم شتائي بلغمي مائي. فسبحان من دبر الأمور بحكمته وأتقنها بقدرته فلا يوجد فيها خلل، ولا يبين فيها زلل. إذ كان الإهمال لا يأتي بالنظام. وقد شبه أبطلميوس فصل الربيع بفصل الطفولية وفصل الصيف بالشباب والخريف بالكهولة والشتاء بالشيخوخة.

٢

صفة الأرض(*)

قسم الله تبارك وتعالى الأرض قسمين مشرقاً ومغرباً. فصار المشرق والتيمن وهو الجنوب جوهراً واحداً لغلبة الحرارة عليهما، وصارت جهة المغرب والجربي وهو الشمال جوهراً واحداً لغلبة البرودة عليهما وشدتها فيهما، وذلك لبعد الشمس من ناحية الجربي، لأن المحور على تلك الناحية وهي أشدهما ارتفاعاً، فمن أجل ذلك صار الجربي بارداً رطباً، وصار المغرب أقل برداً من الجربي، وأكثر يبساً لانحطاط الفلك هناك، وهاتان الجهتان المشرق والتيمن بخلاف ذلك لدنو الشمس منهما.

والعالم أربعة أرباع فالربع الشرقي وهو ما تسافل عن خط الجنوب والشمال إلى المشرق، فهو ربع مذكّر يدل على طول الأعمار وطول مدد الملك والتذكير وعزة الأنفس وقلة كتمان السر وإظهار الأمور والمباهاة بها وما لحق بذلك، وذلك لطباع الشمس وعلمهم الأخبار والتواريخ والسير والسياسات والنجوم.

وأما أهل الربع الغربي، فإن الغالب عليه التأنيث إلا ما استولت عليه الكواكب المذكّرة، كما يغلب التذكير على المشرق إلا ما غلبته عليه الكواكب المؤنثة، وأهله أهل كتمان للسر وتدين وتأله، وكثرة انقياد إلى الآراء والنحل، وما لحق بهذه المعاني إذ كان من قسم القمر.

وأما أهل الربع الشمالي، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في

(*) **كتاب التنبيه والإشراف**، ص ٢١ - ٣٨.

الشمال كالصقالبة والإفرنجة ومن جاورهم من الأمم، فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها. فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة وتواترت الثلوج عندهم والجليد، فقل مزاج الحرارة فيهم، فعظمت أجسامهم وجفت طبائعهم وتوعرت أخلاقهم وتبلدت أفهامهم وثقلت ألسنتهم، وابيضّت ألوانهم حتى أفرطت فخرجت من البياض إلى الزرقة، ورقت جلودهم وغلظت لحومهم، وازرقت أعينهم أيضاً، فلم تخرج من طبع ألوانهم وسبطت شعورهم، وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب. ولم يكن في مذاهبهم متانة، وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة.

ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية وتزايد ذلك فيهم في الأبعد إلى الشمال، وكذلك من كان من الترك واغلاً في الشمال. فلبعدهم من مدار الشمس في حال طلوعها وغروبها كثرت الثلوج فيهم وغلبت البرودة والرطوبة على مساكنهم، فاسترخت أجسامهم وغلظت، ولانت فقرات ظهورهم وخرز أعناقهم، حتى تأتى لهم الرمي بالنشاب في كرّهم وفرّهم. وغارت مفاصلهم لكثرة لحومهم فاستدارت وجوههم وصغرت أعينهم لاجتماع الحرارة في الوجه حين تمكنت البرودة من أجسادهم، إذ كان المزاج البارد يولد دماً كثيراً، واحمرت ألوانهم إذ كان من شأن البرودة جمع الحرارة وإظهارها.

وأما من كان خارجاً عن هذا الغرض إلى نيف وستين ميلاً يأجوج ومأجوج، وهم في الإقليم السادس فإنهم في عداد البهائم.

وأما أهل الربع الجنوبي كالزنج وسائر الأحابش، والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مسامتة الشمس، فإنهم بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة. فاسودّت ألوانهم واحمرت أعينهم وتوحشت نفوسهم وذلك لالتهاب هوائهم وإفراط الأرحام في نضجهم حتى احترقت ألوانهم وتفلفلت شعورهم لغلبة البخار الحار اليابس، وكذلك الشعور السبطة إذا قربت من حرارة النار دخلها الانقباض ثم الانضمام ثم الانعقاد على قدر قربها من الحرارة وبعدها عنها.

والأرض قسمان على ما قدمنا، أحدهما مسكون والآخر غير مسكون. والعامر المسكون منهما على أقسام، أحدها مفرط الحر وهو ما كان من جهة الجنوب لأن الشمس تقرب منه فيلتهب هواؤه، والآخر الشمال وهو مفرط البرد لبعد الشمس عنه. وأما المشرق والمغرب فمعتدلان وإن كان فضل المشرق أظهر واعتداله أشهر.

وأما الذي ليس بمسكون فعلى قسمين أيضاً، إما أن يفرط فيه البرد ببعد الشمس عنه، أو يفرط فيه الحر لقربها منه. فلا يتركب هناك حيوان ولا ينبت نبات. فالموضع الذي يكون بعده في الشمال عن خط معدل النهار ستاً وستين درجة لا يمكن أن يكون فيه نشوء لإفراط البرد عليه لبعد الشمس عنه، وإن ما كان عرضه ستة وستين جزءاً وتسع دقائق تكون السنة فيه يوماً وليلة ستة أشهر نهاراً لا ليل فيه وستة أشهر ليل لا نهار فيه، يبطل نهاره في الشتاء وليله في الصيف. والموضع الذي بعده في الجنوب عن خط معدل النهار تسع عشرة درجة لا يمكن أيضاً أن يكون فيه نشوء لإفراط الحر عليه لقرب الشمس منه.

قال المسعودي: فأما أبطلميوس فإن أقصى ما وجد عنده من العمارة في جهة الشمال الجزيرة المعروفة بثولي في أقصى بحر المغرب من الجهة الشمالية وإن عرضها من معدل النهار في الشمال ثلاثة وستون جزءاً، وحكاه أيضاً عن مارينوس فيما ذهب إليه في حدود المعمور من الأرض، وذهب أبطلميوس إلى أن نهاية العمارة في جهة الجنوبي تحت الموازي الذي بعده من معدل النهار ستة عشر جزءاً وخمس وثلاثون دقيقة وربع وسدس، وذهب قوم إلى أن الموضع الذي لا يمكن أن يكون فيه عمارة عرضه في الجنوب واحد وعشرون جزءاً وخمس وثلاثون دقيقة، وإلى هذا ذهب يعقوب بن إسحاق الكندي في كتابه في رسم المعمور من الأرض. وسواء قيل عرض الموضع أو قيل بعده عن خط الاستواء أو قيل ارتفاع القطب عليه، فمقدار نهاية العمارة في الشمال إلى نهايتها في الجنوب ثمانون جزءاً، يكون ذلك عند هؤلاء من الأميال خمسة آلاف ميل وأقل من أربعمائة ميل.

وأقصى العمران في المشرق أقصى حدود بلاد الصين والسيلي إلى أن ينتهي ذلك إلى ردم يأجوج ومأجوج الذي بناه الإسكندر دافعاً ليأجوج ومأجوج عن الفساد في الأرض. وأقصى عمران المغرب ينتهي إلى بحر أوقيانس المحيط، وكذلك ينتهي أقصى عمران الشمال إلى هذا البحر أيضاً وأقصى عمران الجنوب ينتهي إلى خط الاستواء الذي يكون الليل والنهار فيه سواء أبداً وجزيرة سرنديب من البحر الصيني على هذا الخط أيضاً.

قال المسعودي: وذكر من عني بمساحة الأرض وشكلها أن تدويرها يكون بالتقريب أربعة وعشرين ألف ميل، وذلك تدويرها مع المياه والبحار، فإن المياه مستديرة مع

الأرض وحدّهما واحد، فكلما نقص من استدارة الأرض وطولها وعرضها شيء تم باستدارة الماء وطوله وعرضه. وذلك أنهم نظروا إلى مدينتين في خط واحد إحداهما أقل عرضاً من الأخرى وهما الكوفة ومدينة السلام، فأخذوا عرضيهما فنقصوا الأقل من الأكثر، ثم قسموا ما بقي على عدد الأميال التي بينهما، فكان نصيب الدرجة مما يحاذيهما من أجزاء الأرض المستديرة ستة وستين ميلاً وثلثي ميل على ما ذكر أبطلميوس، فإذا ضربوا ذلك في جميع درج الفلك التي هي ثلثمائة وستون درجة كان ذلك أربعة وعشرين ألف ميل، وكان قطرها الذي هو طولها وعرضها وغلظها سبعة آلاف ميل وستمائة وسبعة وستين ميلاً، والميل أربعة آلاف ذراع بالسواء وهو الذراع الذي وضعه المأمون لذراع الثياب ومساحة البناء وقسمة المنازل، والذراع أربع وعشرون إصبعاً والإصبع ست شعيرات مضموم بعضها إلى بعض والفرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال ومنهم من يجعل الميل ثلاثة آلاف ذراع والفرسخ أربعة أميال وكلاهما يؤولان إلى شيء واحد. وفيما ذكرناه من مقدار حصة الدرجة من الأميال تنازع. فمنهم من رأى أن ذلك سبعة وثمانون ميلاً ومنهم من رأى ذلك ستة وخمسين ميلاً وثلثي ميل، والمعول في ذلك على ما حكيناه عن أبطلميوس.

والأرض من أربعة جواهر، من الرمل والطين والأحجار والأملاح، وجوفها أطباق يتخرق فيها الهواء ويجول فيها الماء مواصلاً لها كمواصلة الدم للجسد. فما غلب عليه الهواء من الماء كان عذباً شروباً، وما امتنع الهواء من التمكن منه وغلبت عليه أملاح الأرض وسبخها صار ملحاً أجاجاً. وإن كون مياه العيون والأنهار في الأرضين كالعروق في البدن، وإن الحكمة في كون الأرض كروية الشكل أنها لو كانت مسطوحة كلها لا غور فيها ولا نشز يخرقها لم يكن النبات وكانت مياه البحار سائحة على وجهها فلم يكن الزرع ولم يكن لها غدران تفضي مياه السيول إليها، ولا كانت لها عيون تجري تنبع بالماء أبداً، لأن مياه العيون لو كانت منها تخرج دائماً لفنيت ولصار الماء أبداً غالباً على وجه الأرض، فكان يهلك الحيوان ولا يكون زرع ولا نبات.

فجعل عز وجل منها أنجاداً ومنها أغواراً ومنها أنشازاً ومنها مستوية. وأما أنشازها فمنها الجبال الشامخة ومنافعها ظاهرة في قوة تحدر السيول منها، فتنتهي إلى الأرضين البعيدة بقوة جريها ولتقبل الثلوج فتحفظها إلى أن تنقطع مياه الأمطار وتذيبها الشمس، فيقوم ما يتحلب منها مقام الأمطار ولتكون الآكام والجبال في الأرض حواشر للمياه لتجري

من تحتها ومن شعوبها وأوديتها، فيكون منها العيون الغزيرة ليعتصم بها الحيوان ويتخذها مأوى ومسكناً، ولتكون مقاطع ومعاقل وحواجز بين الأرضين من غلبة مياه الأمطار عليها وما لا يحصيه إلا خالقها.

قال المسعودي: وقد تختلف قوى الأرضين وفعلها في الأبدان لثلاثة أسباب، كمية المياه التي فيها وكمية الأشجار ومقدار ارتفاعها وانخفاضها. فالأرض التي فيها مياه كثيرة ترطب الأبدان والأرض العادمة للمياه تجففها. وأما اختلاف قوتها من قبل الأشجار فإن الأرض الكثيرة الأشجار، الأشجار التي فيها تقوم لها مقام السترة فبهذا السبب تسخن. والأرض المكشوفة من الأشجار العادمة لها حالها عكس حال الأرض الكثيرة الأشجار.

وما اختلاف قواها من قبل مقدار علوها وانخفاضها، فلأن الأرض العالية المشرفة فسيحة باردة والأرض المنخفضة العميقة حارة ومِدَة. ومنهم من رأى أن أصناف اختلاف البلدان أربعة أولها النواحي والثاني الارتفاع والانخفاض والثالث مجاورة الجبال والبحار لها والرابع طبيعة تربة الأرض وذلك أن ارتفاعها يجعلها أبرد وانخفاضها يجعلها أسخن على ما قدمناه. وأما اختلافها من جهة مجاورة الجبال لها، فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد لأنه يكون سبب امتناع الريح الجنوبية، وإنما تهب فيه الشمالية فقط. ومتى كان الجبل من البلد من ناحية الشمال جعله أسخن لامتناع هبوب الرياح الشمالية فيه. وأما اختلافها لمجاورة البحار لها فمتى كان البحر من البلد في ناحية الجنوب كان ذلك البلد أسخن وأرطب، وإن كان من البلد في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد وأيبس. وأما اختلافها بحسب طبيعة تربتها فمتى كانت تربة الأرض صخرية جعلت ذلك البلد أبرد وأجف، وإن كانت تربة البلد جصية جعلته أسخن وأجف، وإن كانت طينية جعلته أبرد وأرطب.

وبقاع الأرض مختلفة بحسب اختلاف الطبائع وما تؤثره فيها الأجسام السمائية من النيرين وغيرهما. فغلب طبع كل أرض على ساكنها كما نشاهد الحرار السود والأغوار وحشُها إلى السواد ووحش الرمال البيض على ذلك اللون. فإن كانت الرمال أحمر فوحشها عفر وهو لون التراب، وكذلك وحش الجبال من الأراوى وغيرها يكون على ألوان تلك الجبال إن حمراً وإن بيضاً وإن سوداً.. وعلى هذا السبيل تكون القملة في الشعر الأسود سوداء وفي الشعر الأبيض بيضاء وفي المشيب شهباء وفي الأحمر حمراء.

ومن الفلكيين من يرى أن كل جزء من أجزاء الأرض يناسب جزءاً من أجزاء الفلك

ويغلب عليه طباعه، لأن في أجزاء الفلك المضيء والمظلم والفصيح والأخرس وذا الأصوات والمجوف وغير ذلك من نعوت الدرج، فلذلك يكون كلام أهل الموضع الواحد مختلفاً على قدر ما تصلح فيه السعود وتفسد فيه النحوس ثم يختلف أهل اللسان الواحد في المنطق واللهجات.

قال المسعودي: وقد ذم أبطلميوس القلوذي آراء كثير ممن تقدمه ممن عني بعلم معمور الأرض وغايات ذلك ونهاياته مثل مارينوس وأبرخس ومطيمستانس وغيرهم في قبول أقاويل المخبرين من التجار وغيرهم من نهاية المعمور، وأن ذلك قد يدخله الكذب والزيادة والنقصان فيما أخبروا به من وصولهم إلى هذه المواضع النائية والعمائر القاصية في البر والبحر. ثم اضطر أبطلميوس لما أراد علم ذلك والوقوف عليه إلى أن يستعمل ما أنكره على من ذكرنا من جهة الخبر، فبعث بثقات من رسله في الآفاق ليعرف الغابات من عمران الأرض المكونة، فعمل على إخبارهم مقايساً بها ما وجده بالدلائل النجومية، وهذا دخول منه فيما أنكره.

قال المسعودي: وقد ذكرنا في كتاب (فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف) ما ذهبت إليه الفرس والنبط في قسمة المعمور من الأرض وتسميتهم مشارق الأرض وما قارب ذلك من مملكتها خراسان وخر، الشمس فأضافوا مواضع المطلع إليها والجهة الثانية وهي المغرب خربران وهو مغيب الشمس، والجهة الثالثة وهي الشمال باختراً، والجهة الرابعة وهي الجنوب نيمروز. وهذه ألفاظ يتفق عليها الفرس والسريانيون وهم النبط. وما ذهب إليه اليونانيون والروم في قسمة المعمور عن الأرض على ثلاثة أجزاء وهي أورفا، ولوبية، وآسية وغير ذلك من كلام سائر الأمم في هذه المعاني، فلننقل الآن في الأقاليم وصفتها وما قيل في قسمتها وغير ذلك.

ذكر الأقاليم السبعة
وقسمتها وحدودها وما قيل في طولها وعرضها
وما اتصل بذلك

كل ما كان من الأرض معموراً فهو مقسوم بسبعة أقسام يسمى كل قسم منها إقليماً. وقد تنازع من عني من حكماء الأمم وفلاسفتهم بعلم الهندسة ومساحة الأرض في هذه الأقاليم السبعة: أفي الشمال والجنوب أم في الشمال دون الجنوب؟ فذهب الأكثرون

إلى أن ذلك في الشمال دون الجنوب لكثرة العمارة في الشمال وقلتها في الجنوب، ورأى قوم أن القدماء إنما قصدوا لقسمة الأقاليم السبعة في الجانب الشمالي من خط معدل النهار ولم يقسموا في الجنوبي شيئاً لقلة قدر العمارة في الجنوب عن الخط. وذهب هرمس في متبعيه من المصريين وغيرهم إلى أن في الجنوب سبعة أقاليم كما هي في الشمال، وكان يجعل قسمة أقاليم العمران من الشمال مدورة فيجعل الإقليم الرابع وهو إقليم بابل واسطاً لها وستة دائرة حوله، وإن كل إقليم سبعمائة فرسخ في مثله. فالإقليم الأول الهند والثاني الحجاز والحبشة والثالث مصر وأفريقية والرابع بابل والعراق والخامس الروم والسادس ياجوج وماجوج والسابع يوماريس والصين ويبتدئ جميعها من المشرق مما يمر ببلاد الصين وغيرها، فحد الإقليم الأول البحر مما يلي المشرق والثاني البحر مما يلي الحجاز والثالث الديبل من ساحل المنصورة من أرض السند والرابع حد الإقليم السابع مما يلي الصين أطول ساعات نهاره ثلاث عشرة ساعة وحد الإقليم الثاني البحر مما يلي عمان إلى الشحر، والأحقاف إلى عدن أبين إلى جزائر الزنج والحبشان، وأطول ساعات نهاره ثلاث عشرة ساعة ونصف. وحد الإقليم الثالث ينتهي إلى أرض الحبشة مما يلي الحجاز إلى بحر الشام الذي بين مصر وأرض الشام إلى وسط البحر الذي يلي الأندلس مما يلي المغرب وأطول ساعات نهاره أربع عشرة ساعة. وحد الإقليم الرابع الثعالبية والثاني وسط نهر بلخ والثالث خلف نصيبين باثني عشر فرسخاً من ناحية سنجار والرابع وراء الديبل من ساحل المنصورة من بلاد السند بستة فراسخ، أطول ساعات نهاره أربع عشرة ساعة ونصف ساعة. وحد الإقليم الخامس بحر الشام إلى أقصى أرض الروم مما يلي البحر إلى تراقية وبلاد برجان والصقالبة والأبر إلى حد أرض ياجوج وماجوج إلى حد الإقليم الرابع مما يلي نصيبين وأطول ساعات نهاره خمس عشرة ساعة، وحد الإقليم السادس من الصين إلى حد الإقليم الخامس إلى البحر مما يلي المشرق وأطول ساعات نهاره خمس عشرة ساعة ونصف، وحد الإقليم السابع أرض الهند إلى حد الإقليم الرابع إلى حد الإقليم السادس إلى البحر وأطول ساعات نهاره ست عشرة ساعة، وفي كتاب مارينوس أن مساحة هذه الأقاليم في الطول ثمانية وثلاثون ألفاً وخمسمائة فرسخ في عرض ألف فرسخ وسبعمائة وخمسة وسبعين فرسخاً، وقد أنكر ذلك على مارينوس جماعة ممن تقدم وتأخر.

قال المسعودي: بين الأسلاف والأخلاف من حكماء الأمم في مقادير هذه الأقاليم

السبعة وأطوالها وعروضها وعدد ساعاتها وابتدائها وغاياتها، وما فيها من مساكن الأمم في البر والبحر تنازع كثير، وقد أتينا على شرح كثير من ذلك فيما تقدم من كتبنا. ورأيت هذه الأقاليم مصورة في غير كتاب بأنواع الأصباغ. وأحسن ما رأيت من ذلك في كتاب جغرافيا لمارينوس، وتفسير جغرافيا قطع الأرض وفي الصورة المأمونية التي عملت للمأمون اجتمع على صنعتها عدة من حكماء أهل عصره، صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافيا أبطلميوس وجغرافيا مارينوس وغيرها.

ذكر قسمة الأقاليم
على الكواكب السبعة ـ الخمسة والنيرين ـ

قسموا هذه الأقاليم بين الكواكب السبعة على قدر تواليها وتتابعها في الفلك. فالإقليم الأول لزحل وهو كيوان بالفارسية، له من البروج الجدي والدلو، الإقليم الثاني للمشتري وهو بالفارسية أورمزد له من البروج القوس والحوت، الإقليم الثالث للمريخ وهو بالفارسية بهرام له من البروج الحمل والعقرب، الإقليم الرابع للشمس وهو بالفارسية خرشاد ومن أسمائها آفتاب لها من البروج الأسد، الإقليم الخامس للزهرة وهي بالفارسية أناهيد لها من البروج الثور والميزان، الإقليم السادس لعطارد وهو بالفارسية تير له من البروج الجوزاء والسنبلة، الإقليم السابع للقمر وهو بالفارسية ماه له من البروج السرطان، واسم الإقليم بالفارسية كِشْور واسم الفلك إسْپِهْر وذلك بالفارسية الأولى وبهذه الفارسية حايدان.

قال المسعودي: وفيما حكيناه تنازع بين حكماء الأمم من الفرس واليونانيين والروم والهند والكلدانيين وغيرهم، والأشهر ما ذكرناه، وقد أتينا على شرح ذلك فيما سلف من كتبنا، وكذلك ما تنازعوا فيه من اشتراك البروج الاثني عشر في الأقاليم السبعة، وخاصة الكواكب السبعة في الآراء والملل والنواحي والآفاق وغير ذلك.

قال المسعودي: ونحن ذاكرون الإقليم الرابع وما بان به عن سائر الأقاليم وجلالة صقعه وشرف محله، إذ كان به مولدنا وفيه منشؤنا وكنا أولى الناس بتقريظه والإبانة عن شرفه وفضله وإن كان ذلك أشهر من أن يحتاج فيه إلى إطناب ولا يحويه لعظمه كتاب.

ذكر الإقليم الرابع
ووصفه وفضله على سائر الأقاليم، وما خص به ساكنوه من الفضائل التي باينوا بها سكان غيره منها وما اتصل بذلك من الكلام في عروض البلدان وأطولها والأهوية والترب والمياه وتأثيراتها وغير ذلك

الإقليم الرابع يضاف إلى بابل ويعرف بها. وكان اسمه بالكلدانية وهي السريانية خنيرَث وبه كانت تسمية جميع طبقات الفرس، وكانت بابل تسمى بالفارسية والنبطية بابيل، ومن حكماء الفرس والنبط من يذهب إلى أنها سميت بهذا الاسم اشتقاقاً من اسم المشتري وهو بلغتهم الأولى بيل لتوليه هذا الإقليم ووقوعه في قسمته. وحدود هذا الإقليم الشريف المفضل على سائر الأقاليم مما يلي أرض الهند الديبل ومما يلي الحجاز الثعلبية من طريق العراق إلى الحجاز ومما يلي الشام نصيبين ومما يلي خراسان نهر بلخ، وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب ما قيل في حدوده أيضاً عند ذكرنا الأقاليم، فعلى هذا التحديد قد دخل في هذا الإقليم ما دون النهر من خراسان والجبال كلها من الماهات وغيرها والعراق بأسره وغير ذلك، ولم يعرف ما حواه هذا الإقليم من ذلك أجمع إلابابل لفضل موضعها وجلالة صقعها، لأن ذوي المعرفة من الناس إنما ينسبون الشيء إلى الأفضل المشهور. ولولا أن بابل كذلك ما نسبوا هذا الإقليم مع سعة أرضه وجلالة ما حوى من البلدان إليه.

وهذا الإقليم وسط الأقاليم السبعة وأعدلها وأفضلها، وبلد العراق وسطه فهو شرف الأرض وصفوتها، أعدلها غذاءً وأصفاه هواءً، متوسط بين إفراط الحر والبرد. وموضعه الموضع الذي ينقسم فيه الزمان أربعة أقسام، فلا يخرج ساكنوه من شتاء إلى صيف حتى يمر بهم فصل الربيع ولا من صيف إلى شتاء حتى يمر بهم فصل الخريف. ولما ذكرنا من توسطه كانت ملوك سوالف الأمم تحله إذ كان نسبة الملك إلى المملكة التي هو عليها نسبة القلب إلى البدن الذي هو فيه، فكما كان الله عز وجل بلطيف حكمته لما خلق القلب أشرف الأعضاء أحله من البدن أوسطه، كانت هذه سبيل الملك فيما يسكنه من مملكته. وكانت قدماء الملوك تقول الملك الأعظم مركز لدائرة ملكه بعده من محيطها بعد واحد، وتدمر كوز وعلم منشور منه يستمد التدبير وإليه ترد الأمور. ولذلك يقال إن الملك الأعظم والمدبر الأكبر ينبغي أن يكون منزله الواسطة من هذا الإقليم وهو الرابع، والعراق أشرف المواضع التي اختارتها ملوك الأمم من النماردة وهم

ملوك السريانيين الذين تسميهم العرب النبط، ثم ملوك الفرس على طبقاتهم من الفرس الأولى إلى الساسانية وهم الأكاسرة وهي حيث تلتقي دجلة والفرات وما قرب من ذلك، وهي من السواد البقعة التي حدها الزابي فوق سُرّ من رأى مما يلي السن وتكريت وناحية حلوان مما يلي الجبل وهيت مما يلي الفرات والشام وواسط من أسفل دجلة والكوفة من سقي الفرات، إلى بهندف وبادرايا وباكسايا وهي بالنبطية تؤقف من أرض جوخي. وهذه الأرض هي لب إيرانشهر التي تفانت عليها ملوك الأمم، فكان اختيارهم بفضل آرائهم المصيف بالجبال ليسلموا من سمائم العراق وكثرة ذبابه وهوامه، والمشتى بالعراق ليسلموا من زمهرير الجبل وكثرة ثلوجه وأمطاره ووحوله وأقذاره.

وقد كان أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي يفعل ذلك، فقال مفتخراً به في كلمة له طويلة:

إنـي امـرؤ كـسـروي الـفـعـال ... أصـيـف الـجـبـالَ وأشـتـو الـعـراقـا

وألـبـس لـلـحـرب أثـوابـهـا ... وأعـتـنـق الـدارعـيـن اعـتـنـاقـا

ولما بلغ عبد الله بن طاهر هذه الأبيات بعد افتتاحه مصر والشأمات قال يرد عليه:

ألـم تـر أنّـا جـلـبـنـا الـجـيـادا ... إلـى أرض بـابـل قـبًّـا عـتـاقـا

إلـى أن وردن بـأدوائـهـا ... قـلـوب رجـال أرادوا الـنـفـاقـا

وأنـت أبـا دلـف نـاعـم ... تـصـيـف الـجـبـال وتـشـتـو الـعـراقـا

وكانت الفرس تسمي هذا الصقع أيضاً إيرانشهر إضافة إلى إيرج بن إفريدون، حين قسم إفريدون الأرض بين ولده الثلاثة، فجعل لسلم الروم وما يليهم من الأمم ولطوج الترك وما يليها من الأمم ولإيرج العراق وما يليه من الأمم فأضيف إليه. وفي ذلك يقول شاعرهم في الإسلام مفتخراً:

وقسـمـنـا مـلـكـنـا فـي دهـرنـا ... قِسمـة اللحـم عـلـى ظـهـر الـوضـم

فـجـعـلـنـا الـشـأم والـروم إلـى ... مـغـرب الـشـمـس إلى الـغـطـريـف سلم

ولـطـوج جـعـل الـتـرك لـه ... فـبـلاد الـتـرك يـحـوبـهـا ابـن عـم

ولإيـران جـعـلـنـا عـنـوة ... فـارس الـمـلـك وفـزنـا بـالـنـعـم

ومنهم من يذهب إلى أن معنى إيرانشهر بلد الخيار، لأن إير بالفارسية الأولى اسم جامع للخير والفضل، ومن ذلك قولهم لرئيس بيت النار إيربذ أي رئيس الخيار الفاضلين، فعرب فقيل هربذ. والنبط تذكر أن هذا الإقليم لها ملكته في سالف الدهر وأن ملوكهم النماردة منهم نمرود إبراهيم الخليل، والنمرود سمة لملوكهم وأن الفرس كانت بفارس والماهات وغيرها من بلاد الفهلويين وأن هذا الصقع مضاف إليهم، وإنما هو بلد أريان شهر؛ معنى ذلك بلد السباع لأن السباع تدعى بالنبطية أريان أحدها أريا فشُبهوا بالسباع لشدة بأسهم وشجاعتهم وعظم ملكهم وكثرة جنودهم. فلما غلبت الفرس عليهم لما كان بينهم من التحزب والحروب واختلاف الكلمة وتباين الممالك ودامت أيامهم واتصل ملكهم دخلوا في جملتهم وتعززوا بهم وانتسبوا إليهم، ثم جاء الإسلام فمضى على ذلك أكثرهم وأنفوا من النبطية لزوال العز الذي كان فيهم، وانتمى جلهم إلى ملوك الفرس حتى قال بعض المتأخرين في ذلك:

أيا دهر ويحك كم ذا الغلط وضيع علا وكريم سقط

وعير يخلد في جنة وطرف بلا علف يرتبط

وأهل القرى كلهم يدعون بكسرى قباذ فأين النبط

وقد وصف بعض أهل المعرفة سكان هذا الصقع الشريف وهو العراق فقال «هم أهل العقول الصحيحة والشهوات المحمودة والشمائل الموزونة والبراعة في كل صناعة، مع اعتدال الأعضاء واستواء الأخلاط وسمرة الألوان وهي أعدلها وأقصدها، يستدل على اعتدال مزاج باطن أبدانهم بالذي يرى من السمرة الظاهرة في ألوانهم واعتدال أعضائهم أحسن الناس ألواناً ووجوهاً وأتمهم حلماً وفهماً فهم أهل العلم والخير، وذلك لامتزاج صقعهم من حر الجنوب وبرد الشمال وغلب عليهم المشتري لامتزاجه من برد فلك زحل وحرارة فلك المريخ فاعتدلوا فاجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار كما اعتدلوا في الجبلة. كذلك لطفوا في الفطنة والتمسك بمحاسن الأمور، وكيف لا يكونون كذلك وهم أرباب الوافدين وأصحاب الرافدين من دجلة والفرات، والثمانية والأربعين طسوجاً». قال الفرزدق في هجاء ابن هبيرة:

أأطعمت العراق ورافديه فزاريا أحذ يد القميص

وقال بشار بن برد:

الرافدان توافي ماء بحرهما إلى الأبلة شرباً غير محظور

وقال آخر: هذان الواديان رائدان لأهل العراق لا يكذبان.

قال المسعودي: والصقع الذي مدينة السلام منه أفضل مواضع الأرض جميعاً في الطيب والغذاء، وذلك أن أطيب خيرات الدنيا بعد الأمن والعافية والعز والرئاسة؛ صلاح الماء والهواء. ثم أفضل أنهار العالم دجلة والفرات، وإن نازع في ذلك أهل مصر وفضلوا نيلهم. وأطيب مواضع العالم في كل الأزمنة عند قياس بعضها إلى بعض وقياس بعض البلدان إلى بعض مواضع اجتماع دجلة والفرات، وذلك أن بعض المواضع يطيب صيفه ويفسد شتاؤه فساداً يمتنع فيه من المكاسب المهنية والمطالب الصناعية لشدة برده ودوام سقوط ثلجه، ومنها ما يطيب شتاؤه ويفسد صيفه حتى يشغل الحر والومد والبقّ والهوام عن تخشين الزي باللباس والتصرف في المهن والصناعات، ويعز علينا بما دفعنا إليه من مفارقة هذا المصر الذي به مولدنا وفيه منشؤنا، فنأت الأيام بيننا وبينه وساحقت مسافاتنا عنه فبعدت الدار، وتراخى المزار. لكنه الزمن الذي من شأنه التشتيت والدهر الذي من شرطه الإفاتة. ولقد أحسن أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي حيث يقول في هذا المعنى في كلمة له:

أيا نكبة الدهر التي طوحت بنا أيادي سبا في شرقها والمغارب

قفي بالتي فقد طرتِ بالتي إليها تناهت فاجعات المصائب

وقال آخر:

بلاد بها أنسي وأهلي وجيرتي وقد يتناسى الشيء وهو حبيب

ولولا الشوق إلى الوطن والحنين إلى المنشأ لم نذكر ما ذكرناه من هذه المعاني. قال بعض الحكماء: إن من علامة وفاء المرء وحسن دوام عهده، حنينه إلى إخوانه وشوقه إلى أوطانه: وإن من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها تواقة.

٣

الجغرافيا والنجوم(*)

قال المسعودي: الطبائع أربع: فالنار حارة يابسة وهي الطبيعة الأولى؛ والطبيعة الثانية باردة رطبة وهي الماء؛ والطبيعة الثالثة الهواء وهو حار رطب؛ والطبيعة الرابعة الأرض وهي باردة يابسة؛ فاثنتان منها تذهبان صعُداً وهما النار والهواء؛ واثنتان ترسخان سُفلاً وهما الأرض والماء؛ والعالم أربعة أجزاء: فالمشرق الربع الأول وجميع ما فيه حار رطب مثل الهواء والدم والربيع، وريحه الجنوب، وله من الساعات الأولى والثانية والثالثة، وله من قوى البدن القوة الهاضمة ومن المذاقات حظه الحلاوة؛ وله من الكواكب القمر والزُّهرة، ومن البروج الحمل والثور والجوزاء؛ وللحكماء خطْب طويل في وصف هذه الأرباع منها جمل في ما مضى ويأتي.

المغرب وهو الربع الثاني وجميع ما فيه بارد رطب مثل الماء والبلغم والشتاء، وريحه الدبور، وله من الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة، وله من المذاقات المالح وما شابه ذلك وله من القوى القوة الدافعة، وله من الكواكب المشتري وعطارد ومن البروج الجدي والدلو والحوت؛ والتيمُّن وهو الربع الثالث وجميع ما فيه حار يابس مثل النار والمِرّة الصفراء والصيف، وريحه الصبا، وله من الساعات الرابعة والخامسة والسادسة من النهار، وله من قوى البدن القوى النفسية والحيوانية، وله من المذاقات المرارة، وله من الكواكب المريخ والشمس، ومن البروج السرطان والأسد والسنبلة

(*) مروج الذهب، الفقرات ١٣٢٩ ـ ١٣٦٣.

والجربيّ وهو الربع، والرابع وجميع ما فيه بارد يابس مثل الأرض والمرة السوداء والخريف، وريحه الشمال وله من الساعات السابعة والثامنة والتاسعة، وله من قوى البدن القوة الماسكة، وله من الطعوم والمذاقات العفص، وله من الكواكب زحل، وله من البروج الميزان والعقرب والقوس.

والأرض بعدما وصفنا تتهايأ في الهيئة وتختلف في التأثير على مقادير الخطوط: فإذا بعُد الخط كان التأثير بخلاف ما هو إذا قرب، لأن البعد والقرب موجبات متنافية متغايرة، وأفضل المواضع من المسكون ما تطرح الشمس ضوء شعاعها إليه؛ وإلى الإقليم الرابع ينتهي عند هذه الطائفة شعاعها في صفوة وارتفاع كدَره لأن شعاع الشمس يهبط متساوياً إلى هذا الموضع وهو العراق.

قال المسعودي: والمواضع التي لا تسكن عند هذه الطائفة عدمت السكنى لعلتين: إحداهما إفراط الحر وإحراق الشمس وكثرة تواتر شعاعها على تلك الأرضين حتى قد جعلتها كلسية وأغاضت مياهها بكثرة النشف، والعلة الأخرى بُعد الشمس عن الإقليم وارتفاعها عن حوزاتها فاكتنف تلك الأرضين البرد واستولى عليها القر والجمد، فزاد إفراط البرد في الجو حتى أزال حسن الاعتدال ورفع فضيلة النشوء، فلم تلبث الحرارة في الأجسام ولم تظهر الرطوبة في إنماء الحيوان هنالك فصارت تلك البلاد قاعاً صفصفاً من الحيوان والنبات؛ وهذه البلدان التي تراها مفرطة الحرارة والبرودة هي تناسب ما ذكرنا من هذه الديار البلاقع.

ولهذه الطائفة كلام كثير في فناء العالم وتقضّيه وعوده جديداً؛ وذكروا أن السلطان في هذا الوقت السنبلة وهو سبعة آلاف سنة وذلك عمر هذا العالم، وقد ساعد السنبلة المشتري في التدبير وأن نهاية العالم في كثرة قطع الكواكب المدبّرة المسافة التامة بالقِوى وإذا استكمل قطع المسافة التي ذكروها فهنالك يقع النفاد ويكون الدثور بالعالم؛ والكواكب إذا كملت ما لها من كرّ كرّ ودور دور عاد التدبير إلى الأول منها وعادت أشخاص كل عالم وصوره مع اجتماع المواد التي كانت له في حال حركة تأثير الكوكب الذي كان التدابير إليه، وهكذا عند هؤلاء يجري شأن العالم سَرْمداً.

وزعموا أن سلطان الحمل اثنا عشر ألف سنة، وسلطان الثور أحد عشر ألف سنة وسلطان الجوزاء عشرة آلاف سنة، وسلطان السرطان تسعة آلاف سنة، وسلطان الأسد ثمانية آلاف سنة، وسلطان السنبلة سبعة آلاف سنة، وسلطان الميزان ستة آلاف سنة،

وسلطان العقرب خمسة آلاف سنة، وسلطان القوس أربعة آلاف سنة، وسلطان الجدي ثلاثة آلاف سنة، وسلطان الدلو ألفا سنة، وسلطان الحوت ألف سنة؛ فجميع ذلك ثمانية وسبعون ألف سنة وذكروا أن ذلك هو انقضاء العالم وتقضّي ما فيه ورجوعه إلى كونه.

وتكلم [غير] هؤلاء في الجان الذين كانوا في الأرض قبل خلق الله آدم واستخلافه له في الأرض وأن المتولي لهم كوكب من الكواكب النارية؛ وتكلّم كلا الفريقين في أوج الشمس عند انتقالها إلى البروج الجنوبية وما يحدث في العالم من كون الشمال جنوباً والجنوب شمالاً وتحوُّل العامر غامراً والغامر عامراً على حسب ما ذكرنا في كتابنا المترجم بكتاب الزُّلف.

وقد ذهب غير هؤلاء ممن تقدّم [إلى] أن الأوائل التي بها وجد سائر الموجودات كالأول والثواني والثوالث على حسب مراتبها: النفس والصورة والهيولى وأنها المبادئ على حسب ما رتّبناها وقدّمناها في كتاب الزُّلف؛ فيما عدا ما وصفنا فهي الأجسام وأجناسها ستة: الجسم السماوي والجسم الأرضي والحيوان الناطق والحيوان غير الناطق والنبات والأجسام الحجرية وهي المعدنية والأُسْطُقسات الأربعة، وهي النار والهواء والماء والأرض؛ وتكلم هؤلاء فيما يخص كل واحد مما ذكرناه مما لا يحتمله كتابنا هذا إذ كان فيه خروج عن الغرض الميمَّم فيه، وقد أتينا على بسط ذلك في كتاب الرؤوس السبعية في باب السياسة المدنيّة وعدد أجزائها وعللها الطبيعية وهل مُلك تلك المدينة جزء من أجزائها أو من غيرها وإليه نهاية أجزائها على حسب ما ذكره فرفوريوس في كتابه في وصف منازعة أفلاطون وأرسطاطاليس في ذلك.

فأما علّة كون الشتاء بأرض الهند في الحالة التي يكون بها الصيف عندنا والحالة التي يكون فيها عندنا الشتاء يكون الصيف عندهم، فقد ذكرنا علّة ذلك ووجه البرهان عليه وأنّ ذلك للشمس في قربها وبعدها؛ وكذلك علّة تكوُّن السودان في بعض البقاع من الأرض دون بعض وتفلفل شعورهم وغير ذلك من مشهور أوصافهم، وعلّة تكوُّن البيضان في بعض البقاع دون بعض، وتفطُّر ألوان الصقالبة وشقرتهم وصهوبة شعورهم، وما لحق الترك من استرخاء مفاصلهم وتعوّج أسوقهم ولين عظامهم حتى إن أحدهم ليرمي بالنشاب من خلف كرميه من قُدّام فيصير قفاه وجهه ووجهه قفاه، ومطاوعة فقارات الظهور لهم على ذلك؛ وكون الحمرة في وجوههم عند تكامل الحرارة في

الوجه على الأغلب من كونها وارتفاعها لغلبة البرد على أجسامهم، وقد أتينا بحمد الله على شرح ذلك وما انتظم من الدلائل على مصداق ما ذكرنا فيما سلف من كتبنا في هذه المعاني المقدم ذكرها.

ولم نعرض لذكر الأخبار عما لم يصح عندنا في العالم وجوده حساً ولا خبراً قاطعاً للعذر ولا دافعاً للريب ومزيلاً للشك كأخبار العامة في كون النِسْناس وأنّ وجوههم على نصف وجوه الناس وأنهم ذوو أنياب وأنهم يؤكلون، وأخبارهم عن عنقاء مُغرب.

وقد زعم كثير من الناس أن الحيوان الناطق ثلاثة أجناس: ناس ونِسناس ونَسانس، وهذا محال من القول لأن النسناس إنما وقع هذا الاسم على السفلة من الناس والأرذال وقد قال الحسن: «ذهب الناس وبقيتُ في النسناس»؛ وقال الشاعر:

ذهب الناسُ فاستقلُّوا وصِرنا خلَفاً في أرذالِ النسناسِ

أراد به ما وصفنا، أي ذهب الناس وبقي من لا خير فيه.

وقد ذهب كثير من الناس إلى أن الجنّ نوعان: أعلاهم وأشدّهم الجن وأخفضهم وأضعفهم الجن، وأنشد الراجز:

أبيت أهوي في شياطين تُرِن مختلفٍ نجواهُم جِنٌّ وجِنّ

وهذا تفصيل بين الجنسين من الجن لم يرد به خبر ولا صحّ به أثر، وإنما ذلك مِن توهم الأعراب على حسب ما بيّنا آنفاً؛ وقد غلب على كثير من العوام الأخبار عن معرفة النسناس وصحة وجوده في العالم كالأخبار عن وجوده في الصين وغيرها من الممالك النائية والأمصار القاصية، فبعضهم يخبر عن وجودهم [كذا] بالشرق وبعضهم بالغرب؛ فأهل الشرق يذكرون أنها [كذا] في الغرب وأهل الغرب يذكرون أنها في الشرق، وكذلك كل صقع من البلاد يشير سكّانه إلى أن النسناس فيما بعد عنهم من البلاد ونأى من الديار.

وقد رووا في ذلك خبراً مخرجه من طريق الآحاد أن ذلك ببلاد حضرموت من أرض الشِحر وهو ما ذكره عبد الله بن سعيد بن كثير بن عُفير المصري عن أبيه عن يعقوب بن الحارث بن نُجيم عن شبيب بن شيْبة بن الحارث التميمي قال: قدمت الشّحر فنزلتُ على رئيسها فتذاكرنا النسناس فقال: «صيدوا لنا منها»؛ فلما أن رحت إليه مع بعض أعوانه المهْريين إذ أنا بنسناس منها؛ فقال لي النسناس: «أنا بالله وبك» ــ وقلت لهم:

«خلُّوه» ـ فخلُّوه؛ فلما حضر الغداء قال: «هل اصطدتم لنا منها شيئاً؟» ـ قالوا: «نعم ولكن ضيفك خلاّه» ـ قال: «استعدوا فإنّا خارجون في قنصهم» ـ فلما خرجنا لذلك في السحر سمعنا قائلاً يقول: «أبا محمد الصبح قد أسفر والليل قد أدبر والقنص قد حضر؛ فعليك بالوزر» ـ فقال: «كلا ولا نزاع» قال فخرج منها واحد يعدو وله وجه كوجه إنسان وشعرات في ذقنه ومثل الثدي في صدره ومثل رجلي الإنسان رجلاه وقد ألظّ به كلبان وهو يقول:

الويل لي مما به دهاني ... دهري من الهموم والأحزانِ

قفا قليلاً أيها الكلبان ... واستمعا قولي وصدّقاني

إنكما حين تجارياني ... ألفيتماني خُضراً عناني

لست بخوّارٍ ولا جبانِ ... ولا بنكس رعش الجنانِ

لكن قضاء الملك الرحمان ... يُذل ذا القدرة والسلطانِ

قال: فالتقيا به فأخذاه.

ويزعمون أنهم ذبحوا منها نسناساً فقال قائل منها: «سبحان الله ما أشدّ حمرة دمه!» ـ فذبحوه أيضاً؛ فقال نسناس من شجرة ولا يرونه: «كان يأكل السُّماق» ـ فقالوا: «نسناس! خذوه» فأخذوه [وذبحوه] وقالوا: «لو سكت هذا لم نعلم بمكانه» ـ قال نسناس آخر من شجرة أخرى: «أنا صمّيت» ـ قالوا: «نسناس! خذوه» فأخذوه [وذبحوه]؛ قال: فقال نسناس آخر من شجرة أخرى: «يا لسان احفظ رأسك» ـ قالوا: «نسناس! خذوه»؛ فأُخذ: وزعم من روى هذا الخبر أن أهل المهرة تصطادها في بلادها وتأكلها.

قال المسعودي: ووجدت أهل الشّحر من بلاد حضرموت وساحلها وهي لهْسا مدينة على شاطىء البحر من أرض الأحقاف، وهي أرض الرمل وغيرها مما اتصل بهذه الديار من أرض اليمن وغيرها من عمان وأرض المهرة يستطرفون أخبار النسناس إذا ما أُخبروا بها ويتعجّبون من وصفها ويتوهمون أن ذلك في بعض بقاع الأرض مما قد نأى عنهم وبعد كسماع غيرهم من أهل البلاد بذلك عنهم؛ وهذا يدلّ على عدم كونه في العالم وإنما ذلك من هَوس العامة واختلاطها، كما وقع لهم في خبر عنقاء مغرب، فرووا فيه حديثاً عزَوه إلى ابن عباس.

ونحن لم نُحِلْ وجود النسناس والعنقاء وغير ذلك مما اتصل بهذا النوع من الحيوان الغريب النادر في العالم من طريق العقل، فإن ذلك غير ممتنع في القدرة لكن أحلنا ذلك لأن الخبر القاطع للعذر لم يرد بوجود ذلك في العالم وهذا باب داخل في حيّز الممكن الجائز، خارج عن باب الممتنع والواجب؛ ويحتمل هذه الأنواع من الحيوان النادر ذكرها كالنسناس والعنقاء والعرابد وما اتصل بهذا المعنى أن تكون أنواعاً من الحيوان أخرجتها الطبيعة من القوة إلى الفعل فلم تحكمه ولم يتأتّ فيه الصنع كتأتيه في غيره من أنواع الحيوان فبقي شاذّاً فريداً متوحّشاً نادراً في العالم طالباً للبقاع النائية من البر مبايناً لسائر أنواع الحيوان من الناطقين وغيرهم للضدية التي فيه لغيره مما قد أحكمته الطبيعة وعدم المشاكلة والمناسبة التي بينه وبين غيره من أجناس الحيوان وأنواعه على حسب ما قدّمنا في باب الغيلان فيما سلف من هذا الكتاب؛ وفي الإكثار من هذا خروج عن الغرض الذي إليه قصدنا في هذا الكتاب.

وقد قدّمنا فيما سلف من كتبنا الأخبار عمّن زعم أن المتوكل أمر حُنين بن إسحق أو غيره من أهل عصره ممن عُني بهذا الشأن من الحكماء أن يتأتى له ويحتال في حمل النسناس والعربد من أرض اليمامة وأن حُنيناً حمل له شيئاً من ذلك؛ وقد أتينا على شرح هذا الخبر فيمن أرسل إلى اليمامة في حمل العربد وإلى بلاد الشّحر في حمل النسناس في كتابنا في أخبار الزمان والله أعلم بصحة هذا الخبر؛ وليس لنا في ذلك إلا النقل وأن نعزوه إلى رواية وهو المتقلّد بعلم ذلك فيما حكاه ورواه، فننظمه على حسب ما يتأتى لنا نظمه في الموضع المستحق له، والله ولي التوفيق.

وإن البلدان تنقسم إلى أربعة أقسام: المشرق وطبيعته الحرارة والرطوبة وفيه يقوى الدم؛ والجربي وطبيعته البرودة واليبس وفيه تقوى المرة السوداء، والمغرب وطبيعته البرودة والرطوبة وفيه يقوى البلغم؛ والتيمّن وطبيعته الحرارة واليبس وفيه تقوى المرة الصفراء؛ وإن بنية الجسد من الأصول وربما كانت مستوية معتدلة الأخلاط وربما كان أحد الأخلاط أغلب في البنية فتظهر قوته بأعلامه حتى يكون مُقوياً لذلك الخلط إذا هاج.

قال أبقراط: ينبغي أن يكون كل شيء في هذا العالم مقدّراً على سبعة: فالنجوم سبعة والأقاليم سبعة والأيام سبعة وأسنان الإنسان سبع: أولها طفل ثم صبي إلى أربع عشرة سنة ثم غلام إلى إحدى وعشرين سنة ثم شاب ما دام يشب ويقبل الزيادة إلى خمس وثلاثين سنة ثم كهل إلى تسع وأربعين سنة ثم شيخ ثم هرم إلى آخر العمر؛ وجميع

تغيّر أحوال الحيوان من الناطقين وغيرهم فمن الهواء يكون ذلك؛ وقد قال الحكيم أبقراط إن تغيّر حالات الهواء هو الذي يغيّر حالات الناس مرة إلى الغضب ومرة إلى السكون وإلى الهم وإلى السرور وغير ذلك؛ وإذا استوت حالات الهواء استوت حالات الناس وأخلاقهم؛ وقال: إن قوى النفس تابعة لمزاجات الأبدان ومزاجات الأبدان تابعة لتصرف الهواء إذا برد مرة وسخن مرة خرج الزرع نضيجاً ومرة غير نضيج ومرة قليلاً ومرة كثيراً ومرة حاراً ومرة بارداً فتتغيّر كذلك صورهم ومزاجاتهم، وإذا استوى واعتدل الهواء خرج الزرع معتدلاً فاعتدل كذلك الصور والمزاجات.

فأما علة تشابه صور الترك فإنه لما استوى هواء بلدهم في البرد استوى صورهم وتشابهت، وكذلك أهل مصر لما استوت هواؤهم تشابهت صورهم، ولما كانت الغالب على الترك البرد وعجزت الحرارة عن نشف رطوبات أبدانهم كثرت شحومهم ولانت أبدانهم وتشبّهوا بالنساء في كثير من أخلاقهم فضعفت شهوة الجماع فيهم وقلّ ولدهم لبرد مزاجهم وللرطوبة الغالبة عليهم؛ وقد يكون ضعف الشهوة أيضاً لكثرة ركوب الخيل؛ وكذلك نساؤهم لما سمنت أبدانهن ورطبت ضعفت أرحامهن عن جذب الزرع إليها؛ وأما حمرة ألوانهم فللبرد كما ذكرنا لأن البياض إذا ألحّت عليه البرودة صار إلى الحمرة؛ وبيان ذلك أن أطراف الأصابع والشفة والأنف إذا أصابها برد شديد احمرّت.

وذكر الحكيم أبقراط أن في بعض البلدان من الجنوب بلدة كثيرة الأمطار كثيرة النبت والعشب وأن أشجارها ذاهبة في الهواء ومياهها عذبة ودوابها عظيمة وهي خصبة لأن تلك البلاد بلاد لم يحرقها حر الشمس ولم يجففها يُبس البرد، فأجسام أهلها عظيمة وصورهم جميلة وأخلاقهم كريمة فهم في صورهم وقاماتهم واعتدال طبائعهم يُشبهون باعتدال زمان الربيع، غير أنهم أصحاب دعة لا يحتملون الشدائد والكد؛ وقال الحكيم أبقراط أيضاً في معنى ما وصفنا وما إليه قصدنا من بيان الأهوية وتأثيرها في الحيوان والنبات إن الروح المطبوعة فيها هي التي تجذب الهواء إليها وإن الرياح تقلب الحيوان من حال إلى حال وتصرفه من حر إلى برد ومن يُبس إلى رطوبة ومن سرور إلى حزن وأنها تغير ما في البيوت من بزر أو عسل أو فضة أو شراب أو سمن فتسخنها مرة وتبردها أخرى وترطبها مرة وتيبسها أخرى؛ وعلة ذلك أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها وإذا تغيّر الهواء تغير بتغيره كل شيء؛ فمن تقدّم وعرف أحوال الأزمنة وتغيرها والدلائل التي فيها عرف السبب الأعظم من أسباب العلم وتقدم في حفظ صحة الأبدان.

وقال أيضاً إن الجنوب إذا هبّت أذابت الهواء وبردته وسخنت البحار والأنهار وكل شيء فيه رطوبة، وتغيّر لون كل شيء وحالاته وهي ترخي الأبدان والعصب وتورث الكسل وتحدث ثقلاً في الأسماع وغشاوة في البصر لأنها تحلل المرة وتنزل الرطوبة إلى أصل العصب الذي به يكون الحس؛ فأما الشمال فإنها تصلّب الأبدان وتصحّ الأدمغة وتحسّن اللون وتصفّي الحواس وتقوي الشهوة والحركة، غير أنها تهيج السعال ووجع الصدر؛ وقد زعم بعض من تأخر في الإسلام من الحكماء أن الجنوب إذا هبّت بأرض العراق تغيّر لون الورد وتناثر الورق وتشقق القُنّبيط وتسخّن الماء واسترخت الأبدان وتكدّر الهواء؛ قال: وذلك شبيه بما قاله أبقراط إن الصيف أوبى من الشتاء لأنه يسخن الأبدان فيرخيها ويضعف قواها، وإن أهل العراق ليكون الرجل منهم نائماً في فراشه فيحس بهبوبها وإنه إذا هبّت الشمال برد الخاتم في إصبعه واتسع لأنه يضمر البدن بها؛ وإذا هبّت الجنوب سخن الخاتم وضاق واسترخى البدن وحدث فيه الكسل؛ وهذا يجده سائر من بالعراق ممن له حس إذا صرف همته إلى تأمل ذلك، وكذلك يجده من تأمل ما وصفناه في سائر الأمصار في بقاع الأرض والبلدان، وإن كان ذلك بالعراق أظهر لعموم الاعتدال.

ثم قال الحكيم أبقراط في معنى ما ذكرنا: إن الرياح العامة أربعة إحداها تهب من المشرق وهي القبول، والثانية تهب من المغرب وهي الدبور، والثالثة من التيمن وهي الجنوب، والرابعة من الجربي وهي الشمال؛ فأما الريح التي تهب في بلد دون بلد فإنما تسمى الريح البلدية.

٤

مشاهدات البحار وأممها وعجائبها وأخبارها(*)

قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب جملاً من ترتيب البحار المتصلة والمنفصلة؛ فلنذكر في هذا الباب جملاً من أخبار ما اتصل بها من البحر الحبشي والممالك والملوك، وجملاً من ترتيبها وغير ذلك من أنواع العجائب؛ فنقول إن بحر الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهها غير منفصلة على ما ذكرنا، إلا أن هيجانها وركودها يختلف لاختلاف مهابّ رياحها وإبان ثورانها وغير ذلك.

فبحر فارس تكثر أمواجه ويصعب ركوبه عند لين بحر الهند واستقامة ركوبه وقلة أمواجه؛ ويلين بحر فارس وتقل أمواجه ويسهل ركوبه عند ارتجاج بحر الهند واضطراب أمواجه وظلمته وصعوبة ركوبه؛ فأول ما تبتدئ صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس السُنبُلة وقرب الاستواء الخريفي، ولا يزال كذلك تكثر أمواجه كل يوم إلى أن تصير الشمس إلى برج الحوت، فأشد ما يكون ذلك في آخر الخريف عند كون الشمس في القوس، ثم يلين إلى أن تعود الشمس إلى السنبلة، وأهدأ ما يكون في آخر الربيع عند كون الشمس في الجوزاء؛ وبحر الهند لا يزال كذلك إلى أن تصير الشمس إلى السنبلة فيركب حينئذٍ وأهدأ ما يكون عند كون الشمس في القوس؛ وبحر فارس يركب في سائر السنة من عمان إلى سيراف وهو مائة وستون فرسخاً ومن سيراف إلى البصرة مائة وأربعون فرسخاً، ولا يتجاوز ركوبه غير ما ذكرنا من هذين الموضعين ونحوهما.

وقد حكى أبو معشر المنجّم في كتابه المترجم بالمدخل الكبير إلى علم النجوم ما ذكرنا

(*) مروج الذهب، الفقرات ٣٥٦ ـ ٤٤٠.

من اضطراب هذه البحار وهدوئها وعند كون الشمس فيما ذكرنا من البروج، وليس يكاد يقطع من عمان نحو الهند في تيرماه إلا مركب مغرر حمولته يسيرة، وتسمى هذه المراكب بعمان إذا قطعت إلى أرض الهند في هذا الوقت التيرماهية؛ وذلك أن بلاد الهند وبحر الهند يكون فيه اليسارة وهو الشتاء؛ ودوام المطر في كانون [الأول] وكانون [الثاني] وشباط عندنا صيف عندهم، كما يكون عندنا الحر في حزيران وتموز وآب فشتاؤنا صيفهم وصيفهم شتاؤنا، وكذلك سائر مدن الهند والسند وما اتصل بذلك إلى أقاصي هذا البحر؛ ومن شتا في صيفنا بأرض الهند قيل: فلان يسر بأرض الهند، أي: شتا هنالك، وذلك لقرب الشمس وبعدها.

والغوص على اللؤلؤ في بحر فارس إنما يكون من أول نيسان إلى آخر أيلول، وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها؛ وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على سائر مواضع الغوص في هذا البحر إذ كان ما عداه من البحار لا لؤلؤ فيها وهو خاص بالبحر الحبشي من بلاد خارك وقطر وعمان وسرنْدِيب وغيرها من هذا البحر؛ وذكرنا كيفية تكوّن اللؤلؤ وتنازع الناس في ذلك ومن ذهب منهم إلى أن ذلك من المطر، ومن ذهب إلى أن ذلك من غيره، وصفة صدف اللؤلؤ العتيق منه والحديث المسمى بالمحار والمعروف بالبَلْبَل، واللحم الذي في الصدف والشحم، وهو حيوان يفزع على ما فيه من اللؤلؤ والدُّر من الغاصة كخوف المرأة على ولدها.

وأتينا على ذكر كيفية الغوص وأن الغاصة لا يكادون يتناولون شيئاً من اللحمان إلا السمك والتمر لا غيرهما من الأقوات؛ وما يلحقهم من شق أصول آذانهم لخروج النفس من هنالك بدلاً من المنخريْن لأن المنخرين يجعلون عليهما شيئاً من الذّبل، وهو ظهور السلاحف البحرية التي يُتخذ منها الأمشاط، أو القرن، يضمهما كالمشقاص، لا من الخشب؛ وما يجعلون في آذانهم من القطن وفيه شيء من الدهن فيعصرون من ذلك الدهن اليسير في قعر الماء فيضيء لهم بذلك ضياءً نيّراً، وما يطلون به على أقدامهم وأسوقهم من السواد خوفاً من بلغ دواب البحر إياهم لنفورها من السواد، وصياح الغاصة في قعر البحر كالكلاب وخرق الصوت حتى يسمع بعضهم صياح بعض؛ وللغاصة والغوص أخبار عجيبة وللؤلؤ وحيوانه، وقد أتينا على أوصاف ذلك وصفات اللؤلؤ وعلاماته ومقادير أوزانه فيما سلف من كتبنا.

فأول هذا البحر مما يلي البصرة والأبُلّة والبحرين من خشبات البصرة ثم بحرة لارَوِي

وعليه بلاد صَيْمُور وسُوبارة وتانة وسندان وكنباية وغيرها من الهند والسند؛ ثم بحر هركند؛ ثم بحر كلاه بار وهو بحر كلَه والجزائر، ثم بحر كَنْدُرَنْج، ثم بحر الصّنْف وإليه يُضاف العود الصّنفي وإلى بلاده، ثم بحر الصين وهو بحر صَنْخَي وليس بعده بحر.

فأول بحر فارس على ما ذكرنا خشبات البصرة والموضع المعروف بالكنكلا وهي علامات منصوبة من خشب في البحر مغروسة علامات للمراكب؛ إلى عُمان المسافة ثلاثمائة فرسخ، وعلى ذلك ساحل فارس وبلاد البحرين، ومن عُمان وقصبتها تسمى صُحار والفرس يسمونها مَزُون، إلى المسقط ـ وهي قرية منها يستقي أرباب المراكب الماء من آبار هنالك عذبة ـ خمسون فرسخاً، ومن المسقط إلى رأس الجمجُمة خمسون فرسخاً، وهذا آخر بحر فارس، طوله أربعمائة فرسخ؛ هذا تحديد النواتية وأرباب المراكب؛ ورأس الجمجمة جبل يتصل ببلاد اليمن من أرض الشحر والأحقاف، والرمل منه تحت البحر لا يُدرى إلى أين تنتهي غايته في الماء أعني الجبل المعروف برأس الجمجمة؛ وإذا كان ما وصفنا من الجبل في البر ومنه تحت البحر سُمي في البحر الرومي: الشفالة، منها تلك السفالة في الموضع المعروف بساحل سلوقيا من أرض الروم واتصالها تحت البحر بنحو من جزيرة قبرص، وعليها عطب أكثر مراكب الروم وهلاكها؛ وإنما نُعبر بلغة أهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم فيما يتعارفونه بينهم.

فمن رأس الجمجمة تنطلق المراكب إلى البحر الثاني من بحر فارس وهو المعروف بلاروي، لا يدرك قعره ولا يُحصر كثرة من نهاياته ولا تضبط غاياته لغزر مائه واتساع فضائه؛ وكثير من البحريين يزعمون أن الوصف لا يحيط بأقطاره لما ذكرنا من تشعبه؛ وربما تقطعه السفن في الشهرين والثلاثة وفي الشهر على قدر مهاب الرياح والسلامة؛ وليس في هذه البحار أعني ما اشتمل عليه البحر الحبشي أكثر من بحر لاروي هذا ولا أشد؛ وفي عرضه بحر الزنج وبلادهم، وعنبر هذا البحر قليل وذلك أن العنبر أكثره يقع إلى بلاد الزنج وساحل الشحر من أرض العرب.

وأهل الشحر أناس من قضاعة بن مالك بن حمير وغيرهم من العرب، ويُدعى من سكن هذا البلد من العرب المَهْرة، أصحاب شعور وجُمم، ولغتهم بخلاف لغة العرب؛ وذلك أنهم يجعلون الشين بدلاً من الكاف ومثل ذلك قولهم: «هل لش فيما قلت لي، وقلت لش أن تجعل الذي معي في الذي معش». يريدون: «هل لك فيما قلت لي،

وقلت لك أن تجعل الذي معي في الذي معك». وغير ذلك من خطابهم ونوادر كلامهم؛ وهم ذوو فقر وفاقة؛ ولهم نُجُب يركبونها بالليل تُعرف بالنُجب المهريّة وتشبه بالسير بالنجب البُجاويّة، بل عند جماعة أنها أسرع منها؛ فيسيرون عليها على ساحل بحرهم: فإذا أحسّت هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر، بركت عليه، قد رُيّضت لذلك واعتادته فيتناوله الراكب.

وأجود العنبر ما وقع إلى هذه الناحية وجزائر الزابج وساحله، وهو المدوّر الأزرق البارز كبيض النعام أو دون ذلك؛ ومنه ما يبلعه الحوت المعروف بالأوال المتقدم ذكره؛ وذلك أن البحر إذا اشتدّ قذف من قعره العنبر كقطع الجبال وأصغر على ما وصفنا؛ فإذا ابتلع هذا الحوت العنبر قتله، فيطفو فوق الماء، ولذلك أناس يرصدونه في القوارب من الزابج وغيرهم فيطرحون فيه الكلاليب والحبال ويشقون بطنه فيستخرجون العنبر منه، فما يخرج من بطنه يكون سهكاً ويعرفه العطّارون بالعراق وفارس بالندّ، وما لقي ظهر الحوت منه كان نقيّاً جيداً على حسب لبثه في بطن الحوت.

وبين البحر الثالث وهو هَرْكَنْد والبحر الثاني وهو لاروي، على ما ذكر، جزائر كثيرة هي فرز بين هذين البحرين، ويقال إنها نحو من ألفي جزيرة، وفي قول المحق ألف وتسعمائة جزيرة كلها عامرة بالناس؛ وتملك هذه الجزائر كلها امرأة، وبذلك جرت عادتهم من قديم الزمان لا يملكهم رجل.

والعنبر يوجد في هذه الجزائر أيضاً يقذفه البحر ويوجد في بحرها كأكبر ما يكون من قطع الصخر؛ وأخبرني غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين بعُمان وسيراف وغيرهما من التجار ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر، أن العنبر ينبت في قعر هذا البحر ويتكوّن كتكوّن أنواع الفطر من الأبيض والأسود والكمأة ونحوها؛ فإذا خبث البحر واشتد قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر.

وأهل هذه الجزائر جميعها متفقو الكلمة لا يحصرهم العد لكثرتهم، ولا تحصى جيوش هذه الملكة عليهم؛ وبين الجزيرة والجزيرة نحو الميل والفرسخ والفرسخين والثلاثة؛ ونخلهم نخل النارجيل لا يفقد من النخل إلا التمر؛ وقد زعم أناس ممن عُني بتوليدات الحيوان وتطعيم الأشجار أن النارجيل هو المقْل وإنما أثّرت فيه تربة الهند حين غُرس فيها فصار نارجيلاً وإنما هو المُقل.

وليس يوجد في جزائر البحر ألطف صنعة من أهل هذه الجزائر في سائر المهن والصنائع

في الثياب والآلات وغير ذلك؛ وبيوت أموال هذه الملكة الودَع؛ وذلك أن الودع فيه نوع من الحيوان؛ فإذا قلّ مالُها أمرت أهل هذه الجزائر فقطعوا من سعف نخل النارجيل بخوصه وطرحوه على وجه الماء فيتراكب عليه ذلك الحيوان فيجمع ويطرح على رمل الساحل، فتحرق الشمس ما فيه من حيوان ويبقى الودع خالياً مما كان فيه فيُملأ من ذلك بيوت الأموال.

وهذه الجزائر تعرف جميعاً بالديبجات ومنها يحمل أكثر الرانج وهو النارجيل؛ وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب، ويلي سرنديب جزائر أخرى نحو من ألف فرسخ تعرف بالرامُني معمورة، فيها ملوك وفيها معادن ذهب كثيرة، ويليها بلاد فنْصور وإليه يُضاف الكافور الفنصوري؛ والسنة التي تكون كثيرة الصواعق والبروق والرجف والقذف والزلازل يكثر فيها الكافور، وإذا قلّ ذلك نقص في وجوده.

وأكثر ما ذكرنا من الجزائر غذاؤهم النارجيل؛ ويحمل من هذه الجزائر خشب البقم والخيزران والذهب؛ وفيلتها كثيرة؛ وفيها من يأكل لحوم الناس؛ وتتصل هذه الجزائر بجزائر لَنْجبالُوس وهم أمم عجيبة الصور عراة يخرجون في القوارب عند اجتياز المراكب بهم، معهم العنبر والنارجيل وغير ذلك، فيتعارضون بالحديد وشيء من الثياب ولا يبيعون ذلك بالدراهم والدنانير؛ ويليهم جزائر يقال هم أندَامان، فيها أناس سود عجيبو الصور والمناظر مفلفلو الشعور، قدم الواحد منهم أكبر من الذراع، لا مراكب لهم؛ فإذا وقع الغريق إليهم ممن قد انكسر في البحر أكلوه، وكذلك فعلهم بالمراكب إذا وقعت إليهم.

وذكر لي جماعة من النواخذة أنهم ربما رأوا في هذا البحر سحاباً أبيض قطعاً صغاراً يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر؛ فإذا اتصل به غلا البحر لذلك وارتفعت منه زوابع عظيمة، لا تمرّ زوبعة بشيء إلا أتلفته، ويمطرون عُقيب ذلك مطراً سهكاً فيه أنواع من قذى البحر.

فأما البحر الرابع فهو كلاه بار على حسب ما ذكرنا، وتفسير ذلك: بحر كله، وهو بحر قليل الماء؛ وإذا قلّ ماء البحر كان أكثر لآفاته وأشد لخبثه؛ وهو كثير الجزائر والصرائر، واحدها: صُرّة؛ وذلك أن أهل المراكب يسمون ما بين الخليجين إذا كان طريقهم فيه الصرّ؛ ولهذا البحر أنواع من الجزائر والجبال عجيبة، وإنما أردنا التلويح بلمع من الأخبار عنها لا البسط.

وكذلك البحر الخامس المعروف بكنْدُرَج، فكثير الجبال والجزائر فيها الكافور وماء الكافور، وهو قليل الماء كثير المطر لا يكاد يخلو منه؛ فيه أجناس من الأمم منهم جنس يقال لهم الفَنْجن، شعورهم مفلفلة وصورهم عجيبة، يعرضون في قوارب لهم لطلب المراكب إذا اجتازت بِهم، ويرمون بنوع من السهام عجيب قد أسقيت السم؛ وبين هذه الأمة وبين بلاد كله معادن الرصاص الأبيض وجبال من الفضة، وفيه أيضاً معادن الذهب والرصاص لا يكاد يتميز.

ثم يليه بحر الصّنْف على ما رتّبنا آنفاً، وفيه مملكة المهراج ملك الجزائر؛ وملكه لا يُضبط كثرةً ولا تحصى جنوده ولا يستطيع أحد من الناس أن يطوف في أسرع ما يكون من المراكب بجزائره في سنتين، وقد حاز هذا الملك أنواع الأفاويه والطيب، وليس لأحد من الملوك ما له؛ ومما يتجهز به من بلاده ويحمل من أرضه: الكافور والعود والقرنفل والصندل والجَوْزبَوّا والبسباسة والقاقُلّة والكبابة وغير ذلك مما لم نذكره.

وجزائره تتصل ببحر لا تدرك غايته ولا يُعرف منتهاه، وهو مما يلي بحر الصين؛ وفي أطراف جزائره جبال كثيرة، الناس [فيها] بيض الوجوه مخرمو الآذان ووجوههم كقطع التراس مطرقة يجزّون شعورهم كما يجزّ الشعر من الرق مدرّجاً، تظهر من جبالهم النار بالليل والنهار بنهارها نار حمراء وبالليل تسودّ وتلحق بعنان السماء لعلوّها وذهابها في الجو، تقذف بأشد ما يكون من صوت الرعود والصواعق؛ وربما يظهر منها صوت عجيب مفزع يُنذر بموت ملكهم؛ وربما يكون أخفض من ذلك فيُنذر بموت بعض رؤسائهم؛ قد عرف بما يُنذر من ذلك لطول العادات والتجارب من قديم الزمان، وإن ذلك غير مختلف؛ وهذه إحدى آطام الأرض الكبار.

ويليها الجزيرة التي يُسمع منها على دوام الأوقات أصوات الطبول والسرنايات والعيدان وسائر أنواع الملاهي المطربة المستلذة، ويسمع إيقاع الرقص والتصفيق؛ ومن يسمع ذلك يميّز بين صوت كل نوع من الملاهي المطربة وغيره؛ والبحريون ممن اجتاز بتلك الديار يزعمون أن الدّجّال بتلك الجزيرة؛ وفي مملكة المهراج جزيرة سَرِبُزة تكون مسافتها في البحر نحواً من أربعمائة فرسخ، عمائر متصلة؛ وله جزائر الزابج والرامني وغير ذلك مما لا يؤتى على ذكره من جزائره وملكه، وهو صاحب البحر السادس وهو بحر الصنف.

ثم البحر السابع وهو بحر الصين على ما رتّبنا آنفاً، ويُعرف ببحر صنخي؛ هو بحر

خبيث كثير الموج والخِب، وتفسير الخب: الشدة العظيمة في البحر؛ وإنما نُخبر عن عبارة [أهل] كل بحر وما يستعملونه في خطابهم؛ وفيه جبال كثيرة لا بدّ للمراكب من النفوذ بينها؛ وذلك أن البحر إذا عظم خبّه وكثر موجه ظهرت منه أشخاص سُود، طول الواحد منهم نحو الخمسة أشبار أو الأربعة، كأنهم أولاد الأحابيش الصغار شكلاً واحداً وقداً واحداً، فيصعدون على المراكب ويكثر منهم الصعود من غير ضرر؛ فإذا شاهد الناس ذلك تيقّنوا الشدة، فإن ظهورهم علامة للخب؛ فيستعدون لذلك، فمبتلى ومعافى.

فإذا كان ذلك ربما شاهد المُعافى منهم في أعلى الدّقل ـ ويسميه أرباب المراكب في بحر الصين وغيره من البحر الحبشي: الدولي، ويسميه رجال البحر الرومي: الصاري ـ شيئاً على صورة الطائر يتوقّد نوراً، لا يستطيع الناظر منهم على بصره منه ولا إدراكه كيف هو؛ فإذا استقل على أعلى الدقل يرون البحر يهدأ والأمواج تصغر والخب يسكن؛ ثم [إن] ذلك النور يفقد فلا يُدرى كيف أقبل ولا كيف ذهب؛ فذلك علم الخلاص ودليل النجاة؛ وما ذكرنا فلا تناكر فيه عند أهل المراكب والتجار من أهل البصرة وسيراف وعمان وغيرهم ممن قطع هذه البحار؛ وما ذكرناه عنهم فممكن غير ممتنع ولا واجب، إذ كان جائزاً في مقدور الباري ـ عز وجل ـ خلاص عباده من الهلاك واستنقاذهم من البلاء.

وفي هذا البحر نوع من السراطين يخرج من البحر كالذراع والشبر وأصغر من ذلك وأكبر؛ فإذا بان عن الماء بسرعة حركة وصار على البر صار حجارة، وزال عنه الحيوانية وتدخل تلك الحجارة في أكحال العين وأدويتها، وأمره مستفيض أيضاً؛ ولبحر الصين وهو البحر السابع المعروف بصَنْخَي أخبار عجيبة، قد أتينا على جُمل من أخباره وأخبار ما اتصل به من البحار فيما سمّينا من كتبنا وسلف من تصنيفنا في هذا المعنى؛ ونحن ذاكرون فيما يرد من هذا الكتاب من أخبار الملوك جوامع وجملاً من ذلك.

وليس بعد بلاد الصين مما يلي البحر ممالك تُعرف ولا بلاد تُوصف إلا بلاد السّيلى وجزائرها، ولم يصل إليها من الغرباء أحد من العراق ولا غيره، فخرج منها، لصحة هوائها ورقة مائها وجودة تربتها وكثرة خيرها إلا النادر من الناس؛ وأهلها مهادنون لأهل الصين وملوكها، والهدايا بينهم لا تكاد تنقطع؛ وقد قيل إنهم تشعبوا من ولد عامور فسكنوا هنالك على حسب ما ذكرنا من سُكنى أهل الصين في بلادهم.

وللصين أنهار كبار مثل دجلة والفرات تجري من بلاد الترك والتبت والصُّغْد، وهم بين بخارا وسمرقَنْد، وهنالك جبال النُّوشاذِر، فإذا كان في الصيف رؤيت في الليل نيران قد ارتفعت من تلك الجبال من نحو مائة فرسخ، وبالنهار يظهر منها الدخان لغلبة شعاع الشمس وضوئها وضوء النهار؛ ومن هنالك يحمل النوشاذر؛ فإذا كان في الشتاء فمن أراد من بلاد خراسان أن يسلك إلى بلاد الصين، صار إلى ما هنالك، وهنالك وادٍ بين تلك الجبال طوله أربعون ميلاً أو خمسون، فيأتي إلى أناس هنالك على فم الوادي، فيرغّبهم في الأجرة النفيسة فيحملون ما معه على أكتافهم، وبأيديهم العصيّ يضربون جنبيه خوفاً أن يبلّح ويقف فيموت من كرب الوادي، وهو يحضر أمامهم حتى يخرجوا إلى ذلك الرأس من الوادي؛ وهنالك غابات ومستنقعات لها فيطرحون أنفسهم في ذلك الماء لما قد نالهم من شدة الكرب وحر النوشاذر.

ولا يسلك ذلك الطريق شيء من البهائم لأن النوشاذر يلتهب ناراً في الصيف فلا يسلك ذلك الوادي داعٍ ولا مجيب؛ فإذا كان الشتاء وكثرت الثلوج والأنداء، وقع على ذلك الموضع فأطفأ حر النوشاذر ولهيبه، فسلك الناس حينئذٍ ذلك الوادي؛ والبهائم لا صبر لها على ما ذكرنا من حرّه؛ وكذلك من ورد من بلاد الصين فعل به من الضرب ما فعل بالمار.

والمسافة بين بلاد خراسان على الموضع الذي ذكرنا إلى بلاد الصين نحو من أربعين يوماً بين عامر وغامر ودهاس ورمال؛ وفي غير هذا الطريق مما يسلكه البهائم نحو من أربعة أشهر إلا أن ذلك في خفارات أنواع من الترك؛ وقد رأيت ببلخ شيخاً جميلاً ذا رأي وفهم وقد دخل الصين مراراً كثيرة ولم يركب البحر قطُّ؛ وقد رأيت عدة من الناس ممن سلك من بلاد الصّغْد على جبال النوشاذر إلى أرض التُّبت والصين ببلاد خراسان.

وبلاد الهند متصل ببلاد خراسان والسند مما يلي المنصورة والمولتان، والقوافل متصلة من السند إلى خراسان، وكذلك إلى الهند إلى أن تتصل هذه الديار ببلاد ذابُلِستان أي بلاد زابُلِستان، وهي بلاد واسعة تُعرف بمملكة فيروز بن كبك، وفيها قلاع عجيبة ممتنعة ولغات مختلفة وأمم كثيرة، قد تنازع الناس في أنسابهم، فمنهم من ألحقهم بولْد يافث بن نوح، ومنهم من ألحقهم بالفرس الأول في نسب طويل.

وبلاد التُّبت مملكة متميّزة من بلاد الصين، والغالب عليهم حِمير وفيهم بعض التبابعة على حسب ما ذكرنا من أخبار ملوك اليمن فيما يرد من هذا الكتاب، وذلك موجود

في كتاب أخبار التبابعة؛ ولهم حضر وبدو، وبواديهم ترك لا تدرك كثرةً ولا يقوم لها أحد من بوادي الأتراك؛ وهم معظّمون في سائر أجناس الترك لأن الملك كان فيهم في قديم الزمان، وعند سائر أجناس الترك أن الملك سيعود إليهم ويرجع فيهم.

ولبلد التُّبت خواص عجيبة في هوائه ومائه وأرضه وسهله وجبله، ولا يزال الإنسان به ضاحكاً أبداً فرِحاً مسروراً، ولا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار؛ ولا تحصى عجائب أنواع ثماره وزهره ومروجه وأنهاره، وهو بلد تقوى فيه طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره من الحيوان؛ ولا تكاد ترى في هذه البلاد شيخاً حزيناً ولا عجوزاً بل الطرب في الشيوخ والكهول والشبان والأحداث عام؛ وفي أهله رقة طبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي والمُعاقرة وأنواع إيقاع الرقص، حتى إن الميّت إذا مات لا يكاد يُداخل أهله مطلوب؛ ولهم تحنُّن كثير بعضهم على بعض والتيتُّم فيهم عام؛ وكذلك يظهر من بهائمهم.

وهذا البلد سُمّي بمن ثبت فيه ورُتّب به من رجال حِميَر، فقيل: ثبت لثبوتهم فيه، وقيل لمعانٍ غير ذلك، والأشهر ما وصفنا؛ وقد افتخر دِعْبِل ابن عليّ الخُزاعي بذلك في قصيدته التي يناقش فيها الكُميت ويفخر بقحطان على نزار فقال:

وهم كتبوا الكتاب بباب مروٍ وباب الصين كانوا الكاتبينا

وهم سمّوا سمرقنداً بشمْرٍ وهم غرسوا هناك التُّبتينا

وسنذكر في باب أخبار ملوك اليمن طرفاً من أخبار ملوكهم ومن طاف منهم البلاد فيما يرد من هذا الكتاب.

وبلاد التُّبت متاخمة لبلاد الصين وأرضها من إحدى جهاته، ولأرض الهند وخُراسان ولمفاوز الترك؛ ولهم مدن وعمائر كثيرة ذوات منعة وقوة، وقد كانوا في قديم الزمان يسمّون ملوكهم تُبعاً اتباعاً لاسم تُبّع ملك اليمن، ثم إن الدهر ضرب ضربانه فتغيرت لغاتهم عن الحميرية وحالت إلى لغات تلك البلاد بمن جاورهم من الأُمم حتى قد سمّوا ملوكهم بخاقان.

والأرض التي فيها ظباء المسك من التّبتي والصيني فأرض واحدة متصلة؛ وإنما بان فضل المسك الثبتي على الصيني لجهتين إحداهما أن ظباء الثبت ترعى سنبل الطيب وأنواع الأفاويه، وظباء الصين ترعى الحشيش دون ما ذكرنا من أنواع حشيش الطيب التي

ترعاها الثبتية. والجهة الأخرى أن أهل الثبت لا يعرضون لإخراج المسك من نوافجه ويتركونه على ما هو به، وأهل الصين يخرجونه من النوافج ويلحقونه الغش بالدم وغيره من أنواع الغش؛ وأن الصيني أيضاً يُقطع به ما وصفنا من مسافة البحار وكثرة الأنداء واختلاف الأهوية، وإن عُدم من أهل الصين الغش في مسكهم وأودع البراني الزجاج وأحكم عفاصها ووكاؤها وورد إلى بلاد الإسلام من عُمان وفارس والعراق وغير ذلك من الأمصار، كان كالثبتي في جودته.

وأجود المسك وأطيبه ما خرج من الظباء بعد بلوغه النهاية في النضج؛ وذلك أنه لا فرق بين غزلاننا هذه وبين غزلان المسك في الصورة ولا الشكل ولا اللون ولا القرن، وإنما يتبين ذلك بأنياب لها كأنياب الفيلة، لكل ظبي نابان خارجان من الفكين قائمان منتصبان أبيضان، نحو الشبر وأقل وأكثر؛ فينصب لها ببلاد الثبت الحبائل والشراك والشباك فيصطادونها؛ وربما رموها بالسهام فيصرعونها ويقطعون عنها نوافجها والدم في سررها خام لم ينضج وطري لم يدرك، فيكون لرائحته سهوكة؛ فيبقى زماناً حتى يزول عنه تلك الروائح السهكة الكريهة وتستحيل بمواد من الهواء، فيصير مسكاً؛ وسبيل ذلك سبيل الثمار أبينت عن الأشجار وقطعت قبل استحكام نضجها في شجرها واستحكام مواد ما فيه.

وخير المسك ما نضج في وعائه وأدرك في سرته واستحكم في حيوانه وتمام مواده، وذلك أن الطبيعة تدفع مواد الدم إلى سرّته فإذا استحكم كون الدم فيها ونضخ آذاه ذلك وحكّه فيفزع حينئذٍ إلى الصخور والأحجار الحارة من حر الشمس فيحتك بها مستلذاً بذلك، فينفجر ويسيل على تلك الأحجار كانفجار الخراج والدُّمّل إذا نضج ما فيه عند ترادف المواد عليه، فيجد لخروجه لذة، فإذا أفرغ ما في نافجته ــ وتفسير ذلك: السُرّة، وهو اسم فارسي ــ اندمل حينئذٍ، ثم دفعت إليه مواد من الدم تجتمع ثانية ككونها بدءاً.

فتخرج رجال الثبت يقصدون مراعيها بين تلك الأشجار والجبال، فيجدون الدم قد جفّ على تلك الصخور والأحجار قد أحكمته المواد وأنضجته الطبيعة في حيوانه وجففته الشمس وأثر فيه الهواء؛ فيأخذونه؛ فذلك أفضل المسك، فيودعونه نوافج عندهم قد أخذوها من غزلان اصطادوها مستعدة معهم؛ فذلك الذي تستعمله ملوكهم ويتهادونه بينهم، وتحمله التجار في النادر من بلادهم؛ والثبت ذو مدن كثيرة فيضاف

مسك كل ناحية إليها.

قال المسعودي: وقد أقرّت ملوك الصين والترك والهند والزابج وسائر ملوك العالم لملك بابل بالتعظيم، وأنه أول ملوك العالم، ومنزلته فيهم كمنزلة القمر في الكواكب، لأن إقليمه أشرف الأقاليم، ولأنه أكثر الملوك مالاً وأحسنهم طبعاً وأكثرهم سياسة وحزماً؛ هذا كان فيما مضى وصف ملوك هذا الإقليم، لا في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة؛ فكانوا يلقّبون هذا الملك بشاهان شاه، وتفسير ذلك: ملك الملوك، ومنزلته من العالم منزلة القلب من جسد الإنسان والواسطة من القِلادة؛ ثم يتلوه ملك الهند وهو ملك الحكمة وملك الفيلة لأنه عند الملوك الأكاسرة أن الحكمة من الهند بدؤها.

ثم يتلو ملك الهند في المرتبة ملك الصين، وهو ملك الرعاية والسياسة وإتقان الصنعة، وليس في ملوك العالم أكثر رعاية وتفقُّداً من ملك الصين لرعيته من جنده وعوامه؛ وهو ذو بأس شديد وقوة ومنعة، له من الجنود المستعدة والكراع والسلاح، ويرزق جنده كفعل ملك بابل؛ ثم يتلو ملك الصين ملك من ملوك الترك صاحب مدينة كُوشان وهو ملك الطُّغُزْغُز من الترك يدعى ملك السباع وملك الخيل إذ ليس في ملوك العالم أشد بأساً من رجاله ولا أشد استسياداً منهم على سفك الدماء ولا أكثر خيلاً منه؛ ومملكته فرز بين بلاد الصين ومفاوز خراسان ويدعى بالاسم الأعم إيْغُرخان؛ وللترك ملوك كثيرة وأجناس مختلفة لا تنقاد إلى ملك، إلا أنه ليس منهم من يداني ملكه.

ثم يتلوه ملك الروم ويدعى ملك الرجال؛ وليس في ملوك العالم أصبح وجوهاً من رجاله؛ ثم تتساوى ملوك العالم في الترتيب وتتقارب مراتبها، وقد قال ذو عناية بأخبار العالم وملوكه في شعر يصف جملاً من مراتب ملوك العالم وممالكهم وأسمائهم، فقال:

الدار داران: إيوانٌ وغمدانُ ... والمُلك مُلكان ساسان وقحطانُ

والأرض فارسُ، والإقليم بابل، وال ... إسلام مكة، والدنيا خراسانُ

والجانبان الغُلندانِ اللذا خشنا ... منها بُخارا فبلْخُ الشاهِوارانُ

والبَيْلَقانُ وطبرستان فارِزُها ... والريُّ شِروانها والجيل جيلانُ

قد رتّب الناس جمّاً في مراتبهم ... فمرزُبانٌ وبطريق وطرخانُ

فالفرس كسرى، وفي الروم القياصر والـ حَبْشُ النـجـاشـي والأتـراك خـاقـانُ

وصاحب صقلية وإفريقية من بلاد المغرب قبل ظهور الإسلام كان يُدعى جُرْجير؛ وصاحب الأندلس يُدعى لُذَريق وهذا كان اسم سائر ملوك الأندلس؛ وقد قيل إنهم كانوا من الأشبان وهي أمة من ولد يافِثَ بن نوح دثرت هنالك؛ والأشهر عند من سكن الأندلس من المسلمين أن لذريق كان من الجلالقة وهم نوع من الإفرنجة، وآخر لذريق كان من ملوك الأندلس الذي قتله طارق مولى موسى بن نُصَير حين افتتح بلاد الأندلس ودخل إلى مدينة طُلَيْطلة دار مملكتهم.

ويشقّها نهر عظيم يدعى تاجه يخرج من بلاد الجلالقة والوَشْكَند وهي أمة عظيمة لهم ملك وهم حرب لأهل الأندلس كالجلالقة والإفرنجة؛ ويصبّ هذا النهر إلى البحر الرومي وهو نهر موصوف من أنهار العالم؛ وعليه على بُعد من مدينة طليطلة مدينة طلبيرة ثم قنطرة عظيمة تدعى قنطرة السيف بنتها ملوك سالفة وهي من البنيان الموصوف المذكور، وإنها أعجب عقوداً من قنطرة سنجة من الثغر الجزري مما يلي سميساط وبلاد سرجه؛ ومدينة طليطلة ذات منعة وعليها أسوار منيعة.

وقد كان أهلها بعد أن فُتحت وصارت لبني أمية عصوا على الأمويين، فأقامت مدة سنين ممتنعةً لا سبيل للأمويين إليها؛ فلما كان بعد الخمس عشرة والثلاثمائة افتتحها عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، وعبد الرحمان هذا هو صاحب الأندلس في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

وقد كان عوّر كثيراً من بنيان هذه المدينة حين افتتحها فصارت دار مملكة الأندلس قرطبة إلى هذا الوقت، ومن قرطبة إلى طليطلة نحو من سبع مراحل، ومن قرطبة إلى البحر مسيرة نحو من ثلاثة أيام؛ ولهم على يوم من ساحل البحر مدينة يقال لها إشبِيلية؛ وبلاد الأندلس يكون مسيرة عمائره ومدنه نحواً من شهرين، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة.

وتُدعى بنو أمية بها ببني الخلائف، ولا يخاطبون بالخلفاء لأن الخلافة لا يستحقها عندهم إلا من كان مالكاً للحرمين، غير أنه يخاطب بأمير المؤمنين؛ وكان عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان سار إلى الأندلس في سنة تسع وثلاثين ومائة، فملكها ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، ثم هلك فملكها ابنه هشام بن عبد

الرحمان سبع سنين، ثم ملكها ابنه الحكم بن هشام نحواً من عشرين سنة وولْده ولاتها إلى اليوم، على ما ذكرنا أن صاحبها عبد الرحمان بن محمد وولي عهد عبد الرحمان في هذا الوقت ابنه الحكم وهو أحسن الناس سيرةً وأجملهم عدلاً.

وقد كان عبد الرحمان صاحب الأندلس في هذا الوقت المتقدم ذكره غزا سنة سبع وعشرين وثلاثمائة في أزيد من مائة ألف من الناس، فنزل على دار مملكة الجلالقة وهي مدينة يقال لها سمُّورة، عليها سبعة أسوار من عجيب البنيان، قد أحكمتها الملوك السالفة، بين الأسوار فُصلان وخنادق ومياه واسعة، وافتتح منها سورين؛ ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم ممن أدركه الإحصاء ممن عرف أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً وكانت للجلالقة والوشكند على المسلمين، وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الإفرنجة، ومدينة أبرونة خرجت عن أيدي المسلمين سنة ثلاثين وثلاثمائة مع غيرها مما كان في أيديهم من المدن والحصون؛ وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة من شرق الأندس طُرطوشة على ساحل بحر الروم ثم مما يلي طرطوشة آخذاً في الشمال أفراغة على نهر عظيم، ثم لارِدة؛ ثم بلغني أن هذه الثغور تلاقي الإفرنجة وهي أضيق مواضع الأندلس.

وقد كان قبل الثلاثمائة ورد إلى الأندلس مراكب في البحر فيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم؛ زعم أهل الأندلس أنهم أمة من المجوس تطرأ عليهم من هذا البحر في كل مائتين من السنين، وأن وصولهم إلى بلادهم من خليج يعترض من بحر أقيانس وليس بالخليج الذي عليه المنارة النحاس، وأرى ــ والله أعلم ــ أن هذا الخليج متصل ببحر مائِطس ونِبُطس وأن هذه الأمة هم الروس الذين قدّمنا ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب، إذ كان لا يقطع هذه البحار المتصلة ببحر أقيانس غيرهم.

وقد أصيب في البحر الرومي مما يلي جزيرة إقريطُش ألواح المراكب الساج المثقبة المخيّطة بليف النارجيل، من مراكب قد عطبت فتقاذفت بها الأمواج من مياه البحار؛ وهذا لا يكون إلا في البحر الحبشي لأن مراكب البحر الرومي والعرب كلها ذوات مسامير، ومراكب البحر الحبشي لا يثبت فيها مسامير الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديد فترقّ المسامير في البحر وتضعف، فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلاً منها، وطليت بالشحم والنورة؛ فهذا يدل ــ والله أعلم ــ على اتصال البحار، وأن البحر مما يلي الصين وبلاد السيلى يدور على بلاد الترك ويفضي إلى بحار المغرب من بعض خلجان أقيانس المحيط.

وقد كان وجد بساحل بلاد الشام عنبر قذف به البحر، وهذا من المستنكر في البحر الرومي الذي لم يعهد فيه من قديم الدهر مثله؛ ويمكن أن يكون سبيل وقوع العنبر إلى هذا البحر سبيلَ ما ذكرنا من ألواح مراكب البحر الصيني، والله أعلم بكيفية ذلك؛ والعنبر كثير ببحر الأندلس، يجهز إلى مصر وغيرها ويحمل إلى قُرطُبة من ساحل لها يقال له شَنْتَرِين وشَذُونة، تبلغ الأوقية منها بالأندلس ثلاثة مثاقيل ذهب، والأوقية بالبغدادي وتباع بمصر أوقيته بعشرة دنانير، وهو عنبر غير جيد؛ ويمكن أن هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء.

وبالأندلس معدن عظيم للفضة ومعدن للزئبق ليس بالجيد، يجهز إلى سائر الإسلام والكفر؛ وكذلك يحمل من بلاد الأندلس الزعفران وعروق الزنجبيل، وأصول الطيب خمسة أصناف: المسك والكافور والعود والعنبر والزعفران، كلها تحمل من أرض الهند وما اتصل بها إلا الزعفران والعنبر فيوجد بأرض الزنج والشحر والأندلس؛ وأنواع الأفاويه خمسة وعشرون صنفاً وهي: السنبل والقرنفل والصندل والجوزبوّا والورد والسليخة والزّرْنَب والقِرفة والقرنوَة والقاقُلّة والكبابة والهالبَوّا وحب المنشَم والفاغيرة والمحلب والورس والقُسط والأظفار والبُرنك والفرو واللاذن والميعة والقَنبيل وقصب الذريرة والزبادة؛ وقد أتينا على وصف المعادن من الفضة والذهب والزئبق وسائر أنواع الطيب في كتابنا في أخبار الزمان، فأغنى ذلك عن الإكثار من وصفها في هذا الكتاب.

ولبحر المغرب أخبار عجيبة فيما قرب منه من عمائر السودان وأقاصي أرض المغرب؛ وقد ذكر ذوو العناية بشأن أخبار العالم أن أرض الحبشة وسائر السودان كلها مسيرة سبع سنين، وأن أرض مصر جزءٌ واحد من ستين جزءاً من أرض السودان، وأن أرض السودان جزء واحد من [ستين جزءاً من؟] الأرض كلها، والأرض كلها مسيرة خمسمائة عام: ثلث عمران مسكون وثلث براري غير مسكونة، وثلث بحار.

وتتصل أقاصي السودان العراة بآخر بلاد ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب من أرض المغرب، وهي بلاد تِلِمْسان وناهرت وبلاد فاس، ثم بلاد السوس الأدنى؛ وبين السوس الأدنى وبين بلاد القيروان نحو ألفي ميل وثلاثمائة ميل، وبين السوس الأدنى وبين السوس الأقصى من المسافة نحو من عشرين يوماً عمائر متصلة، إلى أن يتصل ذلك بوادي الرمل والقصر الأسود، ثم يتصل ذلك بمفاوز الرمل

التي فيها المدينة المعروفة بمدينة النحاس وقباب الرصاص التي سار إليها موسى بن نُصير في أيام عبد الملك بن مروان، ورأى فيها ما رأى من العجائب؛ وقد ذكر ذلك في كتاب يتداوله الناس، وقد قيل إن ذلك في مفاوز تتصل ببلاد الأندلس وهي الأرض الكبيرة.

وقد كان ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم الفارسي ـ وهو إباضي المذهب وهو الذي أنشأ في ذلك البلد مذهب الخوارج وقد قيل إنهم من بقايا الأشبان ـ عمّر تلك الديار وكانت له حروب مع الطالبيين؛ وقد ذكرنا فيما يرد من هذا الكتاب تنازع الناس في الأشبان، ومن قال إنهم من الفرس ناقلة من بلاد إصبهان؛ وفي هذا الصقع من بلاد المغرب خلق من الصُّفرية الخوارج لهم مدن ممدّنة مثل مدينة درعة وفيها معدن كبير للفضة، وهو مما يلي الجنوب ويتصل ببلاد الحبشة، والحرب بينهم سجال.

وقد ذكرنا في كتابنا في أخبار الزمان خبر المغرب ومدنها ومن سكنها من الخوارج الإباضية والصّفرية، ومن سكن المغرب من المعتزلة، وما بينهم وبين الخوارج من الحروب؛ وذكرنا خبر ابن الأغلب التميمي وتولية المنصور له على المغرب ومقامه ببلاد إفريقية وما كان من أمره في أيام الرشيد، وتداول ولده بلاد إفريقية وغيرها من بلاد المغرب، إلى أن انتهى الأمر إلى أبي مضر زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بن إبراهيم بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن سالم بن سوادة التميمي، وهو رأس الدُّعاة لبني العباس، فأخرجه عنها أبو عبد الله المحتسب الصوفي الداعي لصاحب المهدية حين ظهر في كتامة وغيرها من أحياء البربر، وذلك في سنة سبع وتسعين ومائتين في أيام المقتدر بالله، ومسيره إلى الرافقة والرقة؛ وكان هذا المحتسب من مدينة رامهُرْمُز من كور الأهواز.

ونعود إلى ذكر مراتب الملوك ونسق ما بقي من الممالك على البحر الحبشي الذي شرعنا في وصف من عليه، فنقول إن ملك الزنج: وفليمِي، ملك اللأن: كرْكُنْداج، ملك الحيرة من بني نصر: النعمانية والمناذِرة، ملك جبال طبرستان: كان يدعى قارن والجبل معروف به وبولْده إلى هذا الوقت، ملك الهند: البلّهَرى، ملك قنّوْج من ملوك السند: بُرُوزة، وهذا اسم كل ملك يلي القنوج وهنا مدينة يقال لها بروزة باسم ملوكهم، وقد صارت اليوم في حيّز الإسلام وهي من أعمال المولتان، ومن هذه المدينة يخرج أحد

الأنهار التي إذا اجتمعت كانت نهر مِهران السند الذي زعم الجاحظ أنه من النيل، وزعم غيره أنه من جيحون خراسان؛ وبروزة هذا الذي هو ملك القنّوج هو ضد البلّهري ملك الهند.

وملك قندّهار من ملوك السند وجبالها يدعى جحّج وهذا اسمه الأعم، ومن بلاده يخرج النهر المعروف براوي وهو أحد الأنهار الخمسة التي مهران السند منها، والقندهار يعرف ببلاد الرهيوْط، ونهر من الخمسة يخرج من بلاد السند وجبالها يعرف ببهاطل ويجتاز بلاد الرهيوط وهي بلاد القندهار؛ والنهر الرابع يخرج من بلاد كابل وجبالها وهي تخوم السند مما يلي بُست وغَزْنين ودُرغش والرُّخج وبلاد الدوار مما يلي بلاد سِجستان.

ونهر من الخمسة يخرج من بلاد قشمير، وملك قشمير يعرف بالراي، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم؛ وقشمير هذا من ممالك السند وجبالها مملكة عظيمة يحتوي ملكها من مدن وضياع على نحو من ستين ألفاً إلى سبعين ألفاً، لا سبيل لأحد من الناس إلى بلده إلا من وجه واحد ويغلق على جميع ما ذكرنا من ملكه باب واحد لأن ذلك في جبال شوامخ ذات منعة لا سبيل للرجال أن يتسلّقوا عليها ولا للوحش أن يلحق بعلوها ولا يلحقها إلا الطير؛ وما لا جبل فيه فأودية وعرة وأشجار وغياض وأنهار ذات منعة من شدة الانصباب والجريان؛ وما ذكرنا من منعة هذا الجبل فمشهور بأرض خراسان وغيرها من البلاد وذلك إحدى عجائب الدنيا.

فأما مملكة بروزة وهو ملك القنوج فإن مسافة مملكته نحو من عشرين ومائة فرسخ في مثلها، فراسخ سنديّة، الفرسخ ثمانية أميال بهذا الميل؛ وهو الملك الذي قدّمنا ذكره فيما سلف أن جيوشاً أربعة على مهاب الرياح الأربع، كل جيش سبعمائة ألف، وقيل تسعمائة ألف: فيحارب بجيش الشمال صاحب المولتان ومن معه في ذلك الثغر من المسلمين، ويحارب بجيش الجنوب البلهري ملك المانكير، وبالجيوش الباقية من يلقاه من كل وجه من الملوك؛ ويقال إن ملكه يحيط في مقدار ما ذكرنا من المسافة من المدن والقرى والضياع مما يدركه الإحصاء والعدد ألف ألف وثمانيمائة ألف قرية بين أشجار وأنهار وجبال ومروج، وهو قليل الفيلة من بين الملوك، ورسمه لحربه ألفا فيل حربية تقاتل.

وذلك أن الفيل إذا كان فارهاً ممارساً شجاعاً وكان راكبه فارساً وفي خرطوم الفيل

القرطل وهو نوع من السيوف وخرطومه مغشّى بالزرد والحديد وعليه تجافيف قد أحاطت بسائر جسمه من القرن والحديد وكان حوله خمسمائة راجل يمنعونه ويحرزونه من ورائه، حارب ستة آلاف فارس وقام بهم وأدناها إذا كان معه خمسمائة راجل كر على خمسة آلاف فارس ودخل وخرج وجال عليهم كالرجل على الفرس؛ وهذا رسم فيلتها في سائر حروبها.

فأما صاحب المولتان فقد قلنا إن الملك في ولد سامة بن لؤي بن غالب وهو ذو جيش ومنعة، وهو ثغر من ثغور المسلمين الكبار؛ وحول ثغر المولتان من ضياعه وقراه عشرون ومائة ألف قرية مما يقع عليه الإحصاء والعد، وفيه على ما ذكرنا الصنم المعروف بالمولتان يقصده السند والهند من أقصى بلادهم بالنذور من الأموال والجواهر والعود وأنواع الطيب، ويحج إليه الألوف من الناس؛ وأكثر أموال صاحب المولتان مما يحمل إلى هذا الصنم من الأعواد السرية من العود القماري الخالص الذي يبلغ منه المن مائتي دينار، وإذا خُتم بالخاتم أثر فيه كما يؤثر في الشمع، وغير ذلك من العجائب التي تُحمل إليه؛ وإذا نزلت الملوك من الكفار على المولتان وعجز المسلمون عن حربهم هددوهم بكسر هذا الصنم وتعويره: فترحل الجيوش عنهم عند ذلك؛ وكان دخولي إلى بلاد المولتان بعد الثلاثمائة والملك بها أبو اللهّاب المنبّه بن أسد القُرشي السامي.

وكذلك كان دخولي إلى بلاد المنصورة في هذا الوقت، والملك عليها أبو المنذر عمر بن عبد الله؛ ورأيت بها وزيره رياحاً وابنيه محمداً وعلياً؛ ورأيت بها رجلاً من العرب سيداً من ساداتها وملكاً من ملوكها، وهو المعروف بحمزة، وبها خلق من ولد علي بن أبي طالب ثم من ولد عمر بن علي وولد محمد بن علي، وبين ملوك المنصورة وآل أبي الشوارب القاضي قرابة ووصلة ونسب؛ وذلك أن ملوك المنصورة الذين الملك فيهم في وقتنا هذا من ولد هبّار بن الأسود ويعرفون ببني عمر بن عبد العزيز القرشي، وليس هو عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي.

فإذا اجتاز جميع ما ذكرنا من الأنهار ببلاد فرج بيت الذهب وهو المولتان اجتمعت بعد المولتان بثلاثة أيام فيما بين المولتان والمنصورة في الموضع المعروف بدوشاب؛ فإذا انتهى جميع ذلك إلى مدينة الرور من غربها وهي من أعمال المنصورة سُمّي هنالك مهران؛ ثم ينقسم قسمين ويصب كلا القسمين من هذا الماء العظيم المعروف بمهران السند في مدينة ساكرة من أعمال المنصورة في البحر الهندي، وذلك على مقدار يومين من مدينة الديبُل.

والمسافة من المولتان إلى المنصورة خمسة وسبعون فرسخاً سندياً على ما ذكرنا، والفرسخ ثمانية أميال؛ وجميع ما للمنصورة من الضياع والقرى مما يضاف إليها ثلاثمائة ألف قرية وزروع وأشجار وعمائر متصلة؛ وفيها حروب كثيرة من جنس يقال لهم المئد وهم نوع من السند، وغيرهم من الأجناس وهم ثغر السند، وكذلك المولتان من ثغور السند ومما أضيف إليها من العمائر والمدن، وسمّيت المنصورة باسم منصور بن جمهور عامل بني أمية.

ولملك المنصورة فيلة حربية وهي ثمانون فيلاً، رسم كل فيل أن يكون حوله على ما ذكرنا خمسمائة راجل وأنه يحارب ألوفاً من الخيل على ما ذكرنا، ورأيت له فيلين عظيمين كانا موصوفين عند ملوك السند والهند لما كانا عليه من البأس والنجدة والإقدام على فل الجيوش؛ وكان اسم أحدهما منفرقلس والآخر حيدرة، ولمنفرقلس هذا أخبار عجيبة وأفعال حسنة وهي مشهورة في تلك البلاد وغيرها؛ منها أنه مات بعض سواسه، فمكث أياماً لا يطعم ولا يشرب يبدي الحنين ويظهر الأنين كالرجل الحزين، والدموع تجري من عينيه لا تنقطع؛ ومنها أنه خرج ذات يوم من حائره وهي دار الفيلة وحيدرة وراءه وباقي الثمانين تبع لهما؛ فانتهى منفرقلس في سيره إلى شارع قليل العرض من شوارع المنصورة ففاجأ في مسيره امرأةً على حين غفلة منها؛ فلما أبصرت به دهشت واستلقت على قفاها من الجزع فانكشفت عنها أطهارها وسط الطريق؛ فلما رأى ذلك منفرقلس وقف بعرض الشارع مستقبلاً بجنبه الأيمن من وراءه من الفيلة مانعاً لهم من النفوذ من أجل المرأة، وأقبل يشير إليها بخرطومه بالقيام ويجمع عليها ثيابها ويستر منها ما بدا، إلى أن استقلت المرأة وتزحزحت عن الطريق وعاد إليها روحها، فاستقام الفيل في طريقه واتبعته الفيلة.

وللفيلة أخبار عجيبة الحربية منها والعمالة لأن منها ما لا تحارب فتجرّ العجل وتحمل عليها الأثقال وتستعمل في دراس الأرز وغيره من الأقوات كدرس البقر في البيدر؛ وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار الزنج الفيلة وكونها في بلادها إذ ليس في سائر الممالك أكثر منها في بلاد الزنج، وهي وحشية هنالك كلها؛ فهذه جمل من أخبار ملوك السند والهند.

ولغة السند خلاف لغة الهند، والسند مما يلي الإسلام ثم الهند، ولغة أهل المانكير وهي دار مملكة البلهري كيرية مضافة إلى الصقع وهي كيرية، ولغة ساحله مثل صيمور

وسوبارة وتانة وغير ذلك من مدن الساحل لارية مضافة إلى البحر الذي هم عليه وهو لاروي وقد تقدّم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب.

ولهذا الساحل أنهار عظيمة تجري من الجنوب بالضد من أنهار العالم، وليس في أنهار العالم ما يجري من الجنوب إلى الشمال إلا نيل مصر ومهران السند ويسير من الأنهار، وما عدا ذلك من أنهار العالم يجري من الشمال إلى الجنوب، وقد ذكرنا وجه العلة في ذلك وما قاله الناس في هذا المعنى في كتابنا في أخبار الزمان وذكرنا ما انخفض من الأرض وما ارتفع.

وليس في ملوك السند والهند من يعزّ المسلمين في ملكه مثل البلهري: فالإسلام في ملكه عزيز مصون، ولهم مساجد مبنية وجوامع معمورة للصلوات الخمس، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين فصاعداً؛ وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسُنة العدل وإكرام المسلمين؛ وهو ملك يرزق الجنود من بيت ماله كفعل المسلمين بجنودهم؛ ولهم دراهم طاطرية، وزن الدرهم منها وزن درهم ونصف بسكّة؛ [الملك] بدءُ تأريخ مملكتهم [وفاة من كان قبله] وفيلته الحربية لا تحصى كثرة.

وتدعى بلاده أيضاً بلاد كمْكن ويحاربهم ملك الجرز من إحدى جهات مملكته؛ وهو ملك كثير الخيول والإبل والجنود؛ ويزعم أنه ليس في ملوك العالم أجلّ منهم إلا صاحب إقليم بابل، وهو الإقليم الرابع؛ وذلك أن هذا الملك ذو نخوة وصولة على سائر الملوك وهو مع ذلك مبغض للمسلمين؛ وهو كثير الفيلة؛ وملكه على لسان من الأرض؛ في أرضه معادن الذهب والفضة، ومبايعاتهم بها.

ثم يلي هذا الملك الطاقي، موادع لمن حوله من الملوك، مكرم للمسلمين؛ وليست جيوشه كجيوش من ذكرنا من الملوك؛ وليس في نساء الهند أحسن من نسائهم ولا أكثر منهن جمالاً وبياضاً، وهن موصوفات الخلوة مذكورات في كتب الباه؛ وأهل البحر يتنافسون في شرائهن يعرفن بالطاقيات.

ثم يلي هذا الملك مملكة دهرم، وهذه سمة لملوكهم والأعم من أسمائهم؛ ويقاتله الجرز وملكه متاخم لملكه؛ ودهرم يحارب البلّهرى أيضاً من إحدى جهات مملكته؛ وهو أكثر جيوشاً وفيلة وخيولاً من البلهرى ومن ملك الجرز ومن ملك الطاقى، وإذا خرج من حروبه فرسمُه أن يكون في خمسين ألف فيل ولا يكون حربه إلا في الشتاء لقلة صبر الفيلة على العطش وقلة لبثها؛ والمكثر من الناس يغلو في القول في كثرة جنوده:

فيزعمون أن عدد القصارين والغسّالين في عسكره من عشرة آلاف إلى الخمسة عشر ألفاً.

وحرب من ذكرنا من الملوك كراديس، كل كردوس عشرون ألفاً، أربعة أوجه، كل وجه من الكردوس خمسة آلاف؛ ومملكة دهرم تعاملهم بالودع، وهو مال البلد؛ وفي بلده العود والذهب والفضة والثياب التي ليست لغيره دقة ورقة؛ ومن بلده يحمل الشعر الموصوف بالصمر الذي يتخذ منه المذاب بنصب العاج والفضة التي يقوم بها الخدم على رؤوس الملوك في مجالسها.

وفي بلده الحيوان المعروف بالبشان المعلَّم وهو الذي يسمّيه عوام الناس بالكركدّن؛ له في مقدّم جبهته قرن واحد، وهو دون الفيل في الخلقة وأكبر من الجاموس، إلى السواد، وهو يجترّ كما تجترّ البقر وغيره مما يجترّ من الحيوان، والفيلة تهرب منه؛ وليس في أنواع الحيوان ـ والله أعلم ـ أشد منه: وذلك أن أكثر عظامه ضم لا مفصل في قوائمه فلا يبرك ولا ينام، وإنما يكون بين الشجر والآجام يستند إليه عند نومه؛ والهند تأكل من لحمه وكذلك من في بلادهم من المسلمين لأنه نوع من البقر والجواميس؛ والجواميس بأرض الهند والسند كثيرة؛ وهذا النوع من الحيوان ـ وهو البشان ـ يكون في أكثر غابات الهند إلا أنه في مملكة دهرم أكثر وقرونه أصفى وأحسن؛ وذلك أن قرنه أبيض، في وسطه صورة سوداء وفي ذلك البياض إما صورة إنسان أو صورة طاؤوس بتخطيطه وشكله أو صورة سمكة أو صورته في نفسه أو صورة نوع من الحيوان مما يوجد في تلك الديار.

فينشر هذا القرن ويُتّخذ منه المناطق بالسيور على صورة الحلية من الذهب والفضة، فتلبسها ملوك الصين وخواصها، تتنافس في لبسها وتتبالغ في أثمانها: فيبلغ ثمن المنطقة ألفي دينار إلى أربعة آلاف، فيها معاليق الذهب، وذلك في نهاية الحسن والإتقان، وربما يقمع بأنواع من الجواهر بقضبان الذهب؛ ووجوه تلك الصور مكتتبة بسواد في بياض؛ وربما يوجد في قرونه بياض في سواد؛ وليس في كل بلد يوجد في قرن البشان ما ذكرنا من الصور.

وقد زعم الجاحظ أن الكركدن يحمل في بطن أمه سبع سنين وأنه يخرج رأسه من فرج أمه فيرعى، ثم يُدخل رأسه في بطنها؛ وهذا القول أورده في كتاب الحيوان على طريق الحكاية والتعجب؛ فبعثني هذا الوصف على مسألة من تولّج تلك الديار من أهل سيراف وعمان ومن رأيت بأرض الهند من التجار: فكل يتعجب من قولي إذا أخبرته

بما عندي من هذا وسألته عنه ويخبرونني أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس؛ ولست أدري كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ أمن كتاب نقلها أم مخبر أخبره بها.

ولدهرم في ملكه بر وبحر؛ ويلي ملكه ملك لا بحر له يقال له ملك لكشْميبُر وأهل مملكته بيض مخرمو الآذان، لهم فيلة وإبل وخيول وحسن وجمال للرجال والنساء؛ ثم بعد هؤلاء ملك التنْلُوِنج وله بر وبحر، وهو على لسان من البر في البحر؛ يقع إلى بلده عنبر كثير، وفي بلده فلفل يسير؛ وله فيلة كثيرة، وهو ذو بأس بين الملوك وزهو وفخر، وزهوه أكثر من قوته وفخره أكثر من بأسه.

ثم يلي هذا الملك ملك الموجه، وأهل مملكته بيض ذوو حسن وجمال، غير مخرّمي الآذان؛ لهم خيل كثيرة وعُدد منيعة؛ والمِسك في بلادهم كثير على ما قدمنا من غزلانه ووصف ظبائه فيما سلف من هذا الكتاب؛ وهذه الأمة تشبه بأهل الصين في لباسهم؛ وجبالهم منيعة شواهق بيض لا يعلم بأرض السند والهند وما ذكرنا من هذه الممالك جبال أطول منها ولا أمنع؛ ومسكهم موصوف مضاف إلى بلادهم يتعارفه البحريون ممن عُني بحمل ذلك وتجهيزه، وهو المسك المعروف بالمُوجهي.

ثم يلي ملك الموجه مملكة المابُد ولهم مدن كثيرة وعمائر واسعة وجنود عظيمة؛ وملوكهم تستعمل الخدم والخصيان في عمالات بلدهم من المعادن وجباية الأموال والولايات وغيرها، كفعل ملوك الصين على حسب ما وصفنا من أخبارهم، والمابُد مجاورون لمملكة الصين، والرسل تختلف بينهم بالهدايا؛ وبينهم جبال منيعة وعقاب صعبة؛ وللمابُد البأس العظيم والبطش الشديد والقوة؛ وإذا دخل رسُل ملك المابُد مملكة الصين وكل بهم ولم يتركوهم ينتشرون في بلادهم خوفاً من أن يقفوا على طرقهم وعورات بلدهم لكثرة المابد في نفوسهم.

قال المسعودي: ولمن ذكرنا من الهند والصين وغيرهم من الأمم أخلاق وشيم في المآكل والمشارب والمناكح والملابس والعلاج والأدوية كالكي بالنار وغيره؛ وقد ذكر عن جماعة من ملوكهم أنهم لا يرون حبس الريح في أجوافهم لأنه داء يؤذي ولا يحتشمون من إظهارها في سائر أحوالهم؛ وكذلك فعل حكمائهم ورأيهم أن حبسها داء يؤذي وإرسالها شفاء ينجي، وأن ذلك العلاج الأكبر وأن فيه راحة لصاحب القولنج المحصور ودواء للسقيم المطحول؛ فليس يحبسون ضرطة ولا يحصرون فسوة ولا يرون ذلك عيباً.

والهند لمتقدمون في صناعة الطب، ولهم فيه اللطافة والحذق؛ وذكر هذا المخبر عن الهند أن السعال عندهم أقبح من الضراط وأن الجشاء في وزن الفساء وأن صوت الضرطة دباغها والمُذهب عنها ريحها، واستشهد هذا المخبر على صحة ما حكاه عن الهند باستفاضة القول في ذلك في كثير من الناس عنهم حتى ذكر ذلك عنهم في السير والأخبار والنوادر والأشعار.

فمن ذلك ما ذكر أبان بن عبد الحميد في القصيدة المعروفة بذات الحُلل وهو:

قد قال ذو العلم النصيحُ الهندي ... مقالة أجادَ فيها عندي

لا تحبس الضرطة إما حضرتْ ... وخلّها وافتح لها ما استفتحتْ

فإن أدوا الداء في إمساكها ... والروح والراحة في إفكاكها

والقبح في السُّعال والمُخاط ... والشؤم في العُطاس لا الضراط

أما الجشاء ففساء صاعدُ ... ونتنه على الفساء زائدُ

وإن الريح واحدة في الجوف، وإنما تختلف أسماؤها باختلاف مخارجها: فما يذهب صعداً يسمى جشاء وما يذهب سفلاً يُسمى فساء ولا فرق بين الريحين إلا باختلاف المخرجين؛ وكما يقال: الصفعة واللطمة لأن اللطمة في الوجه والصفعة في مؤخر الرأس والقفا، والجنس واحد، وإنما اختلفت أسماؤها لاختلاف الموضعين وتباين المكانين؛ وإن الحيوان الناطق إنما كثرت علله وترادفت أدواؤه واتصلت أمراضه كالقولنج وأوجاع المعدة وغير ذلك من العوارض بحبس الداء في جوفه وترك إظهاره في حال هيجانه وتفرُّغ الطبيعة لدفعه وإخراجه؛ وإن سائر الحيوان غير الناطق إنما بعد عما ذكرنا من الآفات والمعترضات من العاهات لسرعة خروج ما يعرض ويثور من الأدواء في أجوافها وعدم احتباسها في وعائها.

وإن الفلاسفة والمتقدمين من الحكماء اليونانيين كدمقريطُس وفيتاغورس وسقراط وديوجانس وغيرهم من حكماء الأمم لم يكونوا يرون حبس شيء من ذلك لعلمهم بما يتولّد من آفاته وما يعرض ويؤول إليه في متعاقباته، وإن ذلك يجده في نفسه كل ذي حس وإن ذلك يعلم بالطبع ويدرك بضرورة العقل؛ وإنما استقبح ذلك أناس من أصحاب الشرائع والكتب لما وردت به الشرائع ومنعت منه الملل ولم يجر في عاداتهم.

القـــرود(*)

ووراء تلك الجبال الأربعة على ساحل خسفة أخرى قريبة القعر، فيها آجام وغياض فيها أنواع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه، والأغلب عليها صور الناس وأشكالهم إلا أنهم ذوو شعر؛ وربما وقع في النادر القرد منهم إذا احتيل في اصطياده، فيكون في نهاية الفهم والدراية، إلا أنه لا لسان له فيعبّر بالنطق ويفهم كل ما يخاطب به بالإشارة؛ وربما حمل الواحد منهم إلى ملوك الأمم هنالك فتعلمه القيام على رؤوسها بالمذابّ على موائدها لما في القرد من الخاصة بمعرفة السموم من المأكل والمشرب، فيؤذني الملك منه طعامه فيشمه ويلقي له بشيء منه: فإن أكله أكل الملك منه وإن اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه؛ وكذلك فعل الأكثر من ملوك الصين بالقرود؛ وقد ذكرنا في هذا الكتاب وفد الصين حين وفدوا على المهدي وما ذكروا له في القرد من منافع ملوكهم به عند الطعام؛ وذكرنا خبر القرود باليمن ولوح الحديد الذي كتبه سليمان بن داوود عمّ عهداً للقرود باليمن وما كان من أمرهم مع عامل معاوية بن أبي سفيان وما كتب به إليه في أمرهم ووصف القرد العظيم الذي كان في رقبته اللوح؛ وليس في قرود العالم أفطن من هذا النوع من القرود ولا أخبث.

وذلك أن القرود تكون في بقاع من الأرض حارة فمنها بأرض النوبة وأعلى بلاد الأحابيش مما يلي أعالي مصب النيل، وهي القرود المعروفة بالنوبية، صغيرة القدود وصغيرة الوجوه، ذات سواد غير حالك كأنه نوبي، وهي التي تكون مع القرّادين وتصعد إلى رمح فتصير على أعلاه؛ ومنها ما يكون في ناحية الشمال في آجام وغياض، نحو أرض الصقالبة وغيرها ممن هنالك من الأمم كنحو ما وصفنا من هذا النوع من القرود وقرب شكله من صورة الإنسان؛ ومنها بخلجانات بلاد الزابج في بحر الصين وفي مملكة المهراج ملك الجزائر، وقد قدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن ملكه يوازي ملك الصين وهو بين مملكة البلهرى وملك الصين؛ وهذه القرود مشهورة في هذا الصقع معروفة بالكثرة في هذه الخلجانات وهي ذات صورة تامة.

وقد كان تُحمل إلى المقتدر بالله منها في سلاسل ــ وكان في القرود ذوو لحى وسبال كبار وشيوخ وشبان ــ وحيات عظام وأنواع من الهدايا من عجائب البحر، حمل ذلك

(*) مروج الذهب، الفقرات ٨٤٥ ــ ٤٩٢.

أحمد بن هلال أمير عمان يومئذٍ؛ وهذه القرود أمرها مشتهر عند البحريين من أهل سيراف وعمان ممن يختلف إلى بلاد كله والزابج وكيف تتأتى بالحيلة لصيد التماسيح من جوف الماء، على أن الجاحظ قد ذكر أن التماسيح لا تكون إلا بنيل مصر ونهر مهران السند؛ وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب ما قيل في ذلك وأخبرنا عن مواضع التماسيح.

فأما اليمن فلا تناكر بين من دخله أن القرود منه في مواضع كثيرة لا تحصى عدداً لكثرتها؛ فمنها في وادي نخلة وهو بين بلاد الجند وزبيد التي أميرها في هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، إبراهام بن زياد صاحب الحرملي، وبين هذا الوادي وبين زبيد يوم وبين الجند وبينه يوم أو أكثر من ذلك؛ وهذا الوادي كثير العمائر ومصابّ المياه إليه كثيرة، وشجر الموز والقرود فيه كثيرة، وهو بين جبلين؛ والقرود قطعان كل قطيع منها يسوقه هزر والهزر الذكر العظيم الفحل المقدّم فيها؛ وقد تلد القردة في بطن واحد عدة من القرود نحو العشرة والاثني عشر كما تلد الخنزيرة خنانيص كثيرة؛ وتحمل القردة البعض من أولادها كحمل المرأة ولدها ويحمل الذكر باقيهن، ولهم أندية ومجالس يجتمع فيها خلق منهم فيسمع لهم حديث ومخاطبات وهمهمة؛ والإناث كالنساء متحيّزات عن الذكور؛ وإذا سمع السامع محادثتهن وهو لا يرى أشخاصهن بين تلك الجبال والأشجار والموز وذلك بالليل لم يشك أنهم ناس لكثرتهم بالليل والنهار.

وليس في جميع البقاع التي فيها القرود أحسن ولا أخبث ولا أسرع قبولاً للتعليم من قرود اليمن؛ وأهل اليمن يسمون القرد الرباح، ولهم جمم للذكور والإناث قد سُرّحت، منها سود كأسود ما يكون من الشعر؛ وإذا جلسوا يجلسون مراتب دون مرتبة الرئيس ويتشبهون في سائر أعمالهم بالناس؛ ومن القرود باليمن في بلاد مأرب بين بلاد صنعاء وقلعة كهلان في برارٍ هياك كأنها سحاب في تلك الجبال والبراري لكثرتها.

وللقرود في اليمن مواضع كثيرة، وكذلك في بقاع من الأرض أعرضنا عن ذكرها إذ كنا قد أتينا على علة تكونها في بعض البقاع دون بعض من الأرض وأخبار النسناس في كتابنا في أخبار الزمان، وكذلك الإخبار عن العرابد وهو نوع من الحيات تكون في بلاد حجر اليمامة فيما زعموا، واحدها عربد؛ وكان المتوكل في بدء خلافته سأل حنين بن إسحق أن يتأتى له في حمل أشخاص من النسناس والعربد ولم يسلم إلى سرّ من

رأى إلا اثنين من النسناس ولم يتأت له الحيلة في حمل العربد من اليمامة؛ وذلك أن العربد هذا يخرج عن اليمامة فإذا صار إلى موضع منها معروف المسافة عدم من الوعاء الذي يحمل فيه؛ وأهل اليمامة ينتفعون به لمنع الحيات والعقارب وسائر الهوام كمنفعة أهل سجستان بالقنافذ؛ وذلك أن في عهد أهل سجستان القديم ألا يقتل قنفذ ببلدهم لأنه بلد كثير الرمال بناه ذو القرنين في مطافه وحوله جبال كثيرة من الرمل قد سُكرت بالخشب والقصب، والبلد كثير الأفاعي وأنواع الحيات جداً: فلولا كثرة القنافذ لتلف من هنالك من الناس.

وكذلك أهل مصر في صعيدها وغيره، لهم دويبة يقال لها العرائس أكبر من الجرذ وأصغر من ابن عرس حمراء بيضاء البطن، لولا هذه الدويبة لغلب على أهل مصر الثعابين وهي نوع من الحيات عظيمة: فينطوي الثعبان على هذه الدويبة ويلتف بها فترخي عليه الريح فينقطع الثعبان من ريحها؛ هذه خاصية هذه الدويبة؛ وفي الشرق أنواع من الخواص في بره وبحره وحيوانه ونباته وجماده؛ وكذلك في الغرب والتيمن وهو الجنوب والجربي وهو الشمال؛ وقد ذكرنا طبع كل واحد من هذه الأرباع وفي ذكرها في هذا الباب خروج عن الغرض الذي يممنا نحوه.

القسم الثالث

الديار والأمم والاعتقادات

١

البلدان والأوطان(*)

ذكر ذوو الدراية أن عمر بن الخطّاب حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأرض، كتب إلى بعض حكماء ذلك العصر: «إنّا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن الأمصار، فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها وما يؤثره الترب والأهوية في سكّانها»؛ فكتب إليه ذلك الحكيم: «اعلم يا أمير المؤمنين أن الله قد قسم الأرض أقساماً شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً؛ فما تناهى في التشريق ولجّ في المطلع السانح منه النور فهو مكروه لاحتراقه وناريته وحدته وإحراقه من حلّ به؛ وما تقحم مغرباً أضرّ بسكّانه أيضاً لمواراته أذية مما أوغل في التشريق؛ وهكذا ما تناهى في الشمال أضرّ ببرده وقرّه وثلوجه وآفاته بالأجسام وأورثها الآلام؛ وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريته ما اتصل به من الحيوان، ولذلك صار المسكون من الأرض جزءاً يسيراً ناسب الاعتدال وأخذ بحظّه من حسن القسمة؛ وسأصف لك يا أمير المؤمنين أمر القطع المسكونة من الأرض: «أما الشام فثجّ ركام وسحّ غمام وغدق رهام ترطب الأجسام وتبلد الأحلام وتصفي الألوان، لا سيما أرض حمص فإنها تحسن الجسم وتصفي لونه وتبلّد الفهم وتنزح غوره وتجفي الطبع وتذهب بماء القريحة وتنهب العقول؛ والشام يا أمير المؤمنين وإن كان على ما وصفت لك فمسرح خصب وإبل سكب، كثرت أشجاره واطّردت أنهاره وغمرت أعشاره وبه منازل الأنبياء القدس المجتبى، وفيه حل أشراف خلق الله من الصالحين والمتعبّدين، وجباله مساكن المجتهدين.

(*) مروج الذهب، الفقرات ٩٧٣ ــ ٩٩٠.

«وأما أرض مصر، فأرض قوراء غوراء ديار الفراعنة ومنازل الجبابرة، تفضل بنيلها، وذمها أكثر من حمدها؛ هواؤها راكد وحرها زائد وشرها وارد تكدّر الألوان وتخبب الفطن وتكثر الإحن، وهي معدن الذهب والجوهر والزمرّد والأموال والمغارس والغلات والأفحال، غير أنها تسمن الأجسام وتسوّد الأبشار وتنمو بها الأعمار؛ في أهلها مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة، إلا أنها بلد مكسب لا بلد مسكن لترادف فتنها واتصال شرورها.

«وأما اليمن فيضعف الأجسام ويهذب الأحلام ويذهب بالرطوبة، في أهله همم كبار ولهم أحساب وأخطار، ومغابطه خصبة وأطرافه جدبة، وفي هوائه انقلاب وفي سكّانه اغتيال، ولهم قطعة من الحسن وشعبة من الرقة وفقرة من الفصاحة.

«وأما الحجاز فحاجز بين الشام واليمن والتهائم، هواؤه حرور وليله بهور، ينحف الأجسام ويحشّف الأدمغة ويشجع القلوب ويسقط الهمم ويبعث على الإحن وهو بلد قحط جدب ضنك. وأما بلاد المغرب فيقسي القلب ويوحش الطبع ويطيش اللبّ ويذهب بالرحمة ويكسب الشجاعة ويقشع الضراعة؛ وفي أهله غدر ولهم خبث ومكر وديارهم مختلفة وهممهم غير مؤتلفة ولديارهم في آخر الزمان نبأ عظيم وخطب جسيم من أمور تظهر وأحوال تبهر.

«وأما العراق فنار المشرق وسرة الأرض وقلبها، إليه تطاردت المياه وبه اتصلت النضارة وعنده وقف الاعتدال فصفت أمزجة أهله ولطفت أذهانهم واحتدّت خواطرهم وتصلّبت مرائرهم، فظهر منهم الدهاء وقويت عقولهم وثبتت بصائرهم. وقلب الأرض العراق وهو المجتبى على قديم الزمان وهو مفتاح الشرق ومسلك النور ومسرح العينين، ومدنه المدائن بما والاها ولأهله أعدل الألوان وأنقى الروائح وأفضل الأمزجة وأطوع القرائح، وفيهم جوامع الفضائل وقواعد المتخيرات وفضائله كثيرة لصفاء جوه وطيب نسيمه واعتدال تربته وإغداق المياه إليه ورفاهة العيش به.

«وأما الجبال فتخشن الأجسام وتغلظها وتبلّد الأفهام وتقطعها وتفسد الأحلام وتميت الهمم لما هي عليه من غلظ التربة ومتانة الهواء وتكاثفه واختلاف مهابه وسوء متصرفاته؛ والأخلاق والصور يا أمير المؤمنين تناسب البلد وتقاربه وتوازيه وتوافقه؛ فكل بلد اعتدل هواؤه وخف ماؤه ولطف غذاؤه كانت صور أهله وخلائقهم تناسب ما عليه أركانه وما أسس به بنيانه؛ وكل بلد يزول عن الاعتدال انتسب أهله إلى سوء الحال.

«وأما أرض خراسان فتُكبر الهام وتعظم الأجسام وتلطّف الأحلام ولأهلها عقول وهمم طامحة وفيهم غوص وتفكير ورأي وتقرير.

«وأما بلد فارس فخصب الفضاء رقيق الهواء متراكم الماء معتم بالأشجار، كثير الثمار، وفي أهله شُحّ وخبّ وغرائزهم سيئة وهممهم دنية وفيهم مكر وخداع.

«وأما بلاد خوزستان وهي كور الأهواز فتفسد الأحلام وتبلد الأفهام وتخبث الهمم وتستأصل الكرم ويساق أهله سوق الأنعام والهمج الطغام.

«وأما أرض الجزيرة فتناسب البر والهواء اللطيف وفيها خصب وسرح وفي أهلها همم ولهم بأس ومراس. والبر يا أمير المؤمنين أفضل قطع الأرض وأسناها وأشرفها وأعلاها نحو الأنجاد والتهائم لحمايته الهواء والأقذاء عن سكّانه ورفعه الآفات عن قطّانه وسماحة الهواء وتهذيب الماء وصحة المتنسّم وارتفاع الأكدار وذهاب الأضرار؛ واعلم يا أمير المؤمنين أن الله قسم الأرض أقساماً فضّل بعضها على بعض، فأفضل أقسامها العراق وهو سيد الآفاق، وقد سكنه أجيال وأمم ذوو كمال.

«وأما الهند والصين وأرض الروم فلا حاجة بي إلى وصفها لك لأنها منازل شاسعة نائية وبلدان كافرة طاغية؛ وفي الذي ذكرته لك ما أشفى بك إلى ما سموت إلى علمه وكل ما وصفته في هذه البلدان فهو الأعم من أمور أهلها والأغلب من أحوالهم؛ فإن وجد فيهم أحد بخلاف ذلك فهو النادر يا أمير المؤمنين فالحكم في ذلك للأغلب».

قال المسعودي: وذكر جماعة من أهل العلم بالسير والأخبار أن عمر بن الخطاب لما أراد الشخوص إلى العراق حين بلغه ما عليه الأعاجم من الجمع ببلاد نهاوند سأل كعب الأحبار عن العراق؛ فقال: «يا أمير المؤمنين إن الله لما خلق الأشياء لحق كلٌّ شيء بشيء؛ فقال العقل: أنا لاحق بالعراق، فقال العلم: وأنا معك؛ فقال المال: أنا لاحق بالشام؛ فقالت الفتن: وأنا معك؛ فقال الخصب: أنا لاحق بمصر، فقال الذلّ: وأنا معك؛ فقال الفقر: أنا لاحق بالحجاز، فقالت القناعة: وأنا معك، فقال الشفاء: أنا لاحق بالبوادي، فقالت الصحة: وأنا معك».

قال المسعوديّ: وأوسط الأقاليم الإقليم الذي ولدنا به وإن كانت الأيام أبانت بيننا وبينه وساحقت مسافتنا عنه وولدت في قلوبنا الحنين إليه إذ كان وطننا ومسقطنا، وهو إقليم بابل، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلاً وقدره عظيماً وكانت عنايتها إليه مصروفة وكانوا يشتون بالعراق وأكثرهم يصيفون في الجبال وينتقلون في الفصول إلى

الصرود من الأرض والجروم وقد كان أهل المروّات في الإسلام مثل أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي وغيره يشتون في الجروم وهي العراق ويصيفون في الصرود وهي الجبال، ولذلك يقول أبو دلف:

وإني امرؤٌ كِسرويُّ الفِعال أصيفُ الجبالَ وأشتو العراقا

وذلك لما خُص به هذا الإقليم من كثرة مرافقه واعتدال أرضه وغضارة عيشه ومادة الرافدَيْن إليه وهما دِجلة و الفرات، وعموم الأمن فيه وبُعد الأشرار عنه وتوسطه الأرض وإقليم الشمس المتوسطة الأقاليم السبعة؛ وقد كانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسم، لأن أرضه من إقليم بابل الذي تشعبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يرتفع ذلك عن القلب؛ ولذلك اعتدلت ألوان أهله واقتدرت أجسامهم فسلموا من شقرة الروم والصقالبة وسواد الحبشة وغلظ البربر ومن جفاء الأمم واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار؛ وكما اعتدلوا في الخلقة كذلك لطفوا في الحكمة والتمسك بمحاسن الأمور؛ وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام ويعزٌ عليّ ما أصارتني إليه الأقدار من فراق هذا المصر الذي عن بقعته فصلنا وفي قاعه نجمنا، لكن الزمن هو الذي من شأنه التشتيت والدهر الذي من شرطه الإبانة.

وقد ذكرت العلماء فيما إليه خرجنا من هذا المعنى أن من علامة وفاء المرء ودوام عهده حنينه إلى إخوانه وشوقه إلى أوطانه وبكاؤه على ما مضى من زمانه، وأن من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها توّاقة وللإلف والعادة قطع الرجل نفسه لصلة وطنه؛ قال ابن الزبير: «ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم»؛ وقال بعض الحكماء العرب: «عمّر الله البلدان بحب الأوطان»؛ وقالت الهند: «حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك لأن غذاءك منهما وغذاءهما منها»؛ وقال آخر: «أولى البلدان بصيانتك بلد رضعت ماءه وطعمت غذاءه»؛ وقال آخر: «ميلك إلى موضع مولدك من كرم محتدك»؛ وقال أبقراط: «يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع بهوائها وتنزع إلى غذائها»؛ وقال أفلاطون: «غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها»؛ وقال جالينوس: «يتروّح العليل بنسيم أرضه كما تثوب الجنة ببل القطر»؛ وللنفوس في علة حنينها إلى الأوطان كلام ليس هذا موضعه وقد ذكرناه في كتابنا المترجم بسر الحياة وفي كتاب طب النفوس.

ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر لبطل أول العلم وضاع آخره، إذ كان كل

علم فمن الأخبار يستخرج وكل حكمة منها تستنبط والفقه منها يستثار والفصاحة منها تستفاد وأصحاب القياس عليها يبنون وأهل المقالات بها يحتجون ومعرفة الناس منها تؤخذ وأمثال الحكماء فيها توجد ومكارم الأخلاق ومعاليها منها تقتبس وآداب سياسة الملك والحرب منها تلتمس وكل غريبة منها تُعرف وكل عجيبة منها تُستطرف؛ وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل، ويأنس بمكانه وينزع إليه الخاصي والعامي ويميل إلى روايته العربي والعجمي؛ وبعد فإنه يوصل به كل كلام ويُتزين به في كل مقام ويُتجمّل به في كل مشهد ويُحتاج إليه في كل محفل؛ ففضيلة علم الأخبار بينة على كل علم وشرف منزلته صحيح في كل فهم ولا يصير على علمه وتيقّن ما فيه وإيراده وإصداره إلا إنسان قد تجرّد للعلم وفهم معناه وذاق ثمرته واستشعر من عزّه ونال من سروره.

وقد قالت الحكماء: «الكتاب نِعم الذخر والعقدة والجليس والعدة، إن شئت ألهتك بوادره وأنستك نوادره وإن شئت أشجتك مواعظه، وإن شئت تعجّبت من فوائده؛ وهو يجمع لك الأول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والبادي والحاضر والشكل وخلافه والجنس وضده، وهو ميّت ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء، وهو مؤنس ينشط بنشاطك وينام بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى؛ ولا نعلم جاراً أبرّ ولا خليطاً أنصف ولا رفيقاً أطوع ولا معلماً أخضع ولا صاحباً أظهر كفاية ولا أقل جناية ولا أجدى نفعاً ولا أحمد أخلاقاً ولا أقل خلافاً ولا أدوم سروراً ولا أسكت غيبة ولا أحسن موافاة ولا أعجل مكافاة ولا أخف مؤونة منه؛ إن نظرت فيه أطال إمتاعك وشحذ طباعك وأيّد فهمك وأكثر علمك، وتعرف منه في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، ويغنيك عن كد الطلب والخضوع لمن أنت أثبت منه أصلاً وأنتج منه فرعاً؛ وهو المعلّم الذي لا يجفوك وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وهو الذي يعطيك بالليل كطاعته لك بالنهار ويعطيك في السفر كطاعته لك في الحضر»؛ قال الله تعالى: ﴿إقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خَلَقَ خلقَ الإنسانَ منْ علَقٍ اقرَأ وربّكَ الأكرَمُ الّذي علّمَ بالْقلَمِ علَّمَ الإنسانَ ما لم يعْلَم﴾؛ فوصف عن نفسه أنه علّم بالقلم كإخباره عن نفسه بالكرم؛ وقد كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس وينزل مقبرة وكان لا يُرى إلا وفي يده كتاب يقرؤه؛ فسئل عن ذلك فقال: «لم أرَ واعظاً أوعظ من قبر ولا ممتعاً أمتع من كتاب ولا شيئاً أسلم من الوحدة»؛

فقيل له: «قد جاء في الوحدة ما جاء» فقال: «ما أفسدها للجاهل!»؛ وقال بعض الشعراء فيمن يجمع الكتب ولا يعلم ما فيها:

زوامـلُ لـلأسـفـار لا عـلـمَ عـنـدهـم بـجـيّـدهـا إلا كـعـلـم الأبـاعـر

لـعـمـرك مـا يـدري الـبـعـيـرُ إذا غـدا بـأوسـاقـه أو راح مـا فـي الـغـرائِـر

٢

الشام واليمن(*)

تنازع الناس في اليمن وتسميته؛ فمنهم من زعم أنه سُمّي يمناً لأنه عن يمين الكعبة وهو التيمين، وسُمّي الشام شاماً لأنه عن شمال الكعبة، وسمي الحجاز حجازاً لأنه حاجز بين اليمن والشام، نحو ما أخبر الله ــ عزّ وجل ــ عن البرزخ الذي بين القُلزُم وبحر الروم بقوله ــ عزّ وجلّ ــ ﴿وجعَلَ بينَ البَحْرَيْنِ حاجِزاً﴾؛ وإنما سمي العراق عراقاً لمصب المياه إليه كدجلة والفرات وغيرهما من الأنهار فإنه مأخوذ من عراقي الدلو وعراقي القِربة.

ومنهم من زعم أن اليمن إنما سُمّي يمناً ليمنه، والشام شاماً لشُؤمه، وهذا قول يُعزى إلى قُطرب النحوي في آخرين من الناس؛ ومنهم من رأى أنه إنما سمّي يمناً لأن الناس حين تفرّقت لغاتهم ببابل تيامن بعضهم يمين الشمس وهو اليمن، وبعضهم تشاءم فوسما بهذا الاسم؛ وسنذكر تفرّق هذه القبائل من أرض بابل بعد هذا الموضع، وبعض ما قالوه في ذلك من الشعر عند مسيرهم في الأرض واختيارهم البقاع؛ وقيل: إنما سمّي الشام شاماً لشامات في أرضه بيضٍ وسود، وكذلك في الترَب والبقاع والحجر وأنواع النبات والأشجار؛ وهذا قول الكلبي: وقال الشرقيّ بن القُطامي: إنما سُمّي الشام شاماً بسام بن نوح لأنه أول من نزل به وقطنه؛ فلما سكنته العرب تطيّرت من أن تقول سام فقالت شام؛ وقيل إن سامرّى إنما سمّيت بهذا الاسم إضافة إلى سام؛ وقيل إن أول من سكنها من خلفاء بني العباس سمّاها بهذا الاسم وإنها سرور لمن يراها؛ وقد ذكر في أسماء هذه البقاع والأمصار وجوه غير ما ذكرنا، قد أتينا عليها فيما سلف من كتبنا.

(*) مروج الذهب، الفقرتان ٩٩١ و٩٩٢.

٣

مصر: ديارها ودولها وأخبارها(*)

قال المسعودي: ذكر الله ـ جلّ ثناؤه ـ مصر في مواضع من كتابه فقال ـ عزّ وجل ـ: ﴿وقالَ الّذي اشترَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ وقال: ﴿وقالَ ادْخُلوا مِصْر إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ﴾؛ وقال: ﴿وأوْحَينَا إلى مُوسَى وأخيهِ أنْ تَبوَّءا لِقومِكُما بِمصْرَ بُيُوتا﴾؛ وقال: ﴿اهبِطُوا مِصْراً فإنَّ لَكُم مَا سَألتُمْ﴾؛ وقوله: ﴿وقالَ نِسْوةٌ في المدِينةِ امرَأةُ العزيزِ تُراوِدُ فَتَاهَا عنْ نفْسِهِ﴾، والمدينة هي مصر.

ووصف بعض الحكماء مصر، فقال: «ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء»؛ فأما اللؤلؤة البيضاء، فإن مصر في شهر أبيب ـ وهو تموز ـ، ومسري ـ وهو آب ـ، وتوت ـ وهو أيلول ـ، يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها على رواب وتلال مثل الكواكب، وقد أحاطت بها المياه من كل وجه، فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض إلا في الزوارق؛ وأما المسكة السوداء، فإن في شهر بابه ـ وهو تشرين الأول ـ، وهاتو ـ وهو تشرين الثاني ـ، وكيهَك ـ وهو كانون الأول ـ، ينكشف عنها الماء وينضب عن أرضها فتصير أرضاً سوداء، وفيها تقع الزراعات وللأرض روائح طيبة تشبه روائح المسك؛ وأما الزمردة الخضراء، فإن في شهر طوبه ـ وهو كانون الثاني ـ، وفي أمشير ـ وهو شباط ـ، وبرمهات ـ وهو آذار ـ، تلمع بكثرة عشبها ونباتها، فتصير الدنيا خضراء كالزمردة؛ وأما السبيكة الحمراء، فإن في شهر برمودة ـ وهو نيسان ـ، وبشنس

(*) مروج الذهب، الفقرات ٧٧٣ ـ ٨٢٢.

ـ وهو أيار ـ، وبونه ـ وهو حزيران ـ، يبيضّ الزرع ويتورّد العشب فهو كسبيكة الذهب منظراً ومنفعة؛ وسنذكر هذه الشهور بالسريانية والعربية والفارسية ونسمي كل شهر منها بعد هذا الموضع من هذا الكتاب، وإن كنا قد أتينا على جميع ذلك في الكتاب الأوسط.

وقد قالت العرب في النيل إنه إذا زاد غاضت الأنهار والعيون والآبار، وإذا غاض زادت، فزيادتها من غيضه وغيضها من زيادته؛ قال البصري:

يفيض، إذا زادت به الأنهار   في الأرض ذات العرض والمقدار

وقالت الهند: زيادته ونقصانه بالسيول ونحن نعرف ذلك بتوالي الأنواء وكثرة الأمطار وركود السحاب؛ وقالت الروم: لم يزد قط ولم ينقص، وإنما زيادته بالشمال إذا كثرت واتصلت فتحبسه فيفيض على وجه الأرض. وقالت القِبط: زيادته ونقصانه من عيون في شاطئه يراها من سافر ولحق بأعاليه؛ وقد ذكرنا تنازع الناس في النيل وزيادته ممن سلف وخلف على الشرح والإيضاح وغيره من الأنهار الكبار والبحار والبحيرات الصغار في كتاب أخبار الزمان في الفن الثاني، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الكتاب.

ومصر من سادات القرى ورؤساء المدن. قال الله ـ عز وجل ـ حاكياً عن فرعون: ﴿أليسَ لي مُلْكُ مِصْر وهذِهِ الأنهَارُ تجْرِي مِنْ تحتِي أفَلا تُبصِرون﴾ وقال ـ عز وجل ـ حاكياً عن يوسف: ﴿اجْعلنِي عَلَى خزَائِنِ الأرْضِ﴾ وهي مصر؛ وليس في أنهار الدنيا نهر يسمى بحراً ويماً غير نيل مصر لكبره واستبحاره؛ وقد قدّمنا فيما سلف من كتبنا الخبر عن جبل القمر الذي بدأ النيل منه، وما يظهر من تأثير القمر فيه عند زيادته ونقصانه من النور والظلام في البدر والمحاق؛ وقد رُوي عن زيد بن أسلم في قوله جل من قائل: ﴿فإنْ لمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ﴾، قال: هي مصر: إن لم يصبها مطر أزكت، وإن أصابها مطر ضعفت؛ وقال بعض الشعراء يصف مصر ونيلها:

مصر ومصرٌ شأنها عجيبُ   ونيلها تجري به الجنوبُ

وهي مصر اسمها كمعناها، وعلى اسمها سُمّيت الأمصار ومنها اشتقّ هذا الاسم عند علماء البصريين؛ وقد قال عمرو بن معدي كرب:

فالنيل أصبح زاخراً بمدودِهِ   وجرت له ريح الصبا فجرى لها

قال المسعودي: ويبتدئ نيل مصر بالتنفس والزيادة بقية بونه ـ وهو حزيران ـ، وأبيب

ـ وهو تموز ـ، ومسري ـ وهو آب ـ، فإذا كان الماء زائداً ازداد شهر توت كله ـ وهو أيلول ـ إلى انقضائه؛ فإذا انتهت الزيادة إلى ذراع ست عشرة ففيه تمام خراج السلطان وخصب الناس وفيه ظمأ رِيع البلاد عام، وهو ضار للبهائم لعدم المرعى والكلأ، وأتم الزيادات كلها النافعة للبلد كله سبع عشرة ذراعاً، وفي ذلك كفافها وري جميع أرضها؛ وإذا زاد على السبع عشرة ذراعاً وبلغ ثماني عشرة ذراعاً وغلقها استبحر من مصر الربع وفي ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرنا من وجه الاستبحار وغير ذلك؛ وإذا كانت الزيادة ثماني عشرة ذراعاً كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء بمصر؛ وأكبر الزيادات ثماني عشرة ذراعاً؛ وقد كان النيل بلغ في زيادته تسع عشرة ذراعاً وذلك في سنة تسع وتسعين في خلافة عمر بن عبد العزيز؛ ومساحة الذراع إلى أن تبلغ اثنتي عشرة ذراعاً ثمانية وعشرون إصبعاً ومن اثنتي عشرة ذراعاً إلى ما فوق تصير الذراع أربعة وعشرين إصبعاً؛ وأقل ما يبقى في قاع المقياس من الماء ثلاث أذرع، وفي مثل تلك السنة يكون الماء قليلاً؛ والأذرع التي يستسقى عليها بمصر ذراعان تسميان منكراً ونكيراً، وهما الذراع الثالثة عشرة والذراع الرابعة عشرة؛ فإذا انصرف الماء عن هاتين الذراعين أعني ثلاث عشرة وأربع عشرة وزيادة نصف الذراع من الخمس عشرة استسقى الناس بمصر وكان الضرر شاملاً لكل البلد، إلى أن يأذن الله في زيادة الماء؛ وإذا تم خمس عشرة ودخل في ست عشرة كان فيه صلاح لبعض الناس ولا يستسقى فيه، وكان ذلك نقصاً من خراج السلطان.

ولليلة الغُطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام الناس فيها، وهي ليلة إحدى عشرة تمضي من طوبة وست من كانون الثاني؛ ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس في مصر والإخشيد محمد بن طُغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يُطيف بها، وقد أمر فأُسرج من جانب الجزيرة وجانب الفُسطاط ألفا مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر النيل في تلك الليلة مئو الآلاف من الناس من المسلمين والنصارى، منهم في الزوارق، ومنهم في الدور الدانية للنيل، ومنهم على الشطوط، لا يتناكرون الحضور ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف؛ وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً، ولا تغلق فيها الدروب، ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أنه أمان من المرض ونُشرة من الداء.

وقد كانت مصر على ما زعم أهل الخبرة والعناية بأخبار شأن هذا العالم يركب أرضها ماء النيل وينبسط على بلاد الصعيد إلى أسفل الأرض وموضع الفسطاط في وقتنا هذا، وكان بدء ذلك من موضع يعرف بالجنادل بين أسوان والحبشة، وقد قدّمنا ذكر هذا الموضع فيما سلف من هذا الكتاب، إلى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه وما ينقل من التربة بتياره من موضع إلى موضع، فنضب الماء من بعض المواضع من بلاد مصر على حسب ما وصفنا عن صاحب المنطق في عمران الأرض وخرابها، فيما سلف من هذا الكتاب؛ فسكن الناس بلاد مصر ولم يزل الماء ينضب عن أرضها قليلاً قليلاً حتى امتلأت أرض مصر من المدن والعمائر وطرقوا للماء وحفروا له الخلجانات وعقدوا في وجهة المسنّيات؛ إلا أن ذلك خفي على ساكنيها لأن طول الزمان ذهب بمعرفة أول سكناهم كيف كان ذلك.

وسئل أحد حكماء أقباط مصر أمام أحمد بن طولون عن بناء الأهرام، فقال: «إنها قبور الملوك؛ كان الملك منهم إذا مات وُضع في حوض حجارة ويسمى بمصر والشام: الجرْن، وأطبق عليه، ثم يُبنى له من الهرم على قدر ما يريدون من ارتفاع الأساس، ثم يحمل الحوض فيوضع وسط الهرم، ثم يقنطر عليه البنيان والأقباء، ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذي ترونه، ويجعل باب الهرم تحت الهرم، ثم يحفر له طريق في الأرض ويعقد أزج، فيكون طول الأزج تحت الأرض مائة ذراع أو أكثر؛ ولكل هرم من هذه الأهرام باب مدخله على ما وصفت» ــ قيل له: «فكيف بنيت هذه الأهرام المملّسة وعلى أي شيء كانوا يصعدون ويبنون وعلى أي شيء كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التي لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحرّكوا الحجر الواحد إلا بجهد إن قدروا؟» ــ فقال: «كان القوم يبنون الهرم مدرّجاً ذا مراقٍ كالدرج؛ فإذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلى أسفل؛ فهذه كانت حيلتهم، وكان مع هذا لهم قوة وصبر وطاعة لملوكهم ديانية».

فقيل له: «فما بال هذه الكتابة التي على الأهرام والبرابي لا تُقرأ؟» ــ فقال: «دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم وتداولت أرض مصر الأمم، فغلب على أهلها القلم الرومي وأشكال الأحرف للروم، والقبط تقرؤه على حسب تعارفها إياه وخلطها لأحرف الروم بأحرفها على حسب ما ولّدوا من الكتابة بين الرومي والقبطي الأول؛ فذهبت عنهم كتابة آبائهم» ــ فقيل له: «فمن أول من سكن مصر؟» ــ قال:

«أول من نزل هذه الأرض مصر بن بيصر بن حام بن نوح»، ومر في أنساب ولْد نوح الثلاثة وأولادهم وتفرُّقهم في الأرض.

وكان هذا الرجل من أقباط مصر ممن يظهر دين النصرانية ورأي اليعقوبية؛ فأمر السلطان أحمد بن طولون في بعض الأيام وقد حضر مجلسه بعض أهل النظر، أن يسأله عن الدليل على صحة دين النصرانية؛ فسأله عن ذلك، فقال القبطي: «دليلي على صحتها وجودي إياها متناقضة متنافية، تدفعها العقول وتنفر منها النفوس، لتباينها وتضادها؛ لا نظر يقوّيها ولا جدل يصححها ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها؛ ورأيت مع ذلك أمماً كثيرة وملوكاً عظيمة ذوي معرفة وحسن رأي قد انقادوا إليها وتدينوا بها فعلمت أنهم لم يقبلوها ولا تدينوا بها مع ما ذكرت من تناقضها في العقل إلا لدلائل شاهدوها وآيات علموها ومعجزات عرفوها، أوجبت انقيادهم إليها والتديُّن بها».

قال له السائل: «وما التضاد الذي فيها؟» ـ قال: «وهل يدرك ذلك أو يعلم غايته؟ منه قوله بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، ووصفهم الأُقانيم والجوهر وهو الثالوث، وهل الأقانيم في أنفسها قادرة عالمة أم لا، وفي اتحاد ربهم القديم بالإنسان المحدَث، وما جرى في ولادته وصلبه وقتله، وهل في الشنيع أكبر وأفحش من إلاهٍ صلب وبُصق في وجهه ووُضع على رأسه إكليل من الشوك وضُرب رأسه بالقضيب وسُمرت يداه ونُخس بالأسنة والخشب جنباه وطلب الماء فسُقي الخل في بطيخ الحنظل؟» ـ فأمسكوا عن مناظرته وانقطعوا عن مجادلته لما قد أعطاهم من تناقض مذهبه وفساده ووهنه.

فقال طبيب لابن طولون يهودي، وقد حضر المجلس: «أيأذن لي الأمير في مخاطبته؟» ـ قال: «شأنك»؛ فأقبل على القبطي مسائلاً له: فقال له القبطي : «ومن أنت أيها الرجل وما نحلتك؟» ـ قيل له: «يهودي» ـ فقال: «مجوسي إذن» ـ قيل له: «وكيف ذلك وهو يهودي؟» ـ قال: «لأنهم يرون نكاح البنات في بعض الحالات، إذ كان في دينهم أن الأخ يتزوج بنت أخيه، وعليهم أن يتزوجوا نساء إخوتهم إذا ماتوا؛ فإذا وافق اليهودي أن تكون امرأة أخيه ابنته، لم يجد بداً من أن يتزوجها؛ وهذا من أسرارهم ومما يكتمونه ولا يظهرونه؛ فهل في المجوسية أشنع من هذا؟»؛ فأنكر اليهودي ذلك وجحد أن يكون في دينه أو يعرفه أحد من اليهود؛ فاستخبر ابن طولون [عن] صحة ذلك، فوجد ذلك الطبيب اليهودي قد تزوج بامرأة أخيه وكانت بنته.

ثم أقبل قبطي على ابن طولون، فقال: «أيها الأمير هؤلاء يزعمون ـ وأشار إلى اليهودي ـ أن الله تعالى خلق آدم على صورته وعن نبي من أنبيائهم سماه الله في كتابه أنه رآه في بعض الأيام أبيض الرأس واللحية، وأن الله تعالى قال: «إني أنا النار المحرقة والحمى الآكلة وأنا الذي آخذ الأبناء بذنوب الآباء»، ثم في توراتهم أن بنات لوط سقينه الخمر حتى سكر وزنا بهنّ وحملن منه وولدن، وأن موسى ردّ على الله تعالى الرسالة مرتين حتى اشتدّ غضب الله عليه، وأن هارون صنع العِجل الذي عبده بنو إسرائيل، وأن موسى أظهر معجزات لفرعون وفعلت السحرة مثلها؛ ثم ما قالوا في ذبائح الحيوان والتقرب إلى الله تعالى بدمائها ولحومها، وتحكمهم على العقل، ومنعهم من النظر بغير برهان، وهو قولهم إن شريعتهم لا تُنسخ ولا يقبل قول أحد من الأنبياء بعد موسى إذا انحرف عما جاء به موسى، ولا فرق في قضية العقل بين موسى وغيره من الأنبياء إذا أتى ببرهان وبان بحجة؛ ثم الأكبر من كفرهم قولهم في يوم عيد الكفور وهو يوم الاستغفار وذلك لعشر تخلو من تشرين الأول، إن الرب الصغير ويسمّونه مِيطَطْرون يقوم في هذا اليوم قائماً وينتف شعر رأسه ويقول: «ويلي إذا خربت بيتي وأيتمت بنتي وقامتي منكسة لا أرفعها حتى أبني بيتي».

وذكر عن اليهود أقاصيص وتخاليط كثيرة ومناقضات واسعة؛ ولهذا القبطي مجالس كثيرة عند أحمد بن طولون مع جماعة من الفلاسفة والثنوية والديصانية والصابئة والمجوس وعدة من متكلّمي الإسلام، قد أتينا على ذكر ما احتمل منها إيراده في كتابنا في أخبار الزمان، وذكرنا جميع ذلك في كتابنا في المقالات في أصول الديانات؛ وكان هذا القبطي، على ما نمي إلينا من خبره وصح عندنا من قوله، يذهب إلى فساد النظر والقول بتكافؤ المذاهب؛ وأقام عند ابن طولون نحو سنة. فأجازه وأعطاه: فأبى قبول شيء من ذلك، فردّه إلى بلده مكرماً؛ وأقام بعد ذلك مدة من الزمان، ثم هلك؛ وله مصنّفات تدل من كلامه على ما ذكرنا عنه، والله أعلم بكيفية ذلك؛ واليهود تأبى ما ذكره القبطي في نكاح بنت الأخ، وأكثرهم يقرّ بالتزويج ببنت الأخ.

قال المسعودي: وفي نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من أنواع الحيوان مما في البر والبحر؛ فمن ذلك [...] والفرس الذي يكون في نيل مصر إذا خرج من الماء وانتهى وطؤه إلى بعض المواضيع من الأرض، علم أهل مصر أن النيل يزيد إلى ذلك المواضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصّر عنه، لا يختلف ذلك عندهم لطول العادات والتجارب؛

وفي ظهوره من الماء ضرر بأرباب الأرضين والغلات لرعيه الزرع، وذلك أنه يظهر من الماء في الليل، فينتهي إلى موضع من الأرض؛ ثم يولي عائداً إلى الماء، فيرعى في حال رجوعه من الموضع الذي انتهى إليه في مسيره ولا يرعى من ذلك شيئاً في ممره كأنه يحد مقدار ما يرعاه؛ فمنها ما إذا رعت وردت إلى النيل فشربت، ثم قذفت ما في أجوافها في مواضع شتى، فينبت ذلك مرة ثانية؛ فإذا كثر ذلك من فعله واتصل ضرره بأرباب الضياع طُرح له الترمس في الموضع الذي يُعرف خروجه منه مكاكيك كثيرة مبذراً مبسوطاً، فيأكله ثم يعود إلى الماء فيربو في جوفه ويزداد في انتفاخه فينشقّ جوفه فيموت ويطفو على الماء ويُقذف به إلى الساحل؛ والموضع الذي يكون فيه لا يكاد يرى فيه تمساح؛ وهو على صورة الفرس، إلا أن حوافره وذنبه بخلاف ذلك والجبهة أوسع.

قال المسعودي: وقد ذكر جماعة من الشرعيين أن بيصر بن حام بن نوح، لما انفصل عن أرض بابل بولده وكثير من أهل بيته، غرّب نحو مصر؛ وكان له أربعة أولاد: مِصر بن بيصر وفارق بن بيصر وماح وياح؛ فنزل بموضع يُقال له منف، وبذلك يسمى إلى وقتنا هذا، وكان عددهم ثلاثين فسمّيت ثلاثين كما سُمّيت مدينة ثمانين من أرض الجزيرة وبلاد الموصل من ديار بني حمدان، وإنما نُسبت إلى عدد ساكنيها ممن كان مع نوح في السفينة؛ وكان بيصر بن حام قد كبرت سِنّه، فأوصى إلى الأكبر من ولده وهو مِصر، واجتمع الناس إليه وانضافوا إلى جملتهم وأخصبت البلاد؛ فتمّلك عليهم مصر بن بيصر وملك من حدّ رفح من أرض فلسطين من بلاد الشام، وقيل من العريش، وقيل من الموضع المعروف بالشجرة وهو آخر أرض مصر والفرق بينها وبين الشام، وهو الموضع المشهور بين العريش ورفح إلى بلاد أسوان من أرض الصعيد طولاً ومن أيلة وهي تخوم الحجاز إلى برقة عرضاً.

وكان لمصر أولاد أربعة وهم: قُبط وأشمون وأتريب وصا؛ فقسم مصر بين أولاده الأربعة الأرض أرباعاً، وعهد إلى الأكبر من ولده وهو قبط وأقباط مصر يضافون في النسب إلى أبيهم قبط بن مصر، وأضيفت المواضع إلى ساكنيها وعرفت بأسمائهم: أشمون وقبط وصا وأتريب، وهذه أسماء هذه المواضع إلى هذه الغاية؛ واختلطت الأنساب وكثر ولد قبط ـ وهم الأقباط ـ فغلبوا على سائر الأرض، ودخل في أنسابهم لما ذكرنا من الكثرة؛ فقيل للكل قبط مصر، وكل فريق عرف نسبه واتصاله بمصر بن بيصر بن حام بن نوح إلى هذه الغاية.

ولما هلك قبط بن مصر ملك بعده أشمون بن مصر، وملك بعده صا بن مصر، وملك بعده أتريب بن مصر؛ ثم ملك بعده ماليق بن بدارس؛ ثم ملك بعده خرباتا بن ماليق؛ ثم ملك بعده كلكن بن خرباتا، وأقام في تلك نحو مائة سنة؛ ثم ملك أخ له يقال له ماليا بن خرباتا؛ ثم ملك بعده توطس بن ماليا نحواً من سبعين سنة؛ ثم ملكت ابنة له يقال لها حوريا بنت توطس نحواً من ثلاثين سنة؛ ثم ملكت بعدها امرأة أخرى يقال لها ماموم؛ وكثر ولد بيصر بن حام بأرض مصر فتشعبوا وملّكوا النساء؛ فطمعت فيهم ملوك الأرض: فسار إليهم من الشام ملك من ملوك العماليق يقال له الوليد بن دومع، فكانت له حروب معها وغلب على الملك فانقادوا إليه، واستقام له الأمر إلى أن هلك؛ ثم ملك بعده الريان بن الوليد العملاقي وهو فرعون يوسف؛ وقد ذكر الله تعالى خبره مع يوسف وما كان من أمرهما في كتابه العزيز، وقد أتينا على شرح ذلك في الكتاب الأوسط.

ثم ملك بعده دارِم بن الريان العملاقي؛ ثم ملك أكسامس بن معديوس العملاقي؛ ثم ملك بعده الوليد بن مُصعب وهو فرعون موسى؛ وقد تُنوزع فيه: فمن الناس من رأى أنه من العماليق، ومنهم من رأى أنه من لخم من بلاد الشام، منهم من رأى أنه من الأقباط من ولد مصر بن بيصر، وكان يعرف بطلمى، وقد أتينا على ذلك في الكتاب الأوسط؛ وهلك فرعون غرقاً حين خرج في طلب بني إسرائيل حين أخرجهم موسى بن عمران، ففتح الله تعالى لهم طريقاً في البحر يبساً؛ فلما غرق فرعون ومن كان معه من جنوده خشي من بقي بأرض مصر من الذراري والنساء والعبيد أن تغزوهم ملوك الشام والمغرب، فملّكوا عليهم امرأة ذات رأي وحزم يقال لها دلوكة؛ فبنت على بلاد مصر حائطاً يحيط بجميع البلاد، وجعلت عليه المحارس والأحراس والرجال متصلة أصواتهم يقرب بعضهم من بعض، وأثر هذا الحائط باق إلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، يُعرف بحائط العجوز؛ وقيل إنها بنته خوفاً على ولدها وكان كثير القنص، فخافت عليه سباع البر والبحر واغتيال من جاور أرضهم من الملوك والبوادي فحوّطت الحائط من التماسيح وغيرها؛ وقد قيل في ذلك من الوجوه غير ما وصفنا.

فملكتهم ثلاثين سنة وقيل أقل من ذلك واتخذت بمصر البرابي والصور وأحكمت آلات السحر وجعلت في البرابي صور من يرد من كل ناحية ودوابهم إبلاً كانت أو خيلاً، وصوّرت فيها من يرد في البحر من المراكب من نحو المغرب والشام وجمعت

في هذه البرابي العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة وخواص الأحجار والنبات والحيوان من الجاذبة والدافعة، وجعلت ذلك في أوقات حركات فلكية واتصالها بالمؤثرات العلوية؛ فكانوا إذا ورد عليهم جيش من نحو الحجاز أو اليمن غُوّرت تلك الصور التي في البرابي من الإبل وغيرها، فيتغوّر ما في ذلك الجيش وينقطع ناسه وحيوانه؛ وإذا كان الجيش من نحو الشام فعل في تلك الصور التي من تلك الجهة التي أقبل منها جيش الشام ما فعل بما وصفنا فيحدث في ذلك الجيش من الآفات في ناسه وحيوانه ما صنع بتلك الصور؛ وكذلك من ورد من جيوش المغرب ومن ورد في البحر من رومية الشام وغير ذلك من الممالك؛ فهابتهم الملوك والأمم ومنعوا ناحيتهم من عدوهم واتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز وإتقانها في أقطار المملكة وإحكامها السياسة.

وقد تكلّم الناس ممن سلف وخلف في هذه الخواص وأسرار الطبيعة التي كانت ببلاد مصر وهذا الخبر من فعل العجوز مستفيض عند المصريين لا يشكون منه والبرابي بمصر من صعيدها وغيره باقية إلى هذا الوقت، فيها أنواع الصور مما إذا صوّرت في بعض الأشياء أحدثت أفعالاً على حسب ما رُسمت له وصنعت من أجله على حسب قولهم في الطباع التام، والله أعلم بكيفية ذلك.

قال المسعودي: وأخبرني غير واحد ببلاد أخميم من صعيد مصر عن الفيض ذي النون بن إبراهيم المصري الأخميمي الزاهد، وكان حكيماً وكانت له طريقة يأتيها ونحلة يقصدها، وكان ممن يفسر أخبار هذه البرابي وزارها وامتحن كثيراً مما صوّر فيها ورسم عليها من الكتابة والصور، قال: «رأيت في بعض البرابي كتاباً تدبّرته فإذا هو: «احذروا العبيد المعتقين والأحداث المغترين والجند المتعبدين والقبط المستعربين»؛ وقال: رأيت في بعض البرابي كتاباً تدبرته، فإذا فيه: «يقدر المقدور والقضاء يضحك»؛ وزعم أنه رأى في آخره كتابةً بذلك القلم الأول فتبينها، فوجدها:

تُدبّر بالنجومِ ولستَ تدري ... وربُّ النجمِ يفعلُ ما يريدُ

وكانت هذه الأمة التي اتخذت هذه البرابي لهجة بالنظر في أحكام النجوم، مواظبة على معرفة أسرار الطبيعة؛ وكان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم أن طوفاناً سيكون في الأرض ولم تقطع على ذلك الطوفان ما هو أنارٌ تأتي على الأرض فتحرق ما عليها، أم ماء فيغرقها أو سيف فيبيد أهلها؛ فخافت على دثور العلوم وفنائها بفناء أهلها، فاتخذت هذه البرابي ــ واحدها بربا ــ ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل

والكتابة، وجعلت بنيانها نوعين: طيناً وحجراً، وفرزت ما بني بالطين ممّا بُني بالحجر وقالت: «إن كان هذا الطوفان ناراً استحجر ما بُني بالطين وانخزف وبقيت هذه العلوم؛ وإن كان الطوفان الوارد ماءً أذهب ما بُني بالطين وبقي ما بُني بالحجارة؛ وإن كان الطوفان سيفاً بقي كلا النوعين ما هو بالطين والحجر»؛ وهذا ما قيل ـ والله أعلم ـ كان قبل الطوفان وقيل إن ذلك كان بعد الطوفان، وإن الطوفان الذي كانوا يرتقبونه ولم يتيقّنوا أنار هو أم ماء أم سيف، كان سيفاً أتى على جميع أهل مصر من أمة غشيتها وملك نزل عليها، فأباد أهلها؛ ومنهم من رأى أن ذلك الطوفان كان وباءً عم أهلها؛ ومصداق ذلك ما يوجد ببلاد تنّيس من التلال المنضدة من الناس من صغير وكبير وذكر وأنثى كالجبال العظام، وهي المعروفة ببلاد تنيس من أرض مصر بأبي الكوم، وما يوجد ببلاد مصر وصعيدها من الناس المكدّسين بعضهم على بعض في كهوف وغيران ونواويس ومواضع كثيرة من الأرض لا يُدرى من أي الأمم هم: فلا النصارى تُخبر عنهم أنهم من أسلافهم، ولا اليهود تقول إنهم من أوائلهم، ولا المسلمون يدرون من هم ولا تاريخ يُنبىء عن حالهم؛ عليهم أثوابهم وكثيراً ما يوجد في تلك الروابي والجبال من حُليّهم.

والبرابي ببلاد مصر بنيان قائم عجيب كالبربا المتخذ ببلاد أنصِنا من صعيد مصر وهو أحد الموصوفين منها؛ والبربا أخميم والبربا الذي ببلاد سمنُّود وغير ذلك؛ والأهرام فطولها عظيم وبنيانها عجيب، عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة والممالك الداثرة لا يُدرى ما تلك الكتابة ولا المراد بها؛ وقد قال من عُني بتقدير ذرعها إن مقدار ارتفاعها في الهواء نحو من أربعمائة ذراع بل أكثر، وكلما علا الصعداء دق ذلك، والعرض نحو ما وصفنا، عليها من الرسوم ما ذكرنا، وإن ذلك علوم وخواص وسحر وأسرار الطبيعة، وإن من تلك الكتابة مكتوب: «إنّا بنيناها فمن يدّعي موازاتنا في الملك وبلوغنا في القدرة وانتهاءنا من السلطان فليهدمنّها وليُزل رسمها، فإن الهدم أيسر من البناء والتفريق أيسر من التأليف»؛ وقد ذُكر أن بعض ملوك الإسلام شرع في هدم بعضها، فإذا خراج مصر وغيرها من الأرض لا يفي بقلعها، وهي من الحجر والرخام.

والغرض في كتابنا هذا الإخبار عن جمل الأشياء وجوامعها، لا عن تفصيلها وبسطها، وقد أتينا على سائر ما شاهدناه حسّاً في مطافاتنا الأرض والممالك وما نمى إلينا خبراً من الخواص وأسرار الطبيعة من الحيوان والنبات والجماد في عجائب البنيان والآثار والبقاع

في كتابنا المترجم بكتاب القضايا والتجارب؛ ولا تمانع بين ذوي الفهم أن في مواضع من الأرض مدناً وقرى لا يدخلها عقرب ولا حية مثل حمص ومعرة وبصرى وأنطاكية؛ وقد كان ببلاد أنطاكية إذا أخرج الإنسان يده خارج السور وقع عليها البق، فإذا جذبها إلى داخل لم يبق على يده من ذلك شيء، إلى إن كُسر عمود من الرخام في بعض المواضع بها، فأصيب في أعلاه حق من نحاس في داخله بق مصوّر من نحاس نحو كفّ؛ فما مضت أيام أو على الفور من ذلك حتى صار البق في وقتنا هذا يعم الأكثر من دورهم.

وهذا حجر المغنطيس يجذب الحديد: ولقد رأيت بمصر حية مصوّرة من حديد أو نحاس توضع على شيء ويُدنى منها حجر المغنطيس، فتحدث فيها حركة تباعد منه؛ وحجر المغنطيس إذا أصابته رائحة الثوم بطل فعله في الحديد، وإذا غُسل بخل أو ناله شيء من عسل النحل عاد إلى فعله الأول من جذب الحديد؛ وللمغنطيس والحديد خواص عجيبة غير ما ذكرنا كالحجر الناغص للدم؛ والله تعالى قد استأثر بعلم الأشياء وأظهر للعباد ما شاء مما لهم فيه الصلاح على قدر الوقت وحاجتهم إليه، وأشياء استأثر بعلمها لم يُظهرها لخلقه فلا تقف العقول كنهها.

ويمكن أن تكون ـ والله أعلم ـ هذه الخواص والطلسمات والأشياء المحدثة في العالم للحركات مما وصفنا والدافعة والمانعة والمُنفرة والجاذبة والفاعلة في الحيوان وغيره مثل الطرد والجذب، كانت دلالة لبعض الأنبياء السالفة في الأمم الخالية جعلها الله لذلك النبي دلالة ومعجزة تدل على صدقه تبيّنه من غيره ليؤدي عن الله أمره ونهيه، وما فيه الصلاح لخلقه في ذلك الوقت، ثم رفع الله تعالى ذلك النبي وبقيت علومه وما أبانه الله تعالى مما ذكرنا في أيدي الناس وأصل ذلك إلاهيّ كما وصفنا إذ كان ما ذكرنا ممكناً غير واجب ولا ممتنع في القدرة.

قال المسعودي: فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه آنفاً من أخبار ملوك مصر. وكان الملك بعد انقضاء ملك دلوكة العجوز دركون بن بَلُوطِس؛ ثم ملك بعده بُورس بن دكرون؛ ثم ملك بعده لُقاس بن بُورس بن دركون نحواً من خمسين سنة؛ ثم ملك بعده مرينا بن بُورس نحواً من عشرين سنة؛ ثم ملك بعده إستماريس بن مرينا عشرين سنة؛ ثم ملك بعده بَلُوطس بن ميناكيل أربعين سنة؛ ثم ملك بعده مالوس بن بلطوس عشرين سنة؛ ثم ملك بعده ميناكيل بن بلوطس؛ ثم ملك بعده بلونه بن ميناكيل وكانت له حروب

ومسير في الأرض وهو فرعون الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وخرّب بيت المقدس؛ ثم ملك بعده مرينُوس وكانت له حروب بالمغرب؛ ثم ملك بعده [قرقورا بن مرينوس... ثم ملك بعده] نقاس بن مرينوس ثمانين سنة؛ ثم ملك بعده فُوميس بن نقاس عشر سنين؛ ثم ملك بعده كاسيل وكانت له حروب مع ملوك المغرب.

قال المسعودي: والذي اتّفقت عليه التواريخ مع تباين ما فيها أن عدة ملوك مصر من الفراعنة اثنان وثلاثون فرعوناً، ومن ملوك بابل ممن تملّك مصر خمسة، ومن ملوك مؤاب وهم العماليق الذين طرؤوا إليها من بلاد الشام أربعة، ومن الروم سبعة، ومن اليونانيين عشرة، وذلك قبل ظهور المسيح. وملكها أناس من الفرس من قبل الأكاسرة فكان جملة سني مَن ملك مصر من الفراعنة والفرس والروم والعماليق واليونانيين ألفي سنة وثلاثمائة سنة.

قال المسعودي: وسألتُ جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر من أهل الخبرة عن تفسير فرعون، فلم يخبروني عن معنى ذلك ولا تحصّل في لغتهم؛ فيمكن ـ والله أعلم ـ أن هذا الاسم كان سِمةً لملوك تلك الأمصار وأن تلك اللغة تغيّرت كتغيُّر الفهْلَويّة ـ وهي الفارسية الأولى ـ إلى الفارسية الثانية، وكاليونانية إلى الرومية، وتغيُّر الحِميرية وغير ذلك من اللغات؛ ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان، وما يوجد في الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الأرض وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض وتُدعى بالمطالب إلى هذه الغاية، قد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا.

٤

أخبار الهند ودولها ومعتقداتها(*)

قال المسعودي: ذكر جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا العناية بتأمُّل شأن هذا العالم وبدئه، أن الهند كانت في قديم الزمان الفِرقة التي فيها الصلاح والحكمة، وأنه لما تجيّلت الأجيال وتحزّبت الأحزاب حاولت الهند أن تضم المملكة وتستولي على الحوزة وتكون الرئاسة فيها؛ فقال كبراؤهم: «نحن كنا أهل البدء وفينا التناهي ولنا الغاية والصدر والانتهاء ومنا سرى الأب إلى الأرض فلا ندع أحداً عاقنا ولا عاندنا وأراد بنا الإغماض إلا أتينا عليه وأبدناه أو يرجع إلى طاعتنا»؛ فأزمعت على ذلك ونصبت لها ملكاً وهو البرْهَمن الأكبر والملك الأعظم والإمام فيها المقدّم؛ فظهرت في أيامه الحكمة وتقدّمت العلماء، واستخرجوا الحديد من المعادن وضُربت في أيامه السيوف والخناجر وكثير من أنواع المقاتل، وشيّد الهياكل ورصّعها بالجواهر المشرقة وصوّر فيها الأفلاك والبروج الاثني عشر والكواكب، وبيّن بالصورة كيفية العوالم وأرى بالصورة أيضاً كيفية أفعال الكواكب في هذا العالم وإحداثها الأشخاص الحيوانية من الناطقة وغيرها، وبيّن حال المدبّر الأعظم وهو الشمس وأثبت في كتابه براهين جميع ذلك وقرّب إلى عقول العوام فهم ذلك، وغرس في نفوس الخواص دراية ما هو أعلى من ذلك، وأشار إلى المبدأ الأول المعطي لسائر الموجودات وجودها الفائض عليها بجوده.

فانقادت له الهند وأخصبت بلادها وأراهم وجه مصالح الدنيا، وجمع الحكماء فأحدثوا

(*) مروج الذهب، الفقرتان ١٥٢ و١٨٦.

في أيامه كتاب السِند هِند وتسفيره: دهر الدهور، ومنه فرعت الكتب ككتاب الأرْجَبْهَد والمجِسطي وفرع من الأرجبهد الأركَنْد ومن المجسطي كتاب بطليموس، ثم عُمل منها بعد ذلك الزيجات؛ وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندي؛ وكان أول من تكلّم في أوج الشمس وذكر أنه يقيم في كل برج ثلاثة آلاف سنة ويقطع الفلك في ستة وثلاثين ألف سنة، والأوج الآن على رأي البرهَميين في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة في برج التوأم، وأنه إذا انتقل إلى البروج الجنوبية انتقلت العمارة فصار العامر غامراً والغامر عامراً، والشمال جنوباً والجنوب شمالاً، ورتّب في بيت الذهب حساب البُدّ الأول والتأريخ الأقدم الذي عليه عملت الهند في تأريخ البِدَدة وظهورها في أرض الهند دون سائر الممالك؛ ولهم في البددة خطب طويل أعرضنا عن ذكر ذلك إذ كان كتابنا هذا كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر، وقد أتينا على جمل من ذلك في الكتاب الأوسط.

ومن الهند من يذكر أن ابتداء العالم في كل سبعين ألف سنة هازَرْوان، وأن العالم إذا قطع هذه المدة عاد الكون فظهر النسل وسرحت البهائم وتغلغل الماء ودبّ الحيوان وبقل العشب وخرق النسيم الهواء؛ فأما أكثر أهل الهند فإنهم قالوا بكرور منصوبة على دوائر تبتدئ القوى متلاشية شبيهة الشخص موجودة القوة منتصبة الذات، وحدُّوا لذلك أجلاً ضربوه ووقتاً نصبوه، وجعلوا الدائرة العُظمى والحادثة الكبرى وسمّوا ذلك بعمر العالم، وجعلوا المسافة بين البدء والانتهاء مدة ستة وثلاثين ألف سنة مضروبة في اثني عشر ألف عام، وهذا عندهم هو الهازروان الضابط لقوى الأشياء والمدبر لها.

وإن الدوائر تقبض وتبسط جميع المعاني التي تستودعها وإن الأعمار تطول في أول الكر لانفساخ الدائرة وتمكُّن القوى من المجال، وتقصر الأعمار في آخر الكر لضيق الدائرة وكثرة ما يعرض فيها من الأكدار الباترة للأعمار؛ وذلك أن قوى الأجسام وصفوها في أول الكر تظهر وتسرح لأن الصفو يسابق الكدر والصافي يبادر الثفل، والأعمار تطول بحسب صفاء المزاج وتكامل القوى المؤدية للعناصر إلى أخلاط الكائنات الفاسدات المستحيلات البائدات، وأن آخر الكر الأعظم وغاية البد الأكبر يظهر الصورة متشوهة والنفوس ضعيفة والأمزجة مختلطة، وتتناقض القوى وتبيد المواسك وترد المواد في الدوائر منعكسة مزدحمة، فلا يحظى ذوو الأعصار بتمام الأعمار.

فكان مُلك البرهمن إلى أن هلك ثلاثمائة سنة وستاً وستين سنة، وولده يُعرفون

بالبراهِمة إلى وقتنا هذا، والهند تعظّمهم وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم لا يتغذون بشيء من الحيوان، وفي رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفر متقلدين بها كحمائل السيوف، فرزاً بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند.

فاختلف الهند ممن سلف وخلف في آراء [سبعة]، وكل قد اقتدى بهم ويمم مذهبهم، ثم تفرّعوا بعد ذلك في مذاهبهم وتنازعوا في آرائهم؛ فالذي وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة؛ قال المسعودي: وقد رأيت أبا القاسم البلْخي ذكر في كتاب عيون المسائل والجوابات وكذلك الحسن بن موسى النّوْبَخْتي في كتابه المترجم بكتاب الآراء والديانات مذاهب الهند وآراءهم والعلة التي لها ومن أجلها أحرقوا أنفسهم في النيران وقطعوا أجسامهم بأنواع العذاب، فلم يعرضا لشيء مما ذكرناه ولا يمما نحو ما وصفناه.

وقد تنوزع في البرهمن: فمنهم من زعم أنه آدم وأنه رسول من الله إلى الهند، ومنهم من زعم أنه كان ملكاً على حسب ما ذكرناه وهذا أشهر؛ ولما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعاً شديداً وفزعت إلى نصب ملك عليها من أكبر ولْده وكان وليّ عهد أبيه والموصى إليه من ولْده وهو الباهْبود؛ فسار فيهم سيرة أبيه وأحسن النظر لهم وزاد في بناء الهياكل وقدّم الحكماء وزاد في مراتبهم وحثهم على تعليم الحكمة وبعثهم على طلبها؛ فكان ملكه إلى أن هلك مائة سنة.

وفي أيامه عُملت النرد وأحدث اللعب بها وجعل ذلك مثالاً للمكاسب فإنها لا تنال بالكيْس ولا بالحيل في هذه الدنيا، وإن الرزق لا يتأتى فيها بالحذق، وقد ذُكر أن أردشير بن بابك أول من لعب بالنرد ووضعها ورأى تقلُّب الدنيا بأهلها واختلاف أمرها وجعل بيوتها اثني عشر بيتاً بعدد الشهور وجعل كلابها ثلاثين كلباً بعدد أيام الشهور وجعل الفصّين مثالاً للقدر وتقلبه بأهل الدنيا، وأن الإنسان يلعب بها فيبلغ القدر إياه في مراده باللعب ما يريد، وأن الحاذق الفطن لا يتأتى له ما يتأتى لغيره إذا أسعده القدر، وأن الأرزاق والحظوظ في هذه الدنيا لا تنال إلا بالجد.

ثم ملك زامان بعد الباهبود، فكان مكله نحواً من خمسين ومائة سنة؛ ولزامان سير وأخبار وحروب مع ملوك فارس وملوك الصين، قد أتينا على الغرر منها فيما سلف من كتبنا؛ ثم ملك بعده فُور وهو الذي واقعه الإسكندر، فقتله مبارزةً، فكان مُلك فُور إلى أن قتل أربعين ومائة سنة.

ثم ملك بعده دَبْشَلِم وهو الواضع لكتاب كليلة ودمنة الذي نقله ابن المقفع، وقد صنّف سهل بن هرون للمأمون كتاباً ترجمه بكتاب ثَعْله وعَفْره يعارض فيه كتاب كليلة ودمنة في أبوابه وأمثاله، يزيد عليه في حسن نظمه؛ فكان ملكه مائة وعشر سنين وقيل غير ذلك.

ثم ملك بعده بَلْهِيت، وصُنعت في أيامه الشطرنج، فقضى بلعبها على النرد وبيّن الظفر الذي يناله الحازم والنكبة التي تلحق الجاهل، وحسب حسابها ورتب لذلك كتاباً للهند يعرف بطرق جنكا يتداولونه بينهم، ولعب بالشطرنج مع حكمائه وجعلها مصورة تماثيل مشكلة على صور الناطقين وغيرهم من الحيوان مما ليس بناطق، وجعلهم درجات ومراتب، ومثّل الشاه بالمدبّر الرئيس وكذلك ما يليه من القطع، وأقام ذلك مثالاً للأجسام العلوية التي هي الأجسام السماوية من السبعة والإثني عشر، وأفرد كل قطعة منها لكوكب وجعلها ضابطة للمملكة؛ فإذا كان عدو من أعدائه فوقعت منه حيلة في الحروب، نظروا من أين أتوا في عاجل وآجل.

وللهند في لعب الشطرنج سر يسرّونه في تضاعيف حسابها ويتغلغلون بذلك إلى ما علا من الأفلاك، ولما إليه ينتهي من العلة الأولى في أن مبلغ أعداد أضعاف الشطرنج ثمانية عشر ألف ألف ألف ألف ألف ألف وأربعمائة وستة وأربعون ألف ألف ألف ألف ألف وسبعمائة وأربعة وأربعون ألف ألف ألف ألف وثلاثة وسبعون ألف ألف ألف وسبعمائة ألف ألف وتسعة آلاف ألف وخمسمائة ألف وأحد وخمسون ألفاً وستمائة وخمسة عشر؛ ولمراتب هذه الألوف: الستة الأولى ثم الخمسة التي هي ألف ألف خمس مرار ثم الأربعة ثم الثلاثة ثم الاثنتين ثم الواحدة، عند الهند معان يذكرونها في الدهور والأعصار وما تقتضيه سائر المؤثّرات العلوية في هذا العالم ولارتباط نفوس الناطقين بها.

ولليونانيين والروم وغيرهم من الأمم في الشطرنج كلام ونوع من اللعب بها، قد ذكر ذلك لعّاب الشطرنج في كتبهم ممن تقدم منهم إلى الصولي والعدلي، وإليهما كان انتهاء اللعب بالشطرنج في هذا العصر.

فكان مُلك بلهيت إلى أن هلك ثمانين سنة، وفي بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة؛ ثم ملك بعده كورش، فأحدث للهند آراء في الديانات على حسب ما رأى من صلاح الوقت وما يحمله من التكليف أهل العصر، وخرج من مذهب من سلف؛ وكان في مملكته وعصره سندباد وله كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك، وهو

الكتاب المترجم بكتاب السندباد؛ وعُمل في خزانة هذا الملك الكتاب الأعظم في معرفة العلل والأدواء والعلاجات، وشُكّلت الحشائش وصوّرت؛ فكان ملك هذا الملك إلى أن هلك عشرين ومائة سَنة.

فلما هلك اختلفت الهند في آرائها، فتحزّبت الأحزاب وتجيّلت الأجيال، وانفرد كل رئيس بناحية: فتملّك على أرض السند ملك، وتملك على أرض القَنّوج ملك، وتملك على أرض القشْمير ملك، وتملك على مدينة المانكير، وهي الحوزة الكبرى، ملك يسمى البلّهرى، وهو أول ملك من ملوكهم يسمى بالبلّهرى، فصارت سمة لمن طرأ بعده من الملوك في هذه الحوزة إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

وأرض الهند أرض واسعة في البر والبحر والجبال، وملكهم متصل بملك الزابج وهي دار مملكة المهراج ملك الجزائر، وهذه المملكة فرز بين مملكة الهند والصين، وتضاف إلى الهند؛ والهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت، وبين هذه الممالك تباين وحروب، ولغاتهم مختلفة وآراؤهم غير متفقة؛ والأكثر منهم يقول بالتناسخ وتنقل الأرواح حسب ما قدّمنا آنفاً.

والهند في عقولهم وسياساتهم وحكمتهم وصحة أمزجتهم وصفاء ألوانهم بخلاف سائر السودان من الزنوج والدمادم وسائر الأجناس؛ وقد ذكر جالينوس في الأسوَد عشر خصال اجتمعت فيه ولم توجد في غيره: تفلفل الشعر، وخفة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحدُّد الأسنان، ونتن الجلد، وسواد الحدق، وتشقيق اليدين والرجلين، وطول الذكَر، وكثرة الطرب، قال جالينوس: «وإنما غلب على الأسود الطرب لفساد دماغه، فضعف لذلك عقله»؛ وقد قال غير جالينوس في طرب السودان وغلبة الفرح عليهم وما خصّ به الزنج من ذلك دون سائر السودان في الإكثار من الطرب أموراً قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا.

وقد قال يعقوب بن إسحاق الكندي في بعض رسائله في أفعال الأشخاص العلوية والأجسام السماوية في هذا العالم: «إن جميع ما خلق الله تعالى صيّر بعضه لبعض عللاً: فالعلة تفعل في معلولها آثاراً هي لديه علة، وليس يؤثر المفعول المعلول في علته الفاعلة، والنفس علة الفلك لا معلولة له فليس يؤثر الفلك فيها أثراً إلا أن من طباع النفس أن تتبع مزاج البدن إذا لم تجد شيئاً كما هو موجود في الزنجي الذي حمي موضعه فأثرت فيه الأشخاص الفلكية وجذبت الرطوبات إلى أعاليه فأجحظت عينيه

وأهدلت شفتيه وأفطست أنفه وعظّمته وأشالت رأسه بكثرة جذب الرطوبات إلى أعالي بدنه، فخالف بذلك مزاج دماغه عن الاعتدال، فلم تقدر النفس على إظهار فعلها فيه بكمال، ففسد تمييزه وأخرجت الأفعال العقلية منه.

وقد تكلم الناس ممن تقدّم وتأخر في علة تكوّن السودان ومواضعهم من الفلك، وأن الكواكب السبعة من النيرين والخمسة تولت أفعالهم وانفردت باختراعهم وأثرت في أجسامهم؛ وليس كتابنا هذا مفرداً لهذا المعنى فنورد فيه ما قالوا في ذلك، وقد ذكرنا جميع ما قالوا فيما وصفنا وأوردوه من البراهين على ما ذكرنا في كتابنا في أخبار الزمان وأتينا على وصف قول من أضاف فعلهم إلى زُحل من المنجمين ممن تقدم وتأخر؛ وقد وصف بعض شعراء المنجمين وعلماء الفلكيين ممن تأخر من الإسلاميين في شعره ما ذكرنا، فقال:

والشيخُ منها زُحل العلويُّ ... شيخٌ كبيرٌ ملكٌ قويٌّ
وطبعةُ السواد والبرودة ... أسود لون النفس في كموده
أفعاله في الزنج والعبيد ... وفي الرصاص بعدُ والحديد

وقد كان طاوس اليماني صاحب عبد الله بن العباس لا يأكل من ذبيحة الزنجي ويقول إنه عبد مشوّه الخلقة؛ وبلغنا أن أبا العباس الراضي بالله ابن المقتدر كان لا يتناول شيئاً من يد أسود، ويقول إنه مشوّه الخلقة؛ فلست أدري أقلّد طاوساً في مذهبه أم لضرب من الآراء والنِحل؛ وقد صنّف عمرو بن بحر الجاحظ كتاباً في فخر السودان ومناظرتهم مع البيضان.

والهند لا تملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة؛ ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا في كل برهة من الزمان معلومة، ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية، لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها دائماً إسقاطاً لهيبتها واستخفافاً بحقها، والرئاسات عندها لا تجوز إلا بالتخيّر ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة.

قال المسعودي: ورأيت في بلاد سرنْديب، وهي جزيرة من جزائر البحر، إذا مات ملكهم صُيّر على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة معدة لهذا المعنى وشعره ينجر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه وتنادي: «أيها الناس هذا ملككم بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه وأمره، قد صار إلى ما ترون من ترك

الدنيا، وقبض روحه ملك الموت والحي القيُّوم الذي لا يموت، فلا تغتروا بالحياة بعده»، وكلاماً، هذا معناه، من الترهيب والتزهيد في هذا العالم؛ ويطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة؛ ثم يفصل أربع قطع وقد هيىء له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب، فيحرق بالنار ويذرى رماده في الرياح؛ وكذلك فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم لغرض يذكرونه ونهج ييمّمونه في المستقبل.

والمُلك مقصور في أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر أهل المراتب لا يتغيّر ولا يتبدّل.

والهند تمنع من شرب الشراب وتعيب شاربه لا على طريق التديُّن لكن تنزُّهاً عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها ويزيلها عما وضعت له فيهم، فإذا صح عندهم عن ملكٍ من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه، إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط؛ وربما يسمعون السماع والملاهي ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل في الناس أفعالاً مرتبة من ضحك وبكاء، وربما يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم فيطرب الرجال لطرب الجواري.

وللهند سياسات كثيرة قد أتينا على كثير من أخبارهم وسيرهم في كتابنا في أخبار الزمان وفي الكتاب الأوسط، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً؛ ومن طريف أخبار ملوك الهند والعجيب من سيرهم وما كان يليهم في صدر الزمان أن ملكاً من ملوك القمار من الهند ـ ومن هذه المملكة والصقع من أرض الهند يُحمل العود القماري وإليها يُضاف وليس هذه البلاد جزيرة من جزائر البحر بل هي شاطىء بحر وجبال، وليس في كثير من ممالك الهند أكثر عدداً من رجالهم ولا أطيب رائحة من أفواههم لاستعمالهم السواك كاستعمال أهل ملة الإسلام لذلك؛ وكذلك يرون تحريم الزنا من بين الهند ويجتنبون كثيراً من القاذورات ويجتنبون الأنبذة، وإن كانوا في هذا الفعل خاصة مساوين لعوام الهند؛ وأكثرهم رجّالة لكثرة الجبال في بلادهم والأودية وقلّة السهول والأنجاد؛ وبلد قمار هذا مسامٍ لبلاد مملكة المهراج ملك الجزائر كالزابج وكلَه وسرنديب وغيرها.

وأعظم ملوك الهند في وقتنا هذا البلهرى صاحب مدينة المانكير، وأكثر ملوك الهند تتوجّه في صلاتها نحوه وتصلي لرسله إذا وردوا عليهم؛ ويلي مملكة البلهرى ممالك كثيرة للهند، منهم ملوك في الجبال لا بحر لهم مثل الرايى صاحب القشمير وملك

الطاقي وغير ذلك من ملوك الهند؛ وفيهم من بملكه بر وبحر؛ وأما البلهرى فبين دار ملكه وبين البحر مسيرة ثمانين فرسخاً سندية ـ والفرسخ ثمانية أميال ـ وله جيوش وفيلة لا تدرك كثرتها، وأكثر جيوشه رجّالة لأن دار ملكه بين الجبال.

ويناويه من ملوك الهند ممن لا بحر له بِروزة صاحب مدينة القَنّوج، وهذا الاسم سمة لكل ملك يلي هذه المملكة؛ وله جيوش مرتبة على الشمال والجنوب والصبا والدبور، لأنه من كل وجه من هذه الوجوه يلقاه ملك محارب له، وسنذكر جملاً من أخبار ملوك السند والهند وغيرهم من ملوك الأرض فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا البحار وما فيه وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وغير ذلك، وإن كنا قد أسلفنا ذلك فيما مرّ من كتبنا؛ وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإذا(*) طاف المعذّب لنفسه بالنار في الأسواق وانتهى إلى تلك النار، وهو غير مكترث لا يتغير في مشيته ولا يجبن في خطوته، فمنهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمراً كالتل العظيم تناول بيده خنجراً، ويدعى الجري عندهم، فيضعه في لبّته؛ ولقد حضرت في بلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرى وذلك في سنة أربع وثلاثمائة والملك يومئذٍ على صيمور المعروف بجانج وبها يومئذٍ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن في تلك الديار وفيهم خلق من وجوه التجار مثل موسى بن إسحق الصندبوري وعلى الهزمة يومئذٍ أبو سعيد معروف بن زكريا والهزمة يراد به رئاسة المسلمين، وذلك أن الملك يملّك على المسلمين رجلاً من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه؛ ومعنى البياسرة يراد به الذين ولدوا من المسلمين بأرض الهند يدعون بهذا الاسم، واحدهم بيسر.

ورأيت رجلاً من فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم؛ فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة، وهو يتكلم، فقطعها بالخنجر ودفعها إلى بعض إخوانه تهاوناً بالموت ولذة بالنقلة، ثم هوى بنفسه في النار، وإذا مات الملك من ملوكهم أو قُتل حرق خلق من الناس أنفسهم لموته؛ فيدعون هؤلاء البلانجرية، واحدهم بلانجر، وتفسير ذلك: مصادقوه ممن

(*) مروج الذهب، الفقرتان ٥١٥ ـ ٥١٦.

يموت بموته ويحيى بحياته؛ وللهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفوس، وأنواع من الآلام والمقاتل تألم عند ذكرها الأبدان وتقشعر منها الأبشار؛ وقد أتينا على كثير من عجائب أخبارهم في كتابنا في أخبار الزمان.

5

الأفارقة(*)

قال المسعودي: لما تفرّق ولْد نوح في الأرض سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر، ثم افترقوا فسارت منهم طائفة ميتمنين المشرق والمغرب، وهم النوبة والبُجة والزنج، وسار فريق منهم نحو المغرب وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم ومركة وكوكو وغانة وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم؛ ثم افترق الذين تيمنوا بين المشرق والمغرب فصار الزنج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج؛ وقد قدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا للبحر الحبشي الخليج البربري وما عليه من أنواع السودان واتصالهم في ديارهم ثم إلى بلاد الدهلك والزّيْلع وباضِع.

وهؤلاء القوم هم أصحاب جلود النمورة الحمر، وهي لباسهم، ومن أرضهم تحمل إلى الإسلام، وهي أكبر ما يكون من جلود النمورة وأحسنها للسروج؛ وبحر الزنج والأحابش هو عن يمين بحر الهند، وإن كانت مياههما متصلة؛ ومن أرضهم يُحمل الذبل من ظهور السلاحف وهو الذي يتخذ منه الأمشاط كالقرون؛ وأكثر ما تكون الدابة المعروفة بالزرافة في أرضهم، وإن كانت عامة الوجود في أرض النوبة دون سائر بلاد الأحابش؛ وقد تنوزع في نتاج هذا النوع من الدواب المعروفة بالزرافة: فمنهم من رأى أن بدء نتاجها من الإبل؛ ومنهم من رأى أن ذلك بجمع بين الإبل والنمورة، وأن الزرافة ظهرت من ذلك؛ ومنهم من زعم أنه نوع من الحيوان قائم بذاته كقيام الخيل

(*) مروج الذهب، الفقرات: ٨٤٤ - ٨٥٠، ٨٥٥، ٨٥٩، ٨٦٧، ٨٧١ - ٨٨٠.

والحمير والبقر، وأن ليس سبيلها كسبيل البغال المولدة من النتاج بين الخيل والحمير؛ وتدعى الزرافة بالفارسية اشتركاو؛ وقد كانت تهدى إلى ملوكهم من أرض النوبة، كما تحمل إلى ملوك العرب ومن مضى من خلفاء بني العباس وولاة مصر؛ وهي دابة طويلة اليدين والرقبة قصيرة الرجلين لا ركبتين لرجليها وإنما الركبتان ليديها؛ وقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان عند ذكر الزرافة كلاماً كثيراً في نتاجها وأن في أعالي بلاد النوبة تجتمع سباع ووحوش ودواب كثيرة في حمّارة القيظ إلى شرائع المياه، فتتسافد هنالك، فيلقح منها ما يلقح ويمتنع ما يمتنع، فيجيء من ذلك خلق كثير مختلف الصور والأشكال، منها الزرافة؛ والزرافة ذات أظلاف وهي دابة منحنية إلى خلفها منصوبة الظهر إلى مؤخرها وذلك لِقصر رجليها.

وللناس في الزرافة كلام كثير على حسب ما قدّمنا في بدء نتاجها، وأن النمورة بأرض النوبة عظيمة الخلق وأن الإبل صغيرة الخلق قصيرة القوائم وأن ذلك كاتساع أرحام القلاص العربية لفوالج كرمان وغيرها من إبل خراسان، فيظهر بينهما ويتولد عنهما الجمال البُخْت والجمّازات، ولا تنتج بين بُختي وبختية، وإنما يصح هذا النوع من الإبل بين فوالج الإبل وهي ذات السنامين وبين قلاص الإبل وهي النوق العربية، وكنتاج البخت من البجاوية والمهرية؛ وللزرافة أخبار كثيرة قد ذكر ذلك صاحب المنطق في كتابه الكبير في الحيوان ومنافع أعضائها وغير ذلك من سائر أعضاء الحيوان؛ وقد أتينا على ما يحتاج إليه من ذلك في كتابنا المترجم بالقضايا والتجارب؛ والزرافة عجيبة الفعل في إلفها وتوددها إلى أهلها؛ وهي كالفيلة منها وحشية ومنها مستأنسة أهلية.

وقد قدّمنا الذكر في الزنوج والأجناس من الأحباش الذين ساروا عن يمين النيل ولحقوا بأسافل البحر الحبشي؛ وقطعت الزنج دون سائر الأحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذي يصب إلى بحر الزنج، فسكنت الزنج في ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة وهي أقاصي بلاد الزنج وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين، وهي غاية مقاصدهم في أسافل بحر الزنج، كما أن أقاصي بحر الصين تتصل ببلاد السيلى، وقد تقدّم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب؛ وكذلك أقاصي بحر الزنج هي بلاد سفالة وأقاصي بلاد الواق واق وهي أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب خصبة حارة.

واتخذها الزنج دار مملكة وملّكوا عليها ملكاً سموه وفليمي وهي سمة لسائر ملوكهم في سائر الأعصار على ما قدّمنا آنفاً؛ ويركب وفليمي وهو ملك سائر الزنوج في ثلاثة

آلاف فارس ودوابهم البقر وليس في أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل ولا يعرفونها؛ وكذلك لا يعرفون الثلج ولا البرد ولا غيرهم من الأحابش؛ ومنهم أجناس محددة الأسنان يأكل بعضهم بعضاً؛ ومساكن الزنج من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل إلى بلاد سفالة والواق واق؛ ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطنهم في الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ أودية وجبال ورمال.

والفيلة بأرض الزنج في نهاية الكثرة، وحشية كلها غير مستأنسة؛ والزنج لا تستعمل شيئاً منها في حرب ولا غيرها بل تقتلها؛ وذلك أنهم يطرحون لها نوعاً من ورق الشجر ولحائه وأغصانه يكون بأرضهم في الماء، ويختفي رجال الزنج فترد الفيلة لشربها: فإذا وردت وشربت من ذلك الماء حرّقها وأسكرها، فتقع ولا مفاصل لقوائمها ولا ركب على حسب ما قدّمنا آنفاً؛ فيخرجون إليها بأعظم ما يكون من الحراب فيقتلونها لأخذ أنيابها؛ فمن أرضهم تجهّز أنياب الفيلة، في كل ناب منها خمسون ومائة منّ بل أكثر من ذلك، فيجهز الأكثر منها من بلاد عُمان إلى أرض الصين والهند؛ وذلك أنها تُحمل من بلاد الزنج إلى عُمان ومن عمان إلى حيث ذكرنا ولولا ذلك لكان العاج بأرض الإسلام كثيراً.

وأهل الصين يتخذ ملوكها وقوّادها وأراكنتها الأعمدة من العاج ولا يدخل قوّادها ولا أحد من خواصها على ملوكها بشيء من الحديد، بل بتلك الأعمدة المتخذة من العاج؛ ورغبتهم فيما استقام من أنياب الفيلة ولم يتقوّس لاتخاذ الأعمدة منها على ما ذكرنا؛ ويستعمل العاج في دخن بيوت أصنامها وأبخرة هياكلها كاستعمال النصارى في الكنائس الدخنة المعروفة بدخنة مريم وغيرها من الأبخرة؛ وأهل الصين لا يتخذون الفيلة في أرضهم ويتطيّرون من اقتنائها والحرب عليها لخبر كان لهم في قديم الزمان في بعض حروبهم.

والفيل يهرب من السنانير وهي القطاط ولا يقف لها البتة إذا أبصر بها؛ وقد ذُكر عن ملوك الفرس أنها كانت توقي الفيلة المقاتلة بالرجّالة حولها ومراعاة خيل الأعداء عند الحرب بتخلية السنانير عليها؛ وكذلك أفعال ملوك السند والهند إلى هذه الغاية؛ وقد ذُكر أن الخنازير ربما تهرب منها الفيلة؛ وقد كان رجل بالمولتان من أرض السند يُدعى هٰرون بن موسى مولى للأزد وكان شاعراً شجاعاً ذا رئاسة في قومه ومنعة بأرض السند مما يلي بلاد المولتان، وكان في حصن له، فالتقى مع بعض ملوك الهند وقد قدّمت

الهند أمامها الفيلة فبرز هٰرون بن موسى أمام الصف وقصد لعظيم من الفيلة وقد خبأ تحت ثوبه سنّوراً؛ فلما دنا في حملته من الفيل خلّى القط عليه، فولّى الفيل منهزماً لما أبصر ذلك الهر، فكان ذلك سبب هزيمة الجيش وقتل الملك وغلبة المسلمين عليهم.

والفيلة لا تنتج ولا تتوالد إلا بأرض الزنج والهند، ولا تعظم أنيابها بأرض السند والهند على حسب ما تعظم بأرض الزنج؛ والزنج تتخذ من جلود الفيلة الدرَق وكذلك الهند ولا يلحق ذلك في المنعة شيء من الدرق الصيني والتُّبّتي واللمْطي والبجاوي ولا ما أُنقع في اللبن ولا غير ذلك من أنواع الدرق؛ وخرطومه أنفه وبه يوصل الطعام والشراب إلى جوفه، وهو شيء بين الغرضوف واللحم والعصب، وبه يقاتل ويضرب وبه يصيح، وليس صوت الفيل على مقدار عِظَم جسمه وكِبَر خلقه.

قال المسعودي: فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه آنفاً في صدر هذا الباب من ذكر الزنج وبلادهم وغيرهم من أنواع الأحابش؛ فالزنج مع كثرة اصطيادها لما ذكرنا من الفيلة وجمعها لعاجها غير منتفعة بشيء من ذلك في آلاتها؛ وإنما تتحلّى الزنج بالحديد بدلاً من الذهب والفضة؛ وما ذكرنا من دوابهم أنها البقر وأنهم عليها يقاتلون بدلاً من الإبل والخيل، وهي بقر تجري كالخيل بسروج ولجم.

فلنرجع الآن إلى أخبار الزنج وأخبار ملوكها؛ وأما تفسير اسم ملك الزنج الذي هو وفليمي، فمعنى ذلك ابن الرب الكبير، لأنه اختاره لملكهم والعدل فيهم؛ فمتى جار الملك عليهم في حكمهم وحاد عن الحق قتلوه وحرموا عقبه الملك؛ ويزعمون أنه إذا فعل ذلك فقد بطل أن يكون ابن الرب الذي هو ملك السموات والأرض؛ ويسمون الخالق عز وجل مكلُنْجلو وتفسيره الرب الكبير.

والزنج أولو فصاحة في ألسنتهم وفيهم خطباء بلغتهم؛ يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم يرغبهم في القرب من باريهم ويبعثهم على طاعته ويرهبهم من عقابه وصولته ويذكّرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم؛ وليس لهم شريعة يرجعون إليها بل رسوم لملوكهم وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم؛ وأكلهم الموز وهو ببلدهم كثير وكذلك بأرض الهند؛ والغالب على أقوات الزنج الذرة ونبت يقال له الكلادي يقتلع من الأرض كالكمأة والراسن ومنه كثير ببلاد عدن وما اتصل بها من أرض اليمن؛ ويشبه هذا الكلادي القلقاس الذي يكون بالشام ومصر؛ ومن غذائهم أيضاً العسل واللحم؛ ومن هوى منهم شيئاً عبده، من نبات أو حيوان أو جماد،

وجزائرهم في البحر لا تحصى كثرة وفيها النارجيل يعمّ كله سائر الزنج؛ ومن بعض تلك الجزائر جزيرة بينها وبين ساحل الزنج نحو من يوم أو يومين، فيها خلائق من المسلمين يقال لها قنبلو يتوارثها ملوك من المسلمين على حسب ما ذكرنا من أمرها في هذا الكتاب.

وأما النوبة فافترقت فرقتين في شرقي النيل وغربيه وأناخت على شطيه، فاتصلت دياره بديار القبط من أرض صعيد مصر من بلاد أسوان وغيرها؛ واتسعت مساكن النوبة على شاطىء النيل مصعدة ولحقوا بقريب من أعاليه وبنوا دار مملكة وهي مدينة عظيمة تدعى دنقلة؛ والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة وبنوا مدينة للملك سموها سُوبة.

قال المسعودي: وانتهيت في تصنيفي إلى هذا الموضع من كتابنا هذا في ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وكنت بفسطاط مصر، فأخبرت أن الملك للنوبة في مدينة دنقلة كبرى بن سرور وهو ملك ابن ملك ابن ملك فصاعداً؛ وملكه يحتوي على ما قَرّة وعلوة والبلد المتصل بأرض أسوان يعرف بمريس وإليه تضاف الريح المريسية؛ وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان.

وأما البجة فإنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر وتشعّبوا فرقاً وملّكوا عليهم ملوكاً؛ وفي أرضهم معادن الذهب وهو التِبر ومعادن الزمرد؛ وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب إلى بلاد النوبة فيغيرون ويسبون؛ وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البُجة إلى أن قوي الإسلام وظهر وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاّقي والعيذاب، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم وتزوجوا في البجة، فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة وقويت ربيعة بالبجة على من ناواها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضَر بن نزار ممن يسكن تلك الديار.

وصاحب المعدن في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة أبو مروان بِشْر بن إسحق وهو من ربيعة، يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مُضَر واليمن وثلاثين ألف حرّاب على النجب من البجة بالجحف البجاوية وهم الحداربة وهم المسلمون من بين سائر البجة، وباقي البجة كفار يعبدون صنماً لهم.

وأما الحبشة فاسم دار مملكتهم كعبر (كعبن؟) وهي مدينة عظيمة وهي دار مملكة النجاشي؛ وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة يتصل ملك النجاشي بالبحر الحبشي، وله

ساحل فيه مدن كثيرة وهو مقابل لبلاد اليمن؛ فمن مدن الحبشة على الساحل الزَّيْلَع والدهْلَك وباضِع؛ وهذه مدن فيها خلق من المسلمين إلا أنهم في ذمة الحبشة؛ وبين ساحل الحبشة ومدينة غلافِقة وهي ساحل زبيد من أرض اليمن ثلاثة أيام عرض البحر بين الساحلين، ومن هذا الموضع عبرت الحبشة البحر حين ملكت اليمن في أيام ذي نُواس وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن.

وهنالك جزائر بين هذين الساحلين منها جزيرة يقال لها جزيرة العقل فيها ماء يعرف بماء العقل يستقي منه أرباب المراكب ويفعل في القرائح والذكاء فعلاً جميلاً؛ وقد ذكر بعض الفلاسفة المتقدمين ما يفعل هذا الماء وما له من الخواص، وذكر علة ذلك وقد أتينا على الخبر في كتابنا في أخبار الزمان عند ذكرنا لأخبار المتطببين في تجاربهم وما كان من قضاياهم في علاجاتهم ممن سلف قبل ظهور الإسلام وغيرهم ممن اتصل بالملوك والخلفاء بعد ظهور الشرع؛ وقد غلب ابن زياد على هذه الجزيرة وله في هذا الوقت رجال مرتبون من أصحابه.

وفي هذا البحر مما يلي بلاد عدن جزيرة تعرف بسُقُطْرة إليها يضاف الصبر السقطري ولا يوجد إلا فيها ولا يُحمل إلا منها؛ وقد كان أرسطاطاليس بن نقوماخس كتب إلى الإسكندر بن فيلبُس حين سار إلى الهند في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها وأن يبعث إليها جماعةً من اليونانيين يسكنهم فيها من أجل الصبر السقطري الذي يقع في الايارجات وغيرها؛ فسيّر الإسكندر إلى هذه الجزيرة خلقاً من اليونانيين أكثرهم من مدينة أرسطاطاليس بن نقوماخُس وهي مدينة إسطاغِر في المراكب بأهليهم في بحر القلزُم، فغلبوا على من كان بها من الهند وملكوا الجزيرة؛ وكان للهند بها صنم عظيم فنقل ذلك الصنم، في أخبار يطول ذكرها وتناسل من بالجزيرة من اليونانيين فيها ومضى الإسكندر وظهر المسيح فتنصّر من كان فيها إلى هذا الوقت؛ فليس في الدنيا موضع ــ والله أعلم ــ فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم لم يداخلهم فيها روم ولا غيرهم غير أهل هذه الجزيرة؛ وهم في هذا الوقت تأوي إليهم بوارج الهند الذين يقطعون على المسلمين في هذه البوارج ــ وهي المراكب ــ على من أراد الصين والهند وغيرها، كما يقطع الروم في الشواني على المسلمين في البحر الرومي من ساحل الشام ومصر؛ ويحمل من جزيرة سقطرة الصبر السقطري وغيره من العقاقير؛ ولهذه الجزيرة أخبار عجيبة ولما فيها من خواص النبات والعقاقير قد أتينا على كثير من ذكرها فيما سلف من كتبنا.

وأما غير هؤلاء من الحبشة الذين قدمنا ذكرهم ممن أمعن في المغرب مثل زغاوة والكوكو القراقر ومديده ومريس والمبرس والملانه والقوماطي ودويله والقرمه، فلكل واحد من هؤلاء وغيرهم من أنواع الأحابش ملك ودار مملكة؛ وقد أتينا على ذكر جميع أجناس السودان وأنواعهم ومساكنهم ومواضعهم من الفلك ولأية علة تفلفلت شعورهم واسوّدت ألوانهم وغير ذلك من أخبارهم وأخبار ملوكهم وعجائب سيرهم وتشعبهم في أنسابهم في كتاب أخبار الزمان في الفن الأول من جملة الثلاثين فناً، ثم في الكتاب الأوسط مما لم نذكره في كتاب أخبار الزمان من أخبارهم؛ وذكرنا في هذا الكتاب ما لا يسع ترك إيراده ولا تعريته منه.

٦

أخبار الصين(*)

تنازع الناس في أنساب أهل الصين وبدئهم؛ فذكر كثير منهم أن ولد عامور بن توبيل بن يافث بن نوح، لما قسم فالغ بن عابر بن [شالخ بن] أرْفَخْشَد بن سام بن نوح الأرض بين ولْد نوح، ساروا يسرة الشرق؛ فقطع قوم منهم من ولْد أرعو على سمت الشمال وانتشروا في الأرض فصاروا عدة ممالك: منهم الديلم والجيل والطيلسان والتبّر وموقان وأهل جبل القَبْق من أنوا اللكْز. ثم اللان والخزر والأبخار والسرير وكشك؛ وسائر تلك الأمم المنتشرة في ذلك الصقع إلى طرابزُنْدة إلى بحر مايُطس وبُنطُس وبحر الخزر إلى البُلغَر [البرغر] ومن اتصل بهم من الأمم.

وعبر من ولْد عامور نهر بلخ ويمم بلاد الصين الأكثر منهم، وتفرقوا عدة ممالك في تلك البلاد وانتشروا في تلك الديار؛ فمنهم الخُتّل ـ وهم سكان خُتّلان ـ ورويسان والأشرُسَنة والصُّغد وهُم بين بخارا وسمرقند ثم فرغانة والشاش وإسبيجاب وأهل بلاد الفاراب؛ فبنوا المدن والضياع، وانفرد منهم أناس غير هؤلاء فسكنوا البوادي: فمنهم الترك والخرلخ والطغزغز وهم أصحاب مدينة كوشان وهي مملكة بين بلاد خراسان والصين؛ وليس في أجناس الترك وأنواعها في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة أشد منهم بأساً ولا أكثر شوكة ولا أضبط ملكاً؛ وملكهم أيغرخان ومذاهبهم مذاهب المنائية، وليس في الترك من يعتقد هذا المذهب غيرهم.

(*) مروج الذهب، الفقرات ٣١١ ـ ٣٥٥.

ومن الترك: الكيماكية والبرسخانية والبدية والمجغرية وأشدهم بأساً الغزية، وأحسنهم صوراً وأطولهم قيماً وأصبحهم وجوهاً الخرلخية وهم على بلاد فرغانة والشاش وما يلي ذلك الصقع؛ وفيهم كان الملك ومنهم خاقان الخواقين وكان يجمع ملكه سائر ممالك الترك وتنقاد إليه ملوكها؛ ومن هؤلاء الخواقين كان فراسياب التركي الغالب على ملك فارس، ومنهم شابه؛ ولا خاقان للترك في وقتنا هذا تنقاد إليه ملوكها منذ خربت المدينة المعروفة بعمات وهي في مفاوز سمرقند، وقد ذكرنا انتقال المُلك عن هذه المدينة والسبب في ذلك في كتابنا الأوسط.

ولحق فريق من ولْد عامور بتخوم الهند، فأثّرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانهم بخلاف ألوان الترك ولحقوا بألوان الهند؛ ولهم حضر وبواد، وسكن فريق منهم ببلاد التبت وملّكوا عليهم ملكاً وكان ينقاد إلى مُلك خاقان؛ فلما زال ملك خاقان على ما قدّمنا سمّى أهل تبّت ملكهم بخاقان تشبيهاً بمن تقدّم من ملوك الترك، وهو خاقان الخواقين.

وسار الجمهور من ولْد عامور على ساحل البحر حتى انتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين، فتفرقوا في تلك البلاد والبقاع، وقطنوا تلك الديار وعمّروها وكوّروا الكور ومصّروا الأمصار ومدّنوا المدن، واتخذوا لملكهم مدينة عظيمة سمّوها يانصو [ينصو] وبينها وبين ساحل البحر الحبشي وهو بحر الصين ثلاثة أشهر، مدن وعمائر متصلة.

فكان أول ملك تملّك عليهم في هذه الديار وهي ينصو نسطرطاس بن باعور بن مداج بن عامو بن يافث بن نوح؛ فكان ملكه ثلاثمائة سنة ونيفاً، وفرّق أهله في تلك الديار وشقق الأنهار وقتل السباع وغرس الأشجار وطعّم الثمار، وهلك؛ فملك ولد له يقال له عوون فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر جزعاً عليه وتعظيماً له، وأجلسه على سرير من الذهب الأحمر مرصع بالجواهر وجعل مجلسه دونه، وأقبل يسجد لأبيه وهو في جوف ذلك التمثال، هو وأهل مملكته في طرفي النهار إجلالاً له، وعاش بعد أبيه مائتي سنة وخمسين سنة، ثم هلك.

فملك ولد يقال له عيثدون، فجعل جسد أبيه مخزوناً في تمثال من الذهب الأحمر وجعله على سرير من الذهب الأحمر دون مرتبة جده، فكان يسجد له ويبدأ بجده الأول ثم بأبيه، وكذلك أهل مملكته يسجدون له؛ وأحسن السياسة للرعايا وساواهم في جميع أمورهم وشملهم بالعدل، وكثر النسل وأخصبت الأرض؛ وكان ملكه إلى أن هلك نحواً من مائتي سنة.

ثم ملك بعده ولده عيثنان؛ فجعل أباه في تمثال من الذهب الأحمر، وجرى فيه على ما سلف من أفعالهم في السجود والتعظيم؛ فطال ملكه واتصلت بلاده ببلاد الترك من بني عمه؛ فعاش أربعمائة سنة، وأحدث في أيامه كثير من المهن مما لطف في الرقة من الصنائع.

ثم ملك بعده ولده حراتان فأحدث الفلك وحمل فيها الرجال وحمل معهم لطائف بلاد الصين، وصيّرهم نحو بلاد السند والهند إلى إقليم بابل وإلى سائر الممالك مما قرُب وبعد في البحر؛ وأهدى الهدايا العجيبة والرغائب النفيسة إلى الملوك، وأمرهم أن يجلبوا إليه ما في كل بلد من الطرائف والتحف ومن المأكول والمشروب والملبوس وسائر الفرش، وأن يتعرّفوا سياسة كل ملك وملة كل أمة وشريعتها ونهجها الذي هي عليه، وأن يرغّبوا الناس فيما في بلدهم من الجواهر والطيب والآلات؛ فتفرّقت المراكب في البلاد ووردوا الممالك وفعلوا ما أمروا به؛ فلم يردوا على مملكة من الممالك إلا وأعجبوا بهم واستطرفوا ما أوردوه من أرضهم؛ فأنشأت الملوك المحيطة بالبحار والمراكب وجهزوا نحوهم السفن وحملوا إليهم ما ليس عندهم؛ وكاتبوا ملكهم وكافوه على ما كان من هداياه إليهم، فعمرت بلاد الصين واستقامت له الأمور؛ فكان ملكه نحواً من مائتي سنة وهلك.

فجزع عليه أهل مملكته وأقاموا النياحة عليه شهراً، ثم فزعوا إلى الأكبر من ولده فنصبوه عليهم ملكاً؛ فجعل جد أبيه في تمثال من الذهب وسلك طريقة من كان قبله في فعلهم مقتدياً بمن مضى من آبائه؛ وكان اسم هذا الملك توتال؛ فاستقامت له الأمور وأحدث من السُنن المحمودة ما لم يحدثه أحد ممن سلف من ملوكهم، وزعم أن الملك لا يثبت إلا بالعدل لأن العدل ميزان الباري، وأن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل، وخص وشرّف وتوّج ورتّب الناس في رتبهم ووقفهم على طريقهم وخرج يرتاد موضعاً ليبتني فيه هيكلاً فوافى موضعاً عامراً بالنبات حسن الاعتمام بالزهر تخترقه المياه، فخط الهيكل هناك وجُلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان فشيد الهيكل وجعل على علوه قبة وجعل لها مخارج للهواء متساوية ونصب فيها بيوتاً لمن أراد التفرد بالعبادة؛ فلما فرغ منه نصب في تلك التماثيل التي فيها أجسام من سلف من آبائه، وقال: «في تركِ ذلك عليّ خروج عن حد الحكمة ويكون ذلك إلى غير غاية ولا نهاية»؛ وأمر بتعظيم تلك الأجسام المجعولة من أعلى القبة.

وجمع الخواص من أهل مملكته وأخبرهم أن من رأيه ضم الناس إلى ديانة يرجعون إليها، يجتمع بها الشمل ويستوي بها النظام، فإنه متى عدم الملك الشريعة واستواء النظام لم يؤمن عليه الخلل ودخول الفساد والزلل؛ فرتب لهم سياسة شرعية وفرائض عقلية وجعلها لهم رباطاً وثبت لهم قصاصاً في النفوس والأعضاء، ومستحلات المناكح يستباح بها النسوان وتصح بها الأنساب، وجعلها مراتب: فمنها لوازم موجبة يخرجون في تركها، ومنها نوافل يتنفلون بها، وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقرُّباً إلى معبودهم لا ركوع فيها ولا سجود، في أوقات من الليل والنهار معلومة، ومنها بركوع وسجود في أوقات من السنة والشهور محدودة؛ ورسم لهم أعياداً.

وأوجب على الزناة منهم حدوداً وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مفروضة وألا يستبحن بالنكاح في وقت من الأوقات، وإن أقلعن عما كن عليه؛ أن تكف الجزية عنهن؛ وما يكون من أولادهن ذكوراً يكون للملك جنداً وعبيداً، وما كان من أولادهن إناثاً فلأمهاتهن ويلحقن بصنعتهن؛ وأمرهم بقرابين للهيكل ودخن وأبخرة للكواكب، وجعل لكل كوكب منها وقتاً يُتقرّب إليه [فيه] بدخن معمولة بأنواع الطيب والعقاقير محصورة؛ وأحكم لهم جميع الأمور فاستقامت أيامه وكثر النسل، فكانت مدة حياته نحو مائة وخمسين سنة وهلك.

فجزعوا عليه جزعاً شديداً وجعلوه في تمثال من الذهب الأحمر ورصعوه بأنواع الجواهر وبنوا له هيكلاً عظيماً وجعلوا في أعلاه سبعة أنواع من الجواهر على ألوان الكواكب السبعة من النيرين والخمسة بألوانها وأشكالها، وجعلوا يوم وفاته صلواتٍ وعيداً يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل، وصوّروا صورته وسيرته في لوح من ذهب وجعلوه في أعلى الهيكل من حيث تراه الأبصار ليكون بذلك مثلاً لمن يرد بعده في السياسة ونهج السيرة، وصوّروا صورته على أبواب المدينة وعلى الدنانير والفلوس والثياب؛ وأكثر أموالهم الفلوس من الصفر والنحاس.

فاستقرّت هذه المدينة بدار ملك الصين وهي مدينة ينصو وبينها وبين البحر نحو ثلاثة أشهر وأكثر من ذلك على حسب ما قدّمنا آنفاً؛ ولهم مدينة عظيمة نحو ما يلي من أرضهم مغربَ الشمس يقال لها مدو وتلي بلاد التُّبت والحرب بين أهل بلاد مدو وبين بلاد التبت سجال، فلم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورهم منتظمة وأحوالهم ملتئمة والخصب والعدل لهم شامل والجور في بلدهم معدوم، يقتدون بما نصبه لهم من

الشرع من قدمنا ذكره، وحروبهم على عدوهم قائمة وثغورهم مشحونة والرزق على الجنود دار والتجار يختلفون إليهم في البر والبحر من كل بلد بأنواع الجهاز.

ودينهم دين من سلف وهي ملة تدعى السمنية، [عباداتهم] نحو من عبادات قريش قبل الإسلام، يعبدون الأصنام ويتوجهون نحوها بالصلوات واللبيب منهم من يقصد بصلاته الخالق ـ عزّ وجل ـ ويقيم التمثال من الأصنام والصور مقام قبلة، والجاهل منهم ومن لا علم له يشرك الأصنام بإلاهيّة الخالق ويعبدهما جميعاً؛ وإن عبادتهم الأصنام تقرّبهم إلى الله زلفى وإن منزلتهم في العبادة تنقص عن عبادة الباري لجلالته وعظمته وسلطانه وإن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة لهم إليه، إلى أن ظهرت في أهل الصين آراء ونحل حدثت من مذاهب الثنوية وأهل الدهر، وقد كانوا قبل ذلك في الآراء والنحل وعبادة التماثيل على حسب ما عليه عوام الهند وخواصهم، فتغيّرت أحوالهم وبحثوا وتناظروا، إلا أنهم ينقادون في جميع أحكامهم إلى ما نصب لهم من الشرع المتقدم.

ومُلكهم يتصل بملك الطُّغُزْغُز على حسب ما قدّمنا من اعتقادهم مذهب المنانية والقول بالنور والظلمة؛ وقد كانوا جاهلية جهلاء، سبيلهم في الاعتقاد سبيل أنواع الترك إلى أن وقع لهم شيطان من شياطين المثانية فزخرف لهم كلاماً يريبهم فيه تضاد ما في هذا العالم وتباينه من موت وحياة، وصحة وسقم وغناء وفقر، وضياء وظلام، واجتماع وافتراق، واتصال وانفصال، وشروق وغروب، ووجود وعدم، وليل ونهار، وغير ذلك من سائر المتضادات، وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان من الناطقين وغيرهم وما يعرض للأطفال والبله والمجانين، وأن الباري غني عن إيلامهم، وأراهم أن هناك ضداً شديداً دخل على الخير الفاضل في فعله وهو الله تعالى عن ذلك؛ فاجتذب بما وصفناه وغيره من الشّبه عقولهم، فدانوا بما وصفنا.

فإذا كان ملك الصين سمَني المذهب يذبح الحيوان فتكون الحرب بينه وبين صاحب الترك أيغُرخان سجالاً، وإذا كان ملك الصين مناني المذهب كان الأمر بينهم في الملك مُشاعاً؛ وملوك الصين ذوو آراء ونحل إلا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل وسنن العدل في نصب القضاة والحكام وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك.

وأهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وأفخاذها وتشعُّبها في أنسابها، ولهم مراعاة لذلك وحفظ لها؛ ويُنسب الرجل منهم إلى خمسين آباء إلى أن يتصل بعامور أو أكثر من ذلك وأقل؛ ولا يتزوج أهل كل فخذ من فخذهم مثال ذلك أن يكون الرجل من

مضر فيتزوج في ربيعة، أو من ربيعة فيتزوج في مضر، أو من كهلان فيتزوج في حِمير، أو من حمير فيتزوج في كهلان؛ ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية وأن ذلك أصح للبقاء وأتم للعمر، وأشياء يذكرونها نحو ما ذكرنا.

فلم تزل أمور الصين مستقيمة في العدل على حسب ما جرى به الأمر فيما سلف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين، فإنه حدث في الملك أمر زال به النظام وانتقضت به الأحكام والشرائع إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة؛ وإن نابغاً نبغ فيهم من غير بيت الملك كان في بعض مدن الصين يقال له يانشو وكان شريراً يطلب الفتنة ويجتمع إليه أهل الدعارة والشر، فلحق الملك وأرباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكره وأنه ممن لا يبالى به، فاشتد أمره ونما ذكره وكثر عتوه وقويت شوكته، وقطع أهل الشر المسافات نحوه فعظم جيشه، فسار من موضعه وشنّ الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانفو وهي مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة أو نحوها يصب إلى بحر الصين، وبين هذه المدينة وبين البحر مسيرة ستة أيام أو سبعة، يدخل هذا النهر سفن البحر الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزنج والصنف وغيرها من الممالك بالأمتعة والجهاز.

فبدر إلى مدينة خانفو وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس وغيرهم من أهل الصين، فقصد هذا العدو إلى هذه المدينة فحاصرها وأتته جيوش الملك فهزمها واستباح الحريم، وكثرت جيوشه وافتتح مدينة خانقو هذه عنوة وقتل من أهلها خلقاً لا يحصون لكثرتهم وأحصي من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس ممن قُتل وغرق خوف السيف مائتا ألف؛ وإنما أُحصي ما ذكرنا من العدد لأن ملوك الصين تحصي من في مملكتها من رعيتها ومن جاورها من الأمم وصارت ذمة لها، في دواوين لها، وكُتّاب قد وُكلوا بإحصاء ذلك لما يراعون من حياطة من شمله مُلكهم.

وقطع هذا العدو ما كان حول المدينة من غابات شجر التوت إذ كان يحتفظ به لما يكون من ورقه وما يطعم منه لدود القز الذي ينتج منه الحرير، فكان ذهاب هذا الشجر داعياً إلى انقطاع الحرير الصيني وجهازه إلى ديار الإسلام، وسار يانشو بجيوشه إلى بلدٍ بلدٍ فافتتحه وانضاف إليه أمم من الناس ممن يطلب الشر والنهب وغيرهم ممن يخاف على نفسه، وقصد نحو مدينة خمدان وهي دار الملك في ثلاثمائة ألف فارس وراجل؛ فخرج إليه الملك في نحو مائة ألف ممن بقي معه من خواصه والتقيا وكانت الحرب

بينهم سجالاً نحو شهر، وصبر الفريقان جميعاً؛ ثم كانت على الملك فولّى منهزماً وأمعن الخارجي السير في طلبه وانحاز الملك إلى مدينة في أطراف بلده.

واستولى الخارجي على الحوزة واحتوى على دار الملك وملك خزائن الملوك السالفة وما استعدّوه للنوائب، وشن الغارات في سائر العمائر وافتتح المدن؛ وعلم ألاّ قوام له بالملك إذ كان ليس من أهله، فأمعن في خراب البلاد واستباحة الأموال وسفك الدماء.

وكاتب الملك، من المدينة التي انحاز إليها المتاخمة لبلاد التبت وهي مدينة مدو المتقدم ذكرها، ملك الترك أيغرخان واستنجده وأعلمه بما نزل به وعرّفه بما يلزم الملوك من الواجبات إذا استنجدتها إخوتها من الملوك وأن ذلك من فرائض الملك وواجباته؛ فأنجده أيغرخان بولد له في نحو من أربعمائة ألف فارس وراجل، وقد استفحل أمر يانشو؛ فالتقى الفريقان جميعاً فكانت الحرب بينهما سجالاً نحواً من سنة، وتفانى من الفريقين خلق عظيم، ففُقد يانشو وقيل إنه قتل وقيل إنه غرق، وأُسر ولده والخواص من أصحابه؛ وسار ملك الصين إلى دار مملكته وعاد إلى ملكه.

والعامة تسميه بغبور وتفسير ذلك: ابن السماء، تعظيماً له؛ والاسم الأخص لملوك الصين والذي يخاطبون به: طمغاج خان، ولا يخاطبون بيغبور.

وتغلّب صاحب كل ناحية من عمله على ناحيته كتغلب ملوك الطوائف حين قتل الإسكندر بن فليفس المقدوني دارا بن دارا ملك الفرس، وكنحو ما نحن بسبيله في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة؛ فرضي ملك الصين منهم بالطاعة له ومكاتبته بالملك ولم يتأتّ له المسير إلى سائر أعماله ولا محاربة من تغلب على بلاده؛ فقنع بما وصفنا وامتنع مَن ذكرنا من حمل الأموال [إليه]، فتركهم مسالماً لهم، وأغار كل فريق منهم على من يليه على حسب قوته وتمكنه، فعدم انتظام المملكة واستقامته على حسب ما سلف من ملوكهم.

قال المسعودي: ومن طرائف أخبار ملوك الصين أن رجلاً من قريش من ولد هبار بن الأسود، لما كان من خبر صاحب الزنج بالبصرة ما اشتهر، صار هذا الرجل إلى مدينة سيراف وكان من أبناء البصرة وأرباب النعم، ثم ركب منها إلى بحر الهند، ولم يزل يتحول من مركب إلى مركب ومن بلد إلى بلد يخترق ممالك الهند إلى أن انتهى إلى بلاد الصين فسار إلى مدينة خانفو؛ ثم دعته همته إلى أن سار إلى دار ملك الصين وكان الملك يومئذٍ بمدينة خُمدان وهي من كبار مدنهم ومن عظيم أمصارهم فأقام

بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب؛ فأمر الملك بعد هذه المدة بإنزاله في بعض المساكن وإزاحة علته فيما يحتاج إليه من جميع أموره. وكتب الملك إلى الوالي المستخلف بخانفو، يأمره بالبحث ومسألة التجار عن الذي يدّعيه الرجل من قرابة بني العرب؛ فكتب إليه صاحب خانفو بصحة نسبه، فأذن له ووصله بمال واسع عاد به إلى العراق.

وكان شيخاً فهماً، فأخبر أنه لما وصل إليه سأله عن العرب وكيف أزالوا مُلك العجم، فقال له: «بالله ــ عز وجل ــ وما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس وللقمر من دون الله» فقال له: «لقد غلبت العرب على أجل الممالك وأوسعها ريعاً وأكثرها أموالاً وأعقلها رجالاً وأبعدها صيتاً»؛ ــ ثم قال له: «فما منزلة سائر الملوك عندكم؟» ــ قال: «ما لي بذلك علم» ــ قال للترجمان: «قل له إنما نعد الملوك خمسة: فأوسعهم ملكاً الذي يملك العراق لأنه في وسط الدنيا والملوك محدقة به ونجد اسمه عندنا ملك الملوك؛ وبعده ملكنا هذا ونجده عندنا ملك الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ولا أضبط للملك من ضبطنا لملكنا ولا رعية من الرعايا أطوع لملوكها من رعيتنا؛ فنحن ملوك الناس ومن بعدنا ملك السباع وهو ملك الترك الذي يلينا وهو [ملك] سباع الإنس؛ وبعده ملك الفيلة وهو ملك الهند ونجده عندنا ملك الحكمة لأن أصلها منهم؛ وبعده ملك الروم وهو عندنا ملك الرجال لأنه ليس في الأرض أتم خلقاً من رجاله ولا أحسن وجوهاً؛ فهؤلاء أعيان الملوك والباقون دونهم».

ثم قال للترجمان: «قل له: أتعرف صاحبك إن رأيته؟» ــ يعني النبي صلعم ــ فقلت: «وكيف لي برؤيته وهو عند الله ــ عز وجل ــ؟» ــ قال: «لم أرد هذا وإنما أردت صورته» ــ فقلت: «أجل»؛ فأمر بسفط فأخرج فوضع بين يديه، فتناول منه درجاً وقال للترجمان: «أره صاحبه» فرأيت في الدرج صورة الأنبياء فحرّكت شفتي بالصلاة عليهم ولم يكن عنده أني أعرفهم، فقال للترجمان: «سله عن تحريكه شفتيه»؛ فسألني، فقلت: «أصلي على الأنبياء» ــ فقال: «ومن أين عرفتهم؟» ــ قال: «عرفتهم بما صُور من أمرهم: هذا نوح في السفينة ينجو بمن معه لما أمر الله ــ عز وجل ــ الماء فغمر الأرض كلها بمن فيها وسلّمه الله ومن معه»؛ فضحك وقال: «أما نوح فقد صدقت في تسميته، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه؛ وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا؛ وإن كان خبركم عن هذه القطعة فنحن معاشر الصين والهند والسند

وغيرها من الطوائف والأمم لا نعرف ما ذكرتم ولا نقل إلينا أسلافنا ما وصفتم؛ وما ذكرت من ركوب الماء الأرض كلها فمن الكوائن العظام التي تفزع النفوس إلى حفظه وتداوله الأمم ناقلة لخبره».

قال فتهيبت للرد عليه وإقامة الحجة لعلمي بدفعه لذلك، ثم قلت: «هذا موسى وعصاه وبنو إسرائيل» ـ فقال: «نعم على قلة البلد الذي كان فيه وفساد قومه عليه» ـ فقلت: «هذا عيسى على حماره والحواريون معه» ـ فقال: «لقد كان قصير المدة، إنما كان أمره يزيد على ثلاثين شهراً شيئاً يسيراً»؛ وعدّد من [أمر] سائر الأنبياء وأخبارهم ما اقتصرنا على ذكر بعضه.

وزعم هذا القرشي المعروف بابن هبّار أنه رأى فوق كل صورة كتابة طويلة قدّر أن فيها ذكر أسمائهم ومواضع بلدانهم ومقادير أعمارهم وأسباب نبواتهم وسيرهم، ثم رأيت صورة نبينا محمد صلعم على جمل وأصحابه محدقون به، في أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل، وفي أوساطهم حبال الليف قد علّقوا فيها المساويك؛ فبكيت؛ فقال للترجمان: «سله عن بكائه» ـ فقلت: «هذا نبينا وسيدنا وابن عمنا محمد بن عبد الله» ـ قال: «صدقت لقد ملك هو وقومه أجلّ الممالك إلا أنه لم يعاين ما ملك وإنما عاينه من بعده ممن تولى الأمر على أمته من خلفائه».

ورأيت صور الأنبياء كثيراً منهم قد أشار بيده [اليمنى] جامعاً بين سبّابته وإبهامه كالحلقة كأنه يصف أن الخليقة في مقدار الحلقة، ومنهم من قد أشار بسبّابته نحو السماء كالمُرهب للخليقة بما فوق ذلك، [زعم الترجمان أنهم من أنبيائهم وأنبياء الهند]؛ ثم سألني عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع؛ فأجبته على قدر ما علمت منها، ثم قال: «كم عمر الدنيا عندكم؟» ـ فقلت: «قد تنوزع في ذلك: فبعض يقول ستة آلاف سنة؛ وبعض يقول دونها، وبعض يقول فوقها» ـ فقال: «ذلك عن نبيكم؟» ـ فقلت: «نعم»؛ فضحك ضحكاً كثيراً ووزيره أيضاً وهو واقف، دلّ على إنكاره ذلك وقال: «ما أحسب نبيكم قال هذا»؛ فرددت، فقلت «بلى هو قال ذلك»؛ فرأيت الإنكار في وجهه؛ ثم قال للترجمان: «قل له ميّز كلامك فإن الملوك لا تكلّم إلا عن تحصيل؛ أما ما زعمت أنكم تختلفون في ذلك فإنكم إنما اختلفتم في قول نبيكم وما قالته الأنبياء لا يجب أن يختلف فيه بل هو مسلّم لها؛ فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه».

وذكر أشياء كثيرة غير هذه خرجت عني لطول المدة؛ ثم قال لي: «لِمَ عدلت عن ملكك وهو أقرب إليك منا داراً ونسباً؟» ـ قلت: «بما حدث في البصرة ووقوعي إلى سيراف ونزعت بن همتي إليك أيها الملك لما بلغني من استقامة ملكك وحسن سيرتك وكثرة عدلك وشمول سياستك لسائر رعيتك؛ فأحببت الوقوع إلى هذه المملكة ومشاهدتها، وأنا راجع عنها إن شاء الله إلى بلادي وملك ابن عمي ومخبر بما شاهدت من جلالة هذا الملك وسعة هذه البلاد وعموم هذا العدل وحسن شِيمك أيها الملك المحمودة خلائقه وسأقول بكل قول حسن وأثني بكل جميل».

فسرّه ذلك وأمر لي بجائزة سنية وخلع شريفة وأمر بحملي على بغال البريد إلى خانفو وكتب إلى ملكها بإكرامي وتقديمي على جميع من في ناحيته من سائر خواص الناس وإقامة النزل لي إلى وقت خروجي؛ فكنت عنده في أخصب عيش وأنعمه إلى أن خرجت عن بلاد الصين.

قال المسعودي: وأخبرني أبو زيد محمد بن يزيد السيرافي بالبصرة وكان قد قطنها وانتقل عن سيراف وذلك في سنة ثلاث وثلاثمائة وهو ابن عم مزيد [بن] محمد بن ابرد بن بستاشا صاحب سيراف، وكان من أهل التحصيل والتمييز، أنه سأل ابن هبّار هذا القرشي عن مدينة خمدان التي بها الملك وصفتها ونعتها؛ فذكر سعتها وكثرة أهلها وأنها مقسومة على قسمين يفصل بينهما شارع طويل عريض، فالملك ووزيره وقاضي قضاته وجنوده وخصيانه وجميع أسبابه في الشق الأيمن مما يلي المشرق، ولا يخالطهم أحد من العامة ولا فيه شيء من الأسواق بل الأنهار في سكة مطردة والأشجار عليها منتظمة والمنازل عليها فسيحة.

وفي الشق الأيسر مما يلي المغرب الرعية والتجار والميرة والأسواق؛ فإذا وضح النهار رأيت قهارمة الملك وأستاذيه وغلمان القواد ووكلاءهم من بين راكب وراجل قد دخلوا إلى الشق الذي فيه الأسواق والتجار فأخذوا وظائفهم وحوائجهم ثم انصرفوا، ولم يعد منهم أحد إلى هذا الشق إلا في اليوم الثاني وإن في هذه البلدة كل نزهة وغيضة حسنه وأنهار مطردة، إلا النخل فإنه معدوم بها.

وأما أهل الصين فمن أحذق خلق الله كفّاً بنقش وصناعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم؛ والرجل منهم يصنع بيده ما يقدّر أن غيره يعجز عنه فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع؛ فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته

ذلك إلى سنة: فإن لم يخرج فيه أحد عيباً أجازه وأدخله في جملة صنّاعه وإن أخرج فيه عيب اطَّرحه ولم يجزه عليه.

وإن رجلاً منهم صوّر سنبلة عليها عصفور في ثوب حرير لا يشك الناظر إليها أنها سنبلة سقط عليها عصفور؛ فبقي الثوب مدة؛ وإنه اجتاز به رجل أحدب فعابها؛ فأدخل إلى الملك وأحضر صانعها فسئل الأحدب عن العيب فقال: «المتعارف عند الناس جميعاً أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا سالماً؛ وصوّر هذا المصور السنبلة فنصبها قائمة لا ميل لها وأثبت العصفور فوقها منتصباً فأخطأ، فصدّق الأحدب ولم يثب صاحبها بشيء؛ وقصدهم في هذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء ليضطرهم إلى شدة الاحتراز والحذر وإعمال الفكر فيما يصنع كل واحد منهم بيده.

ولأهل الصين أخبار عجيبة ولبلادهم أخبار طريفة سنورد فيما يرد من هذا الكتاب جملاً منها، وإن كنا قد أتينا على سائر الأخبار في ذلك في كتابنا في أخبار الزمان وفي الكتاب الأوسط، وربما قد ذكرنا في هذا الكتاب ما لم يتقدم ذكره في ذينك الكتابين.

٧

الصقالبة والإفرنجة(*)

في ذكر الصقالبة ومساكنها وأخبار ملوكها وتفرق أجناسها

قال المسعودي: الصقالبة من ولد ماذاي بن يافث بن نوح وإليه ترجع سائر أجناس الصقالبة وبه يلحقون في أنسابهم؛ هذا قول كثير من أهل الدراية ممن عني بهذا الشأن ومساكنهم بالجربي إلى أن يتصلوا بالمغرب وهم أجناس مختلفة وبينهم حروب ولهم ملوك ومنهم من ينقاد إلى دين النصرانية إلى رأي اليعقوبية، ومنهم من لا كتاب له ولا ينقاد إلى شريعة، وهم جاهلية لا يعرفون شيئاً من الشرائع؛ وهؤلاء أجناس، فمنهم جنس كان الملك فيهم قديماً في صدر الزمان وكان ملكهم يدعى ماجك، وهذا الجنس يدعي وليتابًا وكان يتلو هذا الجنس في القديم سائر أجناس الصقالبة لكون الملك فيهم وانقياد سائر ملوكهم إليه.

ثم يتلو هذا الجنس من أجناس الصقالبة اصطُترانة وملكهم في هذا الوقت يدعى بَصْقلابج؛ وجنس يقال له دولابة وملكهم في هذا الوقت يدعى وانج صلاف؛ وجنس يقال له نامجين وملكهم يدعى غراند وهذا الجنس أشجع أجناس الصقالبة وأفرسهم؛ وجنس يدعى منابن وملكهم يدعى رتيمير؛ ثم جنس يقال له سربين، وهو جنس عند الصقالبة مهيب لعللٍ يطول ذكرها وأوصاف يكثر شرحها وتعرّيهم من ملة ينقادون إليها؛ ثم جنس يقال له مراوة؛ ثم جنس يقال له خرواتين ثم جنس يقال له صاصين؛ ثم جنس يقال له خشانين ثم جنس يقال له برانجابين؛ وما سمّيناه من أسماء بعض ملوك

(*) مروج الذهب، الفقرات ٩٠٥ ـ ٩٢٢.

هذه الأجناس فسِمة معروفة لملوكهم، والجنس الذي سميناه المعروف بسربين يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات لهم الملك أو الرئيس ويحرقون دوابه؛ ولهم أفعال مثل أفعال الهند.

وقد قدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب طرفاً من ذكرها عند ذكرنا لجبل القبخ والخزر، وأن في بلاد الخزر مع الخزر خلقاً من الصقالبة والروس وأنهم يحرقون أنفسهم بالنيران، وهذا الجنس من الصقالبة وغيرهم يتصلون بالمشرق ويبعدون من المغرب.

فالأول من ملوك الصقالبة ملك الدير وله مدن واسعة وعمائر كثيرة [وجيوش واسعة وعدد كثير] وتجار المسلمين يقصدون دار ملكه بأنواع التجارات؛ ثم يلي هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الأفرغ وله معدن ذهب ومدن وعمائر واسعة وجيوش كثيرة وعدد كثير ويحارب الروم والفرنج والبزْكرْد وغير هؤلاء من الأمم والحرب بينهم سجال؛ ثم يلي هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الترك وهذا الجنس أحسن الصقالبة صورة وأكثرهم عدداً وأشدهم بأساً؛ والصقالبة أجناس كثيرة وأنواع واسعة لا يأتي كتابنا هذا على وصف أجناسهم وتفريع أنواعهم.

وقد قدّمنا الإخبار عن الملك الذي كان ينقاد إليه ملوكهم في قديم الزمان وهو ماجك ملك وليتابا، وهذا الجنس أصل من أصول الصقالبة معظّم في أجناسهم؛ ولهم قدم فيهم؛ ثم اختلفت الكلمة بين أجناسهم فزال نظامهم وتحزّبت أجناسهم وملّك كل جنس عليه ملكاً على حسب ما ذكرنا من ملوكهم لأمور يطول ذكرها قد أتينا على جملٍ من شرحها وكثير من مبسوطها في كتابينا في أخبار الزمان والأوسط.

في ذكر الإفرنجة والجلالقة وملوكها وما يتصل بذلك

الإفرنجة والصقالبة والنوكبرد والأشبان ويأجوج ومأجوج والترك والخزر وبُرجان واللان والجلالقة وغيرهم ممن ذكرنا ممن حلّ بالجربي وهو الشمال.. لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين أن جميع من ذكرنا من هؤلاء الأمم من ولْد يافث بن نوح، وهو الأصغر من ولد نوح؛ فالإفرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأساً وأمنعهم جنبة وأكثرهم عدة وأوسعهم ملكاً وأكثرهم مدناً وأحسنهم نظاماً وانقياداً لملوكهم وأكثرهم طاعة، إلا أن الجلالقة أشد من الإفرنجة بأساً وأعظم منهم نكاية والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الإفرنجة.

وكلمة الإفرنجة متفقة على ملك واحد لا تنازع بينهم في ذلك ولا تحزّب؛ واسم دار مملكتهم في وقتنا هذا بريزة وهي مدينة عظيمة، ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة غير العمائر والكور؛ وكان أول بلاد الإفرنجة قبل ظهور الإسلام في البحر جزيرة رودس وهي التي ذكرنا أنها مقابلة للإسكندرية وأن فيها صناعة المراكب في وقتنا هذا للروم؛ ثم جزيرة إقريطش وقد كان للإفرنجة أيضاً فافتتحها المسلمون ونزلوها إلى هذه الغاية.

وكانت بلاد إفريقية وجزيرة صقلية للإفرنجة أيضاً وقد أتينا على أخبار هذه الجزائر وخبر الجزيرة المعروفة بالبركان وهي الأطمة التي تخرج منها أجسام من النار كأجسام الناس بلا رؤوس فتعلو في الهواء بالليل ثم تسقط في البحر فتطفو على وجه الماء، وهي الحجارة التي يحك بها الكتابة من الدفاتر وهي كعاب بيض مثقبة على هيئة الشهد وأكوار الزنابير الصغار؛ وهي الأطمة المعروفة بأطمة صقلية؛ وفيها قبر فرفوريس الحكيم الذي صنّف كتاب إيساغُوجي وهو المدخل إلى علم المنطق وهذا الكتاب بهذا الرجل يعرف؛ وكذلك أتينا على ذكر سائر آطام الأرض كأطمة دي برهوت من أرض حضرموت وبلاد الشِحر وأطمة بلاد الزابج من بحر الصين وأطمة بلاد أسَك وهي ما بين بلاد فارس وبلاد الأهواز من أعمال مدينة أرّجان من بلاد فارس، وهذه النار تُرى بالليل من نحو عشرين فرسخاً وهي مشهورة في أرض الإسلام؛ وتفسير أطمة عين النار التي تنبع من الأرض.

ولم نعرض في هذا الكتاب لذكر الحمّات الكبريتية ولا الزاجية ولا الحمّات التي تظهر من مائها النار كالحمّة التي في بلاد ماسبذان من أرض أريوجان والسيروان يقال لها النومان وهي حمة تظهر من وسط مائها النار وهي حمة عجيبة تمنع ورود الماء لظهور النار على مائها ولا يستطيع الماء على إطفائها ودفعها لشدة قوتها وسلطان لهبها وهي أحد عجائب العالم، إذ كنا قد أتينا على علل جميع ذلك فيما سلف من كتبنا؛ وقد أتينا على منافع أنواع المياه بجوامع ذكرناها ولمع لوحنا بها فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لأرض الواحات من بلاد مصر وإن كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما تقدّم من كتبنا.

قال المسعودي: ووجدت في كتاب وقع إلي بفسطاط مصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أهداه غُدمار الأسقف بمدينة جرندة من مدن الإفرنجة في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة

إلى الحكَم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ولي عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت المخاطب في عمله بأمير المؤمنين، أن أول ملوك الإفرنجة قلودويه وكان مجوسياً فنصّرته امرأته وكان اسمها غُرُطِلْد.

ثم ملك بعده ابنه لذريق ثم ولي بعد لذريق ابنه دَقُوبَرت، ثم ولي بعده ابنه لذريق ثم ولي بعده قرلُمان أخوه، ثم ولي بعده ابنه قارلُه، ثم ولي بعده ابنه ببين، ثم ولي بعده ابنه قارله وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة، وكان في أيام الحكَم صاحب الأندلس وتدافع أولاده بعده ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الإفرنجة بسببهم وصار لذويق بن قارله صاحب ملكهم؛ فملك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر وهو الذي أقبل إلى طرطوشة فحاصرها.

ثم ملك بعده قارله بن لذويق وهو الذي كان يهادي محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان محمد يخاطَب بالإمام، وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر؛ ثم ولي بعده ابنه لذويق ستة أعوام؛ ثم قام عليه قائد للإفرنجة يسمى قومِس فملك الإفرنجة وأقام في ملكهم ثماني سنين وهو الذي صالح المجوس عن بلده سبع سنين وستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الإفرنجة إليهم؛ ثم ولي بعده قارله بن تقويرة أربع سنين؛ ثم ولي بعده قارله آخر فمكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر؛ ثم ولي بعده لذويق بن قارله وهو ملك الإفرنجة إلى هذا الوقت وهو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وقد استوفى في مملكته عشر سنين إلى هذا التأريخ على حسب ما نمى إلينا من خبره.

قال المسعودي: وأشدّ ما على الأندلس من الأمم المجاورة لهم الجلالقة، على أن الإفرنجة حرب لهم غير أن الجلالقة أشد بأساً؛ وقد كان لعبد الرحمن بن محمد صاحب الأندلس في هذا الوقت وزير من ولد أبيه يقال له أحمد بن إسحق؛ فقبض عليه عبد الرحمن لأمر كان منه استحق في الشريعة العقوبة عليه فقتله عبد الرحمن؛ وكان لذلك الوزير أخ يقال له أمية في مدينة من ثغور الأندلس يقال لها شَنْترين؛ فلما نمى إليه ما فُعل بأخيه عصى على عبد الرحمن وصار في حيّز رُذْمير ملك الجلالقة، فأعانه على المسلمين ودلّه على عوراتهم.

ثم خرج أمية في بعض الأيام من المدينة يتصيد في بعض منتزهاته فغلب على المدينة بعض غلمانه ومنعوه من الدخول إليها، وكاتبوا عبد الرحمن؛ فمضى أمية بن إسحق أخو الوزير المقتول إلى رذمير فاصطفاه واستوزره وصيره في جملته، وغزا عبد الرحمن صاحب الأندلس سمّورة دار مملكة الجلالقة المتقدمة صفة بنيانها وأسوارها في باب جمل الأخبار عن البحار وما فيها وما حولها من العجائب والأمم وغير ذلك فيما سلف من هذا الكتاب؛ وكان عبد الرحمن في مائة ألف وأزيد؛ فكانت الوقعة بينه وبين رذمير ملك الجلالقة في شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر بثلاثة أيام، وكانت للمسلمين عليهم، ثم ثابوا بعد أن حوصروا وأولجوا إلى المدينة فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق خمسين ألفاً؛ وقيل إن الذي منع رذمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن إسحق وخوّفه الكمين ورغّبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن؛ ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين.

ثم إن أمية هذا استأمن بعد ذلك إلى عبد الرحمن وتخلّص من رذمير؛ فتقبّله عبد الرحمن أحسن قبول؛ وقد كان عبد الرحمن صاحب الأندلس بعد هذه الوقعة جهز عساكر مع عدة من قواده إلى الجلالقة فكانت له معهم حروب هلك فيها الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى، وكانت للمسلمين عليهم فيما بعد إلى هذه الغاية؛ ورذمير ملك الجلالقة إلى هذا الوقت وهو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وكان قبله على الملك أردون وكان قبل أردون أدفونش؛ والإفرنجة والجلالقة تدين بالنصرانية على دين الملكية.

في ذكر النوكُبَرد وملوكهم

قد تقدّم ذكرنا للنوكبرد وأنهم من ولْد يافث بن نوح وبلادهم متصلة بالمغرب ومحلهم بالجربي ولهم جزائر كثيرة فيها أمم من الناس وهم ذوو بأس شديد ومنعة ولهم مدن كثيرة، يجمعهم ملك واحد؛ وأسماء ملوكهم في سائر الوقت أداكيس والمدينة العظمى من مدنهم ودار مملكتهم هي بنبنت ويخترقها نهر عظيم وهي جانبان، وهذا النهر أحد أنهار العالم الموصوفة بالكبر والعجائب يقال له سايبط، قد ذكره جماعة ممن عني بهذا المعنى ممن تقدّم.

وقد كان المسلمون ممن جاورهم من بلاد الأندلس والمغرب غلبوهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة باري ومدينة طارنتو ومدينة سردانية وغيرها من مدنهم الكبار،

وسكنها المسلمون مدة من الزمان؛ ثم إن النوكبرد ثابوا ورجعوا على من كان في تلك المدن من المسلمين فأخرجوهم عنها بعد حروب طويلة؛ وما ذكرنا من المدن في وقتنا هذا، وهو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، في أيدي النوكبرد.

قال المسعودي: ومن ذكرنا من الجلالقة والإفرنجة والصقالبة والنوكبرد وغيرهم من الأمم فديارهم متقاربة والأكثر منهم محاربون لأهل الأندلس؛ وصاحب الأندلس في هذا الوقت ذو منعة وقوة عظيمة على ما قدّمنا من نسبه وأخباره؛ وقد كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام سار إلى الأندلس في أول دولة بني العباس، وله أخبار كثيرة في كيفية وصوله إلى الأندلس؛ ودار مملكة الأندلس قرطبة على ما ذكرنا؛ ولهم مدن كثيرة وعمائر متصلة واسعة وثغور في أطراف أرضهم؛ ولربما اجتمع عليهم من جاورهم من الأمم من ولْد يافث من الجلالقة وبرجان والإفرنجة وغيرها من الأمم؛ وصاحب الأندلس في هذا الوقت يركب في مائة ألف وهو ذو منعة بالرجال والمال والكراع والعدد والله الباقي.

٨

في الهياكل والديانات(*)

للصابئة من الحرانيين هياكل على أسماء الجواهر العقلية والكواكب؛ فمن ذلك هيكل العلة الأولى وهيكل العقل، ولا أدري آشاروا إلى العقل الأول أم الثاني؛ وقد ذكر صاحب المنطق في المقالة الثالثة من كتاب النفس: العقل الأول الفعّال والعقل الثاني وكذلك ذكر ثامسطيوس في شرحه لكتاب النفس الذي عمله صاحب المنطق؛ وقد ذكر العقل الأول والثاني الإسكندر الأفرُودِسي في مقالة أفردها في ذلك قد ترجمها إسحق بن حُنين.

ومن هياكل الصابئة هيكل السياسة وهيكل الضرورة وهيكل النفس؛ وهذه مدوّرات الشكل وهيكل زحل مسدس وهيكل المشتري مثلث وهيكل المريخ مستطيل وهيكل الشمس مربع وهيكل عطارد مثلث الشكل في جوف مستطيل وهيكل الزهرة مثلث في جوف مربع، وهيكل القمر مثمن الشكل؛ وللصابئة فيما ذكرنا رموز وأسرار يخفونها.

وقد حكى رجل من مَلكية النصارى من أهل حرّان يعرف بالحارث بن سُنباط أن للصابئة الحرانيين أشياء ذكرها من قرابين يقربونها من الحيوان للكواكب يبخرون بها وغير ذلك مما امتنعنا عن ذكره مخافة التطويل.

والذي بقي من هياكلهم المعظمة في هذا الوقت وهو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة بيت لهم بمدينة حران في باب الرقة يعرف بمغليتيا وهو هيكل آزر أبي إبراهيم الخليل عندهم، وللقوم في آزر وابنه إبراهيم كلام كثير ليس كتابنا هذا موضعاً له.

(*) مروج الذهب، الفقرات ١٣٨٩ ـ ١٤٠٣، ١٤١٢ ـ ١٤١٩.

ولابن عيشون الحراني القاضي ـ وكان ذا فهم ومعرفة وتوفي بعد الثلاثمائة ـ قصيدة طويلة يذكر فيها مذاهب الحرانيين المعروفين بالصابئة، ويذكر فيها هذا البيت وما تحته من السراديب الأربعة المتخذة لأنواع صور الأصنام التي جعلت مثالاً للأجسام السماوية وما ارتفع من ذلك من الأشخاص العلوية وأسرار هذه الأصنام وكيفية إيرادهم لأطفالهم إلى هذه السراديب وعرضهم لهم على هذه الأصنام، وما يحدث ذلك في ألوان صبيانهم من الاستحالة إلى الصفرة وغيرها بما يسمعون من ظهور أنواع الأصوات وفنون اللغات من تلك الأصنام لأشخاص بحيل قد اتخذت ومنافيخ قد عملت، تقف السدنة من وراء جدُر تتكلم بأنواع من الكلام فتجري الأصوات في تلك المنافيخ والمخاريق والمنافذ إلى تلك الصور المجوفة والأصنام المشخصة، فيظهر منها نطق، على حسب ما قد عمل في قديم الزمان ليصطاد بها العقول ويسترق الرقاب ويقام بها الملك والممالك.

ولهذه الطائفة المعروفة بالحرانيين والصابئة فلاسفة إلا أنهم من حشوية الفلاسفة وعوامهم مباينون لخواص حكمائهم في مذاهبهم، وإنما أضفناهم إلى الفلاسفة إضافة نسب لا إضافة حكمة، لأنها يونانية وليس كل اليونانيين فلاسفة، إنما الفلاسفة حكماؤهم.

ورأيت على باب مجمع الصابئة بمدينة حرّان مكتوباً على مدقة الباب بالسريانية قولاً لأفلاطون أفهمني تفسيره مالك بن عقبون وغيره منهم وهو: «من عرف ذاته تألّه»؛ وقد قال أفلاطون: «الإنسان نبات سماوي والدليل على هذا أنه شبه شجرة منكوسة أصلها إلى السماء وفروعها إلى الأرض».

ولأفلاطون وغيره ممن سلك طريقه في النفس الناطقة كلام كثير في هل النفس في البدن أو البدن في النفس؛ كالشمس أهي في الدار أم الدار في الشمس؛ وهذا قول يتغلغل بنا الكلام فيه إلى الكلام في تنقّل الأرواح في أنواع الصور؛ وقد تنازع أهل هذه الآراء ممن قصد هذه المقالة في النقلة على وجهين: فطائفة منهم من الفلاسفة القدماء من اليونانيين والهند ممن لم يثبت كتاباً منزّلاً ولا نبياً مرسلاً منهم أفلاطون ومَن يمم طريقه حكي عنهم أنهم زعموا أن النفس جوهر ليست بجسم وأنها حية عالمة مميزة لأجل ذاتها وجوهرها وأنها هي المدبّرة للأجسام المركبة من الطبائع الأربع المتضادة، وغرضها في ذلك أن تقيمها على العدل وعلى ما تتم به السياسة المستقيمة والنظام

المتسق وترددها من الحركة المضطربة إلى المنتظمة؛ وزعموا أنها تلذّ وتألم وتموت، وموتها عندهم انتقالها من جسد إلى جسد بالتدبير، وبطلان ذلك الشخص الذي فسد وُصف بالموت لأن شخصها يفسد ولأن جوهرها ينتقل؛ وزعموا أنها عالمة بذاتها وجوهرها عالمة بالمعقولات من ذاتها وجوهرها وفيها قبول علم المحسوسات من جهة الحسّ؛ ولأفلاطون وغيره في هذه المعاني كلام يطول ذكره ويعجز عن وصفه وإظهاره لاعتياصه وغموضه؛ وكذلك قول صاحب المنطق وفيثاغورس وغيرهما من الفلاسفة ممن تقدّم وتأخّر، لأن الطالب لعلم هذه الأشياء والإحاطة بفهمها وبلوغ غايتها لا يدرك ذلك لما نصبوا في الكتب ورتبوا في التصنيف من العلوم المؤدية إلى معرفة علومهم وأغراضهم التي إليها قصدوا في كتبهم، وهي معرفة الألفاظ الخمس وهي: الجنس والنوع والفصل والخاصة والعَرَض؛ ثم معرفة المقولات وهي عشرة: الجوهر والكمية والكيفية والإضافة وهي النسبة وهي أربع بسائط والستّ الأخر مركّبات وهي: الزمان والمكان والجِدة وهي الملك والنصبة والفاعل والمنفعل ثم ما بعد ذلك مما يترقى به الطالب إلى أن ينتهي إلى علم ما بعد الطبيعة من معرفة الأول والثواني.

ثم رجع بنا الإخبار عن مذاهب الصابئة من الحرانيين وذكر من أخبر عن مذاهبهم وكشف عن أحوالهم؛ فمن ذلك كتاب رأيته لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي الفيلسوف صاحب كتاب المنصوريّ في الطب وغيره، ذكر فيه مذاهب الصابئة الحرانيين منهم دون من خالفهم من الصابئة وهم الكيماريون، وذكر أشياء يطول ذكرها ويقبح عند كثير من الناس وصفها، أعرضنا عن حكايتها إذ كان في ذلك خروج عن حد الغرض من كتابنا إلى وصف الآراء والديانات؛ وقد خاطبتُ مالك بن عُقبون وغيره ممن يُعنى منهم بشيء مما ذكرنا وغيره مما عنه كنّينا: فمنهم من اعترف ببعضه وأنكر بعضاً من ذكر القرابين وغيرها من الآراء مثل فعلهم بالثور الأسود فإنه يضرب وجهه بالملح إذا شدّت عيناه ثم يذبح ويُراعى كل عضو من أعضائه وما يظهر منه من الحركات والاختلاج وعلى ما يدل ذلك من أحوال السنة وغير ذلك من أسرارهم ومخبّآتهم وأحوال قرابينهم.

في ذكر الأخبار عن بيوت النيران وغيرها

فأما بيوت النيران ومن رسمها من ملوك الفرس الأولى والثانية فأول من حُكي عنه ذلك أفريدون الملك، وذلك أنه وجد ناراً يعظّمها أهلها ويعتكفون على عبادتها؛ فسألهم عن

خبرها ووجه الحكمة منهم في عبادتها؛ فأخبروه بأشياء اجتذبت نفسه إلى عبادتها وأنها واسطة بين الله وبين خلقه وأنها من جنس الآلهة النورية وأشياء ذكروها، أعرضنا عن ذكرها لاعتياصها وذلك أنهم جعلوا للنور مراتب وفرقوا بين طبع النار والنور وزعموا أن الحيوان تجتذبه النورية فيحرق نفسه كالفراش الطائر بالليل وما لطف جسمه يطرح نفسه في السراج فيحرقه، وغير ذلك مما يقع في صيد الليالي من الغزلان والطيور والوحوش، وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت منها السرج في الزوارق كما يصطاد في بلاد البصرة السمك في الليل: فيظهر من الماء طافياً حتى يقع في جوف المركب والسرج قد جعلت حواليه؛ وأن بالنور صلاح هذا العالم وشرف النور على الظلمة ومضادته لها، ومرتبة الماء وزيادته على النار في إطفائها ومضادته لها وأنه أصل لكل حي ومبدأ لكل نامٍ.

فلما أخبروا أفريدون بما ذكرنا أمر بحمل جزء منها إلى خراسان فاتخذ لها بيتاً بطوس واتخذ بيتاً آخر بمدينة بخارا يقال له برزِسَوزَة وبيت آخر من بيوت النار بسِجِسْتان يقال له كركوكان اتخذه بهمن بن إسفنْديار بن بِستاسف وبيت آخر ببلاد الشيز والران كانت فيه أصنام، فأخرجها منه أنوشروان وقيل إن أنوشروان صادف هذا البيت وفيه نار معظّمة فنقلها إلى الموضع المعروف بالبركة؛ وبيت للنار آخر يقال له كوسجه بناه كيْخُسْرو الملك.

وكان بُقومس بيت للنار المعظّم لا يُدرى من بناه يسمى جريش، ويقال إن الإسكندر لما غلب عليها تركها ولم يطفئها، ويقال إنه كان في ذلك الموضع فيما مضى مدينة عظيمة عجيبة البناء فيها بيت كبير عجيب الهيئة فيه أصنام فأخربت تلك المدينة بما فيها من البيوت ثم بُني بعدها ذلك البيت وجعلت فيه تلك النار؛ وبيت آخر يسمى كنجره بناه سياوخش بن كيقاوس الجبّار وذلك في زمان لبثه بمشرق الصين مما يلي الهزكند؛ وبيت نار بمدينة أرّجان من أرض فارس [بناه بستاسف وذُكر أن قباذ بناه؛ وبيت للنار ببلاد مصر القديمة وهو قصر الشمع قد جعل في وقتنا هذا وهو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة مسجداً، بناه لهراسف؛ وبيت للنار بأرض فارس] اتخذ في أيام لهراسف.

وهذه البيوت الأحد عشر كانت قبل ظهور زرادشت بن اسبتمان نبيّ المجوس؛ ثم اتخذ زرادشت بعد ذلك بيوت النيران فكان مما اتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان وبيت آخر بمدينة نسا والبيضاء من أرض فارس، وقد كان زرادشت أمر يستاسف الملك

أن يطلب ناراً كان يعظّمها جم الملك فطلبت فوجدت بمدينة خوارزم فنقلها يستاسف بعد ذلك إلى مدينة دارابْجِرد من أرض فارس وكوَرها؛ فهذا البيت يسمى في وقتنا هذا وهو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة: آذُرجُوي وتفسير ذلك: نار النهر وذلك أن آذر أحد أسماء النار وجوى أحد أسماء النهر بالفارسية الأولى؛ والمجوس تعظّم هذه النار ما لا تعظّم غيرها من النيران والبيوت؛ وذكرت الفرس أن كيخسرو لما خرج غازياً إلى الترك وسار إلى خوارزم سأل عن تلك النار، فلما وجدها عظّمها وسجد لها؛ ويقال إن أنوشروان هو الذي نقلها إلى الكاريان؛ فلما ظهر الإسلام تخوّفت المجوس أن يطفئها المسلمون فتركوا بعضها بالكاريان ونقلوا بعضها إلى نسا والبيضاء من كورة فارس لتبقى إحداهما إن أطفئت الأخرى.

وللفرس بيت نار بإصْطَخْر فارس تعظّمه المجوس؛ كان في قديم الزمان للأصنام فأخرجتها حماي بنت بهمن بن إسفنديار وجعلته بيت نار، ثم نقلت عنه النار فخرب؛ والناس في وقتنا هذا هو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة يذكرون أنه مسجد سليمان بن داود وبه يعرف؛ وقد دخلته وهو على نحو فرسخ من مدينة إصطخبر فرأيت بنياناً عجيباً وهيكلاً عظيماً وأساطين صخر عجيبة على أعلاها صور من الصخر طريفة من الخيل وغيرها من الحيوان عظيمة القدر والأشكال، محيط بذلك حيّز عظيم وسور منيع من الحجر وفيه صور الأشخاص قد شكلت وأتقنت صورها، ويزعم من جاور هذا الموضع أنها صور الأنبياء وهو في سفح جبل والريح غير خارجة من ذلك الهيكل في ليل ولا نهار لها هبوب ودوي، يذكر من هناك من المسلمين أن سليمان حبس الريح في ذلك الموضع وأنه كان يتغذّى ببعلبك من أرض الشام ويتعشّى في هذا المسجد وينزل بينهما بمدينة تدمر وملعبها المتخذ فيها؛ ومدينة تدمر في البرية بين العراق ودمشق وحمص من أرض الشام، يكون منها إلى الشام نحو خمسة أيام أو ستة وهي بنيان عجيب من الحجر وكذلك الملعب الذي فيها، وفيها خلق من الناس من العرب من قحطان.

وبأرض العراق بيت للنار بالقرب من مدينة السلام بنته بوران ابنة كسرى أبرويز الملكة في الموضع المعروف بأستينيا؛ وبيوت النيران كثيرة مما تعظّمه المجوس بالعراق وأرض فارس وكرمان وسجستان وخراسان وطبرستان والجبال وآذربيجان والران وفي الهند والسند والصين أعرضنا عن ذكرها، وإنما ذكرنا ما اشتهر منها.

والهياكل المعظمة عند اليونانيين وغيرهم كثيرة مثل بيت بعل وهو الصنم الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿أتدْعُوَن بعْلاً وتَذَرونَ أحْسَنَ الخالِقِينَ﴾ وهو بمدينة بعلبك من أعمال دمشق من كورة سنير؛ وقد كان اليونانية اختارت لهذا الهيكل قطعة من الأرض بين جبل لبنان وجبل سنير فاتخذته موضعاً للأصنام وهما بيتان عظيمان أحدهما أقدم من الآخر، فيهما من النقوش العجيبة المحفورة في الحجر الذي لا يتأتى حفر مثله في الخشب مع علو سمكها وعظم أحجارهما وطول أساطينهما ووسع فتحهما وعجيب بنيانهما.

وهيكل عظيم البنيان في مدينة دمشق وهو المعروف بجيرون، وقد ذكرنا خبره فيما سلف من هذا الكتاب وأن بانيه جيرون بن سعد العادي ونقل إليه عُمُد الرخام وأن هذه البنية إرم ذات العماد المذكورة في القرآن، إلا ما ذُكر عن كعب الأحبار حين دخل إلى معاوية بن أبي سفيان وسأله عن خبرها فوصفها وذكر عجيب بنيانها من الذهب والفضة والمسك والزعفران، وأنه يدخلها رجل من العرب يتيه له جملان فيخرج في طلبهما فيقع إليها؛ وذكر حلية الرجل ثم التفت في مجلس معاوية فقال: «هذا هو الرجل»؛ وكان الأعرابي قد دخلها في طلب ما ند من إبله؛ فأجاز معاوية كعباً وتبين صدق مقالته وإيضاح برهانه.

فإن كان هذا الخبر عن كعب حقاً في هذه المدينة فهو حسن، وهو خبر يدخله الفساد من جهات في النقل وغيره من صنعة القُصّاص، وقد تنازع الناس في هذه المدينة وأين هي ولم يصح عند كثير من الأخباريين ممن وفد على معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلا خبر عبيد بن شرية وإخباره إياه عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والأحداث وتشعُّب الأنساب، وكتاب عبيد بن شرية في أيدي الناس مشهور.

وقد ذهب كثير من الناس ممن له معرفة بأخبارهم [إلى] أن هذه الأخبار موضوعة مزخرفة مصنوعة نظمها مَن تقرّب إلى الملوك بروايتها وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية وسبيل تأليفها ما ذكرنا، مثل كتاب هزار أفسانه، وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية: ألف خرافة، والخرافة بالفارسية يقال لها: أفسانه؛ والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شيرازاد ودينازاد؛

ومثل كتاب فرزه وسيماس وما فيه من أخبار ملوك الهند والوزراء، ومثل كتب السندباد وغيرها من الكتب في هذا المعنى.

وكان مسجد دمشق قبل ظهور النصرانية هيكلاً عظيماً فيه التماثيل والأصنام على [رأس] منارته تماثيل منصوبة، وقد كان بني على اسم المشتري وطالع سعد؛ ثم ظهرت النصرانية فجعل كنيسة، ثم ظهر الإسلام فجُعل مسجداً وأحكم بناءه الوليد بن عبد الملك، والصوامع منه لم تتغيّر وهي منائر الأذان إلى هذا الوقت؛ وقد كان بدمشق أيضاً بناء عجيب يقال له البريص وهو مبقى إلى هذا الوقت وهو سنة ست وثلاثين وثلاثة في وسطها، وكان يجري فيه الخمر في قديم الزمان وقد ذكرته الشعراء في مدحهم لملوك غسان من مأرب وغيرهم.

وبيت بأنطاكية يُعرف بالديماس على يمين مسجدها الجامع مبني بالحجر العادي وهذا الحجر عظيم البنيان؛ في كل سنة يدخل القمر عند طلوعه من باب من أبوابه العالية في بعض الأهلة الصيفية؛ وقد ذُكر أن هذا الديماس من بناء الفرس حين ملكت أنطاكية وأنه بيت نار لها.

قال المسعودي: وقد ذكر أبو معشَر المنجّم في كتابه المترجم بكتاب الألوف الهياكل والبنيان العظيم الذي يحدث بناؤه في العالم في كل ألف عام، وكذلك ذكره ابن المازيّار تلميذ أبي معشر في كتابه المنتخب من كتاب الألوف؛ وقد ذكر غيرهما ممن تقدّم عصرهما ومن تأخّر عنهما كثيراً من البنيان والعجائب في الأرض؛ وقد أعرضنا عن ذكرها وذكر السد الأعظم وهو سد ياجوج وماجوج، وتنازُع الناس في كيفية بنيانه كتنازعهم في إرم ذات العِماد على ما ذكرنا آنفاً؛ وكيفية بناء الأهرام بأرض مصر وما عليها من الكتابة المرسومة، وما بصعيد مصر من البرابي المصنوعة وبغير الصعيد من أرض مصر، وأخبار مدينة العقاب وما ذكره الناس فيها وكونها في واحات مصر مما يلي المغرب والحبشة، وخبر العمود الذي ينزل من أعلاه الماء في فصل من السنة بأرض عاد، وأخبار النمل الذي على قدر الذئاب والكلاب، وقصة أرض الذهب التي وراء بلاد سِجلماسّة من أرض المغرب.

9

أديان العرب ومعتقداتها في الجاهلية(*)

قال المسعودي: كانت العرب في جاهليتها فِرقاً: منهم الموحّد، المُقرّ بخالقه المصدّق بالبعث والنشور موقناً بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي؛ وقد تقدّم ذكرنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا من دعا إلى الله - عزّ وجل - ونبّه على آياته في الفترة كقسّ بن ساعدة الإيادي ورئاب الشّنّي وبحيرا الراهب وكانا من عبد القيس.

وكان من العرب من أقرّ بالخالق وأثبت حدوث العالم وأيقن بالبعث والإعادة وأنكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام وهم الذين حكى الله - عزّ وجل - عنهم بقوله:﴿ما نَعبُدُهم إلاّ ليقَرِّبونَا إِلى اللهِ زُلْفَى﴾ الآية، وهذا الصنف هم الذين حجُّوا إلى الأصنام وقصدوها ونحروا لها البُدن ونسكوا لها النسائك وأحلّوا لها وأحرموا.

ومنهم من أقرّ بالخالق وكذّب بالرسل والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر وهم الذين ذكر الله - عزّ وجل - إلحادهم وخبّر عن كفرهم بقوله تعالى ﴿وقَالوا مَا هيَ إلاّ حيَاتُنَا الدُّنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا ومَا يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ﴾ فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلاّ يظُنُّونَ﴾.

ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية، ومنهم المارّ على عنجهيته الراكب لهجمته؛ وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله، فكانوا يعبدونها لتشفع بهم إلى الله وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ويَجْعَلونَ للهِ البَناتِ سُبْحَانَهُ ولَهُمْ مَا

(*) مروج الذهب، الفقرات ١١٢٢ - ١١٢٩، ١١٣٨، ١١٤٠، ١١٩٠، ١٢٤٩، ١٢٧٩.

يشْتَهُونَ﴾، وقوله: ﴿أفَرَأيتُم اللاَّتَ والعُزَّى وَمنَاةَ الثَّالِثةَ الأُخرى أَلَكُمُ الذَّكَرَ ولهُ الأُنثَى تِلْكَ إذاً قِسمَةٌ ضِيزَى﴾.

فممن كان مُقرّاً بالتوحيد مثبتاً للوعيد تاركاً للتقليد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وقد كان حفر بئر زمزم وكانت مطمورة، وذلك في ملك كسرى بن قُباد؛ فاستخرج منها غزالتي ذهب عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلي وسبعة أسياف قلعيّة وخمسة أدرع سوابغ؛ فضرب من الأسياف باباً للكعبة وجعل إحدى الغزالتين صفائح ذهب في الباب وجعل الأخرى في الكعبة؛ وكان عبد المطلب أول من أقام الرِفادة والسِقاية للحاج وكان أول من سقى الماء بمكة عذباً وجعل باب الكعبة مذّهباً.

وقد كان قد نذر إن الله رزقه عشرة أولاد ذكوراً أن يقرّب أحدهم لله، فكان أمره حين رزقه الله إياهم أن قرّب أحبّهم إليه، وهو عبد الله أبو النبي صلعم؛ فضرب عليه بالقداح حتى افتدي بمائة من الإبل، في خبر طويل؛ وقد كان أبرهة حين سار بالحبشة إلى أنصاب الحرم نزل بالموضع المعروف بجنب المحصّب فأُتي بعبد المطلب وأُخبر أنه سيد مكة؛ فعظّمه وهابه لاستدارة نور النبي صلعم في جبهته، وقال له: «سلني يا عبد المطلب»؛ فأبى أن يسأله إلا إبلاً له، فأمر بردها عليه، وقال له: «ألا سألتني الرجوع؟» ـ فقال: «أنا رب هذه الإبل وللبيت رب سيمنعه منك»؛ وانصرف عبد المطلب إلى مكة وهو يقول:

يا أهل مكة جاءكُم ملِكٌ — مع الفيول على أنيابها الزبَدُ

وأمر قريشاً أن تلحق ببطون الأودية ورؤوس الجبال من معرّة الحبشة، وقلّد الإبل النعال وخلاّها في الحرم وهو يقول:

يا ربِّ إنّ المرءَ يمـ — ـنعُ رحْله فامنع رِحالكْ

لا يغلِبَنّ صليبُهم — ومحالُهُمْ أبداً مِحالَك

فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر، مع كل طير ثلاثة أحجار، فأتلفهم الله؛ وقد ذكرنا خبر أبي رغال فيما سلف من هذا الكتاب حين دلّهم على الطريق وهلاكه وهلاكهم في الطريق.

تنازع الناس في عبد المطلب: فمنهم من رأى أنه كان مؤمناً موحّداً وأنه لم يشرك بالله

ولا أحد من آباء النبي عم وأنه نقل في القنوات الطاهرات، وأنه أخبر أنه ولد من نكاح لا من سفاح؛ ومنهم من رأى أن عبد المطلب كان مشركاً وغيره من آباء النبي عم إلا من صح إيمانه؛ وهذا موضع فيه تنازع بين الإمامية والمعتزلة والخوارج والمرجئة وغيرهم من الفِرق في النص والاختيار؛ وليس كتابنا هذا مرسوماً للحجاج فنذكر حجاج كل فريق منهم، وقد أتينا على قول كل فريق منهم وما أيّد به في قوله في كتابنا في المقالات في أصول الديانات وفي كتاب الاستبصار ووصف أقاويل الناس في الإمامة وفي كتاب الصفوة أيضاً.

وكان عبد المطلب يُوصي ولده بصلة الأرحام وإطعام الطعام ويرغبهم ويرهبهم فعل من يراعي في المتعقب معاداً وبعثاً ونشوراً؛ وجعل السِقاية والرِفادة إلى ابنه عبد مناف وهو أبو طالب ووصّاه بالنبي صلعم، وقد تنوزع في اسم أبي طالب: فمنهم من رأى أن اسمه عبد مناف على ما ذكرنا، ومنهم من رأى أن اسمه كنيته وأن عليّ بن أبي طالب كتب في كتاب النبي صلعم ليهود خيبر بإملاء النبي صلعم وكتب: «علي بن أبي طَلِب»، بإسقاط الألف؛ وقد ذكر عبد المطلب في رجز له وصيته بالنبي عم إلى أبي طالب، فقال:

أوصيت من كنّيتُهُ بطالب ... بابن الذي غاب وليس آئبْ

وقد كان أكثر العرب ممن بقي ودثر يقرّ بالصانع ويستدلّ على الخالق.

في ذكر ما ذهبت إليه العرب في النفوس والهام والصفر وغير ذلك

كانت للعرب مذاهب في الجاهلية في النفوس وآراء يتنازعون في كيفياتها: فمنهم من زعم أن النفس هي الدم وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم الإنسان الذي منه نَفَسه، ولذلك سموا المرأة نفساء لما يخرج منها من الدم، ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفس سائلة إذا سقط في الماء هل ينجسه أم لا؛ وقال تأبّط شراً لخاله الشنفرى الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله كيف كانت قصته فقال: «ألحمته عضباً فسالت نفسه سكباً».

وقالوا إن الميت لا ينبعث منه الدم ولا يوجد فيه ما يُرى فيه بدءاً وفي حال الحياة، وطبيعتُه طبيعة الحياة والنمو وهي الحرارة والرطوبة لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة: فإذا مات بقي اليبس والبرد ونفيت الحرارة؛ وقال ابن برّاقة من كلمة:

وكــم لاقــيــتُ ذا نُــجُــبٍ شــديــدٍ   تــســيــل بــه الــنــفــوسُ عــلــى الــصــدورِ

وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان: فإذا هو مات أو قُتل لم يزل مطيفاً به متصوّراً له في صورة طائر، يصدح على قبره مستوحشاً له؛ وفي ذلك يقول بعض الشعراء وذكر أصحاب الفيل:

سُلّـط الـطـيـر والـمـنـونُ عـلـيـهـمْ   فـلـهُـمْ فـي صـدى الـمـقـابِـر هـامُ

لأن هذا الطائر يسمونه الهام ـ الواحدة: هامة ـ؛ وجاء الإسلام وهم على ذلك حتى قال النبي عم: «لا هام ولا صفَر»؛ ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم وهي أبداً تتوحش وتصدح وتوجد أبداً في الديار المعطلة والنواويس وحيث مصارع القتلى وأجداث الموتى؛ ويزعمون أن الهامة لا تزال على ذلك عند ولد الميت وعقبه وتجالسهم لتعلم ما يكون بعده فتخبره به، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه:

هـامـي تُـخـبّـرنـي بـمـا تـسـتـشـعـروا   فـتـجـنّـبـوا الـشـنـعـاء والـمـكـروهـا

وفي ذلك يقول في الإسلام توبة في ليلى الأخيلية:

ولـو أن لـيـلـى الأخـيـلـيـة سـلّـمـتْ   عـلـيّ وفـوقـي تُـربـةٌ وصـفـائـحُ

لـسـلّـمـتُ تـسـلـيـم الـبـشـاشـةِ أو زَقَـا   إلـيـهـا صدى من جانب القبر صائح

وهذا من قولهم يدل على أن الصدى قد ينزل إلى قبورهم ويصعد.

وللعرب وغيرهم من أهل المِلل ممن سلف وخلف كلام كثير في تنقُّل الأرواح قد أتينا على مبسوط ذلك في كتابنا المترجم بكتاب سر الحياة وفي كتاب الدعاوى الشنيعة؛ والله ولي الرشد.

في ذكر أقاويل العرب في الغيلان والتغول وما لحق بهذا الباب

قال المسعودي: وللعرب في الغيلان والتغوُّل أخبار ظريفة لأنهم يزعمون أن الغول تتغوّل لهم في الخلوات وأنها تظهر لخواصهم في أنواع من الصور، فيخاطبونهم وربما يتباضعونها؛ وقد أكثروا من ذلك في أشعارهم: فمن ذلك قول تأبط شراً:

وأدهـم قـد جُـبـتُ جِـلـبـابـه   كـمـا اجـتـابـت الـكـاعِـبُ الـخـيـعـلا

عـلـى إثـر نـار يـنـور بـهـا   فـبـتُّ لـهـا مُـدبـراً مُـقـبـلا

فأصبحتُ والغول لي جارة فيا جارتا أنت ما أهولا
وطالبتها بضعها فالتوَتْ بوجهٍ تغوّل فاستغولا
فمن كان يسأل عن جارتي فإن لها باللوى منزلا

ويزعمون أن رجليها رجلا عير؛ فكانوا إذا اعترضتهم الغول في الفيافي يرتجزون فيقولون:

يا رجلَ عيرٍ انهقي نهيقاً لن نتركَ السبْسَب والطريقا

وذلك إنها كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات فيتوهمون أنها منهم فيتبعونها، فتزيلهم عن الطريق الذي هم عليه وتتيههم؛ وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه، فلم يكونوا يزولون عما هم عليه من القصد؛ فإذا صيح بها على ما وصفنا شردت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال.

وقد ذكر جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب [فذكر] أنه شاهد ذلك في بعض أسفاره إلى الشام وأن الغول كانت تتغوّل له وأنه ضربها بسيفه وذلك قبل الإسلام وهذا مشهور عندهم في أخبارهم؛ وقد حكي عن بعض المتفلسفين أن الغول حيوان شاذ من أجناس الحيوان مشوّه لم تحكمه الطبيعة وأنه لما خرج منفرداً في هيئته ونفسه توحّش من مسكنه وطلب القفار، وهو يناسب الحيوان والإنسان البهيمي في الشكل.

وقد ذهبت طائفة من الهند إلى أن ذلك مما يظهر من فعل ما كان غائباً من الكواكب عند طلوعها مثل الكوكب المعروف بكلب الجبّار وهي الشعرى العَبور وأن ذلك يُحدث داءً في الكلاب، وسُهيل في الجبال والذئب في الذِئبة وحامل رأس الغول يحدث عند طلوعه تماثيل وأشخاصاً تظهر في الصحارى وغيرها من العامر والخراب، فتسميه عوام الناس غولاً؛ وهذه ثمانية وأربعون كوكباً قد ذكرها بطليموس وغيره ممن تقدّم وتأخّر؛ وقد وصف ذلك أبو معشر في كتابه المعروف بالمدخل الكبير إلى علم النجوم، وذكر كيفية صورة كل كوكب عند ظهوره في أنواع مختلفة؛ وقد قدّمنا فيما سلف من كتبنا في هذا المعنى أن كل كوكب من هذه يظهر في صور مخالفة لما تقدّم من الصور فيحدث في هذا العالم نوعاً من الأفعال لم ينفرد بفعله غيره من الكواكب، وزعمت طائفة من الناس أن الغول اسم لكل شيء [من الجن] يعرض للسفّار ويتمثّل في ضروب الصور [والثياب] ذكراً كان أم أنثى، إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى.

وقد قال أبو المِطراب عبيد بن أيوب العنبري:

وغــولا قــفــرة ذكــر وأنــثــى   كـأن عـلـيـهـمـا قِـطـع الـبِـجـادِ

وقال آخر:

ولا تـدوم عـلـى حـال تـكـون بـهـا   كـمـا تَـلـوّنُ فـي أثـوابـهـا الـغـولُ

وقد فرقوا بين السعلاة والغول، وقال عبيد بن أيوب:

وسـاخـرةٍ مـنـي ولـو أن عـيـنـهـا   رأت مـا أُلاقـيـه مـن الـهـول جُـنّـت

أزلٌّ وسِـعـلاةٌ وغـولٌ بـقـفْـرةٍ   إذا الـلـيـل وارى الـجـنّ فـيـه أرنّـتِ

وقد وصفها بعضهم فقال:

وحـافـر الـعـيـر فـي سـاقٍ خـدَلّـجـةٍ   وجـفـن عـيـنِ خـلاف الإنـس بـالـطـول

وللناس كلام كثير في الغيلان والشياطين والمردة والجن والقطرب والعدار وهو نوع من الأنواع المتشيطنة يعرف بهذا الاسم؛ وهذا العُدار يظهر في أكناف اليمن والتهائم وأعلى صعيد مصر وأنه ربما يلحق الإنسان فينكحه فيتدود دُبره فيموت، وربما يتراءى للإنسان فيذعره؛ فإذا أصاب الإنسان ذلك منه يقول أهل تلك النواحي التي سميناها: «أمنكوح هو أم مذعور؟»؛ فإن كان منكوحاً يُئس منه وإن كان مذعوراً سكن روعه وشُجع بما ناله؛ وذلك أن الإنسان إذا عاين ذلك منه سقط مغشياً عليه؛ ومنهم من يظهر له ذلك فلا يكترث به لشهامة قلبه وشجاعة نفسه؛ وما ذكرنا مشهور في البلاد التي سمينا؛ ويمكن جميع ما قلنا مما حكيناه عمن ذكرنا من أهل هذه البقاع أن يكون ضرباً من السوانح الفاسدة والخواطر الردية أو غير ذلك من الآفات والأدواء المعترضة لجنس الحيوان من الناطقين وغيرهم؛ والله أعلم بكيفية ذلك.

ولم نذكر في هذا الكتاب ما ذكره أهل الشرائع وما نقله أصحاب التواريخ والمصنفون لكتب المتبدأ كوهب بن منبه وابن إسحق وغيرهما أن الله تعالى خلق الجان من نار السموم وخلق منه زوجته كما خلق حواء من آدم وأن الجان غشيها فحملت منه وأنها باضت إحدى وثلاثين بيضة وأن بيضة من ذلك البيض تفلّقت عن قطربة وهي أم القطارب، وأن القطرب على صورة الهرة، وأن الأباليس من بيضة أخرى منهم الحارث أبو مُرّة وأن مسكنهم البحور، وأن المردة من بيضة أخرى مسكنهم جزائر البحر، وأن

الغيلان من بيضة أخرى مسكنهم الخرابات والفلوات، وأن السعالي من بيضة أخرى مسكنها الجبال، وأن الوساويس من بيضة أخرى سكنوا الهواء في صورة الحيات ذوات أجنحة يطيرون هنالك، وأن من بيضة أخرى الدواسق، وأن من بيضة أخرى الحماميص؛ ولم نبسط الكلام في هذا المعنى لأنا قد ذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وتقدّم من تصنيفنا.

وأتينا على ذكر تشعّب أنسابهم والمشهور من أسمائهم ومساكنهم من الأرض والبحار وإن كان ما ذكره أهل الشرع مما وصفنا ممكناً غير ممتنع ولا واجب، وإن كان أكثر أهل النظر والبحث والمستعملين لقضية العقل والفحص يمتنعون مما ذكرناه ويأبون ما وصفنا؛ والمصنف حاطب ليل فأوردنا ما قاله الناس من أهل الشرائع وغيرهم إذ كان الواجب على كل ذي تصنيف أن يورد جميع ما قاله سائر الفرق في معنى ما ذكره؛ وأتينا أيضاً على سائر ما أخبرنا عن الأشخاص التي هي غير مرئية من الجن والشياطين وما قالوه في سلوك الجن في الناس في كتابنا المترجم بكتاب المقالات في أصول الديانات، وبالله العون.

في ذكر قول العرب في الهواتف والجان

قال المسعودي: فأما الهواتف فقد كانت كثرت في العرب واتصلت بديارهم، وكان أكثرهم أيام مولد النبي صلعم وفي أوّلية مبعثه؛ ومن حكم الهاتف أن يهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي.

قال المسعودي: وقد تنازع الناس في الهواتف والجان؛ فذكر فريق أن ما تذكره العرب وتنبىء به من ذلك إنما يعترض لها من قبل التوحُد في القفار والتفرُّد في الأودية والسلوك في المهامه المغوّلة والمروريات الموحّشة، لأن الإنسان إذا هو صار في مثل هذه الأماكن وتوحّد تفكّر وإذا هو تفكّر وجل وجبن، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية السوداوية الفاسدة فصوّرت له الأصوات ومثّلت له الأشخاص وأوهمته المُحال بنحو ما يعرض لذي الوسواس؛ وقُطب ذلك وأُسه سوء التفكير وخروجه على غير نظام قوي أو طريق سليم، لأن المتفرّد في القفار والمتوحّد في المروراة مستشعر للمخاوف متوهم للمتالف متوقّع للحتوف لقوة الظنون الفاسدة على فكره وانغراسها في نفسه، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف واعتراض الجان له.

وقد كانت العرب قبل ظهور الإسلام تقول إن من الجن ما هو على نصف صورة

الإنسان وإنه كان يظهر لها في أسفارها وحين خلواتها وتسميه شقاً؛ وذكروا عن علقمة بن صفوان بن أمية بن محرّث الكناني جد مروان بن الحكم من قِبل أمه أنه خرج في بعض الليالي يريد مالاً فإذا هو بشق قد عرض له في أوصاف ذكروها فقال شق:

علقم إني مقتول وإن لحمي مأكول أضربهم بالمسلول

ضرب غلام شملول رحب الذراع بهلول

فقال علقمة:

يا شقها ما لي ولك إغمد عني منصلك

تقتل من لا يقتلك

فقال شق:

عبيت لي عبيت لك كيما أتيح مقتلك

فاصبر لما قد حم لك

فضرب كل واحد منهما صاحبه فخرّا ميتين؛ وهذا مشهور عندهم وأن علقمة بن صفوان قتلته الجن.

وحكوا عن الجن بيتين من الشعر قالتهما في حرب بن أمية حين قتلته وهما:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ وليس قُربَ قبر حربٍ قبرُ

واستدلوا على أن هذا الشعر من قول الجن بأن أحداً من الناس لا يتأتى له أن ينشد هذين البيتين ثلاث مرات متواليات إلا ويتعتع في إنشادها لأن الإنسان قد ينشد عشرين بيتاً وثلاثين وأكثر أشد من هذا الشعر وأثقل منه فلا يتعتع فيه.

وممن قتلته الجن مرداس بن أبي عامر السلمي، وهو أبو عباس ابن مرداس السلمي؛ ومنهم الغريض المغنّي بعد أن ظهر غناؤه وحُمل عنه، وقد كانت الجن نهته أن يغني بأبيات من الشعر فغنى بها فقتلته.

وحدّث يحيى بن عتاب عن علي بن حرب عن أبي عُبيدة معمر بن المثنّى عن منصور بن يزيد الطائي ثم الصامتي قال: رأيت قبر حاتم طيىء بتُنغة وهو جبل له وادٍ يقال له الحائل، فإذا قدور عظيمة من بقايا قدور حجر مكفوءات ناحية من القبر من القدور التي

كان يطعم فيها الناس وعن يمين قبره أربع جوارٍ من حجارة وعن يساره أربع جوارٍ من حجارة كلهن صواحب شعر منثور محتجرات على قبره كالنائحات عليه لم ير مثل بياض أجسامهن وجمال وجوههن مثلتهن الجن على قبره ولم تكن قبل كذلك؛ فهنّ بالنهار كما أسلفنا فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه ونحن في منازلنا مع ذلك إلى أن يطلع الفجر؛ فإذا طلع الفجر سكتن وهدأن؛ وربما مرّ المار بهن فيفتتن فيميل إليهن عجباً بهن فإذا دنا منهن وجدهن أحجاراً.

وحدّث أبو بكر محمد بن الحسن بن دُريد عن أبي حاتم السِجستاني عن أبي عبيدة معمر بن المثنّى التيمي قال: سمعت شيخاً من العرب قد أناف على المائة يذكر أنه خرج وافداً على بعض ملوك بني أمية؛ قال: «فخرجت في ليلة سُهاكية حالكة كانت السماء قد برقعت نجومها بطرائف السحاب فضللت الطريق وتولّجت وادياً لا أعرفه فأهمّتني نفسي ولم آمن عزيف الجن، فقلت: «أعوذ برب هذا الوادي من شره وأستجيره في طريقي هذا وأسترشده»؛ فسمعت قائلاً من بطن الوادي وهو يقول:

تيامَنْ تِجاهكَ تلقَ الضيا منيراً وتأمنْ في المسلك

قال: فتوجهت حيث أشار إليّ وقد أمنت بعض الأمن؛ فإذا بأقباس نيران تلمع أمامي في خللها كالوجوه على قامات النخل السحيقة؛ فسرت فأصبحت على أوشال وهو ماء لكلب يقارب برية دمشق.

وقد ذكر الله جل ثناؤه ذلك من فعلهم في كتابه فقال: ﴿وأنّهُ كَانَ رِجالٌ مِنَ الإنسِ يَعوذونَ بِرِجالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادوهُمْ رَهَقاً﴾.

في ذكر ما ذهبت إليه العرب من القيافة والزجر والعيافة والسانح والبارح وغير ذلك

قال المسعودي: تنازع الناس في العيافة والقيافة وغير ذلك مما ذكرنا: فذهبت طائفة إلى تحقيق القيافة والأخذ بها لأن الأشباه تنزع، وغير جائز أن يكون الولد غير مشبه لأبيه أو لأحد من أهله من جهة من الجهات؛ ومنهم من ذهب إلى أن في الولد مواضع تلحقها القيافة دون غيرها من الأعضاء مما لم يلحقها الشبه ولا يوافق بينها حد مشترك؛ وأبى آخرون ما وصفنا إذ كان الناس قد يتشابهون في حد الإنسانية وغير ذلك من الحدود ويفترقون في غيرها من الصور؛ وليس وجود الأغلب من الأشباه مما يوجب

إلحاق الشبه بشبهه، دون أن يخالف من حيث أوجبت قضية العقل الخلاف والتباين.

وهذه المعاني من خواص ما للعرب وما تفرّدت به دون سائر الأمم في الأغلب منها، وإن كانت الكهانة قد وجدت في غيرها فإن العيافة والزجر والتفوّل والتطيّر ليس لغيرها في الأغلب من الأمور؛ وليس هذا بموجود في سائر العرب وإنما هو للخاص منها الفطن والمتدرب الظنن وإن وجد في بعض الأمم كوجود ذلك في الإفرنجة وما جانسها ممن هنالك من الأمم، فيمكن أن يكون ذلك موروثاً عن العرب مأخوذاً منها في سالف الدهر، لأن العرب قد تنقّلت في البلاد وتفرّقت لغاتها، فنسب ذلك إلى الجنس الذي قطنت بينهم العرب، ويمكن أن يكون الإفرنجة ومن وجد ذلك فيها من الأمم أخذوه بعد ظهور الإسلام ممن جاورهم من العرب ممن سكن بلاد الأندلس من الأرض الكبيرة.

وإن كان ذلك فيهم قبل ظهور الإسلام فهو ما ذكرنا آنفاً ويمكن أن يكون الله ـ عزّ وجل ـ خص بذلك أمماً غير العرب كما خصّ العرب به، إذ كان غير داخل في باب الممتنع والواجب؛ فيكون الزجر والفأل شاملاً لبعض العرب وغيرها من خواص الأمم كوجود النقط للبربر والنظر في الكتف وغير ذلك مما خُصّ به كل جنس من الناس.

وقد ذهبت طائفة ممن سلف من أهل البحث والتنقير إلى أن القيافة اسم مشتق من القفو وهو معنى استدلالي؛ وأصل ذلك أن الأشكال انفصلت في صور أنسابها بأشياء تخص الأنواع بالتشكّل وخواص وجدت لما به ضربت الفواصل أجزاءها في وحيدات الأشخاص؛ فكان التناسل على تشابه وفرز من الغير لما توجبه الطبيعة عن اتفاق كل شكل في حوزته وصرفه إلى وجهه كما خصّت الطبيعة كل نوع من الجنس بفصل أبانته من أغياره وفرقت بينه وبين أشكاله؛ فكذلك أيضاً خصّت الطبيعة أوحاد الأشخاص المنفصلة في الهيئة بتغيّر الغير من أغياره؛ وكذلك لا يكاد يرى فنون الصور تتوازى في أحد وإن ضمها النوع وشملها النسل؛ فالقائف يقارب بين الهيئات فيحكم للأقرب صورةً؛ ولا نسبة النسل أقرب من نسبة النوع وكذلك نسبة الشخص إلى النوع أقرب منها إلى الجنس لأن النوع والشخص قد ضمهما حدان مشتركان وإنما للجنس حد واحد: فهو أصل القيافة عند هذه الطائفة؛ وهو ضرب من ضروب البحث وإلحاق النظير في الأغلب بنظيره من حيث تساويهما من حيث ذكرنا في قضية العقل وهو القياس بعينه.

وليس هذا الكلام من كلام أحد من فقهاء القائسين ولا غيرهم من المسلمين، وإنما هذا

كلام انتزعناه من كلام طائفة من الفلاسفة المتقدمين؛ فيجب أن يكون نظر القائف على قول هذه الطائفة إلى القدم لأنها نهاية الشكل وغاية الهيئة؛ فالولد لو خالف صورة أبيه في كنه أفعاله وباينه في سائر شكله فالأغلب أن يوافقه في القدم لأن النسل لا بد له من تخصيص قوة بشيء يميزه من غيره ويبيّنه من سواه.

ولذلك وُجد الطول في أزد شنوءة ولذلك صار الجفاء والغِلظ في الروم وأصحاب الجبال والأكثر من أغتام الشام وأوباش مصر، واللؤم في الخزر وأهل حرّان من بلاد ديار مُضر، والشُّح بفارس واللؤم على الطعام بإصبهان، وصار تفرطح الرجلين وفطس الأنوف في السودان، والطرب في الزنج خاصة؛ وهذا الذي وصفنا عند هذه الطائفة من أسرار الطبيعة وخواص تأثير الأشخاص العلوية والأجسام السماوية.

وقد تقصّينا هذا الشأن على كماله في كتابنا في الأسرار الطبيعية وخواص تأثير الأشخاص العلوية والغرائب الفلسفية في كتابنا في الرؤوس السبعية في أنواع السياسات المدنية ومللها الطبيعية وفي كتاب الاسترجاع في الكلام على من زعم أن العالم متغير جوهره إلى الظلمة وأن النور فيه غريب مختار، وأن ست أنفس كانوا أنواراً بلا أجساد: شيت بن آدم وزرادشت والمسيح ويونس واثنان لا يمكن ذكرهما، وأن النور والظلمة قديمان وأنهما لم يزالا إلا غير ممتزجين، وأن الأشياء لا تعمل إلا في جوهرهما، ثم امتزجا من تلقاء أنفسهما من غير داخل دخل عليهما ولا مكره أكرههما وهذا لخَلف من الكلام ولفاسد من المقال.

حدّث المِنقريّ عن العُتبي قال: وقف عبيد الراعي ذات يوم مع ركب في فيفاء قفر وكانوا يريدون استقصاد رئيس من بني تميم إذ سنحت لهم ظباء سنوحاً منكراً ثم اعترضت الركب مقصرة في حُضرها واقفة على شأوها؛ فأنكر ذلك عبيد ولم يأبه له أصحابه؛ فقال عبيد:

ألم تدر ما قال الظباء السوانحُ عطفن أمام الركب والركب رائحُ

فكرّ الذي لم يعرفِ الزجر منهمُ وأيقن قلبي أنهنّ نوائحُ

ثم شارفوا مقصدهم فألفَوا الرئيس قد نهشته أفعى فقضت عليه؛ قال أبو عبيدة معمر بن المثنّي: وهذا من غريب الزجر، وذلك أن السانح مرجو عند العرب والبارح هو المخوف، وأظن عبيداً إنما زجر الظباء في حال رجوعها ووصف الحال الأول في شعره

كما أن من شرط الواصف أن يبدأ ببوادي الأسباب فيوضح عنها، فهذا وجه زجر عبيد الراعي في شعره.

يقال إن الكهانة لقيس والزجر لبني أسد والقيافة لمُدلج وأحياء مُضر بن نزار بن معد لما كان من فعل بني نزار الأربعة في مسيرهم نحو الأفعى الجُرهُمي ووصفهم الجمل الشارد على ما ذكرناه وذلك منهم قيافة؛ فمن هنالك تفرّقت القيافة من أحياء مضر على حسب ما تغلغل في العروق ونزع؛ وأهل المياه أكهن وأهل البر الفائح أقوف.

وبأرض الجفار وهي بلاد الرمل بين بلاد مصر وأرض الشام أناس من العرب في تلك الجفار يتناول الإنسان من تمر نخلهم فيغيب عنهم السنين ولم يروه ولا شاهدوه؛ فإن رأوه بعد مدة علموا أنه الآخذ لتمرهم ولا يكادون يخطئون في ذلك، وهذا من فعلهم مشهور ولا يكاد يخفى عليهم أقدام أي الناس هم؛ ورأيت بهذه الأرض من الجفار أناساً قد رتّبهم ولاة المنازل يطوفون في هذا الرمل يعرفون بالقُصاص يقصّون آثار الناس وغيرهم فيخبرون ولاة المنازل أي الناس هم ممن طرق تلك البلاد، وهم لم يروهم، وإنما رأوا أثر أقدامهم؛ وهذا معنى لطيف وحسّ دقيق.

وقد قفت القافة بقُريش حين خرج النبي صلعم وأبو بكر إلى الغار حتى أتت باب الغار على حجر صلد وصخر صم وجبال عالية لا رمل عليها ولا طين ولا تراب تتبين فيه الأقدام، فحجبهم الله عن نبيه عم بما كان من نسج العنكبوت وما سفت عليه الرياح وما لحق القائف من الحيرة وقوله: «إلى هاهنا انتهت الأقدام»؛ ومعه الجماعة من قريش لا يرون على الصلد ما يرى ولا على الصفوان ما يشاهد، وأبصارهم سليمة والآفات عنها مرتفعة والموانع زائلة؛ ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الناس في علمها ولا يتفقون بأبصارهم في إدراكها، لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى؛ وأهل الجبال والقفار والدهاس أزجر وأعيف.

وقد ذهب قوم من أهل الشريعة ومن فقهاء الأمصار وغيرهم ممن سلف إلى الحكم بالقيافة استدلالاً على شرف القيافة وعظم خطرها وكبر محلها وتحقيق قصتها بتعجّب النبي صلعم منها وتصديقه مجزّراً المُدْلجي.

وقد أنكر جماعة من فقهاء الأمصار ممن سلف وخلف الحكم بالقيافة للدلائل الدالة على فساد الحكم بها ولإلحاق النبي صلعم الولد بأبيه حين شك فيه لعدم التشابه فقال: «يا رسول الله إن امرأتي وضعت غلاماً وإنه لأسود» ـ فقال النبي صلعم مقرّباً

إلى فهمه وقصداً منه لإفساد علّته التي نصبها وشك من أجلها في ولده: «هل لك من إبل؟» ـ قال: «نعم» ـ قال: «فما ألوانها؟» ـ قال: «حمر» ـ قال: «فهل فيها من أورق؟» قال: «نعم» ـ قال النبي صلعم: «فمن أين ذلك؟» ـ قال: «لعل عرقاً نزع» ـ فقال النبي: «فلعل عرقاً نزع».

ثم قوله عم في قصة شريك بن سحماء «إن جاءت به على النعت المكروه فهو للذي رميت به»؛ فلما جاءت به على النعت المكروه ووُجد التشابه بينه وبين من رميت به قال صلعم: «لولا حكم الله لكان لي ولك شأن»؛ فألحق الولد مع عدم الشبه هنالك ولم يلحق الشبه هاهنا ولم يجعله حكماً، وقضى بوجود الفراش وثبوت النص على فساد الحكم بالتشابه.

وهذا باب قصدنا فيه هذا الكلام وإنما ذكرنا هذا الفصل لنذكر الحكم بضده من القيافة؛ وهذا باب يطول فيه الخطب ويكثر في معانيه الشرح لغموضه ولطف الكلام فيه؛ وقد ذكرنا وجه الكلام في ذلك وما ذهب إليه كل فريق من الناس ممن سلف وخلف في كتابنا المترجم بكتاب الرؤوس السبعية في الإحاطة بسياسة العالم وأسراره، والله المعين.

في ذكر الكِهانة وما قيل في ذلك وما اتصل بهذا الباب مما يراه النائم وحد النفس الناطقة

قال المسعودي: تنازع الناس في الكهانة: فذهبت طائفة من حكماء اليونانيين والروم إلى التكهن وكانوا يدّعون العلوم من الغيوب؛ فادعى صنف منهم أن نفوسهم قد صفت فهي مطلعة على أسرار الطبيعة وعلى ما تريد أن يكون منها، لأن صور الأشياء عندهم في النفس الكلية؛ وصنف منهم ادعى أن الأرواح المنفردة وهي الجن تخبرهم بالأشياء قبل كونها، وأن أرواحهم كانت قد صفت حتى صارت لتلك الأرواح من الجن موافقة؛ وذهب قوم من النصارى [إلى] أن المسيح إنما كان يعلم الغائبات من الأمور ويخبر عن الأشياء قبل كونها، لأنه كانت فيه نفس عالمة بالغيب، ولو كانت تلك النفس في غيره من أشخاص الناطقين لكان يعلم الغيب؛ ولا أمة خلت إلا وكانت فيها كهانة.

ولم يكن الأوائل من الفلاسفة اليونانيين يدفعون الكهانة وشهر فيهم أن فيتاغورس كان يعلم علوماً من الغيب وضروباً من الوحي لصفاء نفسه وتجردها من أدناس هذا العالم؛

والصابئة تذهب إلى أن أوريباسيس وأورفايس الأول وأورفايس الثاني وهما هرمس وأغاثذيمون كانوا يعلمون الغيب ولذلك كانوا أنبياء عند الصابئة، ومنعوا أن تكون الجن أتت مَن ذكرنا بشيء من ضروب الغيب، لكن صفت نفوسهم حتى اطلعوا على ما استتر عن غيرهم من جنسهم.

وطائفة أخرى ذهبت إلى أن التكهن سبب نفساني لطيف يتولد من صفاء مزاج الطباع وقوة النفس ولطافة الحس؛ وذكر كثير من الناس أن الكهانة تكون من قِبَل شيطان يكون مع الكاهن يخبره بما غاب عنه، وأن الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على ألسنة الكهان فيؤدون إلى الناس الأخبار بحسب ما يرد إليهم؛ وقد أخبر الله ــ عزّ من قائل ــ بذلك في كتابه فقال ﴿وأنّا لَمَسْنا السّمَاءَ فوَجَدنَاها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً﴾ إلى آخر القصة؛ وقوله ــ عزّ وجل ــ﴿وإنّ الشّياطِينَ ليُوحُونَ إلى أوليَائِهِم ليُجادِلُوكُم﴾ الآية، وقوله ﴿يُوحي بَعْضُهُم إلى بعْضٍ زُخْرُفَ القوْلِ غُرُوراً﴾ الآية؛ فالجنّ والشياطين لا تعلم الغيب. وإنما ذلك لاستراقها السمع مما تسمع من الملائكة بظاهر قوله تعالى: ﴿فلمّا خَرَّ تَبَيّنَت الجِنُّ أنْ لو كانُوا يَعْلَمونَ الغَيْبَ﴾ الآية.

وطائفة ذهبت إلى أن الكهانة من الوجه الفلكي، وأن ذلك يكون في المولد عند ثبوت عطارد على شرفه وأن ما عداه من الكواكب المدبِّرات من النيرين والخمسة إذا كانت في عقود متساوية وأرباع متكافية ومناظر متوازية وجب لصاحب المولد التكهّن والإخبار بالكائنات قبل حدوثها لإشراف هذه الأشراف الكوكبية؛ ومن هؤلاء من أوجب كون ذلك في القِرانات الكبار.

وذهب كثير ممن تقدّم وتأخر إلى أن علّة ذلك علل نفسية وأن النفس إذا قويت وزادت قهرت الطبيعة وباحت للإنسان بكل سر لطيف وأخبرته بكل معنى شريف، وغاصت بلطافتها في كثائف المعاني البعيدة فانتضتها وأبرزتها على الكمال.

وكشفت هذه الطائفة وجه اعتلالها فيما ذكرنا وقالوا: رأينا الإنسان ينسب إلى قسمين هما النفس والجسد، ووجدنا مواتاً لا حركة له ولا حس إلا بالنفس، و[لما] كان الموات لا يعلم شيئاً ولا يؤديه، فوجب أن يكون العلم للنفس؛ والنفوس طبقات، منها الصافي وهي النفس الناطقة، ومنها الكدر وهي النفس الحسية والنفس النزاعية والنفس المتخيلة، ومنها ما قوّته أزيد في الإنسان من قوة الجسم، ومنها ما قوة الجسم أزيد منه، فلما كانت النسبة النورية للإنسان إلى النفس تهدي الإنسان إلى استخراج الغائب وعلم

الآتي، وكانت فطنته وظنونه أثقب وأعمّ؛ فإذا كانت النفس في غاية البروز ونهاية الخلوص وكانت تامة النور كاملة الشعاع، كان تولّجها إلى دراية الغائبات بحسب ما عليه نفوس الكهنة؛ ولهذا وُجد الكهّان على هذا السبيل من نقصان الأجسام وتشويه الخلق، كما اتصل بنا عن شِقّ وسِطِيخ وسملقة وزوبعة وسديق بن هِرماس وظريفة (طريفة) الكاهنة وعِمران أخي عمرو بن عامر مُزَيقيا وحازية جُهينة وكاهنة باهِلة وأشباههم من الكهّان.

وأما العرّاف ـ وهو دون الكاهن ـ فمثل الأبلق الأسدي والأجلح الزُّهري وعُروة بن زيد الأسدي ورباح بن عجلة عرّاف اليمامة الذي فيه يقول الشاعر:

فقلتُ لعرّاف اليمامة داوني — فإنك إن أبرأتني لطبيبُ

وقال:

جعلتُ لعرّاف اليمامة حُكمهُ — وعرّاف نجد إن هما شفياني

وهو صاحب [بنت] المستنير، وكان في نهاية التقدم في العرافة.

والكهانة أصلها نفسي لأنها لطيفة ثاقبة ومقارنة للأعجاز باهرة، تكون في العرب على الأكثر وفي غيرهم على وجه الندرة، لأنه شيء يتولد على صفاء المزاج الطبيعي وقوة مادة نور النفس؛ وإذا أنت اعتبرت أقطابها رأيتها معلقة بعفة النفس وقمع شرهها وكثرة الوحدة وإدمان التفرّد وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم؛ وذلك أن النفس إذا هي تفرّدت فكّرت، وإذا هي فكّرت تعدّت وإذا تعدّت هطلت عليها سحب العلم النفسي، ونظرت بالعين النورية ولحظت بالناظر الثاقب ومضت على الشريعة المستوية، فأخبرت عن الأشياء على ما هي به؛ وربما قويت النفس في الإنسان فأشرفت به على دراية الغائبات قبل ورودها.

وكان كبراء اليونانيين ينعتون هذه الطائفة بالروحانية ويسمون فرقتهم فرقة الروحانية، ويقولون إن النفس إذا هي زادت وكانت أكبر جزء الإنسان تهدّت إلى استخراج البدائع والأخبار المستترات؛ واستدلّوا على ذلك بأن الإنسان ربما قوي فكره وزدات مواد نفسه وخاطره، ففكر في الطارىء قبل وروده، فعلم صورته، فيكون وروده إلى حال على ما تصوره؛ وهكذا النفس أيضاً إذا تهذّبت كانت الرؤيا في النوم صادقة وفي الزمان موجودة.

وقد تنازع الناس في الرؤيا والسبب الموقع لها وماهيتها وكيفية وقوعها: فقال فريق منهم: النوم هو اشتغال النفس عن الأمور الظاهرة بملاقاة حوادث باطنة فيها؛ وذلك على وجهين: أحدهما معروف بالعين قائم بالصفة وهو خواطر تحدث في النفس معاني تغيرها وتفرق بينها فتشتغل بها عن استعمال الظاهر؛ والباطن فيه يؤدي إليه الحواس الخمس، فتبطل الحواس عن الإدراك إلى الحاس ـ أعني الروح ـ لاشتغال الروح عن استعمالها؛ وإذا وجب بطلانها سمي نوماً عرضياً لأنه ليس النوم الكلي الذي يعمّ الأطفال والعجائز والمشايخ الذين قد خرجوا من موقعه السرور أو مخافة الشر، وكذلك نوم الليل على ما وصفنا؛ والوجه الآخر: النوم الكلي الذي يعم الطبقات الحيوانية ذوات الفكر وغيرها، وهي طبيعية توجبه الخلقة في وقته ضرورة كما يوجب الجوع في وقته ضرورة، لأن الجوع عند أهل صناعة الطب علة وهي الموجبة لتحذير الكبد من الفراغ من الأغذية.

ومنهم من رأى أن النفس تدرك صورة الأشياء على ضربين؛ أحدهما حس والآخر فكر، فالصور المحسوسة لا تدركها إلا في هيئتها؛ فإذا خلص علمها عندها كان إدراكها لها منفرداً من طينها فيكون فكر الإنسان ما لم ينم تابعاً للحس حتى إذا نام فعدمت النفس الحواس كلها بقيت تلك الصور التي أخذتها من أعيان الأشياء قائمة كأنها محسوسة، لأن الحس بها في أعيانها كان قبل استيلائها بالفكر ضعيفاً؛ فلما ارتفع الحس قوي الفكر فصار يصوّر الأشياء في النفس كأنها محسوسة، فخطر على بال النائم منها ـ كما يخطر على باله إذا كان يقظان ـ الشيء الذي كان أُنسيه، وليس لذلك نظام وإنما هو ما اتفق، وكذلك يرى الإنسان كأنه يطير وليس بطائر وإنما يرى صورة الطيران مفردة كما يعلمها إذا غابت، ولكن فكرته فيها تقوى حتى كأنها معاينة له؛ فأما ما يراه النائم من الأشياء التي تدل على ما يريد، فإنما ذلك لأن النفس عالمة بالصور؛ فإذا خلصت في المنام من شوائب الأجسام أشرفت على ما تريد أن تناله وهي عالمة أنها في حال اليقظة لا يمكنها معرفة ذلك فتتخيل خيالات تدل بها على تلك الأشياء التي تريد أن تكون، حتى إذا انتبهت تذكرت تلك الخيالات وتلك الأشياء؛ فمن كان نفسه صافية لم تكد رؤياه تكذب، ومن كانت نفسه كدرة كانت تكذب كثيراً؛ ثم ما بين الكدرة والصافية وسائط على حسب مراتبها من الصفاء ومن الكدر يكون صدق ما تخيله من كذبه.

وقال فريق آخر: إذا بطل استعمال النفس للحواس ظاهراً لم يبطل استعمالها في نفسها فلم يبطل استعمال قواها فتنتقل في الأماكن وتشاهد الأشخاص بالقوة الروحانية التي ليست بجسم لا بالقوة الجسمانية الغليظة، وذلك أن القوة الجسدانية لا تدرك إلا بمشاركة وملابسة الأشياء إما باتصال كاتصال اللون بالملون وإما بانفصال كانفصال الجسم من الأماكن؛ والروح تدرك المتصل والمنفصل جميعاً لا بمشاركة الجسد الذي يوجب الحاجة إلى قرب المدرك؛ ومنهم من رأى أن النوم هو اجتماع الدم وحدرانه إلى الكبد؛ ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح؛ ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من عمل الأطعمة والأغذية والطبائع.

ومنهم من رأى أن بعض الرؤيا من الملك وبعضها من الشيطان؛ واعتل هؤلاء بقوله تعالى ﴿إنّما النَّجوَى منَ الشَّيطانِ ليَحْزُنَ الذِينَ آمَنُوا﴾ الآية؛ ومنهم من رأى أنه جزء من أحد وستين جزءاً من النبوة، وتنازع هؤلاء في كيفية ذلك الجزء وماهيته.

ومنهم من ذهب إلى أن الإنسان الحساس هو غير هذا الجسم المرئي وأنه يخرج عن البدن في حال النوم فيشاهد العالم ويرى الملكوت على حسب صفائه؛ واعتل هؤلاء وغيرهم ممن ذهب إلى نحو هذا المعنى بقوله ـ عزّ وجل ـ ﴿اللهُ يتوَفّى الأنفُسَ حينَ موتِها﴾ إلى قوله ﴿أجَلٍ مُسمّى﴾؛ وذهب الجمهور من المتطببين في ذلك إلى أن الأحلام من الأخلاط وتُرى بقدر مزاج كل واحد منها وقوته، وذلك أن الذين تشتعل أجسادهم من المرة الصفراء يرون في نومهم النيران والنواويس ودخاناً ومصابيح وبيوتاً تحترق ومدائن تلتهب بالنار ونحو ذلك وما أشبهه؛ والغالب على مزاجه البلغم يرى بحوراً وأنهاراً وعيوناً وغدراناً وأحواضاً وخلجاناً كثيرة وأمواجاً ويرى كأنه يسبح أو يصيد سمكاً ونحو ذلك وما قاربه؛ والغالب على مزاجه المرة السوداء يرى في منامه أجداثاً وقبوراً وأمواتاً مكفنين بالسواد وبكاء ونوحاً رنيناً وصراخاً وأشياء مفزعة وأموراً مفظعة وفيلة وأسوداً؛ وأما من الغالب على مزاجه الدم فإنه يرى خمراً ونبيذاً ورياحين ولعباً وقصفاً وعزفاً وزفناً وسروراً وفرحاً ومشاهدة أنواع الملاهي أو بعضها والرقص والسكر والثياب المصبغات من الحمر وغيرها وما لحق بأنواع السرور؛ ولا خلاف بين المتطببين في أن الضحك واللعب وكل ما ذكرناه من أنواع السرور من الدم، وأن كل حزن وخوف وإن اختلفت معانيه فإن ذلك من المرة السوداء، واحتجوا بضروب من الاحتجاج هذه جملها.

وقد أوضحنا الكلام في هذا المعنى في كتاب النهى والكمال وفي كتاب طب النفوس، فلا وجه لإطنابنا في هذا الموضع من كتابنا هذا إذ كان هذا الكتاب كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر؛ وإنما تغلغل بنا الكلام لما تشعب من مذاهبهم في إخبارنا عنهم؛ ولم نعرض في هذا الكتاب لما ذهب إليه الناس في تحديد النفس وما قاله أفلاطون في تحديده للنفس إن النفس جوهر محرك للبدن، وما حدّه صاحب المنطق أن حد النفس كمال الجسم الطبيعي، وحدّها من وجه آخر أنه حي بالقوة، ولا للفرق بني النفس والروح لأن الفرق بينهما أن الروح جسم والنفس لا جسم، وأن الروح يحويه البدن والنفس لا يحويها البدن، وأن الروح إذا فارق البدن بطل والنفس تبطل أفعالها في البدن ولا تبطل هي في ذاتها، والنفس تحرك البدن وتنيله الحس.

وقد ذكر أفلاطون في كتاب السياسة المدنية وما يلحق الإنسان من صفات النفس الداخلة على النفس الناطقة؛ وذكر أفلاطون في كتابه إلى طيماوس وفي كتاب فادون في كيفية مقتل سقراط الحكيم ما تكلم في ذلك في النفس والصورة؛ وقد تكلّم الناس في طبقات النفوس وصفاتها من أصحاب الاثنين وغيرهم من الفلاسفة؛ ثم تنازع أهل الإسلام في ماهية الإنسان الحساس الدرّاك المأمور المنهي وما قالته المتصوفة وأصحاب المعارف والدعاوى في طبقات النفوس من النفس المطمئنة اللوامة والنفس الأمّارة بالسوء وغير ذلك مما ذهب إليه اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وغير ذلك مما قد أتينا على إيضاحه في كتاب سر الحياة وغيره من كتبنا.

وقد كان سطح الكاهن وهو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان يدرج سائر جسده كما يدرج الثوب، لا عظم فيه إلا جمجمة الرأس، وكانت إذا لمست باليد أثّرت فيها للين عظمها؛ وكان شق بن صعب بن يشكر [بن رهم] بن أفرك بن قيس بن عبقر بن أنمار بن نزار معه في عصر واحد؛ وكانت معهما جمرة الكاهنة، وكذلك سمقلة وزوبعة كانا في عصر واحد.

قال المسعودي: وإذ قد ذكرنا جملاً من أخبار السد وبلاد مأرب وعمرو بن عامر وغير ذلك مما تقدم في هذا الباب، فلنرجع الآن إلى أخبار الكهان. وقد كان أول من تكهن به سطيح الغساني: إنه كان نائماً في ليلة زهاكية مظلمة مع إخوته في لحق والحي خلوف، إذ زعق بينهم ورن وتأوّه وقال: «والضياء يا سطيح؟» ـ قال: «حين سرى الليل البهيم فبلج وولاهم فسردج» ـ قالوا: «وما علامة ذلك؟» ـ قال: «أمر سد نغارة

ووحشة من الزجرة وحرة بعدها حرة في ليلة قرة»؛ فأضربوا عن قوله واستهانوا بأمره وتعاصفت مدود من أودية هنالك ففاجأتهم في ليلة باردة قرة كما ذكرت فساقت الأنعام والمواشي وكادت أن تذهب بعامتهم.

ولسطيح شق بن صعب الكاهن أخبار كثيرة عجيبة منها رؤيا تبع الحميري في أن جمرة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة، وما فسراه له في ذلك؛ وكذلك خبر سطيح عبد المسيح في رؤيا المؤبذان موبذ وارتجاج الإيوان، وخبر سملقة وزوبعة وما كان من أمرهما، وخبر شأن الظليم والشجرة وما كان بين عك وغسان من الحرب في رقة اللبن وحلاوته وثخنه ونزول غسان أعلى الوادي وعك أسفله، وما كان في ذلك من القيافة بينهم في طلوع الشمس وغروبها على إبلهم؛ وخبر السموأل بن حنا بن عاديا وما كان من أمره وأمر مازن الكاهن، وما قاله له حين طرقه ليلاً وانقياده إلى ذمته وما كان من العنز الأقمر والظليم الأحمر والفرس الأشقر والجمل الأزور والشيخ الأحقر، وغير ذلك من أخبار الكهان والقافة قد أتينا على ذكر ذلك فيما سلف من كتبنا في أخبار الزمان والأوسط وبالله التوفيق.

القسم الرابع

التاريخ

١

أساطير الخلق والمبتدأ(*)

في ذكر المبدأ وشأن الخليقة وذرء البرية

قال المسعودي: اتفق أهل الملة جميعاً من أهل الإسلام أن الله ـ عزّ وجل ـ خلق الأشياء على غير مثال وابتدعها من غير أصل؛ ثم روي عن ابن عباس وغيره أن أول ما خلق الله ـ عزّ وجل ـ الماء: فكان عرشه على الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسمي السماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين، في الأحد والاثنين؛ وخلق الله الأرض على الحوت والحوت هو الذي ذكره الله في القرآن: ﴿والقلمِ وما يسطُرُونَ﴾ والحوت في الماء والماء على الصفاء والصفاء على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة على الريح، وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن [حكاية عن] قول لقمان لابنه: ﴿يا بُنيَّ إنها إن تكُ مِثقَالَ حبةٍ مِنْ خردَلٍ فتكن في صخرةٍ أو في السمواتِ أو في الأرْضِ يأْتِ بِها الله إنّ الله لطيفٌ خبيرٌ﴾، فاضطرب الحوت، فتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقرّت، وذلك قوله تعالى: ﴿وألقى في الأرْضِ رَوَاسيَ أن تميْدَ بِكُمْ﴾، وخلق الجبال فيها، وخلق أقوات أهلها وشجرها، وما ينبغي لها في يومين، في يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أئِنكمْ لتكْفُرونَ بالّذي خلقَ الأرضَ في يوْمينِ وتجْعَلونَ لَهُ أنداداً ذَلِكَ ربُّ العَالمينَ وجعَلَ فيها روَاسيَ منْ فوقِها وبارَكَ فيها وَقدّر فيها أقواتَهَا في أربَعةِ أيامٍ سوَاءً للسّائِلينَ

(*) مروج الذهب، الفقرات ٣٤ ـ ٥٦.

ثم استوَى إلى السّماءِ وهيَ دُخانٌ فقَالَ لهَا ولِلأرضِ ائتِيا طوْعاً أوْ كَرهاً، قالَتا: أتيْنَا طائِعينَ﴾.

فكان ذلك الدخان من نفس الماء حين تنفّس، فجعلها سماءً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبعاً في يومين، في يوم الخميس والجمعة، وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض، ثم قال تعالى: ﴿وأوحى في كُلِّ سماءَ أمْرها﴾؛ يقول: خلق الله في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد.

وإن سماء الدنيا من زمرد خضراء، والسماء الثانية من فضة بيضاء، والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء، والسماء الرابعة من درة بيضاء، والسماء الخامسة من ذهب أحمر، والسماء السادسة من ياقوتة صفراء، والسماء السابعة من نور، قد طبّقها بملائكة قيام على رجل واحدة تعظيماً لله لقربهم منه، قد خرقت أرجلهم الأرض السابعة واستقرت أقدامهم على مسيرة خمسمائة عام تحت الأرض السابعة ورؤوسهم تحت العرش من غير أن تبلغ العرش، وهم يقولون: لا إله إلا الله ﴿ذُو العرْشِ المجِيدِ﴾، فهم على ذلك منذ خلقوا إلى أن تقوم الساعة؛ وتحت العرش بحر ينزل منه أرزاق الخلق والحيوان يوحي الله إليه فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى موضع يقال له الأبرم، فيوحي إلى الريح فتحمله إلى السحاب فتغربله، وتحت سماء الدنيا بحر من ماء يطفح من الدواب مثل ما في بحور الأرض مستمسكاً بالقدرة.

وإن الله تعالى أسكن ظهر الأرض، لما فرغ من خلقها، الجن قبل آدم، فجعلهم ﴿من مَارِجٍ مِنْ نارٍ﴾، وإبليس فيهم؛ فنهاهم الله أن يسفكوا دم البهائم وأن يظهروا المعصية بينهم؛ فسفكوا وعدًا بعضهم على بعض؛ فلما رآهم إبليس لا يقلعون عن ذلك سأل الله أن يرفعه إلى السماء، فصار مع الملائكة يعبد الله أشد عبادة؛ وأرسل الله إلى الجن، وهم حزب إبليس، قبيلاً من الملائكة، فطردوهم إلى جزائر البحار وقتلوا من شاء الله منهم؛ وجعل الله إبليس على سماء الدنيا خازناً، فوقع في صدره الكبر.

ثم شاء الله ــ عزّ وجل ــ أن يخلق آدم، فقال: ﴿للملائِكَةِ إنّي جاعِلٌ في الأرضِ خليفةً﴾ ــ فقالوا: «ربنا ومن يكون ذلك الخليفة؟» ــ قال: «يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً» ــ فقالوا: «ربنا ﴿أتجعلُ فيها منْ يُفسدُ فيها ويسفِكُ الدماءَ ونحْنُ نسبّحُ بحمدِكَ ونُقدّسُ لك؟ ــ قال: إنّي أعلم ما تعلَمُون﴾، ثم بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت له الأرض: «إني أعوذ بالله منك أن

تنقصني»؛ فرجع ولم يأخذ منها شيئاً؛ ثم بعث ميكائيل، فقالت له مثل ذلك، فرجع ولم يأخذ منها شيئاً. فبعث الله ملك الموت فعاذت بالله منه، فقال: «وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ لأمره»؛ فأخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين في الألوان، وسمي آدم لأنه أخذ من أديم الأرض، وقيل غير ذلك.

ووكّل الله ملك الموت بالموت وجبله الله ـ تبارك وتعالى ـ وتركه حتى صار طيناً لازباً يلزق بعضه ببعض أربعين سنة، ثم تركه حتى أنتن وتغيّر أربعين سنة، وذلك قوله تعالى: ﴿مِن حَمإٍ مسْنُونٍ﴾، يقول منتن، ثم صوّره وتركه بلا روح ﴿مِنْ صَلْصالٍ كالفَخّارِ﴾ حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة وقيل أربعون سنة، وهو قوله تعالى: ﴿هل أتى علَى الإنسانِ حين من الدّهرِ لم يكُن شيْئاً مذكُوراً﴾، فكانت الملائكة تمر به فزعين منه، وكان أشدهم فزعاً إبليس، كان يمر به فيضربه برجله، فيظهر له صوت كظهوره من الفخار ويكون له صلصلة، فذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ صلصَالٍ كالفَخّارِ﴾، وقيل إن الصلصال غير ما ذكرنا؛ وكان إبليس يدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول: «لأمر ما خلقت».

فلما أراد الله أن ينفخ فيه الروح قال: ﴿للملائِكةِ اسجُدُوا لآدمَ فسجَدوا إلا إبليْسَ أبَى واستَكْبرَ﴾ وقال يا ربِّ ﴿أنا خيرٌ منهُ خلقْتَني مِن نارٍ وخلقْتَهُ من طِينٍ﴾، والنار أشرف من الطين وأنا الذي كنت مستخلفاً في الأرض وأنا الملبس بالريش والموشّح بالنور والمتوّج بالكرامة، وأنا الذي عبدتك في سمائك وأرضك» ـ فقال له: ﴿فاخرُجْ منهَا فإنَّكَ رجيمٌ وإنَّ عليكَ لعنَتي إلى يوْمِ الدينِ﴾، فسأل المهلة ﴿إلى يومِ يُبعَثون﴾ فأنظره ﴿إلى يوم الوقتِ المعلومِ﴾، وذهب على إبليس المعنى الذي له ومن أجله أُمر لآدم بالسجود.

فمن الناس من رأى أن آدم كان محراباً للمأمورين بالسجود، والمقصود بذلك الخالق ـ عزّ وجل ـ وموافقة الأمر والطاعة له على سبيل البلوى والاختبار والمحنة الواقعة بالمكلفين؛ ومنهم من رأى غير ذلك؛ ثم نفخ الله فيه من روحه فكان كلما حلّت في بعض جسده الروح يذهب ليجلس؛ فقال الله: «خلق ﴿الإنسَانُ عجُولاً﴾»؛ فلما تبالغ فيه الروح عطس؛ فقال الله: «قل الحمد لله يرحمك ربك يا آدم».

قال المسعودي: وما ذكرنا من الأخبار عن بدء الخليقة هو ما جاءت به الشريعة ورواه الخلف عن السلف والباقي عن الماضي، فعبرنا عنهم على حسب ما نقل إلينا من

ألفاظهم ووجدناه في كتبهم، مع شهادة الدلائل بحدوث العالم وإيضاحها بكونه؛ ولم نعرض لوصف قول من وافق ذلك وانقاد إليه من أهل الملل القائلين بالحدوث، ولا للرد على سواهم ممن خالف ذلك وقال بالقدم، لذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وتقدّم من تصنيفنا؛ وقد ذكرنا في مواضع كثيرة من كتابنا هذا جملاً من علوم النظر والبراهين والجدل تتعلق بكثير من الآراء والنحل، وذلك على طريق الخبر.

وذكر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أن الله تعالى، حين شاء تقدير الخليقة وذرء البرية وإبداع المبدعات، نصب الخلق في صور كالهباء قبل دحو الأرض ورفع السماء، وهو في انفراد ملكوته وتوحد جبروته فأساح نوراً من نوره وقبساً من ضيائه، فسطع ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفية، فوافق ذلك صورة نبينا محمد صلعم؛ فقال الله ــ عزّ وجل من قائل ــ أنت المختار المنتخب، وعندك مستودع نوري وكنوز هدايتي، من أجلك أسطح البطحاء وأمرج الماء وأرفع السماء وأجعل الثواب والعذاب والجنة والنار، وأنصب أهل بيتك للهداية وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يخفى عليهم دقيق ولا يغيب عنهم خفي، وأجعلهم حجتي على بريتي والمنتهين على قدرتي ووحدانيتي.

ثم أخذ الله سبحانه الشهادة بالربوبية والإخلاص بالوحدانية؛ فبعد أخذ ما أخذ من ذلك، شاب ببصائر الخلق انتخاب محمد وآله وأراهم أن الهداية معه والنور له والإمامة في أهله تقديماً لسنة العدل وليكون الإعذار متقدماً؛ ثم أخفى الله الخليقة في غيبه، وغيّبها في مكنون علمه، ثم نصب العوالم وبسط الزمان ومرج الماء وأثار الزبد وأهاج الدخان؛ فطفا عرشه على الماء فسطح الأرض على ظهر الماء وأخرج من الماء دخاناً، فجعله السماء؛ ثم استجابهما إلى الطاعة فأذعنتا بالاستجابة؛ ثم أنشأ الله الملائكة من أنوار أبدعها وأرواح اخترعها، وقرن بتوحيد نبوة محمد صلعم؛ فشهرت في السماء قبل مبعثه في الأرض.

فلما خلق الله آدم أبان الله فضله للملائكة وأراهم ما خصه به من سابق العلم من حيث عرفهم عند استنبائه إياه أسماء الأشياء؛ فجعل الله آدم محراباً وكعبة وباباً وقبلة أسجد إليه الأبرار الروحانيين الأبرار؛ ثم نبه آدم على مستودعه وكشف له [عن] خطر ما ائتمنه عليه، بعد أن سماه إماماً عند الملائكة؛ فكان حظ آدم من الخير ثناؤه بمستودع نورنا؛ ولم يزل الله يخبىء النار تحت الزمان إلى أن فضّل محمداً في طاهر القنوات؛

فدعا الناس ظاهراً وباطناً وندبهم سراً وإعلاناً واستدعى عم التنبيه على العهد الذي قدمه إلى الذرء قبل النسل، فمن وافقه قبس من مصباح النور المتقدم اهتدى إلى سره واستبان واضحة أمره، ومن أبلسته الغفلة استحق السخط.

ثم انتقل النور إلى عزائزنا ولمع مع أئمتنا، فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض؛ فبنا النجاة ومنا مكنون العلم، وإلينا مصير الأمور، وبمهدينا تنقطع الحجج خاتم الأئمة ومنقذ الأمة وغاية النور ومصدر الأمور؛ فنحن أفضل المخلوقين وأشرف الموجودين وحجج رب العالمين، فليهنّ بالنعمة من تمسك بولايتنا وقبض على عروتنا. فهذا ما روي عن أبي عبد الله جعفر [بن محمد عن علي عن علي بن الحسين عن الحسين] بن علي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولم نعرض لذكر كثير من أسانيد هذه الأخبار وطرقها لأنا قد أتينا على جميع ذكرها واتصالها في النقل لمن ذكرناها عنه وعزوناها إليه فيما سلف من كتبنا، خوف الإكثار والتطويل في هذا الكتاب.

وأما ما وُجد في التوراة فهو أن الله تعالى ابتدأ الخلق في يوم الاثنين وكان انتهاء الفراغ يوم السبت؛ فاتخذ اليهود لذلك يوم السبت عيداً؛ وزعم أهل الإنجيل أن المسيح قام من قبره يوم الأحد فاتخذوا ذلك اليوم عيداً؛ فأما ما ذهب إليه الجمهور من أهل الفقه والآثار فهو أن الابتداء كان يوم الأحد والفراغ يوم الجمعة، وفيه نفخ في آدم الروح، وهو السادس من نيسان؛ ثم خلقت حواء من آدم وأسكنا الجنة لثلاث ساعات مضت، فمكثا ثلاث ساعات وهو ربع يوم مائتي سنة وخمسين سنة من أعوام الدنيا، وأهبط الله آدم بسرنديب وحواء بجدة وإبليس ببيسان والحية بإصبهان؛ فهبط آدم بالهند على جزيرة سرنديب على جبل الرهون وعليه الورق الذي خصفه من ورق الجنة فيبس فذرته الرياح فانتشر في بلاد الهند.

فيقال ــ والله أعلم ــ إن علة كون الطيب بأرض الهند من ذلك الورق، وقيل غير ذلك، ولذلك خصّت أرض الهند بالعود والقرنفل والأفاويه والمسك وسائر الطيب، وذلك الجبل لمعت عليه اليواقيت وأحجار الماس؛ وفي جزائر بحره السنباذج وفي قعره مغائص اللؤلؤ؛ وإن آدم عَم لما أهبط من الجنة أخرج معه صبرة من الحنطة وثلاثين قضيباً من شجر الجنة مودعه أصناف الثمار، منها عشرة مما له قشر وهي: الجوز واللوز والجلوز ــ وهو البندق ــ والفستق والخشخاش والشاهبلوط والرمان والرانج والموز والبلوط، ومنها عشرة ذوات نوى وهي: الخوخ والمشمش والإجاص والرطب والغبيرا والنبق

والزعرور والعناب والمقل والقراسيا، ومنها عشرة مما لا قشر لها ولا حجاب دون مطعمها ولا نوى داخلها وهي: التفاح والسفرجل والعنب والكمثرى والتين والتوت والأترج والقثاء والخيار والبطيخ.

ويقال إن آدم لما أُهبط من الجنة وحواء هبطا مفترقين فتعارفا بالموضع الذي يسمى عرفات، وبتعارفهما فيه سمي بهذه التسمية، وقيل غير ذلك؛ وإن آدم عَم تاق إلى حواء فغشيها فاشتملت على ذكر وأنثى فسمى الذكر قاين وسمى الجارية لوبدا، ثم عاود الغشيان فاشتملت حواء أيضاً على ذكر وأنثى فسمى الذكر هابيل وسمى الجارية إقليميا؛ وقد تنوزع في اسم الولد الأول منهما فذكر الأكثر من أهل الكتب وغيرهم أن اسمه قاين على ما ذكرنا، ومنهم من رأى أن اسمه قابيل وهذا قول فريق من الناس، والأغلب ما قدّمناه؛ وقد ذكر عليّ بن الجهم في قصيدته في بدء الخلق والذرء ذلك فقال:

واقتنيا الابنَ فسُمي قاينا وعاينَا من نشئِه ما عاينا

فشب هابيلُ وشبّ قاينُ ولم يكن بينهما تباينُ

وذكر أهل الكتاب أن آدم زوّج أخت هابيل لقاين وأخت قاين لهابيل وفرق في النكاح بين البطنين، وهذه كانت شيمة آدم عَم احتياطاً لأقصى ما يمكنه في ذوي المحارم لموضع الاضطرار وعجز النسل عن التباين والاغتراب؛ وقد زعمت المجوس أن آدم لم يخالف في النكاح بين البطون ولم يتحرّ المخالفة، ولهم في هذا المعنى سر يدّعون فيه الفضل في صلاح الحال في تزويج الأخ من أخته والأم من ابنها، قد أتينا به في الفن الرابع عشر من كتابنا الموسوم بأخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة.

وإن هابيل وقاين قرّبا قرباناً فتحرّى هابيل أجود غنمه وأفضل طعامه فقربه وتحرى قاين شر ماله فقربه، فكان من أمرهما ما قد حكاه الله في كتابه من قتل قاين لهابيل؛ ويقال إنه اغتاله في برية قاع، وإن ذلك كان في بلاد دمشق من أرض الشام وكان قتله شدخاً بحجر؛ فيقال إن الوحوش من هناك استوحشت من الإنسان، وذلك أنه بدأ بالشر والقتل؛ فلما قتله تحير في توريته وحمله يطوف به الأرض؛ فبعث الله غراباً إلى غراب فقتله ثم دفنه؛ فأسف قاين ثم قال ما حكاه القرآن عنه.

قال المسعودي: وقد استفاض في الناس شعر يعزونه إلى آدم، أنه قال حين جزع على ولده وأسف على فقده، وهو يقول جزعاً عليه:

تغيرت البلادُ ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيحُ
تغيّر كل ذي طُعمٍ ولونٍ وقلّ بشاشةُ الوجهِ الصبيحِ
وبُدّل أهلها أثلاً وخمطاً بجنات من الفردوسِ فيحِ
وجاورنا عدو ليس ينسى لعينٌ ما يموت فنستريحُ
وقتّل قاينٌ هابيلَ ظُلماً فواأسفا على الوجه المليحِ
فما لي لا أجود بسكب دمعٍ وهابيلٌ تضمنهُ الضريحُ
أرى طول الحياة عليّ غماً وما أنا من حياتي مستريحُ

ووجدت في عدة من كتب التواريخ والسير والأنساب أن آدم، لما نطق بهذا الشعر، أجابه إبليس من حيث يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو يقول:

تنحّ عن البلاد وساكنيها فقدْ في الأرض ضاق بك الفسيحُ
وكنت وزوجك الحواءِ فيها أآدم من أذى الدنيا مريحُ
فما زالت مكايدتي ومكري إلى أن فاتك الثمنُ الربيحُ
فلولا رحمة الجبارِ أضحى يكفكَ من جنان الخُلدِ ريحُ

ووجدت في نسخة أخرى بيتاً آخر مفرداً دون ما ذكرنا من هذا الشعر وأن آدم سمع صوتاً ولا يرى شخصاً وهو يقول:

أبا هابيل قد قُتلا جميعاً وصار الحيُّ كالميت الذّبيحِ

فلما سمع ذلك آدم ازداد حزناً وجزعاً على الماضي والباقي، وعلم أن القاتل مقتول؛ فأوحى الله إليه: «إني مخرج منك نوري الذي أريد به السلوك في القنوات الطاهرة والأرومات الشريفة وأباهي به الأنوار وأجعله خاتم الأنبياء وأجعل آله خيار الأئمة الخلفاء، أختم الزمان بمدتهم وأغص الأرض بدعوتهم وأنيرها بشيعتهم؛ فسم وتطهر وقدّس وسبّح، ثم اغش زوجتك على طهارة منها، فإن وديعتي تنتقل منكما إلى الولد الكائن بينكما».

٢

تاريخ السلالة الآدمية(*)

فواقع آدم حواء فحملت لوقتها وأشرق جبينها وتلألأ النور في مخائلها ولمع في محاجرها حتى [إذا] انتهى حملها وضعت نسمة كأسرى ما يكون من الذكران وأتمهم وقاراً وأحسنهم صورة وأكملهم هيئة وأعدلهم خلقاً مجللاً بالنور والهيبة موشحاً بالجلال والأبهة؛ فانتقل النور من حواء إليه حتى لمع في أسارير جبينه وبسق في غرة طلعته؛ فسماه آدم شيثاً وقيل هبة الله، حتى فإذا ترعرع وأيفع وكمل واستبصر فأوعز إليه آدم وصيّته وعرّفه بمحلّ ما استودعه وأعلمه أنه حجة الله بعده وخليفته في الأرض والمؤدي حق الله إلى وصاته، وأنه ثاني أنقال الذرية الطاهرة والجرثومة الزاهرة؛ وإن آدم حين أدى الوصية إلى شيث احتقبها واحتفظ مكنونها.

وأتت وفاة آدم وقرب انتقاله، فتوفي يوم الجمعة لِستّ خلون من نيسان في الساعة التي كان فيها خلقه؛ وكان عمر آدم تَمّ تسعمائة وثلاثين سنة، وكان شيث وصياً على ولده؛ ويقال إن آدم مات عن أربعين ألفاً من ولْده وولده ولده؛ وتنازع الناس في قبره: فمنهم من زعم أن قبره بمنى في مسجد الخيف، ومنهم من رأى أنه في كهف في جبل أبي قُبيس، وقيل غير ذلك، والله أعلم بحقيقة الحال.

وإن شيثاً حكم في الناس واستشرع صحف أبيه وما أنزل عليه في خاصته من الأسفار والأشراع؛ وإن شيثاً واقع امرأته، فحملت بأنوش، وانتقل النور إليها حتى إذا وضعته

(*) مروج الذهب، الفقرات ٥٦ ـ ٦٨.

ساح النور عليه؛ فلما بلغ الوَصاة أوعز إليه شيث بشأن الوديعة وأنها شرفهم، وأوعز إليه أن ينبه ولده على حقيقة هذا الشرف وكبر محله وأن ينبهوا أولادهم عليه، ويجعل ذلك وصية بينهم منتقلة ما دام النسل؛ فكانت الوصية جارية تنتقل من قرن إلى قرن إلى أن أدى الله النور إلى عبد المطلب وولد عبد الله أبي رسول الله صلعم.

وإن أنوش لبث في الأرض يعمرها؛ وقد قيل ـ والله أعلم ـ إن شيثاً أصل النسل من آدم دون سائر ولده وقد قيل غير ذلك؛ وكانت وفاة شيث وقد مضت له تسعمائة سنة واثنتا عشرة سنة؛ وفي زمن أنوش قتل قاين بن آدم قاتل أخيه هابيل، ولمقتله خبر عجيب قد أوردناه في كتاب أخبار الزمان وفي الكتاب الأوسط؛ وكانت وفاة أنوش لثلاث خلون من تشرين الأول، فكانت مدته تسعمائة وستين سنة؛ وكان قد ولد له قنيان ولاح النور في جبينه، وأُخذ عليه العهد فعمر البلاد حتى مات، فكانت مدته تسعمائة وعشرين سنة؛ وقد قيل إن موته كان في تموز بعد ما ولد له مهلائيل، فكانت مدة مهلائيل ثمانمائة سنة، وقد ولد له يرد والنور متوارث والعهد مأخوذ والحق قائم؛ ويقال إن كثيراً من الملاهي أحدثت في أيامه، أحدثها ولد قاين.

ولولد قاين وليرد حروب وأقاصيص قد أتينا على ذكرها في كتابنا في أخبار الزمان؛ ووقع التحزب بين ولد شيث وبين غيرهم من ولد قاين: فنوع من الهند ممن يُقر بآدم ينتسبون إلى هذا الشعب من ولد قاين، وأرض هذا النوع أرض قمار من أرض الهند وإلى بلدهم يضاف العود القماري؛ فكانت حياة يرد تسعمائة سنة واثنتين وستين سنة وكانت وفاته في آذار.

وقام بعده ولده أخنوخ وهو إدريس النبي عَم؛ والصابئة تزعم أنه هرمس ومعنى هرمس عطارد، وهو الذي أخبر الله في كتابه أنه رفعه ﴿مكاناً عليّاً﴾، وكانت حياته في الأرض ثلاثمائة سنة وقيل أكثر من ذلك؛ وهو أول من درز الدروز وخاط بالإبرة، وأُنزلت عليه ثلاثون صحيفة، وكان أُنزل قبل ذلك على آدم إحدى وعشرون صحيفة، وأُنزل على شيث تسع وعشرون صحيفة، فيها تهليل وتسبيح.

وقام بعده ابنه متُّوشلخ بن أخنوخ يعمر البلاد، والنور في جبينه؛ وولد له أولاد، وقد تكلم الناس في كثير من أولاده، وإن البُلغر والروس والصقالبة من ولده؛ وكانت حياته تسعمائة سنة وستين سنة، ومات في أيلول؛ وقام بعده لمك وكانت في أيامه كوائن واختلاط في النسل؛ وتوفّي وكانت حياته سبعمائة وسبعاً وسبعين سنة.

وقام بعده نوح بن لمك عَم، وقد كثر الفساد في الأرض واشتدت طياخي الظلم، فقام في الأرض داعياً إلى الله، فأبوا إلا طغياناً وكفراً، فدعا الله عليهم، فأوحى الله إليه أن ﴿اصنعِ الفُلكَ﴾؛ فلما فرغ من السفينة، أتاه جبريل بتابوت آدم فيه رِمّته؛ وكان ركوبهم في السفينة يوم الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من آذار، وأقام نوح ومن معه في السفينة على ظهر الماء وقد غرق الله جميع الأرض خمسة أشهر، ثم أمر الله الأرض أن تغيض والسماء أن تقلع، واستوت السفينة على الجودي، والجودي جبل ببلاد باسورين وجزيرة ابن عمر من بلاد الموصل، وبين الجودي ودجلة ثمانية فراسخ، وموضع جنوح السفينة على رأس هذا الجبل إلى هذه الغاية.

وذُكر أن بعض الأرض لم يسرع إلى بلع مياهها، ومنها ما أسرع إلى بلعه عندما أُمرت: فيما أطاع كان ماؤه عذباً إذا احتفر، وما تأخّر عن القبول أعقبها الله بماء مالح إذا احتفر وسياخ وملاحات ورمال، وما تخلّف من الماء الذي امتنعت الأرض من بلعه انحدر إلى قعور مواضع من الأرض؛ فمن ذلك البحار وهي بقية الماء الذي عصت أرضه أُهلك به أمم؛ وسنذكر بعد هذا الموضع من كتابنا هذا أخبار البحار ووصفها.

ونزل نوح عَم من السفينة ومعه أولاده الثلاثة: سام وحام ويافث، وكنّاته الثلاث أزواج أولاده، وأربعون رجلاً وأربعون امرأة؛ فساروا إلى سفح هذا الجبل، فابتنوا هنالك مدينة وسموها ثمانين، وهو اسمها إلى اليوم وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثماية. ودثر عقب هؤلاء الثمانين نفساً، وجعل الله نسل الخليقة من نوح من أولاده الثلاثة؛ وقد أخبر الله ــ جل وعز ــ بذلك بقوله تعالى: ﴿وجعَلنَا ذُرّيتَهُ همُ الباقينَ﴾ والله أعلم بهذا التأويل، والمتخلّف عنه من ولده الذي قال له ﴿يا بُنيّ اركَبْ معَنَا﴾ هو يام.

وقسم نوح عَم الأرض بين ولده أقساماً وخصّ كل واحد منهم بموضع، ودعا على ولده حام لأمر كان منه مع أبيه وقد اشتهر [خبره]؛ فقال: «ملعون حام بن عبيد يكون لإخوته»، وقال: «مبارك سام ويكثر الله يافث ويحل يافث في مسكن سام»؛ ووجدت في التوراة أن نوحاً عاش بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين سنة: فجميع عمر نوح تسعمائة سنة وخمسون سنة، وقد قيل غير ذلك؛ فانطلق حام وتبعه ولْده، فنزلوا في مساكنهم من البحر والبر على حسب ما نذكره بعد هذا الموضع من هذا الكتاب.

٣

طول الأعمار وعظم الأجساد(*)

وقد قدّمنا في ما سلف من كتبنا وفي مواضع من هذا الكتاب ما قالته الأوائل في علة طول الأعمار وقصرها وعظم الأجسام في بدء الدهر وتناقصها على مرور الأعصار ومضيّ الدهور وأن الله ـ تبارك وتعالى ـ لما بدأ الخلق كما كانت الطبيعة التي جعلها الله جبلّة للأجسام في تمام الكثرة ونهاية القوة والكمال.

والطبيعة إذا كانت تامة القوة كانت الأعمار أطول والأجسام أقوى، لأن طرْق الموت الطارىء يكون بانحلال قوى الطبيعة؛ فلما كانت القوة أتم كانت الأعمار أطول والأجسام أقوى وأزيد وكان العالم في أولية شأنه تام العمر، ثم لم يزل ينقص أولاً فأولاً لنقصان المادة، فتنقص الأجسام والأعمار مع نقصان المادة، حتى يكون ناهية الطبيعة في تناهي النقص في الأجسام والأعمار.

وقد أبى ما ذكرنا من عظم أجسام الناطقين في صدر الزمان كثير من أهل النظر والبحث ممن تأخّر، وزعموا أن تأثيرهم في بنيانهم وما ظهر في الأرض من أفعالهم يدلّ على صِغر أجسامهم وأنها كانت كأجسامنا لما يشاهدونه من مساكنهم وأبوابهم وممراتهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن في سائر الأرض كديار ثمود ونحتها المساكن في الجبال وحفرها في الصخر الصلد بيوتاً صغاراً وأبواباً لطافاً؛ وكذلك بأرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض في الشرق والغرب؛ وهذا باب إن أكثرنا فيه القول طال وإن أطنبنا في وصفه كثر.

(*) مروج الذهب، الفقرات ١٢٦١ ـ ١٢٦٣.

٤

جامع تاريخ العالم(*)

ليس أمة من الأمم من الشريعيين وغيرهم ممن سلف وخلف إلا ولها تأريخ ترجع إليها وتعول عليه في أكثر أمورها. ينقل ذلك خلف عن سلف وباق عن ماض، إذ كان به تعرف الحوادث العظام، والكوائن الجسام، وما كان في الأزمان الماضية والدهور الخالية. ولولا ضبط ذلك وتقييده لانقطعت الأخبار ودرست الآثار وجهلت الأنساب. ولذلك أخذ الإسكندر أهل مملكته بتقييد أيامه وحفظ تأريخه وسيره، لكيلا يضيع ما بان من أمره ووطىء من البلاد، وحوى من المملكة، لعلمه بما يلحق كثيراً من الناس من التواني عن نقل الأخبار وتقييد السير والآثار، وإعراضهم عن ذلك إيثاراً للدعة وميلاً إلى التخفيف. واحتذى فعله أردشير بن بابك لما قتل ملوك الطوائف واستوسقت له الأمور وانقاد الناس إلى طاعته؛ قام بضبط سيرته وعهوده وأيامه وحروبه، إلا أنه طرح ما كان قبل ذلك وتناساه، لكي يكون الذكر لأيامه وسيرته، فضبط ذلك ضبطاً شديداً إلى يزدجرد بن شهريار آخر ملوكهم.

فكانت الأمم السالفة والأجيال الخالية والقرون الماضية تؤرخ الكوائن العظام والأحداث الكبار عندها وتملك الملوك. فمن أقر بالطوفان من الأمم كانوا يؤرخون به، ثم أرخوا العام بتبلبل الألسن بإقليم بابل. فأما المجوس فلإنكارهم الطوفان المستولي على جميع الأرض أرخوا بكيومرت كلشاه معنى ذلك ملك الطين، وهو عندهم آدم أبو البشر وأصل النسل، وإليه ترجع الفرس في أنسابها، ثم أرخوا بقتل داريوس الملك وظهور

(*) التنبيه والإشراف، ١٦٧ ـ ١٨٣.

الإسكندر الملك، ثم أَرّخوا بظهور أردشير بن بابك وجمعه الملك واستيلائه على ملوك الطوائف، ثم أرّخوا بملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز بن هرمز بن خسرو أنوشروان بن قباذ الملك وهو آخر ملوكهم إلى هذا الوقت، وأول سنته يوم الثلاثاء.

وكان سوالف اليونانيين والروم والنبط وهم السريانيون يؤرخون بملوك لهم متقدمين وكوائن وأحداث، ثم أرّخوا بسني الإسكندر بن فيلبس، فاستقر تاريخهم على ذلك إلى هذا الوقت. وقد تنوزع في مبدأ تاريخ الإسكندر. فمنهم من رأى أن ذلك من ابتداء ملكه ومنهم من رأى ذلك من أول السنة السابعة من ملكه حين خرج عن بلاد مقدونية إلى ناحية المغرب وغيرها من بلاد الإفرنجية، ومنهم من رأى ذلك من غلبته على إقليم بابل وقتله دارا بن دارا، ومنهم من رأى أن ذلك من وفاته.

ومن آدم إلى ملك الإسكندر خمسة آلاف سنة ومائة وإحدى وثمانون سنة، وقيل خمسة آلاف سنة ومائتان وتسع وخمسون سنة، وبين الطوفان إلى ملكه ألفان وتسعمائة وخمس وعشرون سنة، ومن فالغ من عابر إلى ملكه ألفان وثلاثمائة وأربع وتسعون سنة، ومن إبراهيم إلى ملكه ألف وثمانمائة وثلاث وخمسون سنة، ومن خروج بني إسرائيل من مصر إلى ملكه ألف وثلاثمائة وست وأربعون سنة، ومن ملك داود إلى ملكه سبعمائة سنة وأربعون سنة، ومن سبي بخت نصر لبني إسرائيل إلى ملك مائتان وثلاث وستون سنة.

وقد ذهب قوم إلى أن من ابتداء ملك بخت نصر إلى غلبة الإسكندر لدارا أربعمائة سنة وتسع وعشرون سنة وثلاثمائة وستة وخمسون يوماً، ومنهم من رأى أن ذلك مائتا سنة وتسع وثمانون سنة، ومن الإسكندر إلى صلب إيشوع عند النصارى ثلاثمائة واثنتان وأربعون سنة، ومن الإسكندر إلى هذا الوقت الذي ألف أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي فيه الكتاب وهو سنة ٣٤٥ للهجرة ألف سنة ومائتا سنة وثمان وستون سنة.

وكان القبط بأرض مصر تؤرخ بأول السنة التي ملك فيها بخت نصر وأولها يوم الأربعاء، وقد ذكر ذلك أبطليموس في كتاب المجسطي. فأما تاريخهم في زيجه فمن أول سني فيلبس أبي الإسكندر وأول سنته يوم الأُحد، وبين تاريخ فيلبس وتاريخ الإسكندر اثنتا عشرة سنة وعشرة أشهر وعشرون يوماً، ثم أرخوا بملك دقلطيانوس الملك، الملك القبطي لعظم ملكه، واستقر تاريخهم على ذلك إلى هذه الغاية.

وبين تاريخ بخت نصر وتاريخ يزدجر ألف وثلاثمائة وتسع وسبعون سنة فارسية وثلاثة أشهر، وبين تأريخ فيلبس وتاريخ يزدجر تسعمائة وخمس وخمسون سنة وثلاثة أشهر، وبين تأريخ الإسكندر وتأريخ يزدجر تسعمائة واثنتان وأربعون سنة من سني الروم ومائتان وخمسون يوماً، وبين تأريخ الهجرة وتاريخ يزدجر من الأيام الثلاثة آلاف يوم وستمائة وأربعة وعشرون يوماً. فأول هذه التواريخ تاريخ بخت نصر، ثم تأريخ فيلبس، ثم تأريخ الهجرة، ثم تأريخ يزدجرد. كذلك ذكر محمد بن كثير الفرغاني في كتاب الثلاثين فصلاً الذي فيه ناكر جوامع المجسطي لأبطلميوس وغيره من أصحاب الزيجة في النجوم والقوانين، كالفزاري، ويحيى بن أبي منصور، والخوارزمي، وحبش، وما شاء الله، ومحمد بن خالد المروروذي، وأبي معشر جعفر بن محمد البلخي، وابن الفرخان الطبري، والحسن بن الخطيب، ومحمد بن جابر البتاني، والنيريزي، وغيرهم ممن تقدّم وتأخّر.

وكان الإسرائيليون يؤرخون بوفاة إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ثم بخرجونهم من أرض مصر مع موسى، وكان دخول إسرائيل إلى مصر وولده الأسباط وأولادهم وهم سبعون نفساً حين قصدوا يوسف، فكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا عنها مع موسى إلى التيه. مائتي سنة وسبع عشرة سنة يتداولهم ملوك مصر، وأحصاهم موسى وهارون في التيه، فكان من يصلح لحمل السلاح والقتال منهم من ابن عشرين سنة فصاعداً سوى سبط لاوي ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين نفساً، وأحصى سبط لاوي بن يعقوب وهو ابن سبطها من ابن شهر إلى فوق فكانوا اثنين وعشرين ألفاً ومائتين وثلاثة وسبعين، فجميع بني إسرائيل على ما أحصينا ستمائة وخمسة وعشرون ألفاً ثمانمائة وثلاثة وعشرون ألفاً.

وكانت وفاة موسى وهارون وأختهما مريم بالتيه في سنة واحدة لتمام أربعين سنة لهم في التيه، وهم لأم واحدة اسمها أماحية، ماتت أولاً مريم أختهما في ستة أيام من نيسان ولها مائة وسبع وعشرون سنة ومات هارون في أول يوم من آب ودفن في جبل هور وهو أحد الأطوار الأربعة المقدم ذكرها وله مائة وثلاث وعشرون سنة، ومات موسى في سبعة أيام من آذار في أرض موآب ودفن في الوادي من أرض موآب وله مائة وعشرون سنة. وتولى الأمر بعد موسى يوشع بن نون، وحاب ملوك الشأم وغيرها واستولى على أكثر البلاد، فأقام ست سنين ومات وله مائة وعشرون سنة، ودبر الأمر بعده فينخاس

بن ألعازر بن هارون وما كان كاهناً، والإسرائيليون يذكرون أنه النبي الذي تسميه المسلمون الخضر، والفرس تزعم أن الخضر هو أحد السبعة بني منوشهر على ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب، ولأهل الشرائع وغيرهم من أصحاب التأويل في وقتنا هذا فيه كلام طويل يطول ذكره. فكان من إبراهيم إلى خروج بني إسرائيل من مصر خمسمائة وسبع وستون سنة، ومن الطوفان إلى خروجهم ثلاثة آلاف وثمانمائة وخمس وثلاثون سنة. ثم أرخوا بإخراب بخت نصر أورشليم وهي بيت المقدس وسبيهم إلى بابل، وكان من ابتداء ملك بخت نصر إلى ظهور الإسرائيليين وسبيهم إحدى وثلاثون سنة وأربعة وثلاثون يوماً، ومن ملك داود إلى سبي بابل أربعمائة سنة وسبع وسبعون سنة، ومن خروج بني إسرائيل من مصر إلى سبيهم ألف وثلاث وثمانون سنة، ومن إبراهيم إلى سبيهم ألف وخمسمائة وتسعون سنة، ومن فالغ بن عابر إلى سبيهم ألفان ومائة وإحدى وثلاثون سنة، ومن الطوفان إلى سبيهم ألفان وستمائة واثنتان وستون ومن آدم إلى سبيهم أربعة آلاف وتسعمائة وثماني عشرة سنة. وكان مقامهم ببابل سبعين سنة إلى أن ردهم بهمن بن أسفنديار بن كيبشتاسب بن كيلهراسب إلى أورشليم وأمر بعمارتها، والإسرائيليون وكثير من الناس يسمونه كورش، وغير ذلك من الكوائن التي كانت فيهم.

وكذلك أرّخت النصارى من مولد المسيح وغير ذلك من أحواله.

وأما الهند والصين ومن وافقهم من الأمم ممن قال بقدم العالم وأزليته فيأبون كون الطوفان عم جميع الأرض وما ذكر من تبلبل الألسن، وتواريخهم موضوعة على سوالف ملوكهم وأحداث عظيمة كانت في أيامهم يبعد علينا في هذا الكتاب وصفها، وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا شرحها. .

وبأعالي النهر ومشارقها البيت المعروف ببيت الذهب بدء تاريخهم بعد ظهور البُد الأول فيهم وهو اثنا عشر ألف عام مضروبة في ثلاثة وثلاثين ألف عام. وهو البيت الذي دخله الإسكندر بن فيلبس الملك حين قتل فور ملكهم. وكتب بخبره إلى أرسطاطاليس وما شاهد منه من العجائب، فأجابه أرسطاطاليس بالرسالة المعروفة برسائل بيت الذهب.

وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة؛ فأما حمير وكهلان ابنا سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بأرض اليمن، فإنهم كانوا يؤرخون بملوكهم السالفة من

التبابعة وغيرهم، كملك تبّع الأكبر وتبع الأصغر وتبع ذي الأذعار وتبع ذي المنار. وأرّخوا بنار صوران وهي نار كانت تظهر ببعض الحرار من أقاصي بلاد اليمن، أحدها حر، والتي يقال إن الحبرين اللذين قدم بهما تبع أبو كرب من المدينة إلى اليمن حاكما أهل اليمن إليها، وكان ذلك سبب تهود كثير من أهل اليمن وذلك مشهور في أخبارهم. وأرّخوا بعث شعيب بن مهذم وملك ذي نواس وملك جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم الدوسي وملك آل أبي شمر من غسان بالشام، وأرّخوا بعام السيل وهو سيل العرم الذي ذكر الله عز وجل في القرآن وخروج عمرو بن مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس ابن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن مأرب جماع غسان في قومه من الأزد وغيرهم من كهلان وحمير وتفرقهم في البلاد، ثم أرّخوا بظهور الحبشة على اليمن ثم غلبت الفرس على اليمن، وإزالة الحبشة إلى أن جاء الله بالإسلام.

فأما تاريخ ولد معد بن عدنان فإنهم كانوا يؤرخون بغلبة جرهم العماليق وإخراجهم إياهم عن الحرم، ثم أرّخوا بهلاك جرهم في الحرم. ثم أرّخوا بعد ذلك بعام التفرق، وهو العام الذي افترق فيه ولد نزار بن معد بن عدنان من ربيعة ومضر وإياد وأنمار على ما في ذلك من التنازع في نسبة إياد وأنمار إلى نزار على ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب، ثم أرّخوا بعد ذلك بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين أحياء العرب وقبائلها التنازع والحروب، فاستبدلوا الديار وتنقلوا في المساكن.

وأرّخوا بحجة الغدر وكانت قبل الإسلام بنحو من مائة وخمسين سنة، وكان سببها أن أوسا وحصبة بني أزنم بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار خرجا في عدة من قومهما حجاجاً، فلقوا بأنصاب الحرم أناساً من اليمن معهم كسوة للكعبة ومال للسدنة حمل ذلك بعض ملوكهم، فقتلوهم وأخذوا ما كان معهم ودخلوا مكة. فلما كان في أيام منى فشا الخبر بالناس فوثب بهم وتحزب معهم قوم، فانتهبت الناس بعضهم بعضاً، فسميت حجة الغدر.

وأرّخوا بالحرب بين ابني وائل بكر وتغلب المعروفة بحرب البسوس وكان الذي هاجها قتل جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ابن علي بن بكر بن وائل كليباً، وهو وائل بن ربيعة بن الحارث لقتل كليب ناقة يقال لها سراب لجار

لخالة جساس وهي البسوس ابنة المنقذ التميمية ثم السعدية من قضاعة من بني حرم.

وأرّخوا بحرب بني بغيض بن ريث بن غطفان المعروفة بحرب داحس والغبراء، وذلك قبل البعث بنحو من ستين سنة. وبحرب الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة وهو العنقاء، وإنما سمي العنقاء لطول عنقه، ابن عمر وهو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف ابن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة البهلوان بن مازن بن الأزد، وهو درّا بن الغوث بن نبت بن ملك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهما أخوان لأب ولأم، نسبا إلى أمهما قيلة بنت جفنة بن عتبة بن عمرو، ونساب قضاعة يذكرون أنها قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن زيد بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة.

وأرّخوا بعام الخنان وهو عام شمل أكثر الناس فيه الخنان قال النابغة الجمدي:

فمن يك سائلاً عني فإني من الفتيان في عام الخنان

وذهب أبو جعفر محمد بن حبيب في آخرين إلى أنه سمي عام الخنان، أن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر هوزان كانت لهم وقعة مع بعض العرب. فلم يصل بعضهم إلى بعض من كثرة الحديد، فقال قائل «يا بني عامر خنوهم بالسيوف» فلقب ذلك عام الخنان.

قال المسعودي: وكانت كل قبيلة من قبائل العرب تؤرخ بيوم من أيامها المشهورة في حروبها. فكانت بكر وتغلب ابنا وائل بن قاسط بن هنب بن أمضى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار تؤرخ بعام التحالق إلى حرب البسوس أيام حروبها المنسوبات.

وفزارة وعبس ابنا بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان ابن مضر بن نزار يؤرخون بيوم الجبلة، وهو اليوم الذي ظهرت فيه عبس على فزارة وقتل حذيفة وحمل ابنا بدر وغيرهما.

وبنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان يؤرخون بيوم شعب جبلة، وكان قبل الإسلام بنيف وأربعين سنة بين بني عامر وأحلافها من عبس وبين من سار إليهم من تميم وعليهم حاجب ولقيط ابنا زرارة بن عدس بن زيد ابن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر ابن أد بن طابخة بن إلياس، وهو

خندق بن مضر بن نزار ومن عاضدهما من اليمن مع ابني الجون الكنديين المالكيين. وفي ذلك يقول جرير:

كأنك لم تشهد لقيطاً وحاجباً وعمرو بن عمرو إذ دعا يال دارم

ولم تشهد الجونين والشعب ذا الصفا وشدات قيس يوم دير الجماجم

وإياد تؤرخ بخروجها عن تهامة وحروبها مع فارس الحرب المعروفة بوقعة دير الجماجم، وبتلك الوقعة سمي الدير لكثرة الجماجم على السواد، وذلك في ملك سابور بن سابور ذي الأكتاف ملك فارس. وفي ذلك يقول الشاعر، شاعر إياد:

على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب إياد حولها الخيل والنعم

وقد ذكر ذلك أبو داود الإيادي فقال:

ألا أبلغ خزاعة أهل مر وإخوتهم كنانة عن إياد

تركنا دارهم لما ثرونا وكنا أهلها من عهد عاد

وأسهلنا وسهل الأرض يخشى بجرد الخيل مشنقه القياد

فنازعنا بني الأحرار حتى علفنا الخيل من خضر السواد

ثم أرّخوا بخروجهم عن العراق إلى الجزيرة حين أوقع بهم سابور، وكان لقيط الإيادي كتب إليهم وهو في حبس الملك ينذرهم ويحذرهم بقصيدته التي أولها:

يا دار عمرة من تذكارها الجزعا هيجت لي الهم والأحزان والوجعا

ألا تخافون قوماً لا أبا لكم أمسوا إليكم كأمثال الدبا سرعا

أحرار فارس أبناء الملوك لهم من الجموع جموع تلقط السلعا

ولذلك قال مرة بن محكان السعدي حين وجه معاوية عامر بن الحضرمي إلى البصرة، فنزل في تميم يدعوهم إلى أخذ البصرة والوثوب بزياد خليفة عبد الله بن عباس على البصرة، وقد سار ابن عباس إلى علي عليه السلام بالكوفة؛ فقال مرة مخوفاً لقومه زاجراً لهم:

قلت والليل مطبق بغراه أرقب النجم لا أحس رقادا

إن حيا يرى الصلاح فسادا ويرى الغي في الأمور رشادا

لقريب من الهلاك كما أهـ لك سابور بالعراق إيادا

في كلمة طويلة. ثم أرّخوا بعام الانتقال من ديارهم إلى بلد الروم وآخر من دخل منهم إلى هناك من أرض الجزيرة والموصل في خلافة عمر بن الخطاب نحواً من أربعين ألفاً كانوا على النصرانية وأنفوا من الجزية حين أخذوا بها.

وتميم تؤرخ بعام الكلاب وهي الحرب التي كانت بين ربيعة وتميم. وأسد وخزيمة تؤرخ بعام مأقط الذي قتلوا فيه الملك حجر بن الحارث بن عمرو آكل المرار الكندي أبى امرئ القيس. وفي ذلك يقول امرؤ القيس حين بلغه قتله:

أرقت لبرق بليل أهل بلوح سناه بأعلى الجبل

بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شيء سواه جلل

والأوس والخزرج ابنا حارثة تؤرخ بعام الآطام لما تحاربوا على الآطام، وهي الحصون والقصور. وذهب الأصمعي في آخرين من أهل اللغة إلى أنها الدور المسطحة لسقوف، وكانت الأوس والخزرج تتمنع بها فأخربت في أيام عثمان بن عفان ورسومها باقية إلى وقتنا هذا. قال قيس بن الخطيم بن عدي بن عمرو بن سواد ابن ظفر الأوسي بذكر الآطام في قصيدته التي يذكر فيها يوم بعاث وهو أحد الأيام المشهورة بين الأوس والخزرج أولها:

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب لعمرة وحشاً غير موقف راكب

وقال:

فلولا ذرى الآطام قد تعلمونه وترك الفضاشور كتم في الكواعب

وطيء وحليمة واسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان تؤرخ بعام الفساد، وهي الحرب التي كانت بين الغوص بن طيء وجديلة بن سعد بن فطرة بن طيء بجبلي طيء أجأ وسلمى وما يلي ذلك من السهل، دامت هذه الحرب بينهم ثلاثين ومائة سنة وفيها ولد ـ فيما ذكر الهيثم بن عدي الطائي ـ حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عدي بن أبي أخزم بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء، وأوس

بن حارثة بن لأم بن طريف من بني مازن بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيء، وزيد الخيل بن مهلهل بن زيد بن منهب بن عبد رضا بن المختلس بن ثوب بن كنانة بن عدي بن مالك بن نابل بن نبهان بن عمرو بن الغوص بن طيء، وقد ذكرنا حاتماً وكان اعتزل حربهم حين تطاولت ولحق ببني بدر بن عمرو بن جوية بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة فنزل عليهم وقال يمدحهم:

إن كنت كارهة لعيشتنا هاتي فحلي في بني بدر

جاورتهم زمن الفساد فنعم الحي في السراء والضر

وفي تلك الحروب تفرق السلميون من طيء فألحقوا بحاضر قنسرين من أعمال حلب إلى هذا الوقت. وخالطوا الأسباط وغيرهم وتزوجوا فيهم، ومن لزم جبلي طيء أجأ وسلمى يقال لهم الأجئيون.

ولم يزل من وصفنا من قبائل العرب يؤرخون بالأمور المشهورة من موت رؤسائهم ووقائع وحروب كانت بينهم إلى أن جاء الله بالإسلام، فأجمع المسلمون على التأريخ من الهجرة على ما نحن ذاكروه فيما يرد من هذا الكتاب في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد ذهب قوم من أصحاب السير والآثار إلى أن آدم لما هبط من الجنة وانتشر ولده أرخ بنوه من هبوطه، فكان ذلك هو التاريخ حتى بعث الله نوحاً. فأرّخوا من مبعثه حتى كان الطوفان، فكان التاريخ منه إلى نار إبراهيم. فلما كثر ولد إبراهيم افترقوا، فأرخ بنو إسحاق من نار إبراهيم إلى يوسف، ومن يوسف إلى مبعث موسى ومن مبعث موسى إلى ملك داود وسليمان، وما كان بعد ذلك من الكوائن والأحداث.

وأرّخ بنو إسماعيل من بناء البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل، فلم يزالوا يؤرخون بذلك حتى تفرقت معد. وكان كلما خرج قوم من تهامة أرخوا بخروجهم، ومن بقي بتهامة من بني إسماعيل يؤرخون بخروج آخر من خرج منها من قضاعة. وهم سعد ونهد وجهينة بنو زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة، حتى مات كعب بن لؤي فأرخوا من موته إلى الفيل. ومنهم من كان يؤرخ بيوم الفجار بين قريش وسائر كنانة بن لؤي، وبين قيس بن عيلان لما قتل البراص بن قيس بن رافع الضمري ضمرة بكر بن عبد مناة بن كنانة عروة الرحال بن جعفر بن كلاب واحتوى على اللطيمة التي

كانت معه معان بن المنذر، فاقتتلت قيس وكنانة قتالاً شديداً، فكان الظفر لكنانة على قيس.

وحضر هذا الفجار رسول الله صلى الله عليه وسلم وله عشرون سنة، وإنما سمي الفجار لأنهم تفاجروا فيها واقتتلوا في الأشهر الحرم وهو من أيام العرب المذكورة، وفي ذلك يقول خداش بن زهير العامري:

فلا توعدني بالفجار فإنه ... أحل ببطحاء الحجون المحارما

وقال في ذلك أبو أسماء الضريبة النصري نصر بن سعد بن بكر بن هوازن:

نحن كنا الملوك من أهل نجد ... وحماة الذمار عند الدمار

ومنعنا الحجاز في كل حي ... فمنعنا الفجار يوم الفجار

والفجار أربعة. الأول يعرف بفجار الرجل وهو بدر بن معشر الضمري، والثاني الفجار المعروف بالرياح وهو القِرْد، الثالث فجار المرأة القيسية، والرابع فجار البراض وهو أعظمها.

ومنهم من كان يؤرخ بحلف الفضول، وكان بعد منصرفهم من الفجار لأجل رجل من بني زبيد وجماع بني زبيد منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان باع سلعة له من العاص بن وائل السهمي، فدافعه بالثمن وعازّه، فلما آيس علا على أبي قيس فنادى:

يالـلرجال لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نأى الحي والنفر

إن الحرام لمن تمت حرامته ... ولا حرام لثوبي لابس الغدر

فاجتمعت بنو هاشم وبنو المطلب ابني عبد مناف وزهرة بن كلاب وتميم بن مرة وبنو الحارث بن فهر، فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي ليكونن مع المظلوم حتى ينصف، فسمته قريش حلف الفضول، وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب بن هاشم:

حلفت لنعقدن حلفاً علينا ... وإن كنا جميعاً أهل دار

نسميه الفضول إذا عقدنا ... يعز به الغريب لدى الجوار

ويعلم من حوالى البيت أنا ... أباة الضيم نهجر كل عار

قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد مهاجرته إلى المدينة «لقد شهدت حلفاً في دار عبد الله بن جدعان لو دعيت إلى مثله لأحببت وما زاده الإسلام إلا تشديداً».

فأما حلق المطيبين فهو قبل حلف الفضول. وكان سببه فيما ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب مناقب قريش وفضائلها، أن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي كان جعل إلى ابنه عبد الدار الحجابة ودار الندوة واللواء، وجعل إلى ابنه عبد مناف السقاية والرفادة. فلما كثرت بنو عبد مناف في الجاهلية قالوا: نحن أحق باللواء والحجابة والندوة من بني عبد الدار، فتفرقت عند ذلك قريش وعبد الله بن جدعان التيمي حي، وقال بعضهم: والله لا يرد أمر قصي. فنصرت بنو مخزوم وجمح وسهم وعدي بني عبد الدار، وتحالفوا عند الكعبة، فسموا الأحلاف. فلما رأت ذلك بنو عبد مناف حالفوا بني أسد بني أسد بن عبد العزى وبني زهرة بن كلاب وبني تميم بن مرة وبني الحارث بن فهر، فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان، وجاءهم عبد الله بآنية فيها طيب فغمسوا أيديهم فيها، ويقال أخرج إليهم الطيب إحدى بنات عبد المطلب، ويقال إنهم وضعوا الطيب في المسجد وغمسوا أيديهم فيه ثم مسحوا الكعبة، وتحالفوا أن لا يسلم بعضهم بعضاً، فسموا المطيبين فحصلت خمس قبائل بإزاء خمس، فسموا أولئك الأحلاف، وهؤلاء المطيبين. قال عمر بن أبي ربيعة المخزومي، ويقال عبيد الله بن قيس الرقيات، يذكر المطيبين والأحلاف:

ولها في المطيبين جدود ... ثم نالت ذوائب الأحلاف

إنها بين عامر بن لؤي ... حين تدعى وبين عبد مناف

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش تؤرخ بموت هشام بن المغيرة المخزومي والفيل.

وقد ذكر للإبراهيميين تواريخ كثيرة منها التاريخ بوفاة إبراهيم ثم بوفاة إسحاق.

وفي الإسماعيليين من كان يؤرج بوفاة إسماعيل وغير ذلك مما قدمنا فيما سلف من كتبنا شرحه.

فكان من آدم إلى الطوفان فيما ذكر أهل الكتب ألفان ومائتان واثنتان وأربعون سنة، ومن الطوفان إلى تبلبل الألسن بأرض بابل ستمائة وسبعون سنة، ومن تبلبل الألسن إلى ولادة إبراهيم أربعمائة وإحدى عشرة سنة، ومن ولادة إبراهيم إلى وفاة موسى عليه

السلام خمسمائة وخمس وأربعون سنة، ومن وفاة موسى إلى ابتداء ملك بخت نصر تسعمائة وثمان وسبعون سنة ومائتان وسنة وأربعون يوماً، ومن ابتداء ملكه إلى أن ظهر على بني إسرائيل فسباهم إلى بابل إحدى وثلاثون سنة وأربعة وثلاثون يوماً، فمن وفاة موسى إلى سبي بخت نصر لبني إسرائيل إلى ولادة المسيح عليه السلام تسعمائة سنة وثمان سنين وسبعة وثلاثون يوماً، ومن ولادة المسيح إلى هجرة نبينا صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة وتسع وعشرون سنة وثلاثمائة وأحد وستون يوماً، فذلك سبعة آلاف سنة وثلاثمائة وثلاث وعشرون سنة وأحد عشر شهراً وعشرة أيام.

وذهب آخرون من أصحاب التواريخ إلى أن من آدم إلى ابتداء ملك بخت نصر أربعة آلاف وثمانمائة سنة وأربعين سنة ومائتين وثمانية وأربعين يوماً بالسنين الفارسية التي هي ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع، ومن ابتداء ملك بخت نصر إلى غلبة الإسكندر لدارا بن دارا أربعمائة وتسع وعشرون سنة وثلاثمائة وتسعة وعشرون يوماً، ومن غلبة الإسكندر إلى قيام أردشير بن بابك خمسمائة سنة وإحدى عشرة سنة ومائتان وستة وستون يوماً، وهذه هي مدة ملوك الطوائف عند هؤلاء، ومن قيام أردشير إلى ابتداء تاريخ يزدجرد أربعمائة وسبع وثلاثون سنة وثمانية وعشرون يوماً. فمن آدم عليه السلام إلى ابتداء ملك يزدجرد ستة آلاف سنة ومائتان وخمس وعشرون سنة وثلاثمائة وثمانية وثلاثون يوماً الباقي إلى تمام سبعة آلاف سنة للعالم سبعمائة سنة وأربع وسبعون سنة وستة وعشرون يوماً.

وجملة السنين من هبوط آدم عليه السلام من الجنة إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم على ما توجبه التوراة التي نقلها لأبطليموس الملك إلى اللغة اليونانية اثنان وسبعون حبراً من أحبار اليهود بالإسكندرية من أرض مصر، وأجمعوا على صحتها على ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب، في أخبار ملوك اليونانيين ستة آلاف سنة ومائتان وست عشرة سنة.

وبين هذه السنين وما يوجبه حساب التوراة العبرانية تفاوت كثير. وكذلك نسخة التوراة التي بأيدي السامرة، وهم الكوشان والدوستان من اليهود بأرض فلسطين والأردن بينها وبين هاتين أيضاً تفاوت بعيد، وقد ذكر عدة من مستأخري أصحاب السير والتواريخ أن من آدم إلى نوح ألفي سنة ومائتي سنة، ومن نوح إلى إبراهيم ألف سنة ومائة سنة وثلاثاً وأربعين سنة، ومن إبراهيم إلى موسى خمسمائة سنة وخمساً وسبعين سنة، ومن

موسى إلى داود خمسمائة سنة وسبع سنين، ومن داود إلى عيسى ألف سنة وثلاثاً وخمسين سنة. ومن عيسى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة.

قال المسعودي: وفيما ذكرنا تنازع كثير بين الأسلاف والأخلاف من الأمم ومن عني بتواريخ الأنبياء والملوك، وقد أتينا على جميع ما قيل في ذلك في كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وفي كتاب (فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف) وفي كتاب (الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار) وغيره، وإنما نذكر في هذا المختصر لمعاً وجوامع استذكاراً لما تقدم من كتبنا.

فلنذكر سني الأمم الشمسية والقمرية وشهورها وكبسها ونسيئها، لاتصال ذلك بما ذكرناه والحاجة الداعية إلى معرفته.

وكان(*) فراغ علي بن الحسين بن علي المسعودي من تأليف هذا الكتاب بفسطاط مصر سنة ٣٤٥ للهجرة في خلافة المطيع. والملك على الروم قسطنطين بن لاون بن بسيل، وهي سنة ١٧٠٢ لبختنصر، وسنة ١٢٦٨ للإسكندر بن فيلبس الرومي، وسنة ٦٧٣ لأردشير بن بابك، وسنة ٣٢٤ ليزدجرد بن شهريار بن كسرى ابرويز، آخر ملوك فارس، والله ولي التوفيق.

(*) التنبيه والإشراف، ٣٤٨.

٥

ذكر الأمم السبع في سالف الزمان(*)

قد قدّمنا فيما سلف من كتبنا ما قاله الناس في بدء النسل، وتفرقهم على وجه الأرض، وما ذهب إليه كل فريق منهم في ذلك من الشريعيين ممن قال بحدوث العالم وأبى الانقياد إلى الشرائع من البراهمة وغيرهم، وما قاله أصحاب القدم في ذلك من الهند والفلاسفة وأصحاب الاثنين من المانوية وغيرهم على تباينهم في ذلك، فلنذكر الآن الأمم السبع. ذهب من عني بأخبار سوالف الأمم ومساكنهم إلى أن أجل الأمم وعظماءهم كانوا في سوالف الدهر سبعاً يتميزون بثلاثة أشياء: بشيمهم الطبيعية، وخلقهم الطبيعية، وألسنتهم.

فالفرس أمة حد بلادها الجبال من الماهات وغيرها وآذربيجان إلى ما يلي بلاد أرمينية وأرّان والبيلقان إلى دربند وهو الباب والأبواب والري وطبرستان والمسقط والشابران وجرجان وأبرشهر، وهي نيسابور، وهراة ومرو وغير ذلك من بلاد خراسان وسجستان وكرمان وفارس والأهواز، وما اتصل بذلك من أرض الأعاجم في هذا الوقت. وكل هذه البلاد كانت مملكة واحدة ملكها ملك واحد ولسانها واحد، إلا أنهم كانوا يتباينون في شيء يسير من اللغات.

وذلك أن اللغة إنما تكون واحدة بأن تكون حروفها التي تكتب واحدة وتأليف حروفها تأليف واحد، وإن اختلفت بعد ذلك في سائر الأشياء الأخر كالفهلوية والدرية والآذرية وغيرها من لغات الفرس.

(*) التنبيه والإشراف، ٦٧ ـ ٧٤.

الأمة الثانية: الكلدانيون وهم السريانيون، وقد ذكروا في التوراة بقوله عز وجل لإبراهيم: «أنا الرب الذي أنجيتك من نار الكلدانيين لأجعل هذه البلاد لك ميراثاً». وذكرهم أرسطاطاليس في كتابه الذي رسمه بسياسة المدن وهو كتاب ذكر فيه سياسة أمم ومدن كثيرة من أمم ومدن اليونانيين وغيرها ويسمى باليونانية «بوليطيا»، وعدد الأمم والمدن التي ذكر مائة وسبعون وفي غيره من كتبه وأبطليموس وغيرهما بهذا الاسم، أعني الكلدانيين.

وكانت دار مملكتهم العظمى مدينة كلواذي من أرض العراق. وإليها ضيفوا، وكانوا شعوباً وقبائل منهم النونويون والأثوريون والأرمان الأردوان والجرامقة ونبط العراق وأهل السواد. وقيل إنما سموا نبطاً لأنهم من ولد نبيط بن باسور بن سام بن نوح، وقيل إنما سموا بذلك لاستنباطهم لأرضين والمياه، وقيل لمعان غير ذلك. وقيل إن الأرمان إنما سموا بذلك لأن عاداً لما هلكت قيل ثمود إرم؛ فلما هلكت ثمود وقيل لبقايا إرم أرمان وهم النبط الأرمانيون، وكذلك ذكر ابن الكلي وغيره من علماء العرب بأخبار سوالف الأمم.

وكانت بلاد الكلدانيين العراق وديار ربيعة وديار مضر والشأم وبلاد العرب اليوم وبرها ومدرها اليمن وتهامة والحجاز واليمامة والعروض والبحرين والشحر وحضرموت وعمان، وبرها الذي يلي العراق وبرها الذي يلي الشأم. وهذه جزيرة العرب كانت كلها مملكة واحدة يملكها ملك واحد ولسانها واحد سرياني وهو اللسان الأول لسان آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء فيما ذكر أهل الكتب.

وإنما تختلف لغات هذه الشعوب من السريانيين اختلافاً يسيراً على حسب ما ذكرنا من حال الفرس، والعبرانية منها. والعربية أقرب اللغات بعد العبرانية إلى السريانية، وليس التفاوت بينهما بالكثير. وقيل إن أول من تكلم بالعبرانية إبراهيم الخليل عليه السلام بعد أن خرج من قريته المعروفة بأوركشد من بلاد كوثى من خنيرث وهو إقليم بابل وصار إلى حران من أرض الجزيرة وعبر الفرات في من كان معه إلى الشأم، فتكلم بها، فسميت العبرانية لحدوثها عند عبوره، إضافة إلى العبر. وبها أنزلت التوراة. غير أن للإسرائيليين بالعراق لغة سريانية تعرف بالترجوم يفسرون بها التوراة من العبرانية الأولى لوضوحها عندهم وقرب مأخذها، ولفصاحة العبرانية وتعذر فهمها على كثير منهم.

ولا تنازع بين النزارية وهم ربيعة ومضر الصريحان من ولد إسماعيل وإياد وأنمار على ما

فيهما من التنازع بنو نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن مقوم بن ناخور بن تيرخ بن يعرب بن يشجب بن نابت بن قيذار بن إسماعيل ابن إبراهيم. وقيل إنه نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن يامر بن يشجب بن يعرب بن الهيسع بن صابوح بن نابت بن قيذار بن إسماعيل، وبين اليمانية وهم حمير وكهلان ابنا سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح وغيرهم من جرهم وحضرموت ابني عابر.

وبين الإسرائيليين وغيرهم أن إبراهيم الخليل كان سرياني اللسان وأنه إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناخور بن ساروغ بن ارعوا بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم يجتمع مع اليمانية في عابر.

وأكثر نساب اليمانية وذوو المعرفة منهم يذهبون إلى أن أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان، وأنه إنما سمي بذلك لإعرابه عن المعاني، وأن لسان قحطان لم يكن عربياً بل على اللسان الأول لسان سام بن نوح وغيرهم، وأن إسماعيل بن إبراهيم إنما تكلم بالعربية حين نشأ في العماليق ولد عملاق بن لاود ابن إرم بن سام بن نوح وجرهم مع هاجر بمكة. ولا خلاف أيضاً بين النزارية وهم ولد إسماعيل بن إبراهيم، وبين الإسرائيليين وهم بنو إسحاق بن إبراهيم، أن إبراهيم لم يكن عربياً ولا إسحاق ابنه وأن ابنه إسماعيل أول من نطق بالعربية ونطق بها. ولا خلاف بين الجميع من النزارية واليمانية في أن هوداً وصالحاً كانا عربيين أرسلا إلى عاد وثمود وأنهما قبل إبراهيم الخليل، وإن لم يكن لهما ذكر في التوراة.

قال المسعودي: وقد ذهب فريق من أخباريي اليمانية ونسابهم ممن تقدّم وغبر إلى أن الملك أفضى بعد عاد إلى يقطن، وهو قحطان بن عابر، واستشهدوا بقول علقمة ذي جدن:

وملك قحطان ملك عاد وسوف تفنيهم الخطوب

ومنهم من رأى أنه قحطان بن هود بن عبد الله بن الخلود بن عاد بن عوض ابن إرم بن سام بن نوح واسمه في التوراة الجبار بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، واحتجوا لذلك بقول الشاعر:

وأبو قحطان هو ذو الحقف

ومنهم من ذهب إلى أن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشد. ونساب ولد نزار بن معد، وبعض اليمانية كهشام بن محمد بن السائب الكلبي، والشرقي ابن القطامي، ونصر بن مزروع الكلبي، وغيرهم ـ يقولون: قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن إسماعيل بن إبراهيم. ويحتجون لذلك بما رواه الهيثم بن عدي الطائي، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على فتية من الأنصار يتناضلون فقال: ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا فأنا مع ابن الأدرع (رجل من خزاعة)، فألقى القوم نبالهم وقالوا: يا رسول الله من كنت معه فقد تضل، فقال: ارموا وأنا معكم جميعاً.

وسائر اليمانية تأبى ذلك وتذهب إلى أن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح على ما قدمنا، ويقولون هذا من أخبار الآحاد، وليس من الأخبار المتواترة، القاطعة للعذر، الموجبة للعلم والعمل. ولو صح لكان معنى قوله صلى الله عليه وسلم: ارموا يا بني إسماعيل على الأمهات من ولد إسماعيل، وقد أخبر الله عزّ وجل عن المسيح أنه من ذرية آدم مع إخباره أنه خلق من غير أب ولو أخرجه مخرج من ولد آدم لأنه لا أب له لكان كاذباً. وإنما نسب إلى آدم من جهة أمه، والقوم أعرف بأنسابهم، ينقله الباقي عن الماضي قولاً وعملاً موزوناً إنهم من ولد قحطان بن عابر لا يعرفون غير ذلك.

ومنهم من رأى أن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أقدم من عاد، واحتجوا بقول الخلجان بن الوهم وكان من ملوك عاد وكان جنادة بن الأصم العادي رأى في منامه أن وفد عاد إلى الحرم فهلكوا، فبلغ ذلك الخلجان فقال:

أفي كل عام بدعة تحدثونها ... ورؤيا على غير الطريق تعبر

فإن لعاد سنة يحفظونها ... سنحيا عليها ما حيينا ونقبر

وإنا لنخزي من أمور تسبنا ... بها جرهم فيمن يسب وحمير

وأخبار حمير وكهلان أخبار قديمة سلفت كثيراً من الأمم الماضية، وتقادم بها الدهر، وترادفت عليها الألوف من السنين، وقال الناس في ذلك فأكثروا وإنما يرجع في أكثر من ذلك إلى عبيد بن شرية الجرهمي ورواة أهل الحيرة وغيرهم.

والكلام بين اليمانية والنزارية يكثر والخطوب تطول، وهو باب كبير، والكلام فيه كثير. ومن ضَمن الاختصار، لم يجز له الإكثار. وقد بسطنا الكلام فيه وأتينا على أكثر ما قيل في ذلك، وحجاج الفريقين، وافتخار بعضهم على بعض منثوراً ومنظوماً، وغير ذلك في كتاب (فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف) وفي كتاب (الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار) وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً جوامع، ننبه بها على ما قدمنا ونشرف بها على ما سلف من كتبنا إذ كان مبنياً عليها وسلما إليها.

والأمة الثالثة: اليونانيون والروم والصقالبة والإفرنجة، ومن اتصل بهم من الأمم في الجربى وهو الشمال، كانت لغتهم واحدة، ويملكهم ملك واحد.

والأمة الرابعة: لوبية منها مصر، وما اتصل بذلك من التيمن وهو الجنوب وأرض المغرب إلى بحر أوقيانس المحيط لغتهم واحدة، ويملكهم ملك واحد.

والأمة الخامسة: أجناس من الترك الجرلخية، والغز وكيماك، والطغزغز، والخزر، ويدعون بالتركية «سبير» وبالفارسية «خزران»، وهم جنس من الترك حاضرة فعرف اسمهم فقيل «الخزر» وغيرهم. لغتهم واحدة، وملكهم واحد.

والأمة السادسة: أجناس الهند والسند، وما اتصل بذلك، لغتهم واحدة، وملكهم واحد.

والأمة السابعة: الصين والسيلى، وما اتصل بذلك من مساكن ولد عامور بن يافث بن نوح، ملكهم واحد، ولغتهم واحدة.

ثم كثر النسل، وتجيلت الأجيال، وتشعيت الشعوب والقبائل، وافترقت اللغات وتفرعت، وتجنست الأمم وتنوعت، وتباينوا في الآراء والعبادات والمساكن والمناسك. فهذه الأمم السبع كانت متميزة بعضها من بعض. لكل أمة منها ملك على حياله قد جمعهم عبادة الأصنام، كل أمة منها يعظمون أصناماً، جعلوها مثالاً لآلهة غير الآلهة التي كان يجل مثلها غيرهم من الأمم تمثيلاً بما علا من الجواهر العلوية، والأجسام السمائية التي هي الأشخاص الفلكية من السبعة: النيرين، وهما الشمس والقمر والخمسة وهي زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد وغيرها من ذوات التأثير في هذا العالم الأرضي.

وكانت شرائع كل أمة بحسب مناسكهم، وحسب الجهات التي منها معايشهم،

وشيمهم الطبيعية التي فطروا عليها، ومن يجاورهم من سائر الأمم.

قال المسعودي: وقد ذكرنا في (كتاب الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار) الذي كتابنا هذا تالٍ له ومبني عليه ـ الاجتماعات السبعة المشهورة لحكماء هؤلاء الأمم السبع في سالف الدهر، اجتمع في كل مجمع منها سبعة حكماء في أعصار مختلفة، وأوقات متباينة عند حوادث وأحوال أوجبت اجتماعهم، فجرى لهم فنون من البحث والنظر، وضروب من الحكم والعبر، بما يحدث في الدهر من الغير، بتنقل الدول وتغير الملل، والكلام في العالم ما هو، وكيف هو، ولما هو، وما علّته ومعلوله وظاهره وباطنه، وحقائقه واختراع الأجسام وإنشائها، وإلى ماذا يؤول هو بعد فنائها؟ وغير ذلك من فنون الفحص، وضروب البحث.

في ذكر أهل الفترة
ممن كان بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلّم(*)

قال المسعودي: وقد كان بين المسيح ومحمد صلعم في الفترة جماعة من أهل التوحيد وممن يُقرّ بالبعث؛ وقد اختلف الناس فيهم: فمن الناس من رأى أن منهم أنبياء، ومنهم من رأى غير ذلك؛ فممن ذُكر أنه نبي: حنظَلة بن صفْوان، وكان من ولْد إسماعيل بن إبراهيم الخليل وأُرسل إلى أصحاب الرس، وكانوا من ولْد إسماعيل؛ وهم قبيلتان، يقال لإحداهما قدمان والأخرى يامِن، وقيل رعويل (رعوائيل)، وذلك باليمن، فقام فيهم حنظلة بن صفوان بأمر الله فقتلوه.

فأوحى الله إلى نبي من بني إسرائيل من سِبط يهودا أن يأمر البُخت نصّر بأن يسير إليهم؛ فسار إليهم فأتى عليهم؛ فذلك قول الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿فلَمّا أحسُّوا بَأْسَنا إذَا هُمْ مِنها يرْكُضونَ﴾ إلى قوله: ﴿جعَلْنَاهُم حَصِيداً خَامِدينَ﴾؛ وقيل إن القوم كانوا من حِمير، وقد ذكر ذلك بعض شعرائهم في مرثيته لهم، فقال:

بكت عيني لأهل الرّ ... سّ رعويل وقدمانِ
وأسلم من أبي درع ... نكال الحيّ قحطانِ

وذكر عن وَهب بن مُنبّه أن ذا القرنين، وهو الإسكندر، كان بعد المسيح في الفترة،

(*) مروج الذهب، الفقرات ١٢٢ ـ ١٥١.

وأنه كان حلم حلماً رأى فيه أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها؛ فقص رؤياه على قومه، فسموه: ذا القرنين؛ وللناس في ذي القرنين تنازع كثير قد أتينا على ذلك في كتاب أخبار الزمان وفي الكتاب الأوسط؛ وسنذكر لُمعاً من خبره عند ذكرنا الملوك اليونانيين والروم.

وكذلك تنازع الناس في أصحاب الكهف في أي الأعصار كانوا: فمنهم من زعم أنهم كانوا في الفترة، ومنهم من رأى غير ذلك؛ وسنأتي بلمع من أخبارهم في ذكرنا ملوك الروم في هذا الكتاب، وإن كنا قد أتينا على ذلك في الكتاب الأوسط وفيما سلف قبله من كتاب أخبار الزمان.

وممن كان في الفترة بعد المسيح جرجيس وقد أدرك بعض الحواريين فأرسله الله إلى بعض ملوك الموصل يدعوه إلى الله، فقتله وأحياه الله وبعثه إليه ثانية، فقتله فأحياه الله، فأمر بنشره في الثالثة وإحراقه وإذرائه في دجلة: فأهلك الله ذلك الملك وجميع أهل المملكة ممن اتبعه، على حسب ما وردت به الأخبار عن أهل الكتاب ممن آمن، وذلك موجود في كتب المبتدأ والسير لوهب ابن منبّه وغيره.

وممن كان في الفترة حبيب النجار وكان يسكن بمدينة أنطاكية من أرض الشام، وكان بها ملك متجبّر يعبد التماثيل والصور، فسار إليه اثنان من تلاميذ المسيح يدعوانه إلى الله، فحبسهما وضربهما فعززهما الله ﴿بثَالِثٍ﴾؛ وقد تنوزع فيه: فذهب كثير من الناس إلى أنه بطرس ــ هذا اسمه بالروميّة، واسمه بالعربية سمعان، وبالسريانية شمعون الصفا ــ وذهب كثير من الناس وإليه ذهب سائر فرق النصرانية أن الثالث المعزّز به هو بُولس وأن الاثنين المتقدّمين اللذين أودعا الحبس هما توما وبطرس؛ فكان لهم مع ذلك الملك خطب طويل فيما أظهروا من الإعجاز والبراهين من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت، وحيلة بولس عليه بمداخلته إياه وتلطفه له واستنقاذ صاحبيه من الحبس.

فجاء حبيب النجار فصدقهم لما رأى من آيات الله؛ وقد أخبر الله بذلك من أمرهم في كتابه بقوله: ﴿إذْ أرْسَلنا إليْهِمُ اثنَينِ فكذَّبوهُما فَعَزّزنَا بثالِثٍ﴾ إلى قوله: ﴿رجُلٌ يسْعَى﴾؛ وقُتل بطرس وبولس بمدينة رومية وصلبا منكوسين وكان لهما فيها خبر طويل مع الملك ومع سيما الساحر؛ ثم جعلا بعد ذلك في أجرِنة مِن البلور، وذلك بعد ظهور دين النصرانية وحرمهما في كنيسة هنالك قد ذكرنا في الكتاب الأوسط عند ذكرنا

لعجائب رومية وأخبار تلاميذ المسيح وتفرُّقهم في البلاد؛ وسنورد في هذا الكتاب لُمعاً من أخبارهم.

فأما أصحاب الأخدود، فكانوا في الفترة في مدينة نجران اليمن في ملك ذي نواس، وهو القاتل لذي شَناتِر، وكان على دين اليهودية؛ فبلغه أن قوماً بنجران على دين المسيح، فسار إليهم بنفسه فاحتفر لهم أخاديد، في الأرض وملأها جمراً وأضرمها ناراً، ثم عرضهم على اليهودية: فمن اتبعه تركه، ومن أبى قذفه في النار؛ فأتي بامرأة معها طفل ابن سبعة أشهر، فأبت أن تتخلى عن دينها فأُدنيت من النار فجزعت؛ فأنطق الله الطفل، فقال: «يا أمي امضي على دينك، فلا نار بعد هذه»؛ فألقاهما في النار؛ وكانوا مؤمنين موحدين، لا على دين النصرانية في هذا الوقت.

فمضى رجل منهم يقال له ذو ثعلبان إلى قيصر ملك الروم يستنجده؛ فكتب له إلى النجاشي لأنه كان أقرب إليهم داراً؛ فكان من أمر الحبشة وعبورهم إلى أرض اليمن وتغلّبهم عليها إلى أن كان من أمر سيف بن ذي يزن واستنجاده الملوك إلى أن أنجده أنوشِروان ما قد أتينا على ذكره في كتاب أخبار الزمان وفي الكتاب الأوسط؛ وسنذكر لُمعاً من ذلك في موضعه إن شاء الله فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا لأخبار الأذواء وملوك اليمن؛ وقد ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ في كتابه قصة أصحاب الأخدود بقوله: ﴿قُتِل أصْحَابُ الأخدود﴾ إلى قوله: ﴿العزيزِ الحميدِ﴾.

وممن كان في الفترة خالد بن سِنان العبسي، وهو خالد بن سنان بن غيث بن عبس، وقد ذكره النبي صلعم فقال: «ذلك نبي أضاعه قومه»؛ وذلك أن ناراً ظهرت في العرب فافتتنوا بها، وكانت تنتقل، فكادت العرب أن تتمجس وتغلب عليها المجوسية، فأخذ خالد بهراوة ودخلها وهو يقول: «بدا بدا كل هدى مؤدٍّ إلى الله الأعلى لأدخلنّها وهي تتلظّى ولأخرجنّ منها وثيابي تندا»، فأطفأها؛ فلما حضرته الوفاة قال لإخوته: «إذا دُفنت فإنه ستجيء عانة من حِمير يقدمها عير أبتر، فيضرب قبري بحافره؛ فإذا رأيتم فانبشوا عني، فإني سأخرج إليكم فأخبركم بجميع ما هو كائن [بعد الموت وأحوال البرزخ والقبر]».

فلما مات ودفنوه، رأوا ما قال وأرادوا أن يخرجوه، فكره ذلك بعضهم وقالوا: «نخاف أن تسّبنا العرب بأنّا نبشنا ميّتاً لنا»؛ وأتت ابنته رسول الله فسمعته يقرأ: ﴿قُلْ هوَ اللهُ أحَدٌ اللهُ الصّمدُ﴾، فقالت: «كان أبي يقول هذا»؛ وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب

لمعاً من أخباره مما تدعو الحاجة إليه وإلى ذكره.

قال المسعودي: وممن كان في الفترة رئاب الشنّي وكان من عبد قيس ثم من شن، وكان على دين المسيح قبل مبعث رسول الله صلعم؛ فسمعوا منادياً ينادي من السماء قبل مبعث النبي: «خير أهل الأرض ثلاثة: رئاب الشنّي وبحِيرا الراهب ورجل آخر لم يأت بعد»، يعني النبي عم؛ وكان لا يموت أحد من ولد رئاب [فيدفن] إلا رأوا طشّاً على قبره.

ومنهم أسعد أبو كرب الحميري، وكان مؤمناً وآمن بالنبي صلعم قبل مبعثه بسبعمائة سنة، وقال:

شهدتُ على أحمدٍ أنهُ ... رسولٌ من الله باري النسمْ

فلو مُدّ عمري إلى عمرهِ ... لكنتُ وزيراً له وابن عمْ

[وأُلزم طاعته كل من ... على الأرض من عرب وعجمْ]

وهو أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود، ولذلك يقول بعض حمير:

وكسونا البيت الذي حرّم اللهُ ... ملاءً معضداً وبرودا

ومنهم قس بن ساعدة الإيادي من إياد بن نزار بن معد، وكان حكم العرب وكان مُقراً بالبعث؛ وهو الذي يقول: «من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آتٍ آتٍ»؛ وقد ضربت العرب بحكمته وعلمه الأمثال؛ قال الأعشى:

وأحكم من قس وأجرى من الذي ... بذي الغيل من خفّان أصبح داثرا

وقدم وفد من إياد على النبي صلعم فسألهم عنه، فقالوا: «هلك» ــ فقال: «رحمه الله كأنني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر وهو يقول: «أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا: من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ؛ أما بعد فإن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً: بحور تمور ونجوم تغور وسقف مرفوع ومهاد موضوع! أقسم بالله قسماً إن لله ديناً أرضى من دين أنتم عليه! ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا؟ سبيل مؤتلف وعمل مختلف»، وقال أبياتاً لا أحفظها.

فقام أبو بكر الصديق، فقال: «أنا أحفظها يا رسول الله» ــ فقال: «هاتها» ــ فقال:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائرْ
لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادِرْ
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأصاغر والأكابرْ
لا يرجع الماضي ولا ... يبقى من الباقين غابرْ
أيقنت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائرْ

فقال رسول الله صلعم: «رحم الله قسّاً! إنني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده!». ـ قال المسعودي: ولقس أشعار كثيرة وحكم وأخبار تبصُّر في الطب والزجر والفأل وأنواع الحِكم، وقد ذكرنا ذلك في كتابنا في أخبار الزمان وفي الكتاب الأوسط.

وممن كان في الفترة زيد بن عمرو بن نُفيل ـ أبو سعيد بن زيد أحد العشرة وهو ابن عم عمر بن الخطاب لحاً ـ وقد كان زيد رغب عن عبادة الأصنام وعابها؛ فأولع به عمه الخطاب سفهاء مكة وسلطهم عليه؛ فآذوه، فسكن كهفاً بحراء، وكان يدخل مكة سراً، وسار إلى الشام يبحث عن الدين، فسمته النصارى ومات بالشام، وله خبر طويل مع الملك والترجمان ومع بعض ملوك غسان بدمشق، قد أتينا عليه فيما سلف من كتبنا.

ومنهم أمية بن أبي الصلْت الثقفي، وكان شاعراً عاقلاً، وكان يتّجر إلى الشام فيلقى أهل الكنائس من اليهود والنصارى ويقرأ الكتب، وكان قد علم أن نبياً سيبعث في العرب؛ فكان يقول أشعاراً على آراء أهل الديانة يصف فيها السموات والأرض والشمس والقمر والملائكة والأنبياء ويذكر البعث والنشور والجنة والنار ويعظم الله وحده؛ ممن ذلك قوله:

الحمدُ لله لا شريك له ... من لم يقلها فنفسَه ظلما

ووصف أهل الجنة في بعض كلماته فقال:

فلا لغوٌ ولا تأثيم فيها ... وما فاهوا به لهم مقيمُ

ولما بلغه ظهور النبي صلعم اغتاظ لذلك وتأسف وأتى المدينة ليسلم، فرده الجسد، ورجع إلى الطائف؛ فبينما هو ذات يوم مع فتية يشرب إذ وقع غراب فنعب ثلاثة أصوات وطار؛ فقال أمية: «أتدرون ما قال؟» قالوا: «لا» ـ قال: «فإنه يقول إن أمية لا

يشرب الكأس الثالثة حتى يموت» ـ فقال القوم: «لنكذّبن قوله!» ثم قال: «اجسوا كأسكم»؛ فحسوها، فلما انتهت الكاس الثالثة إلى أمية أغمي عليه فسكت طويلاً ثم أفاق وهو يقول:

لبيكما لبيكما ... ها أناذا لديكما

أنا من حفت به النعمة ولم يجهد بالشكر:

إن تغفر اللهم تغفر جمّا ... وأيُّ عبد لك لا ألمّا

ثم قال: «أنا من حفّت به النعم والحمد ولم يجهد بالشكر»؛ ثم أنشأ يقول:

إن يوم الحساب يومٌ عظيمٌ ... شاب فيه الصغير شيباً طويلا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ... في رؤوس الجبال أرعى الوعولا

كل عيشٍ وإن تطاول دهراً ... صائرٌ مدةً إلى أن يزولا

ثم شهق شهقة فكانت فيها نفسه.

قال المسعودي: وقد ذكر جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس وأخبار من سلف كابن دأب والهيثم بن عدي وأبي مخنف لوط بن يحيى ومحمد بن السائب أن السبب في كتابة قريش واستفتاحها في أول كتبها «باسمك اللهم» هو أن أمية بن أبي الصلت الثقفي خرج إلى الشام في نفر من ثقيف وقريش في عير لهم؛ فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلاً واجتمعوا لعشائهم، إذ أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم؛ فحصبها بعضهم بشيء في وجهها فرجعت، وشدوا سفرتهم ثم قاموا فشدوا على إبلهم وارتحلوا من منزلهم؛ فلما برزوا عن المنزل أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصا لها؛ فقالت: «ما منعكم أن تطعموا رحيمة الجارية المسكينة التي جاءتكم عشية؟» ـ قالوا: «ومن أنت؟» ـ قالت: «أم العوّام، أوتمت منذ أعوام أما ورب العباد لتفرقن في البلاد»، ثم ضربت بعصاها الأرض فأثارت بها الرمل وقالت: «أطيلي إيابهم ونفّري ركابهم»؛ فوثبت الإبل كأن على ذروة كل بعير منها شيطاناً، ما نملك منها شيئاً حتى افترقت في البوادي؛ فجمعناها من آخر النهار إلى غد ولم نكد؛ فلما أنحناها لنرحلها طلعت علينا العجوز فعادت بالعصا كفعلها أولاً وعادت بمقالتها: «ما منعكم أن تطعموا رحيمة الجارية اليتيمة؟ ألا أطيلي إيابهم ونفّري ركابهم»؛ فخرجت الإبل ما نملك منها

شيئاً فجمعناها من آخر النهار إلى غد ولم نكد؛ فلما أنحناها لنرحلها طلعت علينا العجوز ففعلت مثل فعلها في الأولى والثانية، فنفرت الإبل وأمسينا في ليلة مقمرة ويئسنا من ظهورنا؛ فقلنا لأمية بن أبي الصلت: «أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك؟».

فتوجه إلى ذلك الكثيب الذي كانت تأتي منه العجوز حتى هبط من ناحية أخرى، ثم صعد كثيباً آخر حتى هبط منه، ثم رفعت له كنيسة فيها قناديل، وإذا رجل جالس أبيض الرأس واللحية، قال أمية: فلما وقفت عليها رفع رأسه إليّ وقال: «إنك المتبوع؟» ــ قلت: «أجل» ــ قال: «فمن أين يأتيك صاحبك؟» ــ قلت: «من أذني اليسرى» ــ قال: «فبأي الثياب يأمرك؟» ــ قلت: «بالسواد» ــ قال: «هذا خطب الجن كدت ولم تفعل ولكن صاحب هذا الأمر يكلمه في أذنه اليمنى، وأحب الثياب إليه البياض؛ فما جاء بك وما حاجتك؟» فحدثته حديث العجوز فقال: «صدقت وليست بصادقة؛ هي امرأة يهودية هلك زوجها منذ أعوام، وإنها لن تزال تصنع ذلك بكم حتى تهلككم إن استطاعت» ــ قال أمية: «فما الحيلة؟» ــ قال: «اجمعوا ظهوركم، فإذا جاءتكم ففعلت كما كانت تفعل فقولوا سبعاً من فوق وسبعاً من أسفل: «باسمك اللهم»، فإنها لن تضركم».

فرجع أمية إلى أصحابه، فأخبرهم بما قيل له؛ فجاءتهم ففعلت كما كانت تفعل، فقالوا سبعاً من فوق وسبعاً من أسفل: «باسمك اللهم»، فلم تضرهم؛ فلما رأت الإبل لم تتحرك قالت: «قد عرفت صاحبكم ليبيضنّ أعلاه وليسودنّ أسفله»، وسرَوا فلما أدركهم الصبح نظروا إلى أمية قد برص في عذاريه ورقبته وصدره واسودّ أسفله؛ فلما قدموا مكة ذكروا هذا الحديث، فكان أول ما كتب أهل مكة: باسمك اللهم، إلى أن جاء الإسلام فرفع ذلك وكتب: باسم الله الرحمان الرحيم؛ وله أخبار غير هذا قد أتينا على ذكرها في كتابنا في أخبار الزمان وغيره مما سلف من كتبنا.

ومنهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصي، وهو ابن عم خديجة بنت خويلد زوج النبي صلعم لحاً؛ وكان قد قرأ الكتب وطلب العلم ورغب عن عبادة الأوثان، وبشّر خديجة بالنبي عم وأنه نبي الأمة وأنه سيؤذى ويكذّب؛ ولقي النبي صلعم، وقال له: «يا ابن أخي اثبت على ما أنت عليه فوالذي نفس ورقة بيده إنك لنبي هذه الأمة ولتؤذينّ ولتكذّبنّ ولتخرجنّ ولتقاتلنّ ولئن أدركت يومك لأنصرنّ الله نصراً يعلمه»؛ وقد اختلف فيه: فمنهم من زعم أنه مات نصرانياً ولم يدرك ظهور النبي

صلعم ولم يتيسّر له أمره، ومنهم من رأى أنه مات مسلماً وأنه مدح النبي صلعم، فقال:

يعفو ويصفح لا يجزي بسيئةٍ ويكظم الغيظ عند الشتم والغضب

ومنهم عدّاس مولى عُتبة بن ربيعة، وكان من أهل نينوا ولقي النبي صلعم بالطائف حين خرج يدعوهم إلى الله؛ فكان له مع النبي صلعم خطب في الحديقة؛ وقُتل يوم بدر على النصرانية؛ وقد كان ممن بشّر بالنبي صلعم.

ومنهم أبو قيس صِرمة بن أبي أنس من الأنصار من بني النجار وقد كان ترهّب ولبس المسوح وهجر الأوثان ودخل بيتاً واتخذه مسجداً، لا تدخله طامث ولا جُنب، وقال: أعبد رب إبراهيم؛ ولما قدم النبي صلعم المدينة أسلم وحسن إسلامه؛ وفيه نزلت آية السحور: ﴿وكُلُوا واشْرَبُوا حتىّٰ يَتَبيَّنَ لكُمُ الخَيْطُ الأبْيَضُ مِنَ الخَيطِ الأسوَدَ مِنَ الفَجْرِ﴾ الآية؛ وهو القائل في النبي صلعم:

ثوى في قريش بِضعَ عشرة حجةٍ يذكّر لو يلقى صديقاً مواسيا

ومنهم أبو عامر الأوسي، واسمه عبد عمرو بن صيفي بن النُّعمان من بني عمرو بن عوف من الأوس، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، وكان سيداً قد ترهّب في الجاهلية ولبس المسوح؛ فلما قدم النبي صلعم المدينة كان له معه خطب طويل؛ فخرج في خمسين غلاماً فمات على النصرانية بالشام.

ومنهم عُبيد الله بن جحش الأسدي من بني أسد بن خُزيمة وكانت عنده أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب قبل أن يتزوجها رسول الله صلعم؛ وكان قد قرأ الكتب، فمال إلى النصرانية؛ فلما بُعث النبي صلعم هاجر إلى أرض الحبشة في من هاجر من المسلمين، ومعه زوجته أم حبيبة؛ ثم إنه ارتدّ عن الإسلام هنالك وتنصّر، فمات بأرض الحبشة، فكان يقول للمسلمين: «إنا فقّحنا وصأْصأْتم»، يريد: إنّا أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر، وهذا مثل ضربه لهم، وذلك أنه يُقال للكلب إذا فتح عينيه بعدما يولد: قد فقّح، وإذا كان يريد أن يفتحهما ولمّا تنفتحا بعد قيل: صأصأ؛ ولما مات عُبيد الله تزوّج رسول الله صلعم أم حبيبة بنت أبي سفيان، زوّجها إياه النجاشي ومهرها عنه أربعماية دينار.

ومنهم بحيرا الراهب، وكان مؤمناً على دين المسيح؛ واسم بحيرا في كتب النصارى سرجس وكان من عبد القيس، ولما خرج النبي صلعم مع أبي طالب عمه إلى الشام في

تجارة وهو ابن اثنتي عشرة سنة، معهما أبو بكر وبلال، مروا ببحيرا وهو في صومعته، فعرف النبي صلعم بصفته ودلائله وما كان يجده في كتبه، ونظر إلى الغمام يظله حيثما جلس؛ فأنزلهم بحيرا وأكرمهم واصطنع لهم طعاماً، ونزل من صومعته حتى نظر إلى خاتم النبوّة بين كتفي النبي صلعم، ووضع يده على موضعه وآمن بالنبي صلعم، وأعلم أبا بكر وبلالاً ـ رضي الله عنهما ـ بقصته وما يكون من أمره وسأل أبا طالب أن يرجع به من وجهه ذلك، وحذّرهم عليه من أهل الكتاب، وأخبر عمه أبا طالب بذلك، فرجع به، فلما رجع من سفره ذلك كان بدء قصته مع خديجة وما أظهر الله لها من دلائل نبوّته وما خُبّرت به مما كان منه في طريقه.

قال المسعودي: فهذه جمل مبدأ الخليقة إلى حيث انتهينا ولم نشْبه بشيء غير ما جاءت به الشرائع ونطقت به الكتب وأوضحت عنه الرسل؛ فسنذكر الآن بدء ممالك الهند ولمعاً في آرائها ونتبع ذلك بذكر سائر الممالك إذ كنا قد قدّمنا جملاً من ذكر الملوك الإسرائيليين على حسب ما وجدنا في كتب الشرعيين إن شاء الله تعالى والله المستعان.

القسم الخامس

تواريخ الأمم

١

الفرس(*)

في ذكر أنساب فارس وما قاله الناس في ذلك

تنازع الناس في الفرس وأنسابهم: فمنهم من رأى أن فارس ابن ياسور (أشور) بن سام بن نوح، وكذلك النبط من ولْد نبيط بن ياسور بن سام بن نوح، وهذا قول هشام بن محمد فيما حكاه عن أبيه وغيره من علماء العرب؛ ففارس ونبيط أخَوَان وهما ابنا ياسور؛ ومنهم من زعم أنهم من ولْد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عم؛ ومنهم من زعم أنهم من ولد هِدرام بن أرفخشد بن سام بن نوح وأنه وُلد له بضعة عشر رجلاً كلهم كان فارساً شجاعاً، فسموا الفرس بالفروسية؛ وفي ذلك يقول خطّاب بن المعلّى الفارسي:

وبنا سمي الفوارس فرساناً ومنا مناجب الفتيان

وكهول طواهم الركض والكر كمثل الكرّة يوم الطّعان

وقد زعم قوم أن الفرس من ولد لوط من ابنتيه ربّثاً وزعيرثا، ولأصحاب التوراة في هذا خطب طويل؛ وذكر آخرون أنهم من ولد بوّان بن إيران بن ياسور ابن سام بن نوح، وبوان هذا هو الذي ينسب إليه شِعب بوّان من بلاد فارس، وهو أحد المواضع المشهورة بالحسن وكثرة الأشجار وتدفق المياه وكثرة أنواع الأطيار؛ وقد ذكرته الشعراء، فقال بعضهم:

(*) مروج الذهب، الفقرات ٥٦٣ ـ ٥٧٥.

فشِعب بوّان ووادي الراهب ... فثمّ تلقى راحة النوائب

ومنهم من رأى أن الفرس من ولْد إيران بن أفريدون، وقد قدّمنا في هذا التاب في أخبار ولد أفريدون حين قسم الأرض بينهم، ما قاله الشاعر في ذلك:

ولإيران جعلنا عنوةً ... فارس الملك وفُزنا بالنعم

فأضيفت الفرس إلى ذلك؛ وإيران تسميه الفرس إيرج إذا عرفوا اسمه؛ ولا تتناكر الفرس جميعاً أنهم من ولد إيرج، وإيرج هو إيران بن أفريدون، هذا المستفيض فيهم والأغلب عليهم أنهم من ولد إيرج؛ ومن الناس من ذهب إلى أن سائر أجناس الفرس وأهل كور الأهواز من ولد عيلام، ولا خلاف بين الفريقين أن الجميع منهم من ولد كيومرث وهذا هو الأشهر، وكيومرث هو قبل إيرج بن أفريدون وإيرج بن أفريدون هو الذي ترجع إليه فارس من ولد كيومرث.

ومن الناس من ذهب إلى أن الفرس الثانية وهم الساسانية دون من سلف من الفرس الأولى وهم من ولد منوشهر بن إيرج بن أفريدون؛ ومنهم من ذهب إلى أن منوشهر بن منشخورنر بن منوش [خورنك] بن ويرك [وويرك] هو إسحاق بن إبراهيم الخليل، وسار منشخورنر إلى أرض فارس وكان بها امرأة متملكة يقال لها كودك بنت إيرج، فتزوجها فولدت له منوشهر الملك، وكثر ولده فملكوا الأرض وغلبوا عليها وهابتها الملوك لما هم عليه من الشجاعة والفروسية، ودثرت الفرس الأولى كدثور الأمم الماضية والعرب العاربة.

قال المسعودي: وأكثر حكماء العرب من نزار بن معد تقول هذا وتعمل عليه في بدء النسب وينقاد إليه كثير من الفرس ولا ينكرونه؛ وقد ذكرته شعراء العرب من نزار بن معدّ وافتخرت على اليمن من قحطان بالفرس وأنها من ولد إسحاق بن إبراهيم الخليل؛ فقال في ذلك إسحاق بن سويد العدوي، عدي قريش:

إذا افتخرت قحطان يوماً بسؤدد ... أتى فخرُنا أعلى عليها وأسودا

ملكناهم بدءاً بإسحاق جدنا ... وصاروا لنا عوناً على الدهر أعبدا

فإن كان منهم تبّع وابن تُبع ... فأملاكهم كانوا لأملاكنا يداً

ويجمعنا والعز أبناءَ سارة ... أبٌ لا نُبالي بعده مَن تفرّدا

هـمُ مـلّـكـوا شـرقـاً وغـربـاً مـلـوكـهـم   وهـم مـنـحـوهـم بـعـد ذلـك سـؤدداً

وفي ذلك يقول جرير بن [عطية بن] الخطفي التميمي يفخر على قحطان بأن الفرس والروم من بني إسحاق والأنبياء من ولْد يعقوب بن إسحاق، في قصيدة طويلة:

وأبـنـاءُ إسـحـاق الـلـيـوثُ إذا ارتـدوا   حـمـائـل مـوتٍ لابـسـيـن الـنـورا

إذا افـتـخـروا عـدُّوا الـصـبـهـبـذَ مـنـهـمُ   وكـسـرى وعـدّوا الـهُـرمُـزان قـيـصـرا

وكـان كـتـابٌ فـيـهـم ونـبـوّةٌ   وكـانـوا بـإصـطـخـرَ الـمـلـوك وتُـسـتـرا

ومـنـهـم سـلـيـمـانُ الـنـبـيُّ الـذي دعـا   فـأُعـطـيَ تـبـيـانـاً ومـلـكـاً مـقـدَّرا

أبـونـا أبـو إسـحـاق يـجـمـع بـيـنـنـا   أب كـان مـهـديـاً نـبـيـاً مـطـهـرا

بـنـى قـبـلـة الله الـتـي يـهـتـدى بـهـا   فـأورثـنـا عـزاً ومـلـكـاً مـعـمّـرا

ويـجـمـعـنـا والـعـزّ أبـنـاء فـارس   أب لا نـبـالـي بـعـده مـن تـأخّـرا

أبـونـا خـلـيـل الله والله ربُّـنـا   رضـيـنـا بـمـا أعـطـى الإلاه وقـدّرا

وفي ذلك يقول بشار بن بُرد:

نـمـتـنـي الـكـرام بـنـو فـارس   قـريـش وقـومـي قـريـشُ الـعـجـمْ

وقد قال آخر من شعراء الفرس يذكر أنهم من ولد إسحاق وأن إسحاق هو المسمى ويرك على حسب ما قدمنا قبل، من كلمة له:

أبـونـا ويـرك وبـه أسـامـي   إذا افـتـخـر الـمـفـاخـر بـالـولاده

أبـونـا ويـركٌ عـبـد رسـول   لـه شـرف الـرسـالـة والـرفـاده

فـمـن مـثـلـي إذا افـتـخـرت قـرومٌ   وبـيـتـي مـثـل واسـطـة الـقـلاده

ومن الفرس من يزعم أن ويرك هو ابن إيرك بن بورك ابن سبع نسوة توالدن من غير ذكر إلى أن يلحقن في نسبهن بإيرج بن أفريدون، وهذا مما يدفعه العقل ويأباه الحس ويخرج عن العادة وتنبو عنه المشاهدة، إلا ما خص الله به المسيح عيسى بن مريم ليُري آياته ودلائله الخارجة عن العادة وعما ذكرنا من المشاهدات.

وللناس ها هنا تنازع في نسب منوشهر واضطراب في كيفية إلحاقه بأفريدون فيما وطىء

أفريدون من بنت إيرج ولده ووطئه ابنة البنت إلى السبع منهن، وقد كان بين مُلك منوشهر على ما ذكرنا وبين ملك أفريدون مدة خلت من الدهر وعدة خلت من الملوك، لتحزب كان بإقليم بابل وعدم ذي همة تنقاد إليه المملكة ويستقيم له الملك وتجتمع عليه الكلمة؛ فانتقل الملك من ولد أفريدون إلى ولد إسحاق؛ فإن كان ما ذكرنا هو المعوّل عليه من قول هذه الطائفة، فيجب على ما يوجبه الحساب أن من كيومرث إلى انتقال الملك إلى ولد إسحاق ألفاً وتسعمائة سنة واثنتين وعشرين سنة؛ كذلك وجدت في تواريخ هذه الطائفة بأرض فارس وبلاد كرمان.

قال المسعودي: وقد افتخر بعض أبناء الفرس بعد التسعين والمائتين بجده إسحاق بن إبراهيم الخليل على ولد إسماعيل بأن الذبيح كان إسحاق دون إسماعيل فقال في كلمة له:

أيا بني هاجر أبانت لكم ... ما هذه الكبرياءُ والعظمهْ

ألم تكن في القديم أمكمُ ... لأمّنا سارة الجمال أمهْ

والملك فينا والأنبياءُ لنا ... إن تنكروا ذاك توجِدوا ظلمهْ

إسحاق كان الذبيح قد أجمع الناس عليه إلا ادعاء لِمه

حتى إذا ما محمد أظهر الدين وجلّى بنوره الظلمه

قلتم قريش والفخر في الدين لا الأحساب إن كنتم بنيه فمه

وهي قصيدة طويلة ذكر فيها كلاماً كثيراً لم يسعنا ذكره؛ وقد أجابه عبد الله بن المعتز، وكان قائل هذه القصيدة في عصره وعمر بعد انقضاء الثلاثمائة، يناقضه في بيت بيت منها؛ فقال في ذلك:

أسمع صوتاً ولا أرى أحداً ... من ذا الشقيُّ الذي أباح دمه

حاشى لإسحاق أن يكون لكم ... أباً وإن كنتم بنيه فمه

قولا لكلب يرى لفطنته ... قد فغر الليث للفراس فمه

والفرس لا تنقاد إلى القول بأن الملك كان فيها لأحد غير ولد أفريدون في عصر من الأعصار فيما سلف وخلف، إلى أن زال عنهم الملك، إلا أن يكون دخل عليهم داخل على طريق الغصب بغير حق، وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف

به تعظيماً لجدها إبراهيم وتمسُّكاً بهديه وحفظاً لأنسابها؛ وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك ــ وهو جد أردشير بن بابك وهو أول ملوك ساسان بن بابك الذي إليه يرجعون كرجوع ملوك المروانية إلى مروان بن الحكم وخلفاء العباسيين إلى العباس بن عبد المطلب؛ ولم يلِ الفرس الثانية أحد إلا من ولْد أردشير بن بابك.

فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر إسماعيل، وإنما سميت زمزم لزمزمته عليها هو وغيره من فارس؛ وهذا يدل على ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذه البئر؛ وفي ذلك يقول الشاعر في قديم الزمان:

زمزمتِ الفرس على زمزم ... وذاك في سالفها الأقدمْ

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام بذلك، فقال:

وما زلنا نحج البيت قِدماً ... ونُلقي بالأباطحِ آمنينا

وساسان بن بابك سار حتى ... أتى البيت العتيق لنصر دينا

فطاف به وزمزم عند بئرٍ ... لإسماعيل تروي الشارِبينا

وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر؛ وقد كان ساسان بن بابك هذا أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فدفن [ذلك] في زمزم؛ وقد ذهب قوم من مصنفي الكتب في التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة، وجرهم لم تكن ذات أموال فيضاف ذلك إليها، ويحتمل أن يكون لغيرها ــ والله أعلم ــ وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب ما كان من فعل عبد المطلب بهذه الأسياف وغيرها مما أودع في زمزم؛ وللناس في هذه الأنساب تنازع في بدئها وتشعبها، قد ذكرنا منها جملاً وأوردنا منها جوامع يكتفي ذو المعرفة بالإشراف عليها عن كثير من مبسوطها.

أوائل الفرس وأديانهم الكتابية(*)

ذكرنا في كتابنا في (أخبار الزمان، ومن أباده الحدثان، من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة) تنازع الناس في هؤلاء الفرس الأولى أهم الكلدانيون أم الملك أفضى إليهم عنهم؟ وقول من قال إن الكلدانيين إنما زال ملكهم بالأثوريين ملوك الموصل بعد

(*) التنبيه والإشراف، ٨٢.

ما كان بينهم من التحزب والحروب التي أفنتهم، ومن قال إن أول مملكة كانت في إقليم بابل بعد الطوفان ملك نمرود الجبار ومن تلاه من النماردة، وكذلك هو في التوراة، وغير ذلك من التنازع في الأمم الذين بعدت عنا أعصارهم، وتقطعت أخبارهم، وقد نفى الله عز وجل الإحاصة بعلم أحوال القرون الخالية والأمم السالفة عمن سواه، لتقادم زمانها وبعد أيامها فقال سبحانه: ﴿ألَمْ يأتِهِم نبأُ الذينَ مِنْ قبلِهِم قوْمِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذينَ مِنْ بعدِهُم لا يعلمهمْ إلا الله﴾.

قال المسعودي(*): الفرس تخبر مع اختلاف آرائها وبعد أوطانها وتباينها في ديارها وما ألزمته أنفسها من حفظ أنسابها، ينقل ذلك باقٍ عن ماض وصغير عن كبير، أن أول ملوكهم كيومرث، ثم تنازعوا فيه: فمنهم من زعم أنه ابن آدم وهو الأكبر من ولده، ومنهم من زعم وهم الأقلون عدداً أنه أصل النسل وينبوع الذرء؛ وقد ذهبت طائفة منهم إلى أن كيومرث هو أُميم بن لاود بن أرم بن سام بن نوح، لأن أميماً هو أول من حل بفارس من ولد نوح، وكان كيومرث ينزل بفارس، والفرس لا تعرف طوفان نوح؛ والقوم الذين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام كان لسانهم سريانياً، ولم يكن عليهم ملك بل كانوا في مسكن واحد ـ والله أعلم بذلك ـ؛ وكان كيومرث أكبر أهل عصره والمقدّم فيهم وكان أول ملك نصب في الأرض فيما يزعمون.

وكان السبب الذي دعا أهل ذلك العصر إلى إقامة ملك ونصب رئيس أنهم رأوا أكثر الناس قد جبلوا على التباغي والتحاسد والظلم والعدوان، ورأوا فيهم الشرير لا يصلحه إلا الرهبة، ثم تأملوا أحوال الخليقة وتصرُّف شأن الجسم وصورة الإنسان الحساس الدرّاك، فرأوا الجسم في بنيته وكونه قد رُتب بحواس تؤدي إلى معنى هو غيرها يوردها ويصدرها ويميز ما توردِه إليه مع اختلافها في مداركها، وهو معنى في القلب؛ فرأوا صلاح الجسم بتدبيره: فمتى فسد مدبّره فسد سائره ولم تظهر أفعاله المتقنة المحكمة؛ فلما رأوا هذا العالم الصغير الذي هو جسد الإنسان المردى لا تستقيم أموره ولا تنتظم أحواله إلا باستقامة الرئيس الذي قدّمنا ذكره، علموا أن الناس لا يستقيمون إلا بملك ينصفهم ويوجب العدل فيهم وينفذ الأحكام على حسب ما يوجبه العقل عليهم؛ فساروا إلى كيومرث بن لاود وعرفوه بحاجتهم إلى ملك وقيّم يعدل فيهم وقالوا: «أنت

(*) مروج الذهب، الفقرات ٥٣٠ ـ ٥٤٩.

أفضلنا وأشرفنا وأكبرنا وبقية أبينا، وليس في العصر من يوازيك؛ فاضمم أمرنا إليك وكن القائم فينا؛ إنا نسمعك ونطيعك ونجيبك إلى كل ما تراه».

فأجابهم إلى ما دعوه إليه واستوثق منهم بتأكيد العهود والمواثيق على السمع والطاعة وترك الخلاف عليه؛ فلما وضع التاج على رأسه، وكان أول من ركّب التاج على رأسه من أهل الأرض، قام خطيباً وقال: «إن النعم لا تدوم إلا بالشكر، وإنا نحمد الله على أياديه ونشكره على نعمه ونرغب إليه في مزيده ونسأله المعونة على ما دُفعنا إليه وحسن الهداية إلى العدل الذي يجمع الشمل ويصفي العيش؛ فثِقوا بالعدل منا وأنصفوا من أنفسكم، نوردكم إلى أفضل ما في همّتكم وأستغفر الله لي ولكم»؛ فلم يزل كيومرث قائماً بالأمر في حسن السيرة، يحكم الناس بالعدل، والبلاد آمنة والأمة ساكنة طول مدّته؛ ولهم في وضع التاج على الرأس أسرار يذكرونها، أعرضنا عن ذكرها إذ كنا قد أتينا على ذلك في كتابنا في أخبار الزمان وفي الكتاب الأوسط.

وقد تنوزع في مقدار عُمر كيومرث: فمن الناس من رأى أن عمره كان ألف سنة، وقيل دون ذلك؛ وللمجوس في كيومرث خطب طويل في أنه مبدأ النسل وأنه نبت مثل نبات الأرض وهو الرّيْباس هو وزوجته، وهما مشْيَه ومشْيانه، وغير ذلك ما يفحش إيراده، وما كان من خبره مع إبليس وقتله إياه؛ وكان ينزل إصْطَخْر فارس؛ وكان ملكه أربعين سنة وقيل أقلّ من ذلك.

ثم ملك بعده أوشْهَنْج بن فرواك بن سِيامُك بن يرنيق بن كيومرث الملك؛ وكان أوشهنج ينزل الهند؛ وكان ملكه أربعين سنة، وقيل أقل من ذلك؛ وقد تنوزع فيه: فمنهم من رأى أنه أخٌ لكيومرث بن آدم، ومنهم من رأى أنه ولد الملك الماضي؛ ثم ملك بعده طَهْمُورث بن ويوَنْجهان بن آنقهاذ ابن وشْهَنْج؛ وكان ينزل سابور؛ وظهر في سنة من ملكه رجل يقال له بُوداسْف أحدث مذهب الصابئة وقال إن معالي الشرف الكامل والصلاح الشامل ومعدن الحياة في هذا السقف المرفوع وإنّ الكواكب هي المدبّرات والواردات والصادرات، وهي التي في بروزها من أفلاكها وقطعها مسافاتها واتصالها بنقطة وانفصالها عن نقطة سبب ما يكون في العالم من الآثار من امتداد الأعمار وقصرها وتركيب البسائط وانبساط المركّبات وتتميم الصور وظهور المياه وغيضها، وفي النجوم السيارة وفي أفلاكها التدبير الأعظم وغير ذلك مما يخرج وصفه عن حد الاختصار والإيجاز؛ فاجتذب جماعة من ذوي الضعف في الآراء؛ فيقال إن

هذا الرجل أول من أظهر مذهب الصابئة من الحرّانيين والكيماريين، وهذا النوع من الصابئة مباينون للحرّانيّين في نحلتهم، وديارهم بين بلاد واسط والبصرة من أرض العراق نحو البطائح والآجام.

فكان ملك طَهْمورَث إلى أن هلك ثلاثين سنة وقيل غير ذلك؛ ثم ملك أخوه جِم وكان ينزل بفارس؛ وقيل إنه كان في زمانه طوفان؛ وذهب كثير من الناس إلى أن النّيروز في زمانه أُحدث وفي ملكه رُسم على حسب ما نُورده فيما نصر مرزبان المغرب وأرّخ ثاون صاحب كتاب القانون في النجوم من مملكة الإسكندر بن فِلِيبُس المقدُوني.

ثم ملك بعده ابنه بشتاشف [يُستاسف] وكان منزله بَلخ؛ ولثلاثين سنة خلت من ملكه أتاه زرادُشْت بن إسْبيتَمان وقيل إنه زرادُشت بن بُورْشَف بن فِدْراسف بن أُورُودَشْف بن هِجدسف بن جَخْنُوش بن بِيْترشف بن هوشن بن هردار بن إسبيتمان بن ويدسف بن إيزمن بن رجن بن دُوَشرون بن منوشهر الملك، وكان من أهل آذربيجان، والأشهر من اسمه زرادشت ابن إسبيتَمان، وهو نبي المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس واسمه عند المجوس بستاه؛ وأتى زرادشت عندهم بالمعجزات الباهرة للعقول وأخبر عن الكائنات من الغائبات قبل حدوثها من الكلّيات والجُزئيات، والكليات هي الإخبار عن الأشياء العامة والجزئيات هي الإخبار عن بعض الأشياء مثل زيد يموت كذا ويمرض فلان يوم كذا ويُولد فلان في وقت كذا وكذا وأشباه ذلك.

ومعجم هذا الكتاب الذي أتاهم يدور على ستين حرفاً من أحرف المعجم، وليس في حروف سائر اللغات أكثر حروفاً من هذا المعجم؛ ولهم خطب طويل قد أتينا على ذلك في كتابنا في أخبار الزمان وفي الكتاب الأوسط؛ وأتى زرادشت بكتابهم هذا بلغة يعجزون عن إيراد مثلها ولا يدركون كنه مرادها؛ وسنذكر بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ما أتى به زرادشت في كتابه وما جعل له من التفسير وتفسير التفسير؛ وكتب هذا الكتاب في اثني عشر ألف جلد بالذهب، فيه وعد ووعيد وأمر ونهي وغير ذلك من الشرائع والعبادات؛ فلم تزل الملوك تعمل بما في هذا الكتاب إلى عهد الإسكندر وما كان من قتله لدارا بن دارا، فأحرق الإسكندر بعض هذا الكتاب؛ ثم صار الملك بعد الطواف إلى أرْدشير بن بابك فجمع الفرس على قراءة سورة من هذا الكتاب يقال لها وَنْديداد؛ فالفرس والمجوس إلى هذا الوقت لا يقرأون غيرها.

والكتاب الأول يسمّى بَشتاه؛ ثم عمل لهم زرادشت تفسيراً عند عجزهم عن فهمه

وسموا التفسير زنداً؛ ثم عمل للتفسير تفسيراً سماه بازند؛ ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادُشت تفسيراً لتفسير التفسير وشرحاً لما ذكرنا وسمّوه يازْدة؛ فالمجوس إلى هذا الوقت يعجزون عن حفظ كتابهم المنزّل: فصار علماؤهم وهرابذتهم يأخذون كثيراً منهم بحفظ أسباع من هذا الكتاب وأرباع وأثلاث؛ فيبتدىء واحد بما حفظ من جزئه فيتلوه ويبتدىء الثاني منهم فيتلو جزءاً آخر والثالث كذلك إلى أن يأتي الجميع على قراءة سائر الكتاب لعجز الواحد منهم عن حفظه كاملاً؛ وقد كانوا يقولون إن رجلاً منهم بسِجِسْتان بعد الثلاثمائة كان يستظهر بحفظ هذا الكتاب على الكمال.

وجاء(*) زرادشت بالكتاب المعزوف «بالأبشتا» وإذا عرب أثبتت فيه قاف تميل «الأبستاق» وعدد سوره إحدى وعشرون سورة، كل سورة في مائتين من الأوراق. وعدد حروفه وأصواته ستون حرفاً وصوتاً، لكل حرف وصوت سورة مفردة منها حروف تتكرر ومنها حروف تسقط، إذ ليست خاصة بلسان لأبستا. وزرادشت أحدث هذا الخط، والمجوس تسميه «دين دبيره» أي كتابة الدين وكتب في اثني عشر ألف جلد ثور بقضبان الذهب حفراً باللغة الفارسية الأولى ولا يعلم أحد اليوم معنى تلك اللغة، وإنما نقل لهم إلى هذه الفارسية شيء من السور فهي في أيديهم يقرأونها في صلواتهم «كأشتاذ، وجترشْت وبانْيسشْ هادوخت» وغيرها من السور. في جترشت الخبر عن مبدأ العلم ومنتهاه، في هادوخت مواعظ.

وعمل زرادشت للأبستا شرحاً سماه «الزند» وهو عندهم كلام الرب المنزل على زرادشت، ثم ترجمه زرادشت من لغة الفهلوية إلى الفارسية. ثم عمل زرادشت للزند سماه «بازند» وعملت العلماء من الموابذة والهرابذة ذلك الشرح شرحاً سموه «بارده» ومنهم من يسميه «أكرده» فأحرقه الإسكندر لما غلب على ملك فارس وقتل دارا بن دارا. وأحدث زرادشت خطاً آخر تسميه المجوس «كش دبيره» تفسيره كتابة لكل ما يكتب به سائر لغات الأمم، وصياح البهائم والطير وغير ذلك، عدد حروفه وأصواته مائة وستون، لكل حرف وصوت صورة منفردة.

وليس في سائر خطوط الأمم أكثر حروفاً من هذين الخطين، لأن حروف اليوناني وهو المسمي الرومي في هذا الوقت أربعة وعشرون حرفاً؛ ليس لهم حاء ولا خاء ولا عين

(*) التنبيه والإشراف، ٨٠ ــ ٨١.

ولا باء ولا هاء، وحروف السرياني اثنان وعشرون، والعبراني هو السرياني غير أن حروفه مقطعة. ومنها ما يشبه صورته صورة السرياني والحميري، وهو قلم حمير المعروف بالمسند يقرب من السرياني، وحروف العربي بالخطين تسعة وعشرون حرفاً، وما عدا ذلك من حروف الأمم يقرب بعضها من بعض.

وللفرس غير هذين الخطين اللذين أحدثهما زرادشت خمسة خطوط منها ما تدخله اللغة النبطية، ومنها ما لا تدخله، وقد أتينا على شرح جميع ذلك، وما ذكروا له من المعجزات والدلائل والعلامات، وما يذهبون إليه في الخمسة القدماء عندهم «أورمزد» وهو الله عز وجل و«أهرمن» وهو الشيطان الشرير، و«كاه» وهو الزمان، و«جاي» وهو المكان و «هوم» وهو الطينة والخميرة وحجاجهم لذلك، وعلة تعظيمهم للنيرين وغيرهما من الأنوار، والفرق بين النار والنور، والكلام في بدء النسل، وما كان من «ميشاه» وهو مهلا بن كيومرث، ومن «مشاني» وهو مهلينه بنت كيومرث، وإن الناس من الفرس يرجعون في أنسابهم إليهما، وغير ذلك من دياناتهم، ووجوه عباداتهم ومواضع نيرانهم فيما سمينا من كتبنا.

ومتكلمو الإسلام من أصحاب الكتب في المقالات، ومن قصد إلى الرد على هؤلاء القوم ممن سلف وخلف يحكون عنهم أنهم يزعمون أن الله تفكر فحدث من فكره شر وأنه الشيطان وأنه صالحه وأمهله مدة من الزمان يفتنه فيها، وغير ذلك من مذاهبهم مما تأباه المجوس، ولا تنقاد إليه، ولا تقر به. وأرى أن ذلك حكاية عن بعض عوامهم ممن سمع يعتقد ذلك فنسب إلى الجميع.

الفرس: اضطراب التواريخ(*)

كانت ملوك الطوائف نحواً من مائة ملك فرس ونبط وعرب، من حد بلاد أثور وهي الموصل إلى أقصى بلاد الأعاجم، وكان المعظمين منهم والذين ينقاد الباقون إليهم الأشغانيون، وهم من ولد أشغان بن أش الجبار بن سياوخْش بن كياقوس الملك، وكانوا ينزلون في الشتاء العراق وفي الصيف الشيز من بلاد آذربيجان، وفيها إلى هذا الوقت آثار عجيبة من البنيان والصور، بأنواع الأصباغ العجيبة من صور الأفلاك والنجوم والعالم وما فيه من بر وبحر وعامر ومعدن وخراب ونبات وحيوان وغير ذلك من

(*) التنبيه والإشراف، ٨٣ ـ ٨٦.

العجائب. ولهم فيها بيت نار معظم عند سائر طبقات الفرس يقال له «آذَرْخُش» و «آذر» أحد أسماء النار بالفارسية و «الخش» الطيب. وكان الملك من ملوك الفرس إذا ملك زاره ماشياً تعظيماً له، وتنذر له النذور، وتحمل إليه التحف والأموال، وغير ذلك، من البلاد كالماهات، وأرض الجبال. ولم يعد من ملوك الطوائف في التواريخ والسير إلا الأشغانيون لما ذكرنا من عظم شأنهم واتساق ملكهم.

وكان أول من يعد منهم أشك بن أشك بن أردوان بن أشغن بن أش الجبار بن سياوخش بن كيقاوس الملك، ملك عشر سنين.

[و] جملة ما أدركه الإحصاء من ملوك الطوائف وسني ملكهم، وهم أحد عشر ملكاً ملكوا مائتي سنة وثمانٍ وستين سنة.

وقد كانت لهم ملوك لم تعرف أسماؤهم ومدة سني ملكهم، ولم يذكروا في شيء من كتب الفرس وغيرها من كتب سير الملوك؛ لاضطراب أمر الملك في تلك الأعصار، والتنازع الواقع من اختلاف الكلمة، والتحزب وغلبة كل واحد منهم على صقعه، ولما نحن ذاكروه في آخر هذا الباب من فعل أردشير بابكان.

والصحيح عند من عني بأخبار سوالف الأمم وملوكهم أن مدة ملوك الطوائف بعد قتل داريوش وهو دارا بن دارا إلى قيام أردشير بن بابك خمسمائة سنة وثلاث عشرة سنة، وذلك أن من أول السنة التي ملك فيها الإسكندر بن فيلبس الملك المقدوني إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٤٥ للهجرة، ألف سنة ومائتين وسبعاً وستين سنة، فإذا أسقط من ذلك ما بين سنة ٣٤٥ وسنة ٣٢ للهجرة وهي السنة التي قتل فيها يزدجرد بن شهريار الملك وذلك ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة، وما ملكت الفرس من الساسانية من السنين وهو أربعمائة وتسع وثلاثون سنة كان الذي يبقى بعد ذلك من السنين منذ قتل الإسكندر لداريوش وهو دارا بن دارا إلى قيام أردشير بن بابك خمسمائة سنة وثلاث عشرة سنة وهي مدة ملك ملوك الطوائف.

وقد ذكرنا جميع ما قيل في ذلك على الشرح والإيضاح في كتابنا في (أخبار الزمان) وفيما تلاه من الكتاب الأوسط ثم في (الجزء السابع من كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر) في النسخة الأخيرة، التي قررنا أمرها في هذا الوقت على ما يجب من الزيادات الكثيرة، وتبديل المعاني، وتغيير العبارات، وهي أضعاف النسخة الأولى التي ألفناها في سنة ٣٣٢، وإنما ذكرنا ذلك لاستفاضة تلك النسخة وكثرتها في أيدي

الناس. ثم في كتاب (فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف) ثم في كتاب (ذخائر العلوم وما جرى في سالف الدهور)، ثم في كتاب (الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار) الذي كتابنا هذا تالٍ له ومبني عليه وهو سابعها، وكل واحد من هذه الكتب تالٍ لما قبله ومبني عليه، وخصصنا كل كتاب منها بتلاقين وعبارات مما لم نخصص به الآخر إلا ما لا يسع تركه.

وبين الفرس وغيرهم من الأمم في تأريخ الإسكندر تفاوت عظيم، وقد أغفل ذلك كثير من الناس، وهو سر دياني وملوكي من أسرار الفرس لا يكاد يعرفه إلا الموابذة والهرابذة وغيرهم من ذوي التحصيل منهم والدراية، على ما شاهدناه بأرض فارس وكرمان وغيرهما من أرض الأعاجم، وليس يوجد في شيء من الكتب المؤلفة لأخبار الفرس وغيرها من كتب السير والتواريخ، وهو أن زرادشت بن بورشب بن أسبيمان ذكر في الأبستا ـ وهو الكتاب المنزل عليه عندهم ـ أن ملكهم يضطرب بعد ثلاثمائة سنة، ويبقى دينهم فإذا كان على رأس ألف سنة ذهب الدين والملك جميعاً.

وكان بين زرادشت والإسكندر نحو من ثلاثمائة سنة، لأن زرادشت ظهر في ملك كيبشتاسب بن كيلهراسب، على ما قدمنا من خبره فيما سلف من هذا الكتاب. وأردشير بن بابك حاز الملك وجمع الممالك بعد الإسكندر بخمسمائة سنة وبضع عشرة سنة، فنظر فإذا الذي بقي إلى تمام الألف سنة نحو من مائتي سنة، فأراد أن يمد الملك مائتي سنة أخرى، لأنه خشي إن تمّت مائتا سنة بعده أن يترك الناس نصرة الملك والذب عنه، ثقة بخبر نبيهم في زواله، فنقص من الخمسمائة سنة والبضع عشرة سنة التي بينه وبين الإسكندر نحو من نصفها. وذكر من ملوك الطوائف من ملك هذه السنين وأسقط من عداهم، وأشاع في المملكة أن ظهوره واستيلاءه على ملوك الطوائف وقتله أردوان أعظمهم شأناً وأكبرهم جنوداً إنما كان في سنة مائتين وستين بعد الإسكندر، فأوقع التاريخ بذلك وانتشر في الناس. فلهذا وقع الخلاف بين الفرس وغيرهم من الأمم واضطرب تأريخ سني ملوك الطوائف لهذه العلة. وقد ذكر ذلك أردشير بن بابك في آخر عهده الذي أورثه من بعده من الملوك من ولده في سياسة الدين والملك فقال «ولولا اليقين بالبوار النازل على رأس الألف سنة لظننت أني قد خلفت فيكم من عهدي، ما إن تمسكتم به كان علامة لبقائكم ما بقي الليل والنهار؛ ولكن الفناء إذا جاءت أيامه؛ أطعتم أهواءكم، وأطرحتم آراءكم، وملكتم شراركم،

وأذللتم خياركم». وذكر ذلك أيضاً تنشر موبذ أردشير الداعي إليه والمبشر بظهوره في آخر رسالته إلى ما جشنس، صاحب جبال دباوند، والري، وطبرستان، والديلم، وجيلان. فقال: «ولولا أنا قد علمنا أن بلية نازلة على رأس الألف سنة لقلنا إن ملك الملوك قد أحكم الأمر للأبد، ولكنا قد علمنا أن البلايا على رأس الألف سنة، وأن سبب ذلك ترك أمر الملوك وإغلاق ما أطلق وإطلاق ما أغلق، وذلك للفناء الذي لا بد منه، ولكنا وإن كنا أهل فناء فإن علينا أن نعمل للبقاء ونحتال له إلى أمد الفناء، فكن من أهل ذلك، ولا تعن الفناء على نفسك وقومك، فإن الفناء مكتفٍ بقوته عن أن يعان، وأنت محتاج إلى أن تعين نفسك بما يزينك في دار الفناء، وينفعك في دار البقاء، ونسأل الله أن يجعلك من ذلك بالرفع منزلة وأعلى درجة».

الساسانيّون(*)

كان أول من نُسبت إليه ملوكهم على حسب ما قدّمنا في الباب الذي قبل هذا أرْدَشير بن بابك شاه بن ساسان بن بابك بن ساسان بن بهافريد بن دارا بن ساسان بن بَهْمَن بن إسفنديار بن بِستاسف بن لُهراسْف على حسب ما قدّمنا من نسب لُهراسف؛ وقيل إنه أردشير بن بابك بن ساسان الأصغر بن بابك بن ساسان بن بابك بن مهرمس بن ساسان بن بهمن بن إسفنديار بن بستاسف بن لُهراسف؛ ولا خلاف بينهم [في] أن أردشير من أولاد منوشِهْر.

قال المسعودي: وأردشير بن بابك المتقدم في ترتيب طبقات الندماء، وبه اقتدى المتأخّرون من الملوك والخلفاء، وكان يرى أن ذلك من السياسة ومما يرمّ عمود الرئاسة؛ فكانت طبقات خاصته ثلاثاً: فالأولى الأساورة وأبناء الملوك، فكان مجلس هذه الطبقة عن يمين الملك على نحو من عشر أذرع، وهم بطانة الملك ونُدماؤه ومحدّثوه من أهل الشرف والعلم؛ وكانت الطبقة الثانية على مقدار عشر أذرع من الأولى، وهم وجوه المرازِبة وملوك الكور المقيمون بباب أردشير والإصبهبْدية ممن كانت له مملكة الكور في أيامه؛ والطبقة الثالثة كانت رتبتها على قدر عشر أذرع من حد مرتبة الطبقة الثانية، وأهل هذه الطبقة المضحكون وأهل البِطالة وأهل الهزل، غير أنه لم يكن في هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ولا وضيع القدر ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول أو القِصر

(*) مروج الذهب، الفقرات ٥٧٦ ـ ٥٨٦، ٦٤٩ ـ ٦٥٧.

ولا محدّب ولا مرمي بابنة ولا ابن ذي صناعة دنيّة كابن حائك أو حجّام ولو كان يعلم الغيب ويحوي كل العلوم مثلاً.

وكان أردشير يقول: «ما شيء أضرّ على نفس ملك أو رئيس أو ذي معرفة صحيحة من معاشرة سخيف أو مخالطة وضيع، لأنه كما أن النفس تصلح على مخالطة الشريف الأديب الحسيب، كذلك تفسد بمعاشرة الخسيس، حتى يقدح ذلك فيها ويزيلها عن فضيلتها ويثنيها عن محمود شريف أخلاقها؛ وكما أن الريح إذا مرّت بالطيب حملت طيباً تحيي به النفوس وتقوي به جوارحها، كذلك إذا مرّت بالنتن فحملته تألمت له النفس وأضر بأعلاقها إضراراً تاماً؛ والفساد أسرع إليها من الصلاح إذ كان الهدم أسرع من البناء؛ وقد يجد ذو المعرفة في نفسه عند معاشرة السفيه الوضيع شهراً فساد عقله دهراً».

ورتّب أردشير المراتب فجعلها سبعة أفواج: فأولها الوزراء؛ ثم المُوبذان [موبذ] وهو القيّم بأمور الدين، ومعناه قاضي القضاة، وهو رئيس الهرابدة ومعناهم القُوّام بأمور الدين في سائر المملكة والثالث ببلاد الجنوب، والرابع ببلاد الشمال؛ فهؤلاء الأربعة هم أصحاب تدبير الملك، كل واحد منهم قد أفرد بتدبير جزء من أجزاء المملكة، وكل واحد منهم صاحب ربع منها؛ ولكل واحد من هؤلاء مرزُبان وهم خلفاء هؤلاء الأربعة؛ ورتّب أردشير الطبقات الأربع ولكل من أرباب التدبير ومن إليهم أزمّة الملك وحصول المشورة في إيراد الأمور وإصدارها؛ ثم رتّب طبقات المغنين وسائر المطربين وذوي الصنعة بالموسيقي.

فلم يزل على ذلك من طرأ بعده من ملوك آل ساسان إلى بهرام جور؛ فإنه أقرّ مراتب الأشراف وأبناء الملوك وسدنة بيوت النيران والنُسّاك والزّهاد وطبقات العلماء بالديانة وأنواع المهن الفلسفية على حالها، وغيّر طبقات المغنّين، فرفع من كان في الطبقة الوسطى إلى الطبقات العليا والطبقة الدنيّة إلى الوسطى، وغيّر المراتب على حسب إعجابه بالمطرب له منهم، وأفسد ترتيب أردشير بن بابك في طبقات المُلهين؛ فسلك من ورد بعده من الملوك هذا المسلك حتى ورد كِسرى أنوشِروْان، فردّ مراتب المغنين إلى ما كانت عليه في عهد أردشير بن بابك.

وقد كانت ملوك الأعاجم كلها من عهد أردشير تحتجب عن الندماء؛ فكان يكون بين الملك وبين أول الطبقات عشرون ذراعاً لأن الستارة من الملك على عشر أذرع والستارة

من الطبقة الأولى على عشر أذرع؛ وكان الموكّل بالستارة رجلاً من أبناء الأساورة يقال له: خُرَّم باش؛ فإذا مات هذا الرجل وُكّل بها آخر من أبناء الأساورة وذوي التحصيل وسمي بهذا الاسم؛ وهذا الاسم عام لكل من رُتّب في هذه المرتبة ووُقّف هذا الموقف، وتفسير ذلك: كُن فرحاً مسروراً؛ فكان خُرم باش هذا إذا جلس الملك لندمائه ومعاقرتهم أمر رجلاً أن يرتفع على أرفع مكان في دار الملك ويرفع عقيرته ويغرّد بصوت رفيع يسمعه كل من حضر، فيقول: «يا لسان احفظ رأسك فإنك تجالس في هذا اليوم الملك»، ثم ينزل؛ فكان ذلك فعلهم في يوم جلوس الملك للهوه وطربه؛ فتأخذ الندماء مراتبها خافتةً أصواتها غير مُشيرة بشيء من جوارحها، حتى يطلع الموكّل بالستارة فيقول: «غنِّ أنت يا فلان بكذا وكذا، واضرب أنت يا فلان بكذا وكذا من طريقة كذا وكذا»، من طرائق الموسيقي؛ وقد كانت الأوائل من بني أمية لا تظهر للندماء، وكذلك الأوائل من خلفاء بني العباس.

وكوّر أردشير بن بابك كُوراً ومدّن مدُناً، وله عهد في أيدي الناس؛ ولمّا خلا من ملكه أربع عشرة سنة وقيل خمس عشرة سنة واستقامت له الأرض ومهّدها ومال على الملوك فانقادت إلى طاعته، زهد في الدنيا وتبيّن له عوارها وما هي عليه من الغرور والفناء وقلة المكث وتسرُّع الغيلة منها إلى من أمنها ووثق بها واطمأنّ إليها، وبان له أنها غرّارة ضرّارة خاتلة زائلة بائدة ما اعذوذب منها جانب لامرئ وحلا إلا تمرّر عليه منها جانب وأوبَى، ورأى من بنى قبله المدن وحصّن الحصون وساق الجموع وكان أعظم جيشاً وأشدّ جنوداً وأتمّ عديداً قد صار رميماً هشيماً وتحت التراب مقيماً؛ فآثر التبرؤ من المملكة والتّرك لها واللحوق ببيوت النيران والانفراد بعبادة الرحمان والأنس بالوحدة؛ فنصب ابنه سابور لمملكته وتوجّه بتاجه، وذلك أنه رآه أرج ولْده حِلماً وأكملهم علماً وأشدّهم بأساً وأجزلهم مِراساً؛ فعاش بعد ذلك في حال تزهّده وخلوه بربه وكونه في بيوت النيران سنةً وقيل شهراً وقيل أكثر مما ذكرنا.

وقام أردشير اثنتي عشرة سنة يحارب ملوك الطوائف؛ فمنهم من يكاتبه وينقاد إلى ملكه رهبةً من صولته، ومنهم من يمتنع منه، فيسير إلى داره ويأتي عليه، فكان آخر من قتل منهم ملكاً للنبط بناحية سواد العراق اسمه بابا بن بردينا صاحب قصر ابن هُبيرة، ثم أرْدَوان الملك، وفي هذا اليوم لُقّب بشاهان شاه وهو ملك الملوك؛ وأم ساسان الأكبر من بني إسرائيل من السبايا، وهي ابنة سانال؛ ولأردشير بن بابك أخبار في بدء

ملكه مع زاهد من زهّادهم وأبناء ملوكهم يقال له تَنْسَر، وكان أفلاطونيّ المذهب على رأي سُقراط وأفلاطون، أعرضنا عن ذكرها ها هنا إذ كنا قد أتينا على جميع ذلك في كتابنا في أخبار الزمان وفي الكتاب الأوسط مع ذكر سيرَه وفتوحه وما كان من أمره.

ولأردشير بن بابك كتاب يُعرف بكتاب الكارْنامج فيه ذكر أخباره وحروبه ومسيره في الأرض وسيرَه؛ وكان مما حُفظ من وصية أردشير لابنه سابور عند نصبه إياه للملك أن قال له: «يا بنيّ إن الدين والملك أخوان لا غنى لواحد منهما عن صاحبه؛ فالدين أس الملك والملك حارسه، وما لم يكن له أس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع».

وفي أيام أبرويز حدثت حوادث تُنذر بالنبوّة وتبشّر بالرسالة؛ وأنفذ أبرويز عبد المسيح بن بُقَيْلة الغسّاني إلى سَطيح الكاهن وأخبره برؤيا المُوبذان [موبذ] وارتجاج الإيوان وغير ذلك من أخبار وما كان من بُحيرة ساوة.

وكان لأبرويز تسعة خواتم تدور في أمر الملك، منها خاتم فصّه ياقوت أحمر، نقشُه صورة الملك وحوله مكتوب صفة الملك، وحلقته ألماس، تُختم به الرسائل والسجلات، والخاتم الثاني فصّه عقيق، نقشه خراشان خره، وحلقته ذهب تُختم به التذكِرات؛ والخاتم الثالث فصّه جزع نقشه فارس يركض، وحلقته ذهب منقوش فيه الوحاء يختم به أجوبة البريد؛ والخاتم الرابع فصّه ياقوت مورّد، نقشه: بالمال ينال الفرح، وحلقته ذهب، يختم به البراوات والكتب بالتجاوز عن العُصاة والمُذنبين؛ والخاتم الخامس فصّه ياقوت بَهْرمان وهو أحسن ما يكون من الحمرة وأصفاها وأشرفها، نقشه: خُرّة وخُرّم، أي بهجة وسعادة، مثناه لؤلؤ وألماس، يختم به خزائن الجوهر وبيت مال الخاصة وخزانة الحلي؛ والخاتم السادس نقشه عقاب، يختم به كتب الملوك إلى الآفاق، فصّه حديد صيني؛ والخاتم السابع نقشه ذُباب، يختم به الأطعمة والأدوية والطّيب، فصّه بازَهْر؛ والخاتم الثامن فصّه جُمان، نقشه رأس خنزير، يختم به أعناق من يُؤمر بقتله وما ينفذ من الكتب في الدماء؛ والخاتم التاسع حديد يلبسه عند دخول الحمّام والأبْزَن.

وكان على مربطه خمسون ألف دابة وله سروج ذهب مكلّلة بالجواهر والدّرر على عدد ما لركابه من الخيل؛ وكان على مربطه ألف فيل منها أشهب أبيض أشدّ بياضاً من الثلج، ومنها ما ارتفاعه اثنا عشر ذراعاً، وفي النادر يوجد من الفِيلة الحربية ما ارتفاعه هذا المقدار، وأكثر ما يوجد ارتفاع الفيلة من التسعة الأذرع إلى العشرة؛ وملوك الهند تُبالغ في أثمان ما عظُم من الفيلة وارتفع من الأرض؛ وقد يكون من الوحشية في أرض

الزنج من الفيلة ما هو أعلى سمكاً مما وصفنا بأذرع كثيرة على حسب ما يُحمل من قرونها المسماة بالأنياب ما وزن الناب منها خمسون ومائة من إلى المائتين، والمنّ رطلان بالبغدادي، وعلى قدر عِظَم الناب عظُم جسم الفيل.

فكانت مدة ملك أبرويز إلى أن خُلع وسملت عيناه وقُتل ثمانياً وثلاثين سنة؛ وكانت له شِيرين الموصوفة بالحسْن والجمال؛ ثم ملك بعده ولده قُباذ المعروف بشِيروَيه القابض على أبيه والجاني عليه والقاتل له، والفرس تسميه الغَشوم؛ وفي أيامة كان الطاعون بالعراق وغيره من إقليم بابل، فهلك فيه مئون من الألوف من الناس فالمُكثر يقول هلك نصف الناس والمقلّ يقول الثلث؛ فكان مُلك شيرويه إلى أن هلك سنة وستة أشهر، وقيل أقل من ذلك؛ ولكسرى أبرويز ولابنه شيرويه أخبار عجيبة ومراسلات قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا.

ثم ملك بعد شيرويه ولد له يقال له أردشير فولي الملك وهو ابن سبع سنين فسار إليه من أنطاكية من بلاد الشام شَهْربَرَاز مرزُبان المغرب المتقدّم ذكره مع أبرويز وملك الروم، فقتله، فكان ملكه خمسة أشهر؛ ثم ملك شهربراز نحواً من عشرين يوماً وقيل شهرين وقيل غير ذلك، واغتالته ابنة لكسرى أبرويز يقال لها آزَرْميدُخْن فقتلته؛ ثم ملك كسرى بن قُباذ بن أبرويز وقيل إنه ابن أبرويز وكان بناحية الترك، فسار يريد دار الملك فقُتل في الطريق؛ فيعدُّ ملكه ثلاثة أشهر؛ ثم ملكت بعده بُوران بنت كسرى أبرويز، وكان ملكها سنة ونصفاً؛ ثم ملك رجل من أهل بيت الملك من ولْد، سابور بن يَزْدجِرد الأثيم يقال له فيروز جُشَنِنده فكان ملكه شهرين.

ثم ملكت ابنة لكسرى أبرويز يقال لها آزرْميدُخْت فكان ملكها سنة وأربعة أشهر؛ ثم ملك فَرُّخْزاذ خُسرو بن كسرى أبرويز وهو طفل، فكانت مدة ملكه شهراً وقيل أشهراً؛ ثم ملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز بن هُرمز بن أنوشِروان بن قُباذ بن فيروز بن بهرام بن يَزدجِرد بن سابور بن هُرمز بن سابور بن أردشير بن بابك بن ساسان، وهو آخر ملوك الساسانية؛ فكان ملكه إلى أن قُتل بمَرْو من بلاد خراسان عشرين سنة، وذلك لسبع سنين ونصف خلت من خلافة عثمان بن عفان وهي سنة إحدى وثلاثين من الهجرة، وقد قيل غير ذلك في مقدار ملكه وخبر مقتله.

قال المسعودي: وذهب الأكثر من الناس ممن عُني بأخبار الفرس وأيامهم إلى أن جميع من ملك من آل ساسان من أردشير بن بابك إلى يزدجر بن شهريار من الرجال أن عدد

ملوك الساسانية اثنان وثلاثون ملكاً وعدد الملوك الأُول وهم الفرس الأولى من كُيوَمرْث إلى دارا تسعة عشر ملكاً، منهم امرأة وهي حُماية ابنة بَهْمن وفراسياب التركي وسبعة عشر رجلاً؛ وعدة ملوك الطوائف الذين قدّمنا ذكرهم من مقتل دارا بن دارا إلى أن ظهر أردشير بن بابك أحد عشر ملكاً، وهم ملوك الشيز والران ومن أجلهم سُمي سائر ملوك الطوائف الأشغان؛ فجميع الملوك من كيومرث بن آدم، وهو أول ملوك بني آدم عندهم على ما ذكرت الفرس، إلى يزدجرد بن شهريار بن كسرى ستون ملكاً، منهم ثلاث نسوة؛ وعدة ما ملكوا من السنين أربعة آلاف سنة وأربعمائة سنة وخمسون سنة.

وقيل إن عدة الملوك من كيومرث إلى يزدجرد ثمانون ملكاً؛ ورأيتُ جماعة من الأخباريين وأصحاب السير وأرباب الكتبة المصنّفة في التواريخ وغيرها يذهبون إلى أن سني الفرس إلى الهجرة ثلاثة آلاف سنة وستمائة وتسعون سنة.

٢

الكلدان(*)

قال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبد الله المسعودي:
ذهب جماعة من أهل التنقير ومن ذوي العناية بأخبار ملوك العالم أن ملوك بابل هم أول ملوك العالم الذين مهّدوا الأرض بالعمارة وأن الفرس الأولى إنما أخذت الملك عن هؤلاء كما أخذت الروم الملك من اليونانيين.

فكان أولهم نمرود الجبّار، فكان ملكه نحواً من ستين سنة، وهو الذي احتفر أنهاراً بالعراق آخذة من الفرات، فيقال إن من ذلك نهر كُوثَى في طريق الكوفى وهو بين قصر ابن هُبيْرة وبغداد ولا خفاء بخبره لشلهرته؛ وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كثيراً من أنهار العراق عند ذكرنا لملوك الفرس الأولى والثانية وغيرهم من ملوك الطوائف، وإنما الغرض في هذا الكتاب التلويح بتأريخ ملوك العالم والتنبيه على ما سلف من كتبنا.

وملك بعده بولوس نحواً من سبعين سنة، وكان عظيم البطش متجبراً في الأرض وكانت في أيامه حروب؛ ثم ملك بعد قَنْبيروس نحواً من مائة سنة باغياً في الأرض؛ ثم ملك بعده سميروس نحواً من سبعين سنة؛ ثم ملك بعده كِشرونس نحواً من خمسين سنة؛ ثم ملك بعده أرْفخشد نحواً من عشرين سنة؛ ثم ملك بعده سميرَم نحواً من أربعين سنة وقيل أكثر من ذلك؛ ثم ملك بعده زميس نحواً من سبعين سنة؛ ثم ملك بعده أريوس نحواً من ثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده أبْلاوُس نحواً من خمس عشرة

(*) مروج الذهب، الفقرات ٥٢٢ ـ ٥٢٩.

سنة؛ ثم ملك بعده منْخَلوس نحواً من أربعين سنة، ثم ملك بعده أمْرَمَيثْريس نحواً من ثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده بَلُكوس نحواً من ثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده سِيفْروتُس نحواً من أربعين سنة وقيل غير ذلك؛ ثم ملك بعده مارونس نحواً من ثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده وسطاليم أربعين سنة؛ وملك أمِنْطاس نحواً من خمسين سنة؛ ثم ملك بعده بالوكوس نحواً من خمسين سنة؛ ثم ملك بعده العدَاس نحواً من ثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده بَلاطِيروس نحواً من ستين سنة؛ ثم ملك بعده ساوْسارِس نحواً من عشرين سنة؛ ثم ملك بعده بانيوس نحواً من خمسين سنة وقيل بل خمساً وأربعين سنة.

ثم ملك بعده سوسارموس نحواً من أربعين سنة، فغزاه ملك من ملوك فارس في عقر داره؛ ثم ملك بعده مِشروس نحواً من خمسين سنة؛ ثم ملك بعده طاطاموس نحواً من ثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده طاطاوس نحواً من أربعين سنة؛ ثم ملك بعده أفروس نحواً من أربعين سنة؛ ثم ملك بعده لاوسْنَنَس نحواً من خمسين سنة وقيل خمساً وأربعين سنة؛ ثم ملك بعده أفريتديس نحواً من ثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده أفروطاوس نحواً من عشرين سنة؛ ثم ملك بعده أفريطنوس نحواً من خمسين سنة وقيل اثنتين وأربعين سنة؛ ثم ملك بعده منطورس نحواً من عشرين سنة؛ ثم ملك بعده فولاقسما نحواً من ستين سنة؛ ثم ملك بعده قنقلروس خمساً وثلاثين سنة وقيل خمسين، وكانت له حروب مع ملك من ملوك الصابئة، كذلك ذكر في كتاب التأريخ القديم.

ثم ملك مرجد نحواً من ثلاث سنين؛ ثم ملك بعده مردوح أربعين سنة، وقيل أقل من ذلك ثم ملك بعده سنّجاريب ثلاثين سنة وهو الذي أتى بيت المقدس؛ ثم ملك بعده نشُوه منُوشا ثلاثين سنة وقيل أقل من ذلك؛ ثم ملك بعده بُخت نصّر الجبار خمساً وأربعين سنة، ثم ملك بعده فِل مردوح نحو سنة، ثم ملك بعده بلفسعر نحو سنتين وقيل أقل من ذلك، ثم ملك قمْبيسوس نحو ثماني سنين، وقيل عشراً؛ ثم ملك مجوسا [ن] سنة وقيل أقل من ذلك؛ ثم ملك داريوس إحدى وثلاثين سنة، وقيل أقل من ذلك؛ ثم ملك كسرْخوس عشرين سنة؛ ثم ملك أرطبان تسعة أشهر وقُتل؛ ثم ملك ارطَخْشَست إحدى وأربعين سنة؛ ثم ملك بعده كسرخوس ثلاث سنين وقيل سنتين وشهرين؛ ثم ملك بعده سُغْديانُس سنة واحدة وقيل تسعة أشهر؛ ثم ملك دريوس عشرين سنة وقيل تسع عشرة سنة ثم ملك بعده أرْطَخشت تسعاً وعشرين سنة؛ ثم ملك دارا أليسع خمس عشرة سنة، وقيل عشر سنين.

قال المسعودي: فهؤلاء الملوك الذي أتينا على أسمائهم ومدة مملكتهم قد رُسمت أسماؤهم في كتب التواريخ السالفة؛ وهم الذين شيّدوا البنيان ومدّنوا المدن وكوّروا الكُوَر وحفروا الأنهار وغرسوا الأشجار واستنبطوا المياه وأثاروا الأرضين واستخرجوا المعادن من الحديد والنحاس والرصاص وغير ذلك من المعادن وطبعوا السيوف واتخذوا عُدة الحرب وغير ذلك من الحيل والمكايد، ونصبوا قوانين الحرب بالقلب والميمنة والميسرة والأجنحة، وجعلوا ذلك مثالاً لأجزاء أعضاء الإنسان، ورتّبوا لكل جزء نوعاً من الراية لا يوازيها غيرها: فجعلوا أعلام القلب على صورة الفيل والتنين وما عظُم من أجناس الحيوان، وجعلوا أعلام الميمنة والميسرة على صور السباع على حسب عِظَمها واختلافها في أنواعها، وجعلوا في الأجنحة صور ما لطُف من السباع كالنمر والذئب، وجعلوا أعلام الكُمناء على صور الحيّات والعقارب وما خفي فعله من هوام الأرض.

وجعلوا ألوان كل نوع منها من السواد وغيره من الألوان الستة، وهي السواد والبياض والحمرة والصفرة والخضرة ولون السماء؛ وقد ذكر قوم أن الألوان الثمانية على حسب الموضع المستحق له، ومنعوا أن تكون الحمرة تشوب شيئاً من ذلك إلا ما لطف من أجزائها داخلة في جملة الأكثر من أشباه الحيوان من تلك الأعلام؛ وزعموا أن قضية القياس توجب أن تكون سائر أعلام الحرب حُمراً إذ كانت أليق وأشكل بلون الدم وأكثر ملاءمة إذ كان لونها واحداً، لكن منع ذلك استعمالها في حال الزينة والطرب وأوقات السرور واستعمال النساء والصبيان وفرح النفوس بها أوجب ترك ذلك، وإنّ حسّ البصر مُشاكل للون الحمرة إذ كان من شأنه أنه إذا أدركها انبسط نور البصر في إدراكها، وإذا وقع البصر على اللون الأسود اجتمع نوره ولم ينبسط في إدراكه انبساطه في الحمرة، وأن ذلك للنسبة الواقعة بين نور البصر وبين لون الحمرة والمباينة الضدية بين نور البصر ولون السواد؛ وتكلم هؤلاء القوم في مراتب الألوان من الحمرة والسواد والبياض وغيرها، ومراتب الأنوار وما وجه ذلك من أسرار الطبيعة والحد المشترك بين نور البصر وبين اللون الأحمر والبياض والضد المباين بين السواد وبين نور البصر دون سائر الألوان من الحمرة والخضرة والصفرة والبياض، وتغلغل القوم في هذه المعاني إلى ما علا من الأجسام السماوية من النيرين والخمسة واختلافها في ألوانها، وإلى ذلك من الأجسام العلوية، قد أتينا على ما قالوه في ذلك فيما سلف من كتبنا.

وأتينا على سِير هؤلاء الملوك وأخبارهم وأخلاقهم في كتابنا في أخبار الزمان وفي

الكتاب الأوسط؛ وقد ذهبت طائفة من الناس إلى أن هؤلاء الملوك كانوا من النبط وغيرهم من الأمم وأنه قد كان يرئس بعضهم غيره من ملوك الفرس ممن كان مقيماً منهم ببلْخ، والأشهر ما قدّمناه؛ وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب لمعاً من أخبار النبط وأنسابهم إن شاء الله ولا قوة إلا بالله.

٣

اليونان والرومان والبيزنطيون(*)

في ذكر ملوك اليونانيين ولُمع من أخبارهم وما قاله الناس في بدء أنسابهم

قال المسعودي: تنازع الناس في فرقة اليونانيين: فذهبت طائفة من الناس إلى أنهم ينتمون إلى الروم ويضافون إلى ولْد إسحاق. وقالت طائفة أخرى إن يونان هو بن يافث بن نوح، وذهب قوم [إلى] أنهم من ولد أراش بن ياوان بن يافث بن نوح، وذهب قوم إلى أنهم قبيل متقدّم من الزمان الأول، وإنما وهم مَن وهم أن اليونانيين ينسبون إلى حيث تنسب الروم وينتمون إلى جدهم إبراهيم، لأن الديار كانت مشتركة والمقاطن والمواضع كانت متساوية، وكان القوم قد شركوا القوم في السجية والمذهب، فلذلك غلط من غلط في النسب وجعل الأب واحداً، وهذا طرق الصواب عند المتفشين وسبيل البحث عند الباحثين؛ والروم قفت في لغتها ووضع كتبها اليونانيين، فلم يصلوا إلى كنه فصاحتهم وطلاقة ألسنتهم، والروم أنقص في اللسان من اليونانيين وأضعف في ترتيب الكلام الذي عليه نهج تعبيرهم وسنن خطابهم.

قال المسعودي: وقد ذكر ذو [و] العناية بأخبار المتقدّمين أنّ يونان أخو قحطان، وأنه من ولْد عابر بن شالخ وأن أمره في الانفصال عن ديار أخيه كان سبب الشك في الشركة في النسب، وأنه خرج من أرض اليمن في جماعة من ولده وأهله ومن انضاف إلى جملته، حتى وافى أقاصي بلاد المغرب، فأقام هنالك واستعجم لسانه ووازى من كان

(*) مروج الذهب، الفقرات ٦٦٤ ـ ٧٧٢.

هنالك في اللغة الأعجمية من الإفرنجة والروم، فزالت نسبته وانقطع سببه وصار منسيّاً في ديار اليمن غير معروف عند النسابين منهم؛ وكان يونان جباراً عظيماً وسيماً جسيماً حسن العقل جزِل الرأي كبير الهمة عظيم القدر.

ولما نشأ ولد يونان وكثروا، خرج يسير في الأرض يطلب موضعاً يسكنه؛ فانتهى إلى موضع من المغرب فنزل بمدينة أثِينة، وهي المعروفة بمدينة الحكماء في ديار المغرب في صدر الزمان؛ فأقام بها هو ومن معه من ولده فكثر نسله بها وبنى بها البنيان العظيم إلى أن أدركته الوفاة، فجعل وصيته إلى الأكبر من ولده واسمه خَرْبيوس فقال له: «يا بُنيّ إني قد وافيت الأجل وقربت من الحتم الواجب وإني راحل عنك ومفارقك ومفارق إخوتك وأهل بيتك؛ وقد كانت أحوالكم حسنة النظام بي وكنت لكم كهفاً في الشدائد وعوناً على المِحَن ومِجَنّاً من الزمان، فعليك بالجود فإنه قطب الملك ومفتاح السياسة وباب السيادة وكن حريصاً على اقتناء الرجال بالإنعام عليهم، تكن سيداً رشيداً، وإياك والحيد عن الطريقة المُثلى التي يُبنى عليها العقل؛ فإن من ترك رأي اللب وثمرة العقل تورّط في المهالك ووقع في مقابض المتالِف».

ثم مات يونان واستولى ولده على مكان أبيه وضم إليه أهله وولده ونمى أمرهم وعمل بما أمره، وكثر نسلهم فغلبوا على ديار المغرب من بلاد الإفرنجة والنوكُبرد وأجناس الأمم من الصقالبة وغيرهم؛ وكان أول ملوكهم ممن سمّاه بطليموس في كتابه فِلِبُس، وتفسيره مُحبّ الفَرس، وقيل إن اسمه فلفس (؟) وقيل فيلفوس؛ فكانت مدة ملكه سبع سنين.

وقد قيل إن اليونانيين لما أن سار البُخت ناصر من ديار المشرق نحو الشام ومصر والمغرب وبذل السيف، كانوا يؤدون الطاعة ويحملون الخراج إلى فارس، وكان خراجهم بيضاً من ذهب عدداً معلوماً ووزناً مفهوماً وضريبة محصورة، فلمّا أن كان من أمر الإسكندر بن فلبس وهو الملك الماضي الذي هو أول ملوك اليونانيين على ما ذكر بطليموس، ما كان من ظهوره وبعد همته، بعث إليه داريوس ملك فارس، وهو دارا بن دارا، يطالبه بما جرى من الرسم، فبعث إليه الإسكندر: «إني قد ذبحت تلك الدجاجة التي كانت تبيض بيض الذهب وأكلتها»؛ فكان من حروبهم ما دعا الإسكندر إلى الخروج إلى أرض الشام والعراق، فاصطلم من كان بها من الملوك وقتل دارا بن دارا ملك الفرس؛ وقد أتينا على خبر مقتله ومقتل غيره من ملوك الهند ومن لحق بهم من ملوك الشرق في الكتاب الأوسط.

ونسب قوم الإسكندر [إلى] أنه الإسكندر بن فلبس بن مصريم بن هردوش بن هرمس بن هردوش بن منظور بن رومي بن نويط بن نوفيل بن رومي بن لبط بن يونان بن يافث بن نوح، ونسبه قوم إلى أنه من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم، ومنهم من رأى أنه الإسكندر بن برقة بن سرحون بن رومي بن بربط بن نوفيل ابن رومي بن الأصفر بن أليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

وقد تنازع الناس [فيه]: فمنهم من رأى أنه ذو القرنين، ومنهم من رأى أنه غيره، وقد تنازعوا أيضاً في ذي القرنين: فمنهم من رأى أنه إنما سمي ذا القرنين لبلوغه أطراف الأرض وأن الملك الموكّل بجبل قاف سماه بهذا الاسم، ومنهم من رأى أنه من الملائكة، وهذا قول يعزى إلى عمر بن الخطاب، والقول الأول قول ابن عباس في تسمية الملك إياه، ومنهم من رأى أنه كان ذا ذوأبتين من الذهب وهذا قول يعزى إلى علي بن أبي طالب، وقد قيل غير ذلك، وإنما نذكر تنازع الشرعيين من أهل الكتاب.

وقد ذكره تُبع في شعره وافتخر به وأنه من قحطان؛ وقيل إن بعض التبابعة غزا مدينة رومية فأسكنها خلقاً من اليمن، وإن ذا القرنين الذي هو الإسكندر من أولائك العرب المتخلفين بها ـ والله أعلم ـ.

وسار الإسكندر، بعد أن هلك ملك فارس واحتوى على ملكها وتزوّج بابنة ملكها دارا بن دارا بعد أن قتله ثم سار نحو السند والهند فوطىء ملوكها وحملت إليه الهدايا والخراج، وحاربه فور وكان أعظم ملوك الهند، فكان له مع الإسكندر حروب، وقتله الإسكندر مبارزة، ثم سار الإسكندر نحو بلاد الصين والتبت فذلّت له الملوك وحملت إليه الهدايا والضرائب، وسار في مفاوز الترك يريد خراسان من بعد أن ذلل ملوكها ورتب الرجال والقوّاد فيما افتتح من الممالك، ورتب ببلاد التبت خلقاً من رجاله، وكذلك ببلاد الصين، وكوّر بخراسان كوَراً وبنى مدناً في سائر أسفاره.

وكان معلمه أرسطاطاليس حكم اليونانيين وهو صاحب كتاب المنطق وما بعد الطبيعة، وتلميذ أفلاطون، وأفلاطون تلميذ سقراط، وصرف هؤلاء هممهم إلى تقييد علوم الأشياء الطبيعية والنفسية وغير ذلك من علوم الفلسفة، واتصالها بالإلاهية، وأبانوا عن الأشياء وأقاموا البراهين على صحتها وأوضحوها لمن استعجم عليه تناولها.

وقُبض الإسكندر وهو ابن ست وثلاثين سنة؛ وكان ملكه تسع سنين قبل قتله لدارا بن دارا وست سنين بعد قتله لدارا وتملكه على سائر الملوك، وملك وهو ابن إحدى

وعشرين سنة وذلك بمقدونية وهي مصر؛ وعهد إلى ولي عهده بطليموس بن أرنب أن يحمل تابوته إلى والدته بالإسكندرية، وأوصاه أن يكتب إليها إذا أتاها نعيه أن تتخذ وليمة وتنادي في مملكتها أن لا يتخلف عنها أحد وأن لا يجيب دعوتها من قد فقد محبوباً أو مات له خليل، ليكون ذلك مأتماً للإسكندر بالسرور خلاف مأتم الناس بالحزن.

فلما ورد نعيه إليها ووضع تابوته بين يديها نادت في أهل مملكتها على ما به أمرها لم يجب أحد دعوتها ولا بادر إلى ندائها، فقالت لحشمها: «ما بال الناس لم يجيبوت دعوتي؟» ـ فقالوا لها: «وأنت منعتهم من ذلك» ـ قالت: «وكيف؟» ـ قيل لها: «أمرت أن لا يجيبك من فقد محبوباً أو عدم خليلاً أو فارق حبيباً، وليس فيهم أحد إلا وقد أصابه بعض ذلك»؛ فلما سمعت ذلك استيقظت وعلمت ما به سليت؛ فقالت: «لقد عزّاني ولدي بأحسن العزا»؛ وقالت: «يا إسكندر ما أشبه أواخرك بأوائلك!».

وأمرت به فجعل في تابوت من المرمر وطُلي بالأطلية الماسكة لأجزائه وأخرجته عن الذهب لعلمها أن من يطرأ بعدها من ملوك الأمم لا يتركونه في ذلك الذهب، وجُعل التابوت المرمر على أحجار نُضّدت وصخور نُصبت من الرخام والمرمر قد رصفت؛ وهذا الموضع من الرخام والمرمر باقٍ ببلاد الإسكندرية من أرض مصر يعرف بقبر الإسكندر إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة؛ وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جوامع من أخبار الإسكندرية وعجائبها ومصر وأخبارها ونيلها في الموضع المستحق له من كتابنا هذا إن شاء الله وبه العون والتأييد.

في ذكر ملوك اليونانيين بعد الإسكندر

ثم ملك بعد الإسكندر خليفته الملك بطليموس، وكان حكيماً عالماً سائساً مدبّراً، وكان ملكه أربعين سنة، وقيل بل كان ملكه عشرين سنة؛ وقد كانت لهذا الملك وهو التالي للملك الإسكندر حروب مع بني إسرائيل وغيرهم من ملوك الشام.

وذكر جماعة من أهل الدراية بأخبار ملوك العالم أن هذا الملك أول من اقتنى البُزاة ولعب بها وضرّاها، وأنه ركب في بعض الأيام في طرب إلى بعض منتزهاته، فنظر إلى باز يطير فرآه إذا علا صفق وإذا سفل خفق وإذا أراد أن يستوي درق، فأتبعه بصره حتى اقتحم شجرة ملتفة كثيرة الشوك، فتأمله فأعجبه صفاء عينيه وصفرتهما ولباسه

وكمال خلقه؛ فقال: «هذا طائر حسن، له سلاح وينبغي أن تتزيّن به الملوك في مجالسها»؛ فأمر أن يجمع منه عدة لتكون في مجلسه زينة؛ فعرض لبازٍ منها أَيْم، وهو الحية الذكر، فوثب عليه البازي فقتله؛ فقال الملك: «هذا ملك يغضب مما تغضب منه الملوك»؛ ثم عرض له بعد أيام ثعلب كان داجناً، فوثب عليه البازي، فما أفلت إلا جريضاً؛ فقال الملك: «هذا ملك جبار لا يحتمل الضيم»؛ ثم مر به طائر، فوثب عليه فأكله؛ فقال الملك: «هذا ملك يمنع حماه ولا يضيع أكله»؛ فلعب بها.

ثم ملك بعد بطليموس هيفلوس وكان ملكاً جباراً وفي أيامه عُملت الطلمسات وظهرت عبادة التماثيل والأصنام لشبه دخلت عليهم وأنها وسائط بينهم وبين خالقهم تقربهم إليه وتدنيهم منه؛ فكان ملكه ثمانياً وثلاثين سنة وقيل أربعين سنة؛ وقد قيل إن الذي ملك بعد خليفة الإسكندر بطليموس الثاني مُحب الأخ وغزا بني إسرائيل ببلاد فلسطين وإيليا من أرض الشام، فسباهم وقتل فيهم وطلب العلوم، ثم رد بني إسرائيل إلى فلسطين وحمل معهم الجواهر والأموال وآلات الذهب والفضة لهيكل بيت المقدس.

وكان ملك الشام يومئذٍ أنطِيخُس وهو الذي بني مدينة أنطاكية وكانت دار ملكه، وجعل بناء سورها أحد عجائب العالم في البناء، على السهل والجبل، ومسافة السور اثنا عشر ميلاً، وجعل عدد الأبراج فيه مائة وستة وثلاثين برجاً، وجعل عدد شرافاتها أربعة وعشرين ألف شرافة وجعل كل برج من الأبراج يتولاه بطريق برجاله وخيله، وجعل كل برج منها طبقات إلى أعلاه: فمرابط الخيل في أسفله وأرضه، والرجال في طبقاته والبطريق في أعلاه؛ وجعل كل برج منها كالحصن عليه أبواب حديد، وآثار الأبواب بيّنة إلى هذا الوقت وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وأظهر فيها مياه أعين وغيرها لا سبيل إلى قطعها من خارجها، وجعل بها مياهاً منصّبة في قني مخرقة إلى شوارعها ودورها.

ورأيت فيها من هذه المياه ما يستحجر في مجاريها المعمولة من الخزف لترادف التِقْن فيتراكم طبقات ويمنع الماء من الجريان بانسداده فلا يعمل الحديد في كسره؛ وقد ذكرنا في كتابنا المترجم بالقضايا والتجارب ما شاهدناه حساً ونمى إلينا خبراً مما يولده ماء أنطاكية في أجساد الحيوان الناطق وأجوافهم، وما يحدث في معدهم من الرياح السوداوية الباردة والقولنجية الغليظة؛ وقد أراد الرشيد سكناها، فقيل له بعض ما ذكرنا

من أوصافها وترادف الصداء على السلاح من السيوف وغيرها وعدم بقاء ريح أنواع الطيب بها واستحالتها على اختلاف أنواعه، فامتنع عن سكناها.

ثم ملك على اليونانيين بعد هيفلوس بطليموس الصانع ستاً وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده عليهم بطليموس المعروف بمحب الأب سبع عشرة سنة، وكانت له حروب مع ملوك الشام وصاحب أنطاكية الإسكندروس، وهو الذي بنى مدينة فامية بين حمص وأنطاكية؛ ثم ملك بعده على اليونانيين بطليموس صاحب علم علل الفلك والنجوم وكتاب المجسطي وغيره أربعاً وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده بطليموس مُحب الأم خمساً وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده بطليموس الصانع الثاني سبعاً وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده بطليموس الحمّص سبع عشرة سنة؛ ثم ملك بعده بطليموس الإسكندراني اثنتي عشرة سنة؛ ثم ملك بعده بطليموس الجديد ثماني سنين؛ ثم ملك بعده بطليموس الخُوال ثماني سنين وكانت له حروب كثيرة؛ ثم ملك بعده بطليموس الحديث ثلاثين سنة.

ثم ملكت بعده ابنته قلابطرة فكان ملكها اثنتين وعشرين سنة وكانت حكيمة متفلسفة مقرّبة للعلماء معظّمة للحكماء ولها كتب مصنّفة في الطب والرقية وغير ذلك من الحكمة مترجمة باسمها منسوبة إليها معروفة عند أهل صنعة الطب؛ وهذه الملكة آخر ملوك اليونانيين إلى أن انقضى ملكهم ودثرت أيامهم وامّحت آثارهم وزالت علومهم، إلا ما بقي في أيدي حكمائهم؛ وقد كان لهذه الملكة خبر طريف في موتها وقتلها لنفسها: وقد كان لها زوج يقال له أنطونيوس مشاركاً في ملك مقدونية، وهي بلاد مصر من الإسكندرية وغيرها، فسار إليهم الثاني من ملوك رومية وهو أُغُسطُس وكان أول من سُمّي قيصر وإليه تُنسب القياصرة بعده.

وسنذكر خبره في باب ملوك الروم بعد هذا الوضع؛ وكانت له حروب بالشام ومصر مع قلابطرة الملكة وزوجها أنطونيوس إلى أن قتله ولم يكن لقلابطرة في دفع أغسطس ملك الروم عن مُلك مصر حيلة؛ وأراد أغسطس إعمال الحيلة في أخذها لعلمه بحكمتها؛ وليتعلم منها لأنها كانت بقية الحكماء اليونانيين، ثم يعذّبها ويقتلها؛ فراسلها وعلمت مراده فيها وما قد وترها به من قتل بعلها وجنودها.

فطلبت الحية التي تكون بين الحجاز ومصر والشام وهي نوع من الحيات تراعي الإنسان حتى إذا تمكّنت من النظر إلى عضو من أعضائه قفزت أذْرعاً كثيرة كالريح، فلم تُخطىء ذلك العضو بعينه حتى تتفل عليه سُماً فتأتي عليه ولا يعلم بها لجموده من

فوره، ويتوهّم الناس أنه قد مات فجأة حتف أنفه؛ رأيت نوعاً من هذه الحيات بين بلاد خُوزِسْتان من كُوَر الأهواز لمن أراد بلاد فارس من البصرة وهو الموضع المعروف بخان مردويه بين مدينة دَوْرق وبلاد الباسيان والفندم في الماء، وهي حيات شِبْرية وتدعى هنالك الفِترية، ذات رأسين تكون في الرمل وفي جوف تراب الأرض، فإذا أحسّت بالإنسان أو غيره من الحيوان وثبت من موضعها أذرعاً كثيرة فضربت بأحد رأسيها إلى أيّ موضع من هذا الحيوان فيلحقه من ساعته ضد الحياة وعدمها لحينه.

فبعثت قلابطرة هذه الملكة فاحتمل لها حية من الصفة المقدم ذكرها التي توجد بأطراف الحجاز، فلمّا أن كان في اليوم الذي علمت أن أغسطس يدخل في قصر ملكها أمرت بعض جواريها ومن أحبّت فناءها قبلها وأن لا يلحقها العذاب بعدها فمسّتها في إنائها فجمدت من فورها؛ ثم جلست الملكة على سرير ملكها ووضعت تاجها على رأسها وعليها ثيابها وزينة ملكها، وجعلت أنواع الرياحين والزهر والفواكه والطيب وما يجتمع بمصر من عجائب الرياحين وغيرها مما ذكرنا مبسوطة في مجلسها وقُدّام سريرها، وعهدت بما احتاجت إليه من أمورها وفرقت حشمها من حولها فاشتغلوا بأنفسهم عن ملكتهم لما قد غشيهم من عدوهم ودخوله عليهم في دار ملكهم؛ وأدنت يدها من إناء الزجاج الذي كانت فيه الحية فقربت يدها من فيه فتفلت عليها الحية فجفّت مكانها، وانسابت الحية وخرجت من الإناء ولم تجد جحراً ولا مذهباً تذهب إليه لإتقان تلك المجالس بالرخام والمرمر والأصباغ، فدخلت في تلك الرياحين.

ودخل أغسطس حتى انتهى إلى المجلس، فنظر إليها جالسة والتاج على رأسها، فلم يشكّ أنها تنطق، فدنا منها فتبينّ له أنها ميتة؛ وأعجب بتلك الرياحين، فمد يده إلى كل نوع منها يلمسه ويتشممه ويُعجّب خواص من معه به، ولا يدري ما سبب موتها، وهو متأسف على ما فاته منها.

فبينما هو كذلك من تناول تلك الرياحين وشمها إذ قفزت عليه تلك الحية فرمته بسمها، فيبس شقه الأيمن من ساعته، وذهب بصره الأيمن وسمعه؛ فتعجّب من فعلها وقتلها لنفسها وإيثارها للموت على الحياة مع الذل، ثم ما كادته به من إلقاء الحية بين الرياحين، فقال في ذلك شعراً بالرومية يذكر حاله وما نزل به وقصتها؛ وأقام بعد ما نزل به ما ذكرنا يوماً وهلك، ولولا أن الحية كانت أفرغت سمها على الجارية ثم على قلابطرة الملكة لكان أغسطس قد هلك من ساعته ولم تمهله هذه المدة؛ وهذا الشعر

معروف إلى هذه الغاية عند الروم يذكرونه في نوحهم ويرثون به ملوكهم وموتاهم، وربما ذكروه في أغانيهم وهو متعالَم معروف عندهم.

وقد ذكرنا بما سلف من كتبنا سِير هؤلاء الملوك وأخبارهم وحروبهم وطوافهم البلاد وأخبار حكمائهم وما أحدثوه من الآراء والنّحل ومقائل فلاسفتهم وغير ذلك من أسرارهم وعجيب أخبارهم؛ والذي يعوّل عليه من عدد ملوكهم واتفق عليه أهل المعرفة بأخبارهم أن جميع عدد ملوك اليونانيين أربعة عشر ملكاً آخرهم الملكة قلابطرة، وأن جميع عدد سني ملكهم ومدة أيامهم وامتداد سلطانهم ثلاثمائة سنة وسنة واحدة.

وكان كل ملك يملك على اليونانيين بعد الإسكندر بن فلبس يسمى بطليموس، وهذا الاسم الأعم الشامل لملوكهم كتسمية ملوك الفرس كسرى وتسمية ملوك الروم قيصر وتسمية ملوك اليمن تُبع وتسمية ملوك الحبش النجاشي وتسمية ملوك الزوج وفليمي؛ وقد ذكرنا جملاً من مراتب ملوك العالم وسماتهم واسمهم الأعم الشامل لهم فيما سلف من كتابنا هذا وسنورد بعد هذا الموضع في الموضع المستحق له من هذا الكتاب جملاً عند ذكرنا الملوك والممالك إن شاء الله تعالى والله ولي التوفيق.

في ذكر الروم وما قاله الناس في أنسابهم وعدد ملوكهم وتأريخ سنيهم

تنازع الناس في الروم ولأية علة سموا بهذا الاسم: فمنهم من قال: سُمّوا روماً لإضافتهم إلى مدينة رومية ــ واسمها روماس بالرومية فعُرّب هذا الاسم ــ فسمي من كان بها روماً، وكذلك الروم في لغتهم لا يسمون أنفسهم ولا يدعوهم أهل الثغور إلا رومينس، ومنهم من رأى أن هذا الاسم اسم للأب وهو روم بن سماحليق بن هريان بن عيفاء بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل؛ ومنهم من رأى أنهم سموا باسم جدهم وهو روم بن لبط بن يونان بن يافث بن ثونه بن سرحون بن رومية بن بربط بن توفيل بن رومن بن الأصفر بن أليفز بن العيص بن إسحاق، وقد قيل من الوجوه غير ما ذكرنا؛ وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب اليونانيين نسب الإسكندر واتصاله بهذا النسب على ما ذكره الناس في ذلك ــ والله أعلم ــ.

وقد ولد للعيص ثلاثون رجلاً، فالروم الآخرة بنو الأصفر بن أليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم؛ وقد ذكر جماعة ممن سلف من شعراء العرب قبل ظهور الإسلام ذلك

لاشتهار ما وصفنا فيهم، منهم عدي بن زيد العبادي حيث يقول:

وبنُو الأصفر الكِرامُ ملوك الرومِ   لم يبقَ منهُمُ مذْكُورُ

وقد كان العيص بن إسحاق، وهو عيصو، تزوج في بنات الكنعانيين فأكثر أولاده منهم؛ وقد قيل إن العماليق، وهم العرب البائدة الذين كانوا بالشام من ولد أليفز بن عيصو، وكذلك رعوائيل بن عيصو؛ وهذا ما لا ينقاد إليه علماء العرب إلا في الروم دون من ذكرنا من العماليق وغيرهم؛ وهذه الأنساب كلها تتعلق بما في التوراة وغيرها من كتب العبرانيين.

قال المسعودي: وغلبت الروم على ملك اليونانيين لأخبار يطول ذكرها ويتعذّر في هذا الكتاب شرحها؛ فكان أول من ملك من ملوك الروم وماساطوخاس وهو جائيوس الأصغر بن روم بن سماحليق، فكان ملكه اثنتين وعشرين سنة؛ وقد قيل إن أول من ملك من ملوك الروم قيصر واسمه غايوس يوليوس ثماني عشرة سنة؛ وفي نسخة أخرى أن أول من ملك من ملوك الروم بعد اليونانيين برومية يوليس سبع سنين ونصفاً؛ وكانت مدينة رومية بنيت قبل الروم بأربعمائة سنة؛ ثم ملك بعده أغسطس قيصر ستاً وخمسين سنة، وهذا الملك أول من سمي من ملوك الروم قيصر، وهو الثاني من ملوكهم؛ وتفسير قيصر: بُقر أي شق عنه؛ وذلك أن أمه ماتت وهي حامل به، فشق بطنها؛ وكان هذا الملك يفتخر في وقته أن النساء لم تلده وكذلك من حدث بعده من ملوك الروم ممن كان من ولده يفتخر [ون] بهذا الفعل وما كان من أبيهم، فصار سمعة لمن طرأ بعده من ملوك الروم ـ والله أعلم بذلك ـ.

وغزا هذا الملك الشام ومصر والإسكندرية وأزال من بقي من ملوك الإسكندرية ومقدونية وهي مصر وقد قدّمنا أن كل ملك كان يلي مقدونية والإسكندرية يسمى بطليموس، واحتوى هذا الملك ـ أعني أغسطس ـ على خزائن ملوك الإسكندرية ومقدونية ونقلها إلى رومية، وكانت له حروب كثيرة في الأرض، قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا؛ وكان يعبد الأوثان وبنى بأرض الروم مدناً وكوّر كوَراً، تنسب تلك المدن إليه، منها قيسارية وكذلك بالشام بساحل فلسطين مدينة قيسارية.

وكان مولد المسيح عيسى بن مريم وهو أيشوع الناصري على حسب ما قدمنا لاثنتين وأربعين سنة خلت من ملك قيصر أغسطس هذا، فكان من ملك الإسكندر إلى مولد المسيح ثلاثمائة سنة وتسع وتسعون سنة؛ ورأيت في مدينة أنطاكية في بعض تواريخ

الروم الملكية في كنيسة القسيان أنه كان من ملك الإسكندر إلى مولد المسيح ثلاثمائة سنة وتسع وستون سنة؛ وكان مولد أيشوع الناصري لإحدى وعشرين سنة خلت من ملك هيرودس ملك بني إسرائيل في ذلك العصر بإيليا من بلاد فلسطين وهي أورشلم بالعبرانية؛ فمن هبوط آدم إلى مولد المسيح في تواريخ أصحاب الشرائع من أهل الكتب خمسة آلاف وخمسمائة سنة.

وأقام أغسطس قيصر ملكاً بعد مولد المسيح أربع عشرة سنة ونصفاً، فكان مدة ملكه على الروم برومية وفي سائر أسفاره ستاً وخمسين سنة على حسب ما قدمنا من موته ولسع الحية إياه بمقدونية وجفاف نصفه وذهاب سمعه وبصره عند ذكرنا لفعل قلابطرة بنفسها في الباب الذي قبل هذا الباب.

ثم ملك الروم بعده طِباريس، فكان مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة؛ ولثلاث سنين بقيت من ملكه رفع المسيح؛ ولما هلك هذا الملك برومية اختلفت الروم وتحزّبت فأقاموا على اختلاف الكلمة والتنازع في الملك مائتي سنة وثمانياً وتسعين سنة لا نظام لهم ولا ملك يجمعهم؛ ولما انقضى ما ذكرنا من هذه المدة ملّكوا عليهم [من ولد] طباريس غايس بمدينة رومية؛ فكان ملكه أربع سنين؛ والقوم لا يعرفون غير عبادة التماثيل والصور.

ثم ملك بعده قلوديس أربع عشرة سنة وذلك برومية؛ وهذا أول ملك من ملوك الروم شرع في قتل النصارى وأتباع المسيح؛ وقيل إن في أيامه قتل برومية بطرس واسمه بالسريانية شمعون والعرب تسميه سِمعان، هو وبولس وُصلبا منكّسين، وما كان من خبرهما مع سيما الساحر برومية وهما ممن أتى إلى أنطاكية وأخبر الله ـ عز وجل ـ عنهما في سورة يسٓ؛ ثم كان بعد ذلك لهما نبأ عظيم وذلك بعد ظهور النصرانية برومية فجُعلا في أجرنة من البلّور، فهما على ذلك بمدينة رومية في بعض الكنائس إلى هذه الغاية على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب؛ وأكثر من عُني بأخبار العالم وسِير ملوكهم وتأريخهم يذهب إلى أنهما قتلا برومية في ملك الخامس من ملوك الروم.

وتفرّق تلاميذ أيشوع الناصري في الأرض: فسار ماري إلى ما دنا من العراق فمات بمدينة دير قُنّى والصافية على شاطىء دجلة بين بغداد وواسط، وهذا البلد بلد علي بن عيسى بن داود بن الجراح ومحمد بن داود بن الجراح وغيرهما من الكتّاب؛ فقبره

هنالك في كنيسة إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، تُعظّمه أهل دين النصرانية؛ ومضى توما وكان من الاثني عشر تلميذاً إلى بلاد الهند داعياً إلى شريعة المسيح، فمات هناك؛ وسار آخر إلى آخر خراسان فمات هنالك، وموضع قبره مشهور تعظّمه النصارى؛ ومنهم من رأى أنه مات ببلاد دقوقا وخانيجار وكرخ جُدّان في تخوم العراق وموضعه مشهور.

ومات مارقُش بالإسكندرية من أرض مصر وقبره هنالك وهو أحد التلاميذ الأربعة الذين ألّفوا الإنجيل.

وتلاميذ المسيح اثنان وسبعون تلميذاً واثنا عشر من غير الاثنين والسبعين؛ فأما الذين نقلوا الإنجيل وهم لوقا ومارقش ويوحنا ومتّى فمنهم من الاثنين والسبعين: لوقا ومتّى، وقد يُعد متّى أيضاً في الاثني عشر، ولا أدري ما معناهم في ذلك؛ والاثنان اللذان من الاثني عشر: يوحنا بن زبدى ومارقش صاحب الإسكندرية والثالث الذي ورد إلى أنطاكية وقد تقدّمه بطرس وتوما، وهو بولس، وهو الثالث المذكور في القرآن بقوله تعالى: ﴿فَعَزَّزنَا بِثَالِثٍ﴾؛ وليس في سائر رهبان النصرانية من يأكل اللحم غير رهبان مصر لأن مارقش أباح لهم ذلك.

ثم ملك الروم نيرون واستقام ملكه ورغب في عبادة التماثيل والأصنام ويقال إنه قتل في ملكه بطرس وبولس برومية على حسب ما قدّمنا؛ ونما دين النصرانية في الروم وكثرت فيهم الدعاة إليه، فقتل هذا الملك منهم خلائق؛ وكان ملكه أربع عشرة سنة وأشهراً؛ ثم ملك بعده طِطُس وأسفسيانوس مشتركين في الملك ثلاث عشرة سنة وذلك بمدينة رومية؛ ولسنة من ملك هذين الملكين سارا إلى الشام فكانت لهما مع بني إسرائيل حروب عظيمة قُتل فيها من بني إسرائيل ثلاثمائة ألف، وخرّبا بيت المقدس وأحرقا الهيكل بالنار وحرثاه بالبقر وأزالا رسمه ومحوا أثره، وكانت عبادتهما الأصنام؛ ووجدت في بعض كتب التواريخ أن الله تعالى عاقب الروم من ذلك اليوم الذي خُرب فيه بيت المقدس أن يُسبى منهم كل يوم سبي، يفعل ذلك من أطاف ببلادهم من الأمم، فلا يأتي يوم من أيام العالم إلا والسبي قد وقع بهم، قلّ ذلك أو كثر.

ثم ملك الروم بعدهما دومِطيانُس خمس عشرة سنة عابداً للتماثيل معظّماً لها؛ ولتسع سنين من ملكه نفى يوحنا التلميذ ــ أحد الأربعة من أصحاب الإنجيل ــ إلى بعض

جزائر البحر، ثم رده بعد ذلك؛ ثم ملك بعده نيرواس سنة؛ ثم ملك بعده طريانوس تسع عشرة سنة، يعبد الأصنام؛ ولتسع سنين خلت من ملكه مات يوحنا التلميذ؛ ثم ملك بعده أدريانس إحدى عشرة سنة، يعبد التماثيل وخرب سائر ما بقي بالشام لبني إسرائيل.

ثم ملك بعده أنطونيُنس برومية ثلاثاً وعشرين سنة، وبنى بيت المقدس وسماه إيليا، وهو أول من سمّاه بهذا الاسم إيليا؛ ثم ملك بعده مرقُس تسع عشرة سنة، يعبد الأصنام؛ ثم ملك بعده قومودس، يعبد الأوثان ثلاث عشرة سنة؛ ثم ملك بعده سَويرُس ثماني عشرة سنة؛ ثم ملك بعده ولد له يقال له أنطونيَنُس يعبد التماثيل سبع سنين؛ ثم ملك بعده أنطونِيَنُوس الثاني أربع سنين يعبد التماثيل؛ وفي آخر ملك هذا الملك مات جالينوس الطبيب.

ثم ملك بعده الإسكندر ماماياس، وتفسير ماماياس العاجز، وكان يعبد التماثيل، فكان ملكه ثلاث عشرة سنة؛ ثم ملك بعده مقْسِمُس يعبد التماثيل وكان ملكه ثلاث سنين؛ ثم ملك بعده غُرديانُس يعبد الأوثان ست سنين؛ ثم ملك بعده دقيوس يعبد الأوثان سنتين، وأمعن في قتل النصرانية وطلبهم، ومن هذا الملك هرب أصحاب الكهف.

ثم ملك جالنوس ثلاث سنين؛ ثم ملك بعده بُرْبوس نحواً من عشرين سنة وقيل خمس عشرة سنة؛ ثم ملك بعده ولد له يقال له قارُس نحواً من سنتين؛ ثم ملك بعده دُقليطيانُس عشر سنين؛ ثم ملك بعده قُسطنطين.

قال المسعودي: والذي وجدت في الأكثر من كتب التواريخ مما اتفقوا عليه أن عدة ملوك الروم الذين ملكوا بمدينة رومية، وهم الذين قدّمنا ذكرهم في هذا الباب، تسعة وأربعون ملكاً وجميع عدد سني ملكهم من أول ملك ملكهم على حسب ما ذكرنا من الخلاف في صدر هذا الباب إلى قسطنطين هذا وهو ابن هِلاني أربعمائة سنة وسبع وثلاثون سنة وسبعة أشهر وستة أيام، ونُسَخ كتب التواريخ في المعنى مختلفة غير متفقة في أسماء ملوكهم ومدة ملكهم وأكثرها بالرومية؛ فحكينا من ذلك ما تأتّى لنا وصفه؛ ولهؤلاء الملوك أخبار وسِير هي موجودة في كتب النصارى الملكية قد أتينا على مبسوطها والغرض منها في كتابنا في أخبار الزمان، وما شيّدوا من البنيان وما كان لهم في هذا العالم من الأسفار والله الدائم الذي لا يزول ملكه.

في ذكر ملوك الروم المتنصرة وهم ملوك القسطنطينية ولُمع من أخبارهم

ملك قسطنطين بعد أن هلك دقليطيانس برومية، وهو يعبد الأوثان، وكان أول ملك انتقل من ملوك الروم عن رومية إلى بوزنْطيا وهي مدينة القسطنطينية؛ فبناها وسماها باسمه إلى وقتنا هذا؛ وكان له في بنائها خبر طريف مع بعض ملوك بُرجان لخوف داخله من بعض ملوك آل ساسان؛ وكان خروجه من رومية ودخوله في دين النصرانية لسنة خلت من ملكه؛ ولسبع سنين خلت من ملكه خرجت أمه هلاني إلى أرض الشلام فبنت الكنائس وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التي صُلب عليها المسيح عندهم؛ فلما صارت إليها حلّتها بالذهب والفضة واتخذت لوجودها عيداً، وهو عيد الصليب، وهو لأربع عشرة تخلو من أيلول وفيه تُفتح التُرع والخلجان ببلاد مصر على حسب ما نورده عند ذكرنا لأخبار مصر من هذا الكتاب.

وهي التي بنت كنيسة حِمْص على أربعة أركان وذلك من عجائب بنيان العالم، واستخرجت الكنوز والدفائن بمصر والشام وصرفت ذلك إلى بناء الكنائس وتشييد دين النصرانية؛ فكل كنيسة بالشام ومصر وبلاد الروم فإنها بنتْها هذه الملكة هلاني أم قسطنطين، وقد جُعل اسمها مع الصليب في كل كنيسة لها؛ وليس للروم في أحرفهم هاء وأحرف هلاني خمسة أحرف: فالأول إمالة وهي بحساب الجُمّل خمسة، والثاني لام وهي ثلاثون والثالث إمالة أيضاً وهي خمسة أيضاً، والرابع النون وهي خمسون، والخامس ياء وهي في حساب الجمل عشرة، فذلك مائة اختصاراً على ما ذكرنا وهذه صورة الحرف الذي هو مائة بالرومية [*Eλέtυn*].

ولتسع عشرة سنة خلت من ملك قسطنطين بن هلاني اجتمع ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً بمدينة نيقية بأرض الروم، فأقاموا دين النصرانية؛ وهذا الاجتماع أول الاجتماعات الستة التي يذكرها الروم في صلواتهم ويسمونها القوانين، ومعنى هذه الاجتماعات الستة بالرومية الشُنُودُسات واحدها سُندُس؛ فأولهم بنيقية على ما ذكرنا من العدد وكان الاجتماع فيه على أريوس وهذا اتفاق فيه من سائر أهل دين النصرانية من الملكية والمشارقة وهم العباد الذين تسميهم الملكية وعامة الناس النسطورية، واتفاق من اليعاقبة على هذا الشُنودس أيضاً؛ والسنودس الثاني بالقسطنطينية على مقدونس، وعدة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون رجلاً؛ والسنودس الثالث بأفْسِيس وعددهم

مائتا رجل؛ والسنودس الرابع بخلقدونية وعددهم ستمائة وستون رجلاً؛ والسنودس الخامس بالقسطنطينية وعددهم مائة وستون رجلاً؛ والسنودس السادس كان في ملكة المدن وعددهم مائتان وتسعة وثمانون رجلاً؛ وسنذكر بعد هذا الموضع في ترتيب ملوك الروم هذه السنودسات وغلبة دين النصرانية وزوال عبادة التماثيل والصور.

وكان السبب في دخول قسطنطين بن هلاني في دين النصرانية والرغبة فيه أن قسطنطين خرج في بعض حروب برجان أو غيرهم من الأمم فكانت الحرب بينهم سجالاً نحواً من سنة، ثم كانت عليه في بعض الأيام فقتل من أصحابه خلق كثير وخاف البوار؛ فرأى في النوم كأن رِماحاً نزلت من السماء فيها عَذَب وأعلام على رؤوسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس وأنواع الجواهر، وقيل له: «خذ هذه الرماح وقاتل بها عدوك تنصر»؛ فجعل يحارب بها في النوم، فرأى عدوه منهزماً وقد نصر عليه وولاه الدبر؛ فاستيقظ من رقدته ودعا بالرماح فركّب عليها ما ذكرنا ورفعها في عسكره وزحف إلى عدوه: فولّوا وأخذهم بالسيف؛ فرجع إلى مدينة نيقية وسأل أهل الخبرة عن تلك الصلبان وهل يعرفون ذلك في شيء من الآراء والنِحل؛ فقيل له إن بيت المقدس من أرض الشام مجمع لهذا المذهب وأخبر بما فعله مَن قبله من الملوك في قتل النصرانية؛ فبعث إلى الشام وبيت المقدس فحشر له ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً فأتوه وهو بنيقية، فقصّ عليهم أمره، فشرحوا له دين النصرانية؛ فهذا هو السنودس الأول، وهو الاجتماع على حسب ما ذكرنا؛ وقد قيل إن أم قسطنطين هلاني كانت قد تنصّرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا.

فكان ملك قسطنطين إلى أن هلك إحدى وثلاثين سنة، وفي وجه آخر من التاريخ أنه ملك خمساً وعشرين سنة.

قال المسعودي: ولم تزل الحكمة نامية عالية زمن اليونانيين وبرهة من مملكة الروم تعظّم العلماء وتشرّف الحكماء، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس والتعاليم الأربعة ـ أعني الأرثماطيقي وهو علم الأعداد، والجومطريقا وهو علم المساحة والهندسة، والأسطرنوميا وهو علم التنجيم، والموسيقا وهو علم تأليف اللحون ـ، ولم تزل العلوم قائمة السوق مشرفة الأقطار قوية المعالم شديدة المقاوم سامية البناء إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم: فعفَوا معالم الحكمة وأزالوا رسمها ومحوا سُبُلها وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته وغيّروا ما كانت القدماء منهم أوضحته.

ثم ملك الروم بعد قسطنطين بن هلاني الملك المتنصّر قسطنطين بن قسطنطين وهو ابن الملك الماضي؛ فكان ملكه أربعاً وعشرين سنة؛ وبنى كنائس كثيرة وشيّد دين النصرانية؛ ثم ملك ابن أخي قسطنطين الأول يوليانس/لليانس فرفض دين النصرانية ورجع إلى عبادة الأصنام وهو يوليانس/لليانس المعروف بالحنيفي؛ وأهل دين النصرانية لبُغضهم له لرجوعه عن النصرانية وتغييره لرسومها يسمونه البُرتاط؛ وغزا العراق في ملك سابور بن أردشير بن بابك، فأتاه سهم غرب فذبحه؛ وقد كان سار إلى العراق في جنود لا تحصى، ولم يكن لسابور حيلة في دفعه ولقائه لمفاجأته إياه؛ فانصرف سابور عن اللقاء إلى الحيلة فكان من أمره ما وصفنا من سهم الغرب؛ فكان ملكه إلى أن هلك سنة وقيل أكثر من ذلك وهو الملك الثالث بعد ظهور دين النصرانية.

ولما هلك يوليانس/لليانس جزع من كان معه من الملوك والبطارقة والجيوش ففزعوا إلى بطريق كان معظّماً فيهم يقال له يوبيانس وقيل إنه كان كاتب الماضي؛ فأبى عليهم أن يتملّك إلى أن يرجعوا إلى دين النصرانية، فأجابوه إلى ذلك؛ وضايق سابور القوم وأحاط بعساكرهم، وكان ليوبيانس مع سابور مراسلات ومهادنة واجتماع ومحادثة ومعاشرة، ثم افترقا وانصرف بجيوش النصرانية موادعاً لسابور وأخلف عليه ما أتلف من أرضه بأموال حملها إليها وهدايا من لطائف الروم؛ وشيد دين النصرانية وردها إلى ما كانت عليه، ومنع من الأصنام والتماثيل وقتل على عبادتها؛ فكان ملكه سنة.

ثم ملك بعده أوالَنْس وهو على دين النصرانية ثم رجع عنها وهلك في بعض حروبه؛ فكان ملكه إلى أن هلك أربع عشرة سنة؛ وقيل إن في أيامه استيقظ أهل الكهف من رقدتهم على حسب ما أخبر الله ـ جل ثناؤه ـ عنهم أنهم بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة، وهذا الموضع من أرض الروم في الشمال؛ وللناس ممن عُني بعلم الفلك في ازورار الشمس عن كهفهم في حال طلوعها وغروبها لموضعهم من الشمال كلام كثير؛ وقد أخبر الله ـ عزّ وجل ـ في كتابه بذلك فقال: ﴿وتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طلَعَتْ تَزَاوَرُ عنْ كَهْفِهِم﴾ الآية؛ وكانوا من أهل مدينة أفسيس من أرض الروم.

ثم ملك الروم بعد أوالنس غراطيانُس خمس عشر سنة؛ ولسنة خلت من ملكه كان اجتماع النصرانية وهو أحد الاجتماعات، فأتمّوا القول في روح القدس عندهم وأحرموا مقدونس بطرك القسطنطينية وهو السنودس الثاني؛ ثم ملك بعده تُدُوسيس الأكبر وتفسير هذا الاسم عندهم: عطية الله، وقام بدين النصرانية وعظم منها وبنى كنائس؛

ولم يكن من أهل بيت الملك ولا من الروم بل كان أصله من الأشبان، وهي بعض الأمم السالفة.

فكان ملك تدُوسيس إلى أن هلك سبع عشرة سنة، ثم ملك بعده أرقاديُس أربع عشرة سنة وكان على دين النصرانية؛ ثم ملك بعده ابنه تدوسيس الأصغر؛ وكان بمدينة أفسيسد فجمع مائتي أسقف وهو الاجتماع الثالث الذي قدّمنا ذكره آنفاً، ولُعن فيه نَسْطُورُس البطرك؛ وقد ذكرنا في كتابنا الأعظم في أخبار الزمان الحيلة التي وقعت على نسطورس بطرك القسطنطينية من صاحب الكرسيّ بالإسكندرية، وما كان من نسطورس ونفيه ليوحنا المعروف بفم الذهب، وما كان من يدوقيا زوجة الملك، إلى أن نُفي نسطورس من القسطنطينية إلى أنطاكية، ثم منها إلى صعيد مصر.

والمشارقة من النصارى أُضيفوا إلى نسطورس لأنهم اتبعوه وقالوا بقوله، وإنما وسمتهم الملكة بهذا الاسم لتعيرهم وتعيبهم بذلك؛ وقد كانت المشارقة بالحيرة وغيرها من الشرق تدعى بالعباد، وسائر نصارى المشرق يأبون هذه الإضافة إلى نسطورس ويكرهون أن يقال لهم نسطورية؛ وقد أيد برصوما مطران نصيبين رأي المشارقة بالثالوث ـ وهو الكلام في الأقانيم الثلاثة ـ والجوهر الواحد وكيفية اتحاد اللاهوت القديم بالناسوت المحدَث.

وكان ملك تُدُوسيس الأصغر إلى أن هلك اثنتين وأربعين سنة؛ ثم ملك بعده مرقيانُس وزوجته بُلْخاريا وكانت ملكة؛ وفي أيامهما كان خبر اليعاقبة من النصارى ووقوع الخلاف بينهم في الثالوث؛ فكان ملكهما سبع سنين؛ وأكثر اليعاقبة بالعراق وبلاد تكريت والموصل والجزيرة وبمصر أقباطها إلا اليسير فإنهم ملكية، والنوبة والأرمن يعاقبة، ومطران اليعاقبة بتكريت بين الموصل وبغداد؛ وقد كان لهم بالقرب من رأس عين واحد فمات وصاحبهم اليوم بناحية حلب ببلاد جند قِنّسْرين والعواصم؛ وكرسي اليعاقبة فرسمه أن يكون بمدينة أنطاكية، وكذلك لهم كرسي بمصر، ولا أعلم لهم غير هذين الكرسيين وهما مصر وأنطاكية.

ثم ملك بعدهما أليون الأكبر بن أليون، فكان ملكه ست عشرة سنة؛ وفي أيامه أُحْرم دِيُسقُره اليعقوبي بطرك الإسكندرية واجتمع له من الأساقفة ستمائة وثلاثون أسقفاً، وفي تأريخ الروم أن عدة المجتمعين ستمائة وستون رجلاً وذلك بخلْقَدُونية، وهذا الاجتماع السنودس الرابع عند الملكية، واليعاقبة لا تعتد بهذا السنودس، ولهم خبر طريف في

قصة سوارُس البطرك، وما كان من خبره وخبر تلميذه يعقوب البرادِعي ودعوته إلى مذهب سوارس؛ واليعاقبة أُضيفت إلى مذهب يعقوب البرادعي هذا وبه عُرفت، وكان من أهل مدينة أنطاكية يعمل البرادع.

ثم ملك بعده أليون الأصغر بن أليون سنة على دين الملكية؛ ثم ملك بعده زينون وهو من بلاد اليرميان، وكان يذهب إلى رأي اليعقوبية؛ وكان ملكه سبع عشرة سنة؛ وكانت له حروب مع خوارج خرجوا عليه في دار الملك فظفر بهم؛ ثم ملك بعده نسْطاس وكان يذهب إلى مذهب اليعقوبية وبنى مدينة عمُّورية وأصاب كنوزاً ودفائن عظيمة؛ وكان ملكه إلى أن هلك تسعاً وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده يُوسْطِينوس تسع سنين.

ثم ملك بعده يُوسْطانيانُس تسعاً وثلاثين سنة وقيل أربعين؛ وبنى كنائس كثيرة وشيّد دين النصرانية وأظهر مذهب الملكية، وبنى كنيسة الرُّها وهي إحدى عجائب العالم والهياكل المذكورة؛ وقد كان في هذه الكنيسة منديل تعظّمه أهل النصرانية وذلك أن إيشوغ الناصري حين خرج من ماء المعمودية تنشّف به؛ فلم يزل هذا المنديل يتداول إلى أن قرّر بكنيسة الرُّها، فلما اشتد أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرُّها في هذه السنة وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة أُعطي هذا المنديل للروم، فجنحوا إلى الهدنة؛ وكان للروم عند تسلُّمهم هذا المنديل فرح عظيم.

ثم ملك بعده ابن أخيه يُوسطينُس ثلاث عشرة سنة على رأي الملكيَّة؛ ملك بعده طِبَارِيس أربع سنين؛ وأظهر في ملكه أنواعاً من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضّة وغير ذلك من آلات الملوك؛ ثم ملك بعده مُورِيقيس عشرين سنة؛ انتصر كسرَى أبرويز على بهرام جُوبين فقتل غيلةً، وبعث أبرويز غصباً له بجيوش إلى الروم، فكانت لهم حروب على حسب ما قدَّمنا؛ وملك بعده فُوقاس ثماني سنين إلى أن قُتل أيضاً؛ ثم ملك بعده هِرَقْل وكان بِطريقاً في بعض الجزائر قبل ذلك دمَّر بيت المقدس وذلك بعد انكشاف الفُرس عن الشام وبنى الكنائس؛ سبع سنين من ملكه كانت هجرة النبيّ صلعم من مكة إلى المدينة شرفها الله تعالى.

في ذكر ملوك الروم بعد ظهور الإسلام

قال المسعودي: وجدت في كتب التواريخ تنازعاً في مولد النبي صلعم وفي عصر من

كان من ملوك الروم: فمنهم من ذهب إلى ما قدّمنا من مولده وهجرته، ومنهم من رأى أن مولده عم كان في ملك يوسطينوس الأول وكان ملكه تسعاً وعشرين سنة، ثم ملك يوسطينوس الثاني وكان ملكه عشرين سنة، ثم ملك هرقل بن يوسطينوس، وهو الذي ضرب الدنانير والدراهم الهِرقلية، وكان ملكه خمس عشرة سنة، ثم ملك بعده ابنه مُورق بن هرقل، والذي في كتب الزيجات في النجوم وعليه يعمل أصحاب الحساب في تواريخ ملوك الروم ممن سلف وخلف، أن ملك الروم كان في وقت ظهور الإسلام وأيام أبي بكر وعمر هرقل، وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب التواريخ وأصحاب الأخبار والسِير، إلا في اليسير منها؛ وفي تواريخ أصحاب السير أن رسول الله صلعم هاجر وملك الروم قيصر بن فوق.

ثم ملك بعده قيصر بن قيصر وذلك في أيام أبي بكر الصدّيق؛ ثم ملك على الروم هرقل بن قيصر وذلك في خلافة عمر بن الخطاب وهو الذي حاربه أمراء الإسلام الذين فتحوا الشام مثل أبي عبيدة ابن الجرّاح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم من أمراء الإسلام، حتى أخرجوه من الشام، وكان الملك على الروم مورق بن هرقل في خلافة عثمان بن عفان؛ ثم ملك فوق بن مورق في خلافة علي بن أبي طالب وأيام معاوية بن أبي سفيان؛ ثم ملك بعده قُكُنَط بن فوق بقية أيام معاوية، وقد كانت بينه وبين معاوية مراسلات ومهادنات، وكان المختلف بينهما يناق الرومي غلام كان لمعاوية؛ وقد كان هادن أباه فوق بن مورق حين سار إلى حرب علي بن أبي طالب وكان بشّره بالملك وأعلمه أن المسلمين تجتمع كلمتهم على قتل صاحبهم يعني عثمان، ثم يؤول الملك إلى معاوية؛ وقد كان معاوية يومئذٍ أميراً على الشام لعثمان، في خبر طويل قد أتينا على ذكره في الكتاب الأوسط، وأن ذلك من علم الملاحم يتوارثه ملوك الروم عن أسلافهم؛ فكان ملك قُكُنَط بن فوق في الآخر من أيام معاوية وأيام يزيد بن معاوية وأيام معاوية بن يزيد وأيام مروان بن الحكم وصدرٍ من أيام عبد الملك بن مروان.

ثم ملك لاون بن قُكُنَط في أيام عبد الملك بن مروان؛ وكان الملك بعده بردان بن لاون في أيام الوليد بن عبد الملك وأيام سليمان بن عبد الملك وخلافة عمر بن عبد العزيز؛ ثم اضطرب ملك الروم لما كان من أمر مسلمة بن عبد الملك وغزو المسلمين إياهم في البر والبحر؛ فملّكوا عليهم رجلاً من غير أهل بيت الملك من أهل مرْعش يقال له جرجس فكان ملكه تسع عشرة سنة، ولم يزل ملك الروم مضطرباً إلى أن ملكهم قسطنطين بن

أليون وذلك في خلافة أبي العباس السفّاح وأبي جعفر المنصور أخيه؛ ثم ملك بعده أليون بن قسطنطين وذلك في أيام المهدي والهادي؛ ثم ملك قسطنطين بن أليون وكانت أمه إرين ملكة معه مشاركة له في الملك لصغر سنه إلى أيام هارون الرشيد؛ فمات قسطنطين بن أليون بن قسطنطين وسُملت عينا أمه بعد ذلك، لأخبار يطول ذكرها.

ثم ملك على الروم نِقْفور بن استبراق، وكانت بينه وبين الرشيد مراسلات، وغزاه الرشيد فأعطاه القوَد من نفسه من بعد بغي كان منه في بعض مراسلاته، فانصرف الرشيد عنه، ثم غدر ونقض ما كان أعطاه من الانقياد، وكتم عن الرشيد أمره لعارض علة كان وجدها بالرقة؛ وفي انقياد نِقفور إلى الرشيد وحمله الأموال والهدايا الضريبة إليه يقول أبو العتاهية:

إمام الهُدى أصبحتَ بالدين معنيّاً ... وأصبحتَ تسقي كلَّ مستمطِرٍ ريّا

لك اسمانِ شُقّا من رُشادٍ ومن هُدى ... فأنتَ الذي تُدعى رشيداً ومهديّا

إذا ما سخِطت الشيء كان مُسَخّطاً ... وإن ترضَ شيئاً كان في الناس مرضيّا

بسطت لنا شرقاً وغرباً يدَ العُلى ... فأوسعتَ شرقيّاً وأوسعتَ غربيّا

ووشّيتَ وجهَ الأرضِ بالجُود والندى ... فأصبحَ وجهُ الأرضِ بالجود مغشِيّا

وأنتَ، أمير المؤمنين، فتى التُّقى ... نشرتَ من الإحسانِ ما كان مطْويّا

تجلّبتِ الدُّنيا لهارونَ بالرضا ... وأصبح نِقْفورٌ لهارونَ ذِمّيّا

فلما عوفي الرشيد من علته دخل عليه بعض الشعراء وقد هاب الناس أن يخبروه بغدر نقفور، فقال:

نقض الذي أعطاكهُ نِقفورُ ... وعليه دائرة البوار تدورُ

أبشرْ أمير المؤمنين فإنه ... فتحٌ أتاك به الإلاهُ كبيرُ

فتحٌ يزيد على الفُتوح يؤمّنا ... بالنصر فيه لواؤك المنصورُ

فلقد تباشرتِ الرعية إذ أتى ... بالغدر عنه وافد وبشيرُ

ورجتْ يمينك أن تعجّل غزوةً ... تشفي النفوسَ نكالها مذكورُ

نِقفور إنك حين تغدر إن نأى عنك الإمامُ لجاهل مغرورُ

أظننت حين غدرتَ أنك مُفلتٌ هبِلَتْك أمك ما ظننت غرورُ

إن الإمام على اقتسارك قادرٌ قربتْ ديارك أم نأت بك دورُ

ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً عما يسوس بحزمه ويديرُ

ملكٌ تجرّد للجهاد بنفسه فعدوّهُ أبداً به مقهورُ

يا من يريد رضا الإلاه بسعيه والله لا يخفى عليه ضميرُ

لا نصحَ ينفع من يغشّ إمامه والنصحُ من نُصحائه مشكورُ

نصحُ الإمام على الأنام فريضةٌ ولأهله كفارةٌ وطهورُ

وهي طويلة.

فلما أنشدها قال الرشيد: «أوَ قد فعل!»، وعلم أن الوزراء قد احتالوا؛ فتجهّز وغزاه، فنزل على هرقلة وذلك في سنة تسعين ومائة؛ وأخبرني أبو عُمير عدي بن أحمد بن عبد الباقي الأَذَني أن الرشيد لما أراد النزول على حصن هرقلة وكان معه أهل الثغور وكان فيهم شيخا الثغور الشامية مخلَد بن الحسين وأبو إسحاق الفزاري صاحب كتاب السير، فخلا الرشيد بمخلد بن الحسين فقال: «ايش تقول في نزولنا على هذا الحصن؟» ـ فقال: «هذا أول حصن لقيته من حصون الروم، وهو في نهاية المنعة والقوة؛ فإن نزلت وسهّل الله تعالى فتحه لم يتعذّر عليك فتح حصن بعده»، فأمره بالانصراف.

ودعا بأبي إسحاق الفزاري، فقال له مثل ما قال لمخلد؛ فقال: «يا أمير المؤمنين، هذا حصن بنته الروم في نحر الدروب وجعلته لها ثغراً من الثغور، وليس بالآهل؛ فإن أنت فتحته لم يكن فيه ما يعم المسلمين من الغنائم، وإن تعذّر فتحه كان ذلك نقصاً في التدبير؛ والرأي عندي أن يسير أمير المؤمنين إلى مدينة عظيمة من مدن الروم: فإن فُتحت عمّت غنائمها المسلمين، وإن تعذّر ذلك قام العذر»؛ فمال الرشيد إلى القول الأول، قول مخلد؛ فنزل على هرقلة ونصب حواليها الحرب سبعة عشر يوماً؛ فأصيب خلقٌ كثير من المسلمين وفنيت الأزواد والعُلوفات وضاق صدر الرشيد من ذلك.

فأحضر أبا إسحاق الفزاري فقال: «يا إبراهيم، قد ترى ما نزل بالمسلمين؛ فما الرأي الآن عندك؟» ـ فقال: «يا أمير المؤمنين، قد كنت أشفقت من هذا وقدمت القول فيه

ورأيت أن يكون الحرب والجد من المسلمين على غير هذا الحصن؛ وأما الآن فلا سبيل إلى الرحيل عنه من بعد المباشرة، فيكون ذلك نقصاً في الملك ووهناً على الدين وإطماعاً لغيره من الحصون في الامتناع عن المسلمين والمصابرة لهم؛ لكن الرأي، يا أمير المؤمنين، أن تأمر بالنداء في الجيش أن أمير المؤمنين مقيم على هذا الحصن إلى أن يفتحه الله على المسلمين، وتأمر بجمع الحجارة وقطع الخشب وبناء مدينة بإزاء هذا الحصن إلى أن يفتحه الله تعالى، ولا يكون هذا الخبر ينمي إلى من في الجيش إلا على المقام؛ فإن النبي عم قال: «الحرب خدعة» وهذه حرب حيلة لا حرف سيف»؛ فأمر الرشيد من ساعته بالنداء، فحملت الحجارة وقُطع الشجر وأخذ الناس في البناء؛ فلما رأى أهل الحصن ذلك جعلوا يتسلّلون في الليل ويُدلّون أنفسهم بالحبال.

وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دُريد: أخبرني أبو العيناء قال: أخبرني شِبل الترجمان قال: كنت مع الرشيد حين نزل على هرقلة وفتحها؛ فرأيت ببابها حجراً منصوباً مكتوباً عليه باليونانية؛ فجعلت أترجمه والرشيد ينظر إلي وأنا لا أعلم فكانت ترجمته: «بسم الله الرحمن الرحيم يا ابن آدم غافص الفرصة عند إمكانها وكل الأمور إلى وليها ولا يحملنّك إفراط السرور على المأثم ولا تحمل على نفسك همّ يوم لم يأتِ، فإنه إن يكون من أجلك وبقية عمرك يأت الله فيه برزقك؛ فلا تكن من المغرورين بجمع المال؛ فكم قد رأينا جامعاً لبعل حليلته ومقتراً على نفسه موفّراً لخزانة غيره»؛ وقد كان تأريخ الكتاب في ذلك اليوم زائداً على ألفي سنة؛ وباب هرقلة مطل على وادٍ وخندق يطيف بها.

ثم ملك بعده نقفور استبراق بن نقفور بن استبراق في أيام محمد الأمين، فلم يزل ملكاً حتى غلب على الملك قسطنطين بن قُكنط؛ فكان ملك قسطنطين هذا في خلافة المأمون؛ ثم ملك بعده توْفيل، وذلك في خرفة المعتصم وهو الذي فتح بطرة، وغزاه المعتصم ففتح عمُّورية؛ وسنورد خبره فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار المعتصم، إن شاء الله؛ ثم ملك بعده ميخائيل بن توْفيل وذلك في خلافة الواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين؛ ثم كان بين الروم تنازع في الملك، فملّكوا عليهم توفيل بن ميخائيل بن توفيل، ثم غلب على الملك بسيل الصقْلَبيّ ولم يكن من أهل بيت الملك؛ فكان ملكه أيام المعتزّ والمهتدي وبعض خلافة المعتمد، ثم هلك فملّكوا عليهم ابناً له يقال له الإسكندروس فلم يحمدوا أمره فخلعوه وملّكوا عليهم أخاه لاون بن بسيل الصقلَبيّ

فكان ملكه بقية أيام [المعتمد وأيام] المعتضد والمكتفي وصدراً من أيام المقتدر، ثم هلك وخلف ولداً له صغيراً يقال له قسطنطين، فملك وغلب على مشاركته في الملك أرمنوس بطريق البحر وصاحب غزوه وحربه؛ فزوّج قسطنطين الصبي بابنته وذلك في بقية أيام المقتدر وأيام القاهر والراضي والمتقي إلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة في خلافة أبي إسحاق المتقي لله ابن المقتدر.

فملوك الروم في هذا الوقت المؤرخ [به كتابنا] ثلاثة: فالأكبر منهم والمدبر للأمور أرمنوس المتغلّب، ثم الثاني قسطنطين بن لاون بن بسيل والملك الثالث ابنٌ لأرمنوس يخاطب بالملك واسمه إسطفانُس، وجعل أرمنوس ابناً له آخر صاحب الكرسي بالقسطنطينية وهو البطرك الأكبر الذي يأخذون عنه دينهم وقد كان خصاه قبل ذلك وقرّبه إلى الكنيسة؛ فأمرُ الروم في وقتنا هذا يدور على من ذكرنا من ملوكهم.

قال المسعودي: وإلى هذا الوقت انتهت أخبار ملوك الروم على حسب ما ذكرنا، والله أعلم بما يكون من أمرهم في المستقبل من الزمان؛ فجميع عدد سني ملوك الروم المتنصرة من قسطنطين بن هلاني وهو المظهر لدين النصرانية على ما ذكرنا إلى هذا الوقت خمسمائة سنة وسبع سنين، والذي أُجمع عليه من عدد ملوكهم من قسطنطين إلى هذا الوقت المؤرخ [به كتابنا] أحد وأربعون ملكاً، ولم يُعدّ ابن أرمنوس ووقع العدد على قسطنطين وأرمنوس اللذين هما ملكا الروم في هذا الوقت المؤرخ؛ وإن أدخلنا في العدد ابن أرمنوس فعدد ملوك الروم من بدء النصرانية وهو ملك قسطنطين بن هلاني اثنان وأربعون ملكاً في مدة هذه السنين المذكورة؛ وقد ذهب جماعة ممن عُني بتاريخ العالم إلى أن من هبوط آدم إلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة المؤرخة ستة آلاف سنة ومائتان وتسع وخمسون سنة؛ وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملاً من تأريخ سني العالم والأنبياء والملوك في باب نُفرده لذلك إن شاء الله تعالى.

٤

العرب

في الأنساب وتفرّق الأحياء(*)

وقد كان في زمان النمرود بن كوش بن حام بن نوح هيجان الرياح التي نسفت صرح النمرود ببابل من أرض العراق؛ فبات الناس ولسانهم سرياني وأصبحوا وقد تفرّقت لغاتهم على اثنين وسبعين لساناً؛ فسمي الموضع من ذلك الوقت بابل؛ فصار من ذلك في ولد سام بن نوح تسعة عشر لساناً وفي ولد حام بن نوح ستة عشر لساناً وفي ولد يافث بن نوح سبعة وثلاثون لساناً على حسب ما ذكرنا في صدر هذا الكتاب.

وكان من تكلّم بالعربية يَعرُب بن قحطان وجرْهُم وعاد وعبيل وجديس وثمود وعملاق وطسم ووبار وعبد ضُخم، فسار يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن سالم بن أرفَخْشد بن سام بن نوح بمن تبعه من ولده وغيرهم وهو يقول:

أنا ابن قحطان الهُمام الأفضل   يا قوم سيروا في الرعيل الأولِ

أنا البديّ باللسان المسهل   المنطق الأبين غير المشكل

نحو يمين الشمس في تمهل

فحل باليمن على ما وصفنا آنفاً في هذا الكتاب.

وسار بعده عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه وهو يقول:

(*) مروج الذهب، الفقرات ١١٤١ ــ ١١٨٩.

إنــي أنــا عــاد الــطــويــل الــبــادي وســامُ جــدّي وابــن نــوح الــهــادي

فــقــد رأيــتــم يــعــرب الــزيــادي وســـوْقَـــه الــطـــارف والــتِـــلادِ

فحلّ بالأحقاف بين بلاد عُمان وحضرموت واليمن؛ وتفرّق هؤلاء في الأرض: فانتشر منهم أناس كثير منهم جَيْرون بن سعد بن عاد حلّ بدمشق فمصّر مصرها وجمع عمد الرخام والمرمر إليها وشيّد بنيانها وسماها إرم ذات العماد، وقد رُوي عن كعب الأحبار في إرم ذات العماد غير هذا، وهذا الموضع بدمشق في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة سوق من أسواقها بباب المسجد الجامع يُعرف بجيْرون وباب جيرون، وهو بنيان عظيم كان قصر هذا الملك عليه أبواب من النحاس عجيبة بعضها على ما كانت عليه والبعض على المسجد الجامع؛ وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب خبر نبي الله هُود.

وسار بعد عاد بن عوص ثمود بن عابر بن أرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه وهو يقول:

أنــا الــفــتــى الــذي دعــا ثــمــودا يــا قــوم ســيــروا ودعــوا الــتــرديــدا

لــعــلــنــا أن نــدرك الــوفــودا فــنــلــحــق الــبــادي لــنــا الــصــنــديــدا

ابــن أبــيــنــا يــعــرُب الــحــمــيــدا وعــاد مــا عــاد الــفــتــى الــجــلــيــدا

فنزلوا الحجر إلى قُرح؛ وقد تقدّم ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب وخبر نبيهم صالح وأنهم نزلوا وادي القُرى بين الشام والحجاز؛ وسار بعد ثمود جديس بن عابر بن أرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه وهو يقول:

أنــا جــديــس والــمــسـيــر الــمــسـلــكــا فــدتــك نــفــســي يــا ثــمــود الــمــهــلــكــا

دعــوتــنــي وقــد قــصــدت نــحــوكــا إذ سارت الــعــيــس وأبــدت شــخــصــكــا

وقد قلنا فيما سلف إن هؤلاء نزلوا اليمامة.

وسار بعد جديس عملاق بن لاود بن أرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه وهو يقول:

لــمــا رأيــت الــنــاس فــي تــبــلــبــلِ وســار مــنــا ذو الــلــســان الأولِ

فــســرت طــرّاً بــالــســوام الــمــهــمــلِ نــحــو يــمــيــن الــشــمــس فــي تــمــهــلِ

فنزل هؤلاء أكناف الحرم والتهائم ومنهم من سار إلى بلاد مصر والمغرب، وقد ذكرنا أن هؤلاء بعض فراعنة مصر؛ وقد ذكرنا قول من ألحق العماليق وغيرهم ممن ذكرنا بعيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل وزعم أنهم من ولْد العيص على حسب ما ذكرنا فيما تقدّم؛ وقد كان للعماليق ملوك كثيرة سلفت في مواضع من الأرض بالشام وغيره وقد أتينا على أخبارهم وذكر ممالكهم وحروبهم في كتابنا في أخبار الزمان.

وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب قصة يوشع بن نون مع ملك العماليق ببلاد أيلة وهو السميدع بن هوبر، وقد كان من بقي من العماليق انضافوا إلى ملوك الروم فملّكتهم الروم على مشارق الشام والغرب والجزيرة من ثغور الروم فيما بينهم وبين الفرس؛ فممن ملكته الروم من العماليق أُذينة بن السمَيْدع الذي يذكره الأعشى في قوله:

أزال أُذينة عن مُلكِهِ وأخرج عن أهله ذا يَزَن

وقد كان ملك بعد العماليق حسان بن أذينة بن ظرِب بن حسان وكان يُعرف بأمه ثِربا؛ ثم ملك بعده عمرو بن ظَرِب ويقال إن عمراً هذا هو الذي كان يُعرف بأمه ثربا؛ وقد كان بينه وبين جذيمة الأبرش ابن مالك بن فهم الأزدي حروبٌ كثيرة فقتله جذيمة على ما ذكرنا وما كان من قتل الزبّاء لجذيمة.

ثم سار طَسْم بن لاود بن أرم بن سام بن نوح بعد عملاق بن لاود بولده ومن تبعه وهو يقول:

إنّي أنا طسم وجدي سامْ سام بن نوح وهو الإمامْ

لما رأيت الأخ والأعمامْ قلت لنفسي: الحقي السوامْ

أخاك عملاقا فاودي الإقدامْ وخلفي يافث وأهل حامْ

فنزل هؤلاء بالبحرين.

وقد كان جميع من ذكرنا بدواً فانتشروا في سائر الأرض على حسب ما ذكرنا من مساكنهم فيها؛ وكثرت جديس فملّكت عليها الأسود بن غفار وكثرت طسم فملك عليها عملوق بن جديس؛ وذكر عُبيد (عَبيد) بن شرْية الجُرْهُمي حين ورد على معاوية أن طسم بن لاود بن أرم بن سام بن نوح وجديس بن عابر [بن أرم] بن سام بن نوح هما العرب العاربة وكان منزلهما جميعاً باليمامة واسمها إذ ذاك جوّ؛ كان في طسم

ملك يقال له عملوق وكان ظلوماً غشوماً لا ينهاه شيء عن هواه مع إصراره وإقدامه على جديس وتعديه عليهم وقهره إياهم؛ فلبثوا في ذلك دهراً وهم أهل بطالة قد غمطوا النعمة وانتهكوا الحرمة وبلادهم أفضل البلاد وأكثرها خيراً، فيها صنوف الشجر والأعناب وهي حدائق ملتفة وقصور مصطفّة.

فلم يزل على ذلك حتى أتته امرأة من جديس يقال لها هُزيْلة بنت مازن وزوج لها قد فارقها يقال له ماش [وكان قد طلّقها] فأراد قبض ولدها منها، فأبت عليه فترافعا إلى عملوق ليحكم بينهما؛ فقالت المرأة: «أيها الملك هذا الذي حملته تسعاً ووضعته دفعاً (رفعاً) وأرضعته شبعاً ولم أنل منه نفعاً حتى إذا تمت أوصاله واستوفى فصاله، أراد أن يأخذه [مني] قسراً ويسلبنيه قهراً ويتركني منه صفراً» ـ قال زوجها: «قد أخذت المهر كاملاً ولم أنل منه طائلاً إلا ولداً جاهلاً فافعل ما كنتَ فاعلاً»؛ فأمر الملك أن يقبض منها فيُجعل في غلمانه [وقال لهزيلة: «ابغيه ولداً ولا تنكحي بعده أحداً» ـ فقالت هزيلة: «أما النكاح فبالمهر وأما السفاح فبالقهر وما لي في واحد منهما غرض»؛ فأمر عملوق الملك لهزيلة أن يُسترقّ زوجها فيردّ على هزيلة عُشر ثمن زوجها، وتُسترقّ فيُرد على زوجها خمس ثمنها]؛ فقالت هزيلة في ذلك شعراً:

أتينا أخا طسم ليحكُم بيننا ... فأبرز حُكماً في هُزيلة ظالِماً

لعمري قد حُكّمتَ لا متورّعاً ... ولا فَهِماً عند الحكومة عالما

ندِمت فلم أقدر على متزحزح ... وأصبح زوجي حائر الرأي نادِما

فبلغ عملوق قول هزيلة فغضب وأمر أن لا تتزوج امرأة من جديس فتزف إلى زوجها إلا بعد أن تحمل إليه فيفترعها قبل زوجها؛ فلقوا من ذلك ذُلاً طويلاً، ولم تزل تلك حالهم حتى تزوجت عُفيرة وقيل الشموس بنت غفار الجديسي أخت الأسود بن غفار؛ فلما كانت ليلة إهدائها إلى زوجها انطلق بها إلى عملوق الطسمي ليطأها على عادته ومعها القيان يغنين ويقلن في غنائهن:

ابدي عملوق وقومي فاركبي ... وبادري الصُّبح بأمرٍ مُعجبِ

فسوق تلقين الذي لم تطلبي ... فما لبكْرٍ عنده من مهرب

فلما دخلت عفيرة على عملوق افترعها وخلّى سبيلها؛ فخرجت عفيرة إلى قومها في دمائها شاقة جيبها عن قُبُلها وعن دُبُرها وهي تقول:

لا أحـــدٌ أذلُّ مـــن جـــديـــس أهــكــذا يُــفــعــل بــالــعــروسِ

يــرضــى بــهــذا يــا لــقــومــي حُــرٌّ أهدى وقد أعطى وسيق المهرُ؟

لأخــذةُ الــمــوتِ كــذا لــنــفــســه خــيــرٌ مــن أن يُــفــعــلَ ذا بــعــرسِــه

وقالت أيضاً تحرّض قومها جديساً على طسم وأبت أن تمضي إلى زوجها من كلمة:

أيــصــلُــح مــا يــؤتــى إلــى فــتــيــاتــكــم وأنــتــم رجــالٌ فــيــكُــمُ عــددُ الــنــمْــل؟

أتـصـبـح تـمـشـي فـي الـدمـاء فـتـاتُـكـم صبيحةَ زُفّت في النساء إلى البعلِ؟

فـإن أنـتـم لـم تـغـضـبـوا عـنـد هـذه فـكُـونـوا نـسـاء لا يُعَقْنَ عن الكُحلِ

ودونـكـم طـيـبَ الـعـروس فـإنـمـا خُـلِـقـتـم لأثـواب الـعـروس ولِـلـغُـسـلِ

فـقـبـحـاً وسـحـقـاً لـلـذي لـيـس دافـعـاً ويـخـتـال يـمـشـي بـيـنـنـا مـشـيـة الـفـحْـل

فـلـو أنـنـا كُـنـا رجـالاً وكـنـتُـمُ نـسـاءً لـكـنـا لا نُـقـرّ عـلـى الـذلّ

فـمـوتـوا كـرامـاً واضـرمـوا لـعـدوّكـم بـحـرب تـلـظّـى بـالـضـرام مـن الـجـزل

وإلا فـخـلُّـوا بـطـنَـهـا وتـحـمّـلـوا إلـى بـلـدٍ قـفْـرٍ ومـوتـوا مـن الـهـزْل

ولا تـجـزعـوا لـلـحـرب يـا قـوم إنـمـا تـقـوم بـأقـوام كـرام عـلـى رجـل

فـيـهـلـك فـيـهـا كـل نـكـس مـواكـل ويـسـلـم فـيـهـا ذو الـنـجـابـة والـفـضـل

قال: فلما سمعت جديس بذلك وغيره من أقوالها غضبت لذلك؛ فقال لهم الأسود بن غفار وكان فيهم سيداً مطاعاً: «يا جديس أطيعوني فيما آمركم به وأدعوكم إليه، ففيه عزّ الدهر وذهاب الذل» ـ قالوا: «وما ذاك؟» ـ قال: «إنكم قد علمتم أن هؤلاء ـ يعني طسماً ـ ليسوا بأعز منكم ولكن ملك صاحبهم علينا وعليهم هو الذي يذعننا بالطاعة لهم ولولا ذلك ما كان لهم علينا من فضل ولو امتنعنا منهم لكان لنا النصف» ـ فقالوا له: «قد قبلنا قولك ولكن القوم أقراننا وأكثر عدداً منا وعدة فنخاف إن ظفروا بنا أن لا يقيلونا» ـ فقال لهم: «والله يا جديس لتطيعنّني فيما آمركم به وأدعوكم إليه أو لأتكئنّ على سيفي فأقتل به نفسي» ـ قالوا: «فإنّا نطيعك فيما قد عزمت عليه» ـ قال: «فإني صانع لعملوق وقومه من طسم طعاماً فأدعوهم إليه فإذا جاؤوا متفضلين في

الحُلل والنعال نهضنا إليهم بأسيافنا، فانفردت أنا بالملك وانفرد كل رجل منكم برجل منهم» ــ قالوا له: «فافعل ما بدا لك»؛ فأجمع رأيهم على ذلك.

فقالت عفيرة لأخيها الأسود: «لا تفعل هذا فإن الغدر ذلّة وعار، ولكن كاثروا القوم في ديارهم تظفروا أو تموتوا كِراماً» ــ قالوا: «لا ولكن نمكر بهم فيكون ذلك أمكن لنا من نواصيهم وأبلغ في الانتقام منهم» ــ فقالت عفيرة في ذلك أبياتاً قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا؛ ثم إن الأسود صنع طعاماً كثيراً وأمر قومه فاخترطوا سيوفهم ودفنوها في الرمل حيث أعدوا الطعام، ثم قال لهم: «إذا أتاكم القوم يرفلون في حللهم فخذوا أسيافكم ثم شدوا عليهم قبل أن يأخذوا مجالسهم وابدأوا بالرؤساء، فإنكم إذا قتلتموهم لم تبالوا بالسفلة ولم تكن بعد ذلك منهم حال تكرهونها» ــ قالوا: «نفعل ما قلت».

ثم دعا الأسود عملوق الطسمي ومن معه من رؤساء طسم باليمامة فأسرعوا إجابة دعوة الأسود؛ فلما توافوا إلى المُدعاة وثبت جديس فاستثاروا سيوفهم من الرمل وشدّوا على عملوق وأصحابه فقتلوهم حتى أفنوهم عن آخرهم ومضوا إلى ديارهم فانتهبوها؛ وقال الأسود بن غفار في ذلك أشعاراً يرثي بها طسماً ويذكر بغْيها وفعل عملوق بأخته يطول بذكرها الكتاب وقد تقدّمت فيما سلف من كتبنا.

قال: وهرب رجل من طسم اسمه رياح (رباح) بن مُرة الطسمي، فأتى إلى حسّان بن تبّع فاستغاث به وكان قد عمد إلى جريدة نخل رطبة فجعل عليها طيناً رطباً وحملها معه وأخرج معه كلبته؛ فلما ورد على حسان كسر يد الكلبة ونزع الطين على الجريدة فخرجت خضراء ودخل على حسان فاستغاث به وأخبره بالذي صنعت جديس بقومه فقال له الملك: «لله أبوك فمن أين مبدؤك؟» ــ قال: «جئتك أبيتَ اللعن من أرض قريبة وقوم انتُهك منهم ما لم يُنتهك من أحد؛ أنا رياح بن مرّة الطسمي: دعتنا جديس إلى مدعاة لهم فأجبناهم متفضلين في الحُلل وقد أعدّوا لنا السلاح عند جفانهم؛ فما ذُقنا طعامهم حتى صرنا حطاماً بلا طلب دم ولا تِرة سلفت فدونك أبيتَ اللعن قوماً قطعوا أرحامنا وسفكوا دماءنا» ــ قال الملك حسان: «أمعك خرجتْ هذه الجريدة وهذه الكلبة؟» ــ قال: «نعم» ــ قال الملك: «إن كنت صادقاً لقد خرجت من أرض قريبة» ــ ووعده النصرة؛ ثم نادى في حِمير بالمسير وأعلمهم بما صُنع بطسم، فقالوا: «من فعل ذلك أبيت اللعن؟» ــ قال: «عبيدهم» ــ قالوا: «ما لنا في ذلك من أرب؛ هم إخواننا فلا نعين بعضاً على بعض وهم عبيدك أيها الملك فدعهم» ــ فقال حسّان: «ما هذا

منكم بحسن؛ أرأيتم لو كان هذا فيكم أكان حسناً لملككم أن يُهدر دماءكم وما علينا في الحكم إلا أن ننصف بعضاً من بعض»؛ فقام فرسانهم فقالوا: «الأمر أمرك أبيت اللعن فمُرنا بما أحببت».

فأمرهم بالمسير إليهم؛ فسار بهم رياح بن مرة حتى إذا صاروا من اليمامة على ثلاث ليالٍ واسم اليمامة يومئذٍ جوّ، قال رياح بن مرّة للملك حسان: «أبيت اللعن إن لي أختاً متزوجة في جديس ليس في الأرض أبصر منها، أنها لتبصر الراكب على مسيرة ثلاث ليالٍ وأنا أخاف أن تنذر القوم بك، فتأمر كل رجل من أصحابك بأن يقتلع شجرة من الأرض فيجعلها أمامه، ثم يسير»؛ فأمرهم حسان بذلك ففعلوا، ثم ساروا؛ وكان اسم أخت رياح يمامة بنت مرّة؛ قال: فنظرت يمامة من منظر لها فقالت: «يا جديس لقد سارت إليكم الشجر» ـ قالوا لها: «وما ذاك؟» ـ قالت: «أرى أشجاراً تسير ووراءها شيء وإني لأرى رجلاً من وراء شجرة منها ينهش كتفاً أو يخصف نعلاً»؛ فكذّبوها وكان ذلك كما ذكرت، فغفلوا عن أخذ الأهبة للحرب؛ ففي ذلك تقول اليمامة لجديس:

إني أرى شجراً من خلفه بشَرُ فكيف تجتمع الأشجار والبشرُ

ثوروا بأجمعكم في وجه أولهمْ فإن ذلك منكم فاعلموا ظَفَرُ

وأقبل الملك حسان بحمير حتى إذا كان من جو على مسيرة ليلة عبأ جيوشه، ثم صبّحها فاستباح أهلها من جديس قتلاً فأفناهم وسبى صبيانهم ونساءهم؛ وهرب الأسود بن غفار ملكها حتى نزل بديار طيء فأجاروه من الملك وغيره من غير أن يعرفوه؛ فيذكر أن نسله اليوم في طيء مذكور.

فلما فرغ حسّان من جديس دعا باليمامة بنت مرّة وكانت امرأة زرقاء فأمر فنزعت عيناها فإذا في داخلها عروق سود فسألها عن ذلك فقالت: «حجر أسود يقال له الإثمد كنت أكتحل به»؛ وكانت هي أول من اكتحل به فاتخذه الناس بعد ذلك كحلاً؛ وأمر الملك باليمامة فصُلبت على باب جو، وقال: «سمّوا جو باليمامة فنشب إلى بصري»، فسميت بها إلى اليوم.

قال المسعودي: ثم سار بعد طسم بن لاود وبار بن أُميْم بن لاود بن أرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه من قومه؛ فنزل وبار بالأرض المعروفة برمل عالج فأصابتهم نقمة

من الله فهلكوا لما كان من بغْيهم في الأرض؛ وقد قدّمنا فصلاً من ذلك فيما سلف من هذا الكتاب على ما زعم الأخباريون من العرب، وخروجهم بذلك عن حد المعقول والمعتاد من الأمر المفهوم بزعمهم أن الله ـ عزّ وجل ـ حين أهلك هذه الأمة العظيمة المعروفة بوبار كما أهلك طسماً وجديساً وداسماً ـ وكانت ديار داسم ببلاد السماوة فأهلكوا بالريح السوداء الحارة ـ وجاسماً ـ وكانت ديارهم بالجولان وجازر من أرض نوا من بلاد حوران والبَثَنِيّة وذلك بين دمشق وطبرية من أرض الشام ـ وعملاقاً وعاداً وثموداً، وأن الجن سكنت في ديار وبار وحمتها من كل من أرادها وقصد إليها من الإنس وأنها كانت أخصب بلاد الله وأكثرها شجراً وأطيبها ثمراً وعنباً ونخلاً وموزاً؛ وإن دنا أحد من الناس إلى تلك البلاد غالطاً أو متعمّداً حثت الجن في وجهه التراب وسفت عليه سوافي الرمل وأثارت عليه الزوابع؛ فإن أراد الرجوع عنها خبلوه وتيّهوه وربما قتلوه؛ وهذا الموضع عند كثير من أهل الحجاز باطل؛ فإذا قيل لهم: «دلّونا على جهته ووقّفونا على حدّه» زعموا أن من أراده أُلقي على قلبه الصرفة حتى كأنهم بنو إسرائيل الذين كانوا مع موسى في التيه فصدهم الله عن الخروج ولم يجعل لهم سبيلاً إلى أن تم فيهم مراده وانتهى فيهم حكمه؛ وقد قال في ذلك شاعرهم يخبر عما ذكرنا من قولهم في هذه الأرض المجهولة:

دعا جُعلاً لا يهتدي لمقيله   من اللؤمِ حتى يهتدي لوبارِ

وأقوالهم في مثل هذا كثيرة، والعرب ممن سلف وخلف في الجاهلية والإسلام يخبرون عن هذه الأرض كإخبارهم عن وادي الدو والصّمّان والدهناء ورمل يَبْرين وغيرها من الأرضين التي ينزلونها ويجتمعون عليها طلباً للماء والكلأ، وزعموا أنه ليس بهذه الأرض اليوم أحد إلا الجنّ والإبل الحُوشية، وهي عندهم الإبل التي ضربت فيها فحول إبل الجن؛ فالحوشية من نسل إبل الجن؛ والعيدية [والمهْريّة] والعسجدية والعُمانية قد ضربت فيها الحوش؛ وفي ذلك يقول رؤبة بن العجاج:

جرّت رحانا من بلاد الحوش

ويقول أو هُرَيْم:

كأني على حُوشية أو نعامةٍ   لها نَسَبٌ في الطير وهو ظَليمٌ

والأشعار في ذلك كثيرة وفي بسطنا لجوامع أخبار العرب فيما نقلته عن أسلافها مما

أمكن كونه وخرج عن حد الوجوب والجواز خروج عن حد الاختصار والإيجاز، وقد أتينا على ذكر ذلك فيما سلف من كتبنا فأغنى عن إعادته.

وسار بعد وبار بن أميم عبد ضُخم بن أرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه فنزلوا الطائف؛ فهلك هؤلاء ببعض غوائل فدثروا؛ وقد ذكرتهم الشعراء وذكروا أنهم أول من كتب العربية ووضع حروف المعجم وهي حروف أ ب ت ث الثمانية والعشرون؛ وقد قيل غير ذلك على حسب تنازع الناس في بدء الكتابة.

وسار بعد عبد ضخم بن أرم جرْهُم بن قحطان بولده ومن تبعه فطافوا البلاد حتى أتوا مكة فنزلوها؛ وفي ذلك يقول عمرو بن مُضاض الجرهمي:

هذا سبيلي كسبيل يعرُب البادىء القول المُبين المعرِبِ

يا قوم سيروا غير فعل الأجنبِ جرهمُ جدّي ثم قحطانُ أبي

وسار أُميم بن لاود بن أرم بعد جُرْهم فحل بأرض فارس؛ فالفرس على حسب ما قدّمنا في هذا الكتاب في باب تنازع الناس في أنساب فارس من ولد كيومرث بن أُميم بن لاود بن أرم بن سام بن نوح؛ وفي ذلك يقول بعض من تقدّم من أهل الحكمة من شعراء فارس بعد ظهور الإسلام:

أبونا أُميم الخير من قبل فارس وفارس أربَابُ الملوك بهم فخري

وقد ذكر جماعة من أهل السير والأخبار أن جميع من ذكرنا من هذه القبائل كانوا أهل خِيم وبدو مخيمين في مساكنهم من الأرض، وأن أميماً أول من ابتنى البنيان ورفع الحيطان وقطع الأشجار وسقّف السقوف واتخذ السطوح.

وأن ولْد حام [حلّوا ببلاد الجنوب وأن ولد كوش بن كنعان خاصة هم النوبة على حسب ما قدّمنا آنفاً في باب السودان من هذا الكتاب؛ وإن فخذاً من ولد كنعان بن حام] سار نحو بلاد إفريقية وطنجة من أرض المغرب فنزلوها؛ وزعم هذا القائل أن البربر من ولد كنعان بن حام؛ وقد تنازع الناس في بدء أنساب البربر: فمنهم من رأى أنهم من غسان وغيرها من اليمن وأنهم تفرّقوا وغيرهم من اليمن نحو تلك الديار حين فرق الناس من بلاد مأرب عندما كان من سيل العَرِم ما كان؛ ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان؛ ومنهم من رأى غير ذلك قد ذكرناه فيما سلف من كتبنا.

ونزل ولد كنعان بن حام، وهم الأغلب من ولد كنعان، بلاد الشام فهم الكنعانيون

وبهم عُرفت تلك الديار، فقيل بلاد كنعان؛ وقد قدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب أخبار مصر بن حام وبيْصر والأقباط.

وسار نوفير بن قُوط بن حام بولده ومن تبعه إلى أرض الهند والسند وبالسند أمم لها أجسام طوال وهم على بلاد المنصورة من أرض السند؛ فعلى هذا القول إن الهند والسند من ولد نوفير بن فوط بن حام بن نوح، فولد حام في الجنوب من الأرض الأكثر منهم، وولد يافث في الشمال فيما بين الشرق والغرب على حسب ما ذكرنا من الأمم وتفرّقها وغيرها مما يلي جبل القبح والباب الأبواب.

وبغت عاد في الأرض وملكها الخُلجان بن الوهم؛ فكانوا يعبدون ثلاثة أصنام هي صمودا وصدا والهبا؛ فبعث الله إليهم هوداً على حسب ما قدّمنا فكذّبوه، وهو هود بن عبد (الله) بن رباح (رياح) بن خالد بن الخلود بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح؛ وقد قدّمنا أن قوم عاد كانوا عشر قبائل، وقد تقدم ذكر أسمائهم؛ فدعا عليهم هودا فُمنعوا المطر ثلاث سنين وأجدبت الأرض فلم يدرّ لهم ضرع.

وقد كان من ذكرنا من الأمم لا يجحدون الصانع ـ عزّ وجل ـ ويعلمون أن نوحاً عم كان نبياً وأنه وفى لقومه بما وعدهم من العذاب، إلا أن القوم دخلت عليهم شُبه بعد ذلك لتركهم البحث واستعمال النظر؛ ومالت نفوسهم إلى الدعة وما تدعو إليه الطبائع من الملاذ والتقليد؛ وكان في نفوسهم هيبة الصانع والتقرّب إليه بالتماثيل وعبادتها على أنها مقرّبة بهم إليه زُلفى؛ وكانوا مع ذلك يعظمون موضع الكعبة وكان موضعها على ما ذكرنا ربوة حمراء.

فوفّدت عاد إلى مكة يستسقون لهم، وكان بمكة يومئذٍ العماليق: فأتى الوفد مكة فأقبلوا على الشرب واللهو حتى غنتهم الجرادتان قَيْنتا معاوية بن بكر بشعر فيه حثّ لهم على ما وردوا من أجله وهو:

ألا قيلُ ويحَكَ قُمْ فَهْيِنِم ... لعلّ الله يمطرنا غَماما

فيسقي أرضَ عادٍ إنّ عاداً ... قد أمسوا لا يُبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغُلاما

وقد كانت نساؤهمُ بخيرٍ ... فقد أمست نساؤهمُ عِياما

وإن الوحش يأتي أرضَ عادٍ فلا يخشى لراميهم سِهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتُمْ نهارَكُم وليلكُمُ التّمَاما
فقبّح وفدكم من وفد قوم ولا لُقّوا التحيةَ والسلاما

فاستيقظ القوم من غفلتهم وبادروا إلى الاستسقاء لقومهم؛ فكان من أمرهم في مجيء السحب واختيارهم لما اختاروه منها ما قد اتضح من أخبارهم وفيهم يقول مرثد بن سعد من كلمة:

عصتْ عادٌ رسولَهُمُ فأضحوا عِطاشاً ما تبُلّهُمُ السماءُ
ألا قبح الإله حلومَ عادٍ فإنّ حلومهم قفرٌ هواءُ

فأرسل الله على عاد الريح العقيم فخرجت الريح عليهم من وادٍ لهم؛ فلما رأوا ذلك قالوا ﴿هذا عارض ممطرنا﴾ وتباشروا بذلك؛ فلما سمع هود ذلك من قولهم قال: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ فأتتهم الريح يوم الأربعاء فلم تأتِ الأربعاء الثانية ومنهم حي؛ فمن أجل ذلك كره الناس الأربعاء؛ وقد بيّنا فيما يرد من هذا الكتاب كيفية ذلك وكيف وقوعه من أيام الشهر في باب ذكر الشهور.

فلما شاهد هود النبي عَم ما نال قومه انفرد هو ومن تبعه من المؤمنين؛ ففي ذلك يقول النهليل بن الخليل:

لو أن عاداً سمعت من هودْ واتّبعت طريقه الرشيدْ
وقد دعا بالوعد والوعيد عاداً وبالتقريب والتبعيد
ما أصبحت عاثرة الجدود صرعى على الأنوف والخدود
ساقطة الأجساد بالوصيد ماذا جنى الوفد من الوفود
أحدوثة للأبد الأبيد

وكان الآخر من ملوكهم الخُلجان وقد تقدّم ذكرنا في هذا الكتاب لملك عاد وثمود وغيرهم؛ وقيل إن أول من ملك عاداً من الملوك عاد بن عوص ثلاثمائة سنة ثم ملك عاد بن عاد بن عوص؛ ولما دثرت هذه الأمم من العرب والقبائل خلت منهم الديار فسكنها غيرهم من الناس، فنزل قوم من بني حنيفة اليمامة واستوطنوها [فقال شاعرهم

يرثي من كان في تلك الديار:

إن طسماً وجُرْهُماً وجديساً والعماليق في السنين الخوالي
عمّروا البيتَ حقبة ثم ولّوا واستمرت بهم صروف الليالي
وأدال الزمان منهم فأضحى غيرهم ساكناً بتلك الخوالي
ورماهم ريبُ الزمان فأضحت دورهم بلقعاً لمر الشمال]

وكان قد نزل بلاد الجُحفة بين مكة والمدينة عبيل بن عوص بن أرم بن سام بن نوح هو وولده ومن تبعه فهلكوا بالسيل؛ وسمي ذلك الموضع الجحفة لإجحافه عليهم.

وكان يثرب بن قاتية بن مهليل بن أرم بن عبيل نزل المدينة هو وولده ومن تبعه، فسمّيت به يثرب؛ فهلك هؤلاء أيضاً ببعض غوائل الدهر وقصدتهم سهامه فقال بعض ولدهم ممن رثاهم:

عينِ جودي على عبيل وهل ير جع ما فات فيضها بالجسام
عمّروا يثرباً وليس بها شُفـ ر ولا صارخ ولا ذو سنام
غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفّوا الغسيل بالآجام

وقد أخبر الله عز وجل عمن ذكرنا فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾؛ [وقال ـ عزّ وجل ـ مخبراً عن هلكهم ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾].

وقد تنازع أهل الشرائع في قوم شُعيب بن نويل بن رعوائيل بن مُر بن عيفاء بن مدين بن إبراهيم الخليل، وكان لسانه العربية: فمنهم من رأى أنهم من العرب الدائرة والأمم البائدة وبعض من ذكرنا من الأجيال الخالية؛ ومنهم من رأى أنهم ولد المحض بن جَنْدل بن يعصُب بن مدين بن إبراهيم وأن شعيباً أخوهم في النسب؛ وقد كانوا عدة ملوك تفرّقوا في ممالك متصلة ومنفصلة: فمنهم المسمّى بأبجد وهوّز وحُطي وكلَمن وسعْفَص وقَرَشت وهم على ما ذكرنا بنو المحض بن جندل، وأحرف الجمّل على أسماء هؤلاء الملوك وهي الأربعة والعشرون حرفاً التي يدور عليها حساب الجمل؛ وقد قيل في هذه الحروف غير ما ذكر من الوجوه على حسب ما قدّمنا في هذا الكتاب؛ وليس كتابنا هذا موضعاً لما قال الناس فيها وتنازعوا في تأويلها والمراد بها.

فكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز؛ وكان هوّز وحُطّي ملكين ببلاد وجّ وهي أرض الطائف وما اتصل بذلك من أرض نجد؛ وكلَمَن وسَعْفص وقَرَشت ملوك بمدين وقيل بأرض مصر، وكان كلمن على ملك مدين؛ ومن الناس من رأى أنه كان مُلك من سمّينا متصلاً على ما ذكرنا.

وأن عذاب ﴿يَوْمِ الظُّلَةِ﴾ كان في ملك كلمن منهم وأن شعيباً دعاهم فكذبوه فدعوهم العذاب يوم الظُّلة، ففتح عليهم باب من السماء من نار، وانحاز شعيب بمن آمن معه إلى الموضع المعروف بالأيكة وهي غيضة نحو مدين؛ فلما أحس القوم بالبلاء واشتدّ عليهم الحرّ وأيقنوا بالأمر طلبوا شعيباً ومن آمن به وقد أظلّتهم سحابة بيضاء طيبة النسيم والهواء لا يجدون فيها ألم العذاب، فأخرجوهم من مواضعهم وتوهّموا أن ذلك يُنجيهم ممّا نزل بهم؛ فجعلها الله عليهم ناراً فأتت عليهم.

وقد ذكرهم المنتصر بن المنذر المدني ورثاهم بأبيات يقول فيها:

ملوك بني حُطّي وسَعْفص ذي الندى ... وهوّز أرباب البنية والحجرِ

هُمُ ملكوا أرض الحجاز بأوجه ... كمثل شعاع الشمس أو صورة البدر

وهم قطنوا البيت الحرام وزيّنوا ... حضوراً وسادوا بالمكارم والفخر

ولهؤلاء الملوك أخبار عجيبة من حروب وسيَر وكيفية تغلبهم على هذه الممالك وتملكهم عليها وإبادتها من كان فيها قبلهم من الأمم، قد أتينا على ذكرها فيما تقدم من كتبنا في هذا المعنى مما كتابنا هذا منبّه عليها وباعث على درسها.

وأما بنو حضور وكانت أمة عظيمة ذات بطش وشدة، فغلبت على كثير من الأرض والممالك؛ وقد تنازع الناس فيهم: فمنهم من ألحقهم بمن ذكرنا من العرب البائدة ممن سمينا؛ ومنهم من رأى أنهم من حمير؛ ومنهم من رأى أنهم من ولد يافث بن نوح؛ وقيل في أنسابهم غير ما ذكرنا من الوجوه؛ وقد كان الله ـ عزّ وجل ـ بعث إليهم شعيب بن [ذي] مِهْدم بن حَضور بن عدي نبياً وعما كانوا عليه زاجراً وهذا غير شعيب بن نويل بن رعوائيل بن مر بن عيفاء بن مدين بن إبراهيم الخليل صاحب مدين المتزوّج ابنته موسى بن عمران المقدّم ذكره، وبينهما ميئون من السنين؛ وقد كان بين موسى بن عمران وبين المسيح ألف نبي على ما ذكر أهل الكتاب.

فلما اشتدّ ظلم بني حضور وكفرهم جد نبيهم شعيب بن [ذي] مهدم في دعائهم

وزجرهم وتوعدهم، فقتلوه من بعد ظهور معجزات كانت له ودلائل أظهرها الله على يديه تدل على صدقه وتُثبت حجّته على قومه.

فلم يضيّع الله دمه ولم يكذّب وعيده: فأوحى الله ـ عزّ وجل ـ إلى نبي كان في عصره وهو برَخيا بن اخنَيا بن زُرُبابيل بن سالَتيَال وكان من سبط يهودا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل أن يأتي البخت ناصر وكان بالشام، وقيل غيره من الملوك، فيأمره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم؛ فلما أتى برخيا ذلك الملك قال له الملك: «صدقت لي سبع ليال أؤمر في نومي بما ذكرت وأنادى بمجيئك إليّ وأبشر بخطابك ويقال لي ما أمرتني به وأن أنتصر للنبي المقتول الفريد المظلوم»؛ فسار إليهم في جنوده وغشى ديارهم في عساكر وصاح بهم صائح من السماء، وقد استعدّوا لحربه من حيث عم الصوت جميعهم، وهو يقول:

سيُغلَبُ قومٌ كايدو الله جهرةً ... وإن كايدوه كان أقوى وأكيدا

كذاك يُضلّ الله من كان قلبُه ... مريضاً ومن إلى النفاق وألْحَدا

فلما سمعوا ذلك علموا أن الأمر قد نزل بهم؛ فانفضّت جموعهم وولت كتائبهم يتراكضون، وأخذهم السيف فحصدوا أجمعين؛ وقد ذُكر أن في قصة ملكهم قال الله ـ عزّ وجل من قائل ـ: ﴿فلَمّا أحسُّوا بَأْسنَا إذَا مِنْها يرْكُضونَ﴾؛ وقد تنوزع في ديارهم والموضع الذي كانوا فيه: فمن الناس من رأى أنهم كانوا بأرض السّماوة وأنها كانت عمائر متصلة ذات جنّات ومياه متدفقة، وذلك بين العراق والشام إلى حد الحجاز وهي الآن خراب برار وقفار، ومنهم من رأى أن ديارهم كانت بلاد جند قنّسرين إلى تل ماسيح إلى خُناصِرة إلى بلاد سورية، وهذه المدن في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مضافة إلى أعمال حلب من بلاد قِنّسرين من أرض الشام.

قال المسعودي: وقد أتينا على جمل من أخبار العرب الباقية والماضية؛ وكان لهم قبل ظهور الإسلام للباقي منهم مذاهب وآراء في النفوس وتغوّل الغيلان والهواتف والجان، وسنُورد جملاً منها مفردة على حسب ما يقتضيه شرط الاختصار في هذا الكتاب على حسب ما نمى إلينا من أخبارهم واتصل بنا من آثارهم وذكره الناس من آرائهم عن الفاني والباقي منهم إن شاء الله.

عاد وثمود(*)

في ذكر عاد وملوكها

ذكر جماعة من ذوي العناية بأخبار العالم أن الملك تأثّل بعد نوح في عاد الأولى بدءاً قبل سائر ممالك العرب كلها، ومصداق ذلك قوله عزّ وجل: ﴿وأنّهُ أهْلَكَ عَاداً الأُولى﴾؛ فهذا يدل على تقدّمهم وأن هنالك عاداً ثانية؛ وأخبر الله عن ملكهم ونطق بشدة بطشهم وما بنوه من الأبنية المشيّدة التي تدعى على مرور الدهر بالعادية، وقد أخبر الله عن نبيه هود عم يخاطبهم: ﴿أتَبْنُونَ بِكُلِّ ريعٍ آيةً﴾؛ وعاد أول الممالك في الأرض على قول هذه الطائفة بعد أن أهلك الله الكفّار من قوم نوح وذلك قوله عز وجل: ﴿واذْكُروا إذْ جعَلَكُمْ خُلَفاءَ منْ بعدِ قوْمِ نوحٍ﴾.

وذلك أن هؤلاء القوم كانوا في هيئات النخل طولاً وكانوا في اتصال الأعمار وطولها بحسب ذلك من القدر وكانت نفوسهم قوية وأكبادهم غليظة ولم يكن في الأرض أمة هي أشد بطشاً وأكثر آثاراً وأقوى عقولاً وأوفر أحلاماً من عاد، ولم يكن الهلاك يعرض في أجسامهم لقوة آثار الطبيعة فيها وما أوتوه من الزيادة في تمام البنية وكمال الهيئة على حسب ما أخبر الله عزّ وجل.

وكان عاد رجلاً جبّاراً عظيم الخلقة وهو عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح؛ وكان يعبد القمر؛ وذكروا أنه رأى من صلبه أربع آلاف ولد وأنه تزوّج ألف امرأة؛ وكانت بلاده متصلة باليمن وهي بلاد الأحقاف وبلاد صُحَار وهي بلاد إلى بلاد حضرموت على حسب ما قدّمنا آنفاً فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا؛ وقد ذكر جماعة من الأخباريين ممن عُني بأخبار العرب أن عاداً لما توسط العُمر واجتمع له الولْد وولْد الولْد ورأى البطن العاشر من ولده وظهور الكثرة من تشييد الملك واستقامة الأمر عم إحسانه الناس وقرى الضيف وأحواله منتظمة والدنيا عليه مُقبلة؛ فعاش ألف سنة ومائتي سنة ثم مات.

وكان المُلك بعده في الأكبر من ولده وهو شديد بن عاد، فكان ملكه خمسمائة سنة وثمانين سنة وقيل غير ذلك؛ ثم ملك بعده أخوه شداد بن عاد فكان ملكه تسعمائة سنة ويقال إنه احتوى على سائر ممالك العالم، وهو الذي بنى مدينة إرم ذات العماد

(*) مروج الذهب، الفقرات ٩٢٣ ـ ٩٣٧.

على حسب ما قدّمنا فيما سلف من كتبنا عند إخبارنا عن هذه المدينة وتنازع الناس في كيفيتها وماهيتها وفي أي بلاد هي؛ وهذه عاد الثانية التي ذكرها الله تعالى فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ إلى هذه الأمة انتهى البطش.

ولشداد بن عاد مسير في الأرض وتطواف في البلاد وبأس عظيم في ممالك الهند وغيرها من ممالك الشرق والغرب وحروب كثيرة أعرضنا عن ذكرها لشرط الاختصار ومعوّلنا في ذلك على ما بسطناه من أخبارهم في كتاب أخبار الزمان، وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا تفرّق الناس ببابل وتشعُّب الأنساب وما قالوا في ذلك من الأشعار جُملاً من أخبار عاد ونبيها هود.

فأما تنازع الناس ممن سلف وخلف في العلة التي لها عظمت أجسامهم وطالت أعمارهم، فقد أتينا على ذلك في كتابنا المترجم بكتاب الرؤوس السّبْعِية من السياسة الملوكية وكذلك في كتابنا المترجم بكتاب الزُّلَف وذكرنا العلة التي لها ومن أجلها عدم كون السباع والجمال بأرض الأندلس وما يتكوّن في هذه الأرض من الجواهر في نباتها ومعادنها وما في أرض جليقية، وإلى هذه الأرض أُضيفت مملكة الجلالقة المقدّم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب وهم أشد الأمم على أهل الأندلس وأعظمهم بطشاً ممن جاورهم؛ ثم يليهم في الناس أمة عظيمة الملك يقال لها الوشكنش على حسب ما قدّمنا من ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب وفي غيره من كتبنا مما تقدّم تأليف هذا الكتاب.

في ذكر ثمود وملوكها وصالح عَم نبيها

قال المسعودي: قد ذكرنا فيما سلف من ذكر ثمود ونبيها صالح عَم لمعاً وإن كنا قد بسطنا ذلك في غير هذا الكتاب؛ وكان ملك ثمود بن غاثر بن أرم بن سام بن نوح بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشي؛ وديارهم بفج الناقة وبيوتهم إلى وقتنا هذا بيّنة منحوتة في الجبال ورسومهم باقية وآثارهم بادية وذلك في طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادي القُرى، وبيوتهم منحوتة في الصخر لها أبواب صغار ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا وهذا يدل على أن أجسامهم كانت كأجسامنا دون ما تخبر به القُصّاص عن بُعد أجسامهم، وليس هؤلاء كعاد إذ كانت ديارهم ومواضع مساكنهم وبنيانهم بأرض الشحر تدل على بعد أجسامهم.

فكان مُلك الملك الأول من ملوكهم مائتي سنة وهو غاثر بن أرم بن ثمود بن غاثر بن

[عوص بن أرم بن] سام بن نوح؛ ثم ملك بعده جُندع بن عمرو بن الذبيل بن أرم بن ثمود بن غاثر بن أرم بن سام بن نوح، فكان ملكه إلى أن هلك مائتي سنة وتسعين سنة، وهلك جندع هذا بعد أن كان من أمر صالح النبي عَم ما كان على ما ذكرنا أربعين سنة: فجميع ما ملك هذا الملك وهو جندع ثلاثمائة وسبع وعشرون سنة؛ فهؤلاء ملوك ثمود.

وبعث الله صالحاً نبياً وهو غلام حدث إلى ثمود على حين فترة من الرسل كانت بينه وبين هود نحواً من مائة سنة؛ فدعاهم إلى الله وملكهم فيهم يومئذٍ هو جندع بن عمرو على ما ذكرنا؛ فلم يُجب صالحاً من قومه إلا نفر يسير؛ وكبر صالح ولم يزدد قومه من الإيمان إلا بعداً؛ فلمّا تواتر عليهم إنذاره وإعذاره ووعده ووعيده سألوه المعجزات وإظهار العلامات ليمنعوه من دعائهم ويعجزوه عن خطابهم.

فحضر عيداً لهم وقد أظهروا أوثانهم وكان القوم أصحاب إبل؛ فسألوه الدلالة من جنس أموالهم وطالبوه بما هو مجانس لأملاكهم وذلك من بعد اتفاق رأيهم؛ فقال له زعيم من زعمائهم: «يا صالح إن كنت صادقاً في قولك وأنك معبّر عن ربّك فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ولتكن وبْراء سوداء عشْراء نتوجاً حالكة صُهابية ذات عرف وناصية وشعر ووبر»؛ فاستغاث بربه فتحرّكت الصخرة وتململت وبدا منها أنين وحنين ثم انصدعت من بعد تمخّض شديد كتمخُّض المرأة حين الولادة وظهر منها ناقة على ما طالبوه من الصفة؛ ثم تلاها من الصخرة سقب لها نحوها في الوصف، فأمعنا في رعي الكلأ وطلب الماء والمرعى؛ فآمن الخلق ممن حضره وزعيمهم الذي سأله وهو جُندع بن عمرو.

وأقامت الناقة يحلبون من لبنها ما يعمّ شربه ثموداً كلها وضايقتهم في الكلأ والماء؛ وكان فيهم امرأتان ذواتا حسن وجمال فزارهما رجلان من ثمود وهما قُدار بن سالف ومِصداع بن معرّج والمرأتان عُنيْزة بنت غَنَم وصدوف بنت المجبّا؛ فقالت صدوف: «لو كان لنا في هذا اليوم ماء لأسقيناكما خمراً، وهذا يوم الناقة وورودها إلى الماء ولا سبيل لنا إلى الشرب» ـ فقالت عُنيزة: «بل والله لو أن رجالاً لكفونا أمرها وهل هي إلا بعيراً من الإبل؟» ـ فقال قُدار: «يا صدوف إن أنا كفيتك أمر الناقة فما لي عندك؟» ـ قالت: «نفسي فهل حائل دونها عنك؟» ـ وأجابت الأخرى صاحبها بنحو ذلك فقالا: «ميلا علينا بالخمر»؛ فشربا حتى توسطا السُّكر ثم خرجا فاستغويا سبعة رهط وهم

التسعة الذين أخبر الله عنهم في كتابه أنهم: ﴿يُفْسِدونَ في الأرْضِ ولاَ يُصْلِحونَ﴾؛ فقصدوا طريق الناقة في حال صدورها فضرب قُدار عرقوبها بالسيف فعقرها واتّبع فعله مصْدع فرمى العرقوب الآخر بسهمه فخرّت الناقة لوجهها وجاء قدار لبّتها فنحرها ولاذ السقب بصخرة فلحقه بعضهم فقتله وفرقوا لحم الناقة.

وورد صالح فنظر إلى ما فعلوه فوعدهم العذاب؛ وكان ذلك في يوم الأربعاء فقالوا له مستهزين: «يا صالح متى يكون ما وعدتنا من العذاب عن ربك؟» ـ قال: «تصبح وجوهكم يوم مؤنس ـ وهو يوم الخميس ـ مصفرّة ويوم عروبة محمرّة ويوم شِيار مسودّة، ثم يصبحكم العذاب يوم أول»؛ قال المسعودي: وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أسماء الأيام والشهور بلغتهم.

فهمّ التسعة بقتل صالح وقالوا: «إن كان صادقاً كنّا قد عاجلناه قبل أن يعالجنا، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته»؛ فأتوه ليلاً فحالت الملائكة بينهم وبينه وأمطرتهم الحجارة ومنعه الله منهم؛ فلما أن أصبحوا نظروا إلى وجوهم كما وعدهم صفراً كأنها الوَرْس قد حالت الألوان وتغيّرت الأجسام، وتيقّن القوم صدق الوعيد وأن العذاب واقع بهم؛ وخرج صالح ليلة الأحد من بين ظهرانيهم مع من خفّ معه من المؤمنين، فنزل موضع مدينة الرمْلة من بلاد فلسطين، وأتاهم العذاب يوم الأحد.

ففيهم يقول بعض من آمن بصالح عَم:

أراكم يا رجال بني عتيدٍ ... كأنَّ وجوهكُمْ طُليتْ بورسِ

ويومَ عَروبةَ احمرّتْ وجوهٌ ... مصفرّةٌ ونادوا يا لمرْسِ

ويومَ شِيارَ فاسودّت وجوهٌ ... من الحيّينِ قبل طلوعِ شمسِ

فلما كان أولُ في ضُحاه ... أتتهم صيحَةٌ عمّت بتعْسِ

وفيهم يقول حباب بن عمرو وكان ممن اعتزلهم من المؤمنين وبان عن ديارهم:

كانت ثمودُ ذوي عزٍ ومكرُمةٍ ... ما إن يُضام لهم في الناس من جارِ

فأهلكوا ناقة كانت لربهمُ ... قد أنذروها وكانوا غير أبرارِ

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا لتفرُّق الناس ببابل من أخبار ثمود جملاً وما كان من أمر الناس بأرض بابل وافتراق لغاتهم وما قاله كل فريق منهم من الشعر

على حسب ما أعطاه الله من اللسان، وإن كنّا قد أتينا على شرح ذلك على الكمال فيما تقدّم لنا من كتابنا في أخبار الزمان والأوسط إن شاء الله تعالى.

ملوك اليمن(*)

أول من يُعدّ من ملوك اليمن سبأ بن يشجب بن يعْرُب بن قحطان واسمه عبد شمس؛ وقد أخبرنا فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا لأية علّة سُمّي سبأ على ما قيل والله أعلم؛ فكان ملكه أربع مائة سنة وأربعاً وثمانين سنة؛ ثم ملك بعده ولده حمْير بن سبأ بن يشجب بن يعرُب فكان أشجع الناس في وقته وأفرسهم وأكثرهم جمالاً، وكان ملكه خمسين سنة وقيل أكثر من ذلك وقيل أقل؛ وكان [يعرف بالمتوّج وكان] أول من وضع على رأسه تاج الذهب من ملوك اليمن.

ثم ملك بعده أخوه كهلان بن سبأ، فطال عمره وكبرت سنه واستقامت له الأمور؛ فكان ملكه ثلاثمائة سنة وقيل أقل من ذلك؛ ثم عاد الملك بعد هلاك كهلان إلى ولْد حمير لأخبار يطول ذكرها وتنازع الملك بين ولد كهلان وولد حمير؛ ثم ملك أبو مالك بن عمرو بن سبأ واتصل ملكه وعمّ الناس عدله وشملهم إحسانه، فكان ملكه ثلاثمائة سنة؛ وقيل إن أول من ملك بعد كهلان الرائش وهو الحارث بن شدّاد، ثم ملك جبّار بن غالب بن زيد بن كهلان، فكان ملكه مائة وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده الحارث بن مالك بن إفريقُس بن صيفي بن يشجب بن سبأ، فكان ملكه مائة سنة ونحو أربعين سنة؛ وقيل إن هذا الملك هو أبو أبرَهة بن الرائش المعروف بذي المنار.

ثم ملك بعده الرائش بن شداد بن مِلطاط، فكان ملكه مائة وخمساً وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده أبرهة بن الرائش وهو ذو المنار، فكان ملكه مائة وثمانين سنة؛ ثم ملك بعده إفريقس بن أبرهة، فكان ملكه مائة وأربعاً وستين سنة؛ ثم ملك بعده أخوه العبد بن أبرهة وهو ذو الأذعار، فكان ملكه خمساً وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده الهدهاد بن شُرَحْبيل بن عمرو بن الرائش؛ وقد تنوزع في مقدار ملكه: فمنهم من رأى أنه عاش عشر سنين، ومنهم من ذكر سبعاً ومنهم من قال ستاً؛ ثم ملك تُبّع الأول، فكان ملكه أربعمائة سنة، وذكر كثير من الناس أن بلقيس قتلته؛ وقيل غير ذلك والأشهر ما قدّمنا.

(*) مروج الذهب، الفقرات ١٠٠٠ ـ ١٠٣٣.

ثم ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد وكان لمولدها خبر طريف ذكرته الرواة، فيما روي أنه تصوّر لأبيها في بعض قنصه حيّتان سوداء وبيضاء، فأمر بقتل السوداء منهما، وما ظهر له بعد ذلك من شيخ وشاب من الجن وأن الشيخ زوّجه بابنته واشترط على الهدهاد شروطاً لها فعلقت منه ببلقيس ونقض تلك الشروط المأخوذة عليه لها فغابت عنه، في خبر طريف وهو موجود في كتاب أخبار التبابعة؛ وإنما نحكي هذه الأخبار على حسب ما وجدناه في كتب الأخباريين وعلى حسب ما توجبه الشريعة والتسليم لها، وليس قصدنا في ذلك وصف أقاويل أصحاب القِدم لأن أصحاب القدم يمنعون هذا وينكرونه، وإنما نحكي في هذا الكتاب أقاويل أصحاب الحدوث والمنقادين للشرع والمسلمين للجن ولأخبار الشياطين على حساب ما نطق به الكتاب المنزّل على النبي المرسل وما قارن ذلك من الدلائل الدالة على صدقه صلعم وإعجاز الخليقة أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فكان ملك بلقيس مائة وعشرين سنة وكان من أمرها مع سليمان بن داود ما ذكر الله في كتابه وما كان من خبر الهُدهد وما اقتصّ من أمرها؛ فملك سليمان اليمن ثلاثاً وعشرين سنة؛ ثم عاد الملك بعد ذلك إلى حِمير، فملكهم ياسر بن عمرو بن يعفُر فكان ملكه خمساً وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده شَمّر بن إفريقس بن أبرهة، فكان ملكه ثلاثاً وخمسين سنة.

ثم ملك بعده تُبّع الأقرن بن شمّر، فكان ملكه مائة وثلاثاً وستين سنة؛ ثم ملك بعده ملكيكرِب بن تُبّع، فكان ملكه مائة سنة وعشرين سنة، وسيّر قومه نحو الشرق من بلاد خراسان والتبت والصين وسجستان؛ ثم ملك بعده حسان بن تُبّع فاستقام له الأمر ثم وقع في ملكه تنازع وخلاف، فكان ملكه إلى أن قُتل خمساً وعشرين سنة؛ ملك بعده عمرو بن تبع وهو القاتل لأخيه حسان الملك الماضي، فكان ملكه أربعاً وستين سنة، ويقال إنه عدم النوم لما كان من فعله من قتل أخيه؛ ثم ملك بعده تُبّع بن حسان أبو كرب، وهو الملك السائر من اليمن إلى يثرب، فكانت له مع الأوس والخزرج حروب، وأراد هدم الكعبة فمنعه من كان بها من أحبار اليهود، فكساهما الخصف اليماني وسار نحو اليمن وقد تهوّد وغلبت على اليمن اليهودية ورجعوا عن عبادة الأصنام، فكان ملكه نحو مائة سنة.

ثم ملك عمرو بن تبّع بعد تفرّق وتنازع كان بينهم في الملك، ثم خُلع عن الملك

وملّكوا عليهم مرثد بن بعد كلال، وكان في اليمن تنازع وحروب، فكان ملكه أربعين سنة؛ ثم ملك بعده وليعة بن مرثَد، فكان ملكه تسعاً وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده أبرهة بن الصبّاح بن وليعة بن مرثد وهو الذي يدعى شيْبة الخير فكان ملكه ثلاثاً وتسعين سنة وقيل أقل من ذلك، وكان علاّمة وله سير مدوّنة؛ ثم ملك بعده عمرو بن ذي قيفان، فكان ملكه تسع عشرة سنة؛ ثم ملك لخْنيعة ذو شَناتِر ولم يكن من أهل بيت المملكة فغري بالأحداث من أبناء الملوك وطالبهم بما تطالب به النسوان وأظهر الفِسق باليمن واللواط، وعدل مع ذلك في الرعية وأنصف المظلوم، وكان ملكه ثلاثين سنة وقيل تسعاً وعشرين سنة، وقتله يوسف ذو نواس ـ وكان من أبناء الملوك ـ خوفاً على نفسه وأنفة أن يفسق به؛ ثم ملك يوسف ذو نواس بن زُرْعة بن تبّع الأصغر بن حسان بن تبّع أبي كرب.

وقد ذكرنا خبره في غير هذا الموضع من كتابنا، وما كان من أمره مع أصحاب الأخدود وتحريقه إياهم بالنار، وهم الذين أخبر الله تعالى ذكره عنهم في كتابه فقال: ﴿قُتِلَ أصْحَابُ الأُخْدُودِ النّارِ ذاتِ الوقُودِ﴾؛ وإليه عبرت الحبشة من بلاد باضِع والزّيْلَع وهو ساحل الحبشة على حسب ما ذكرنا إلى بلاد غلافِقة من ساحل زبيد من أرض اليمن، فغرق يوسف ذو نواس نفسه بعد حروب طويلة خوفاً من العار، فكان ملكه مائتي سنة وستين سنة وقيل أقل من ذلك بكثير.

وذلك أن النجاشي ملك الحبشة لما بلغه فعل ذي نواس بأتباع المسيح وما يعذّبهم به من أنواع العذاب والتحريق بالنيران بعث بالحبشة إليه وعليهم أرياط بن أضحم فملك اليمن عشرين سنة؛ ثم وثب عليه أبرهة الأشرم أبو يَكْسوم فقتله، وملك اليمن؛ فلما بلغ ذلك من فعله النجاشي غضب عليه وحلف بالمسيح أن يجز ناصيته ويُهريق دمه ويطأ تربته، يعني أرض اليمن.

فبلغ ذلك أبرهة فجزّ ناصيته وجعلها في حُق من العاج وجعل من دمه في قارورة وجعل من تراب اليمن في جراب وأنفذ ذلك إلى النجاشي ملك الحبشة، وضم إلى ذلك هدايا كثيرة وألطافاً، وكتب إليه يعترف له بالعبودية ويحلف له بدين النصرانية أنه في طاعته وأنه بلغه أن الملك حلف بالمسيح «أن يجزّ ناصيتي ويهريق دمي ويطأ أرضي، وقد أنفذت إلى الملك بناصيتي فليجزّها بيده وبدمي في قارورة فليهرقه وبجراب من تربة بلادي فليطأه بقدمه وليطفىء الملك عني غضبه فقد أبرزت يمينه وهو على سريره

ملكه»؛ فلما وصل ذلك إلى النجاشي استصوب رأيه واستحسن عقله وصفح عنه، وكان ذلك في ملك قُباذ ملك فارس.

وأبرهة أبو يَكسوم هو الذي سار بأصحاب الفيل إلى مكة لإخراب الكعبة، وذلك لأربعين سنة خلت من ملك كِسرى أنوشروان؛ فعدل إلى الطائف فبعثت معه ثقيف بأبي رغال ليدلّه على الطريق السهل إلى مكة، فهلك أبو رغال في الطريق في موضع يقال له المُغَمّس بين الطائف ومكة، فرُجم قبره بعد ذلك؛ والعرب تتمثّل بذلك، وفيه يقول جرير بن الخطفى في الفرزدق:

إذا ماتَ الفرزْدقُ فارجُمُوهُ … كما ترْمونَ قبْرَ أبي رِغالِ

قال المسعودي: وقد قيل إن أبا رغال وجهه صالح النبي عَم على صدقات الأموال فخالف أمره وأساء السيرة فوثب عليه ثقيف وهو قَسِيّ بن مُنبه فقتله قتلة شنيعة لسوء سيرته في أهل الحرم فقال غيلان بن سلمة يذكر قسوة أبيهم ثقيف على أبي رغال:

نحن قسي وقسا أبونا

وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصّلْت الثقفي:

نفوا عن أرضِهمْ عدنانَ طُراً … وكانوا للقبائل قاهرينا

وهمْ قتلوا الرئيس أبا رغال … بمكة إذ يسوق بها الوضينا

وفي ذلك يقول عمرو بن دِراك العبْدي:

تراني إن قطعت حِبال قيْسٍ … وحالفتُ المَزُونَ على تَمِيمِ

لأَعظمَ فجرةً من أبي رِغال … وأجورَ في الحكومة من سدُومِ

قال مسكين الدارمي:

فأرجُمُ قبرُه في كل عامٍ … كرجْمِ الناس قبرَ أبي رغال

فكان ملك أبرهة على اليمن إلى أن هلك بعد أن رجع من الحرم وقد سقطت أنامله وتقطعت أوصاله حين بعث الله عليه الطير الأبابيل، ثلاثاً وأربعين سنة؛ وكان قدوم أصحاب الفيل مكة يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرّم سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين للإسكندر وسنة ست عشرة ومائتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة الغدر؛ وسنذكر بعد هذا الموضع المستحق له من هذا الكتاب جملاً من تأريخ العالم وتأريخ

الأنبياء والملوك في باب نفرده لذلك إن شاء الله.

ثم ملك اليمن بعد أبرهة الأشرم ولده يكسوم فعمّ أذاه سائر اليمن، كان ملكه إلى أن هلك سنتين؛ ثم ملك بعده مسروق بن أبرهة فاشتدت وطأته على اليمن وعم أذاه سائر الناس وزاد على أبيه وأخيه في الأذى؛ وكانت أمه من آل ذي يزن؛ وكان سيف بن ذي يزن قد ركب البحر ومضى إلى قيصر يستنجده، فأقام ببابه سبع سنين فأبى أن ينجده وقال له: «أنتم يهود والحبشة نصارى وليس في الديانة أن ننصر المخالف على الموافق»؛ فمضى إلى كسرى أنوشروان فاستنجده ومت إليه بالقرابة وسأله النصرة فقال له كسرى: «وما هذه القرابة التي أدليت بها إليّ؟» ـ فقال: «أيها الملك الجبلة ـ وهي الجلدة ـ البيضاء على السودان إذ كنت أقرب إليك منهم»؛ فوعده أنوشروان بالنصرة وشغل بحرب الروم وغيرها من الأمم.

ومات سيف بن ذي يزن فأتى ابنه معديكرِب بن سيف فصاح على باب الملك؛ فلما سُئل عن حاله قال: «لي قِبل الملك ميراث»؛ فوقف بين يدي أنوشروان فسأله عن ميراثه فقال: «أنا ابن الشيخ الذي وعده الملك بالنصرة على الحبشة»؛ فوجه معه وهْرِز اصبهْبذ الديْلم في أهل السجون وقال: «إن فتحوا فلنا وإن هلكوا فلنا وكلا الوجهين فتح»؛ فحملوا في السفن في دجلة ومعهم خيولهم وعددهم وغلمانهم حتى أتوا أبلّة البصرة وهي فرج البحر ولم تكن يومئذٍ بصرة ولا كوفة، وهذه مدن إسلامية؛ فركبوا في سفن البحر وساروا حتى أتوا ساحل حضرموت موضعاً يقال له مثوّب، فخرجوا من السفن وقد كان أصيب بعضهم في البحر؛ فأمرهم وهْرِز أن يحرقوا السفن ليعلموا أنه الموت ولا وجه يؤملون المفر إليه فيجهدون أنفسهم.

وفي ذلك يقول رجل من حضرموت:

أصبح في مثوّبَ ألفٌ في الجُننْ ... من رهْط ساسان ورهط مِهْرسَنْ

ليُخرجوا السودان من أرض اليمنْ ... دلّهُمُ قصدَ السبيل ذو يزَنْ

ونمى خبرهم إلى ملك اليمن مسروق بن أبرهة فأتاهم في مائة ألف من الحبشة وغيرهم من حمير وكهلان ومن سائر من يسكن اليمن، فتصافّ القوم، وكان مسروق على فيل عظيم فقال وهرِز لمن كان معه من الفرس: «اصدقوا الحملة واستشعروا الصبر»؛ ثم تأمل ملكهم وقد نزل عن الفيل فركب جملاً، ثم نزل عن الجمل فركب فرساً ثم أنف من

محاربة الفرس على فرَس استصغاراً لأصحاب السفن فدعا بحمار فركبه؛ فقال وهرز: «ذهب ملكه وتنقل من كبير إلى صغير»؛ وكان بين عيني مسروق ياقوتة حمراء معلّقة من تاجه بمعلاق من الذهب تضيء كالنار فرماه وهرز ورمى القوم؛ فقال وهرز لأصحابه: «قد رميت ابن الحمارة فانظروا: إن كان القوم يجتمعون عليه ولا يتفرقون عنه فهو حي وإن كان أصحابه يجتمعون عليه ويتفرقون عنه فقد هلك»، فنظروا فرأوهم يجتمعون ثم يتفرقون عنه، فأخبروه بذلك فقال: «احملوا على القوم واصدقوهم»؛ فحملوا عليهم وصدقوهم فانكشفت الحبشة وأخذهم السيف؛ ورُفع رأس الملك مسروق بن أبرهة مع رؤوس خواص أصحابه فقُتل منهم نحو ثلاثين ألفاً.

وقد كان أنوشروان اشترط على معديكرب شروطاً، منها أن الفرس تتزوج في اليمن ولا تتزوج اليمن في الفرس وفي ذلك يقول الشاعر:

على أن ينكحوا النسوانَ منهمْ   وأن لا ينكحوا في الفارسينا

وخراج يحمله إليه؛ فتوّج وهرز معديكرب بتاج كان معه وبدنة من الفضة ألبسه إياها، ورتبه في ملكه على اليمن وكتب إلى أنوشروان بالفتح وخلف هنالك جماعة من أصحابه؛ فكان جميع ما ملكت الأحابش اليمن اثنتين وسبعين سنة؛ وكان ملك مسروق بن أبرهة إلى أن قتله وهرز ثلاث سنين وذلك لخمس وأربعين سنة خلت من ملك أنوشروان.

قال المسعودي: وأتت معديكرب الوفود تهنئه بعود الملك إليه وأشراف العرب وزعماؤها وفيهم عبد المطلب بن هاشم بن مناف وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف وخويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصي وأبو زُمْعة جد أمية بن أبي الصلت الثقفي وقيل بل أبو الصلت أبوه؛ فدخلوا إليه وهو في أعلى قصره المعروف بغُمدان بمدينة صنعاء وهو مضمّخ بالعنبر وسواد المسك يلوح على مفرقه، وسيفه بين يديه وعن يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك وأبناء المقاول؛ فتكلّمت الخطباء ونطقت الزعماء.

وقد تقدمهم عبد المطلب بن هاشم فقال عبد المطلب: «إن الله جلّ جلاله قد أحلّك أيها الملك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً شامخاً باذخاً وأنبتك منبتاً طابت أرومته وعزّت جرثُومته وثبت أصله وبسَق فرعه في أكرم معدن وأطيب موطن؛ فأنت أبيتَ اللعن رأس العرب وربيعها الذي تُخضب به، وأنت أيها الملك ذِروة العرب الذي له تنقاد وعمودها الذي عليه العماد ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف وأنت لنا منهم خير

خلف، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ولن يهلك من أنت خلفه؛ أيها الملك نحن أهل حرم الله وسدنة بيته أشخصنا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة» ـ فقال له الملك: «وأيهم أنت أيها المتكلم؟» ـ قال: «أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف» ـ قال الملك معديكرب بن سيف: «ابن أختنا؟» ـ قال: «نعم» ـ قال: «أدنوه»؛ فأدني ثم أقبل عليه وعلى الوفد فقال لهم: «مرحباً وأهلاً وناقة ورحلاً ومستناخاً سهلاً وملكاً رِبْحلاً، يعطي عطاءً جزلاً، قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم، فأنتم أهل الليل وأهل النهار لكم الكرامة إذا قمتم والحبا إذا ظعنتم».

ثم قام أبو زمعة جد أمية بن أبي الصلت الثقفي فأنشده قصيدته التي أولها:

ليطلب الوتر أمثال ابن ذي يزن ... يلجّ في البحر أحوالاً وأحوالا

حتى أتى ببني الأحرار يحملهم ... تخالُهم في سواد الليل أجبالا

لله درهم من عصبةٍ خرجوا ... ما إن رأيتُ لهم في الناس أمثالا

أرسلتَ أسداً على سُود الكلاب فقد ... أمسى شريدُهم في الأرض فُلالا

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً ... في رأس غمدان داراً منك مِحْلالا

ثم اُطل المسكَ إذ شالتْ نعامتهم ... وأسبل النوم في برديك إسبالا

تلك المكارمُ لا قَعْبان من لبنٍ ... شِيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

ولمعديكرب بن سيف بن ذي يزن هذا كلامٌ كثير مع عبد المطلب وكوائن أخبره بها في أمر النبي ﷺ وبدء ظهوره بشّر بها عبد المطلب وأخبره عن أحواله وما يكون من أمره وحيّى جميع الوفد وانصرفوا؛ وقد أتينا على ما كان من أخبارهم في كتاب أخبار الزمان فأغنى ذلك عن إعادة وصفه.

قال المسعودي: وأقام معديكرب بن سيف بن ذي يزن على اليمن ملكاً واصطنع عبيداً من الحبشة حرابة يمشون بين يديه بالحراب، فركب في بعض الأيام من قصره المعروف بغمدان بمدينة صنعاء فلما صار إلى رحبتها عطفت عليه الحرابة من الحبشة فقتلوه بحرابهم؛ فكان ملكه أربع سنين وهو آخر من ملك اليمن من قحطان؛ فعدد ملوكهم سبعة وثلاثون ملكاً وملكوا ثلاثة آلاف سنة ومائة وتسعين سنة.

قال المسعودي: فأما عبيد بن شرية الجرهُمي حين وفد على معاوية بن أبي سفيان وسأله عن أخبار اليمن وملوكها وتواريخ سنيها، فإنه ذكر أن أول ملوك اليمن على حسب ما قدّمنا في هذا الباب سبأ بن يشْجُب بن يعرب بن قحطان ملك مائة وأربعاً وثمانين سنة؛ ثم ملك بعده الحارث بن شداد بن مِلطاط بن عمرو مائة وخمساً وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده أبرهة بن الرائش وهو ذو المنار مائة وثلاثاً وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده أفريقس بن أبرهة مائة وأربعاً وستين سنة؛ ثم ملك بعده أخوه العبد بن أبرهة خمساً وأربعين سنة؛ ثم ملك بعده الهدهاد بن شُرحبيل بن عمرو وهو ذو الصرح سنة؛ ثم ملكت بلقيس بنت الهدهاد سبع سنين؛ ثم ملك سليمان بن داود عليهما السلام ثلاثاً وعشرين سنة على حسب ما قدّمنا من أمر بلقيس؛ ثم ملك بعده أرخُبُعم بن سليمان عليه السلام، فكان ملكه سنة.

ثم رجع المُلك إلى حِمير فملك من بعد أرخبعم بن سليمان ياسر يُنعم بن يعفُر بن عمرو ذي الأذعار خمساً وثلاثين سنة، وقد قيل في تسمية ذي الأذعار خبر تأباه العقول وتنكر النفوس كون مثله في العالم ويجوز كون ذلك في المقدور، وأنه إنما سُمي ذا الأذعار لأنه وصل إلى قوم في أقاصي مفاوز اليمن وأرض حضرموت مشوّهي الخلق عجيبي الصور ووجوهم في صدورهم، فلما رأى أهل اليمن ذلك أذعرهم ما شاهدوا من ذلك وجزعت نفوسهم فسُمي ذا الأذعار، وقيل غير ذلك ـ والله أعلم بكيفيته.

ثم ملك بعده عمرو بن شمر بن أفريقس ثلاثاً وخمسين سنة؛ ثم ملك بعده تُبع الأقرن بن عمرو وهو تبع الأكبر، مائة سنة وثلاثاً وخمسين سنة؛ ثم ملك بعده ابنه ملْكِيكَرب بن تُبّع خمساً وثلاثين سنة؛ ثم تُبّع بن ملكيكرب بن تبّع وهو تبّع أبو كَرِب أسعد بن ملكيكرب أربعاً وثمانين سنة؛ ثم ملك بعده كلال بن مثوب أربعاً وسبعين سنة؛ ثم ملك بعده تبّع بن حسان بن تبّع ثلاثمائة سنة وستاً وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده مرثد سبعاً وثلاثين سنة؛ ثم ملك من بعده أبرهة بن الصبّاح ثلاثاً وسبعين سنة؛ ثم من بعده ذو نواس زرعة ويقال يوسف ويقال بل اسمه غريب بن قطن تسعاً وثمانين سنة؛ ثم ملك بعده لخْنِيعة ويُعرف بذي الشناتر أربعاً وثمانين سنة؛ فذلك ألف وتسعمائة سنة وسبع وعشرون سنة؛ وإنما ذكرنا ما حكيناه عن عبيد بن شرية في ترتيب ملوكهم وتباين تواريخ سنيهم لنأتي على جميع ما قيل في ذلك من التنازع، والله ولي التوفيق.

ولما قتلت الحبشة معديكرب بن سيف على حسب ما قدّمناه في الرحبة بحرابهم، كان

بصنعاء خليفة لوهرز في جماعة من العجم ممن كان ضمهم وهرز إلى معدي كرب؛ فركب وأتى على من كان هناك من الحبشة وضبط البلد وكتب بذلك إلى وهرز، وهو بباب أنوشروان الملك وذلك بالمدائن من أرض العراق؛ فأعلم وهرز الملك بذلك فسيره في البر في أربعة آلاف من الأساورة وأمره بإصلاح اليمن وأن لا يبقي على أحد من بقايا الحبشة ولا جعدٍ قطط قد شرك السودان في نسبه؛ فأتى وهرز اليمن ونزل صنعاء، فلم يترك بها أحداً من السودان ولا من أنسابهم، وملّك أنوشروان وهرز على اليمن إلى أن هلك بصنعاء.

ثم ملك بعده النوشجان بن ثم ملك بعده رجل من فارس يقال له سبحان؛ ثم ملك بعده خُرّزاد ستة أشهر؛ ثم ملك بعده ابن سبحان ثم المَرْوزان وكان من أهل بيت مملكة فارس؛ ثم ملك بعده خُرّخُسْرو وكان مولده باليمن؛ ثم ملك بعده باذان بن ساسان.

قال المسعودي: فهؤلاء جميع من ملك اليمن من قحطان والحبشة والفرس؛ وقد ملك اليمن رجل من ولد إبراهيم الخليل وهو يُعدّ من ملوك اليمن واسمه هُنيبة بن أُميْم بن بدَل من مدن بن إبراهيم الخليل وكان له شأن عظيم في ملك اليمن وطالت أيامه وذكره امرؤ القيس في شعره؛ وكانت ملوك اليمن تنزل بمدينة ظفار مثل آل ذي سحر وآل ذي كلاع وآل ذي أصبح وآل ذي يزن إلا اليسير منهم فإنهم نزلوا غيرها؛ وكان على باب ظفار مكتوباً بالقلم الأول في حجر أسود ما صورته:

يوم شيدت ظَفار قيل لمن أنـ ... ـتِ فقالت لحمير الأخيارِ

ثم سِيلت ما بعد ذاك فقالت ... إن ملكي للأحبُشِ الأشرارِ

ثم سيلت ما بعد ذاك فقالت ... إن ملكي لفارس الأحرارِ

ثم سيلت ما بعد ذاك فقالت ... إن ملكي إلى قريش التجارِ

ثم سيلت ما بعد ذاك فقالت ... إن ملكي لحمير سحّارِ

وقليلاً ما يلبث القوم فيها ... منذ شيدت مشيدُها للبوارِ

من أسود يلقيهم البحرُ فيها ... تشعل النار في أعالي الديارِ

وهذا خبر عن ملوك تداولوها أخبر عن ملكهم قبل كونهم، فتداولتها الملوك على

حسب ما وصفنا وينتظر في المستقبل من الزمان ما ذكر من وقود النيران في أعالي الديار؛ وعند أهل اليمن أن ديارهم ستغلب عليهم الأحابش في آخر الزمان من بعد هنات وكوائن وأحداث؛ وبعث النبي صلعم وعلى اليمن عُمّال كسرى، وظهر الإسلام فغلب بحمد الله؛ وقد أتينا على أخبار من ذكرناه من الملوك وسيرهم ومطافاتهم في البلاد وحروبهم وأبنيتهم في سائر مطافاتهم في الكتاب الأوسط فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الكتاب.

ملوك الحيرة وتدمر والشام(*)

ولما هلك جذِيمة الوضّاح وأتت عليه الزّبّاء بنت عمرو بن ظَرِب بن حسان بن أُذينة بن السّميدع بن هوبر وقد كان ملكاً على مشارق الشام إلى الفرات من قِبَل الروم وكانت داره بالموضع الذي يعرف بالمضيق بين بلاد الخانوقة وقرْقِيسيا، وقد كانت الزبّاء تملّكت بعد أبيها وأطمعت جذيمة في نفسها إلى أن قتلته؛ وأقام جذيمة ملكاً في زمان ملوك الطوائف خمساً وتسعين سنة؛ وفي ملك أردشير بن بابك وسابور الجنود ثلاثاً وعشرين سنة؛ فكان ملكه مائة وثماني عشرة سنة؛ وكان جذيمة يكنى بأبي مالك وفيه يقول بعض شعراء الجاهلية وهو سويْد بن أبي كاهل اليَشْكُري:

إن أذُق حتفي فقبلي ذاقه طسمُ عادٍ وجديسٌ ذو الشنعْ

وأبو مالك الكهل الذي قتلته بنت عمروٍ بالخُدع

وكان الملك قبل جذيمة أبوه وهو أول من ملك الحيرة على ما ذكر والله أعلم؛ وكان يقال له مالك بن فهْم بن دوْس بن الأزد بن الغوْث بن نبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجُب بن يعرُب بن قحطان، وكان سار من اليمن مع ولد جفْنة بن عمرو بن عامر مُزَيقيا فسار بنو جفنة نحو الشام وانفصل مالك نحو العراق، فملك على مُضر بن نزار اثنتي عشرة سنة ثم ملك بعده ابنه جذيمة على ما ذكرنا؛ ثم ملك بعد جذيمة ابن أخته عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن غنْم (عمم) بن نُمارة بن لخْم وهو أول من نزل من الملوك الحيرة واتخذهما منزلاً ودار ملك، وإليه تنسب الملوك النصْرية وهم ملوك الحيرة؛ فكان ملك عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة مائة سنة.

(*) مروج الذهب، الفقرات ١٠٣٦ ـ ١٠٨٥.

قال المسعودي: فقد ذكر غير واحد ممن عني بأخبار العرب وأيامها أن جذيمة أول من ملك من قضاعة وأنه جذيمة بن مالك بن فهم التنوخي.

وإن الزباء بنت عمرو بن ظرب بن حسان ملكة الشام والجزيرة من أهل بيت قبيلة من العماليق كانوا في سليح، وقال بعضهم: بل كانت رومية وكانت تتكلم بالعربية، مدائنها على شاطىء الفرات من الجانب الشرقي والغربي وهي اليوم خراب؛ وكانت فيما ذكروا قد شقّقت الفرات وجعلته أنفاقاً بين مدائنها وكانت تغزو بالجنود قبائل؛ فيقال: خطبها جذيمة الأبرش فكتبت إليه: «إني فاعلة ومثلك من يُرغب فيه؛ فإذا شئت فاشخص إليّ»؛ وكانت بكراً.

فجمع عند ذلك جذيمة أصحابه فاستشارهم فأشاروا عليه بالمضي وخالفهم قصير بن سعد، تابعٌ كان له من لخْم، فأمره أن لا يفعل ويكتب إليها: فإن كانت صادقة أقبلت إليك وإلا لم تقع في حبالها؛ فعصاه وأطاعهم وسار حتى إذا كان ببقّة من دون هيت إلى الأنبار جمعهم وشاورهم ثانية فأمروه بالشخوص إليها موافقة لرأيه في ذلك، وأشار عليه قصير بالانصراف، فقال جذيمة: «ببقّة قُضي الأمر»، فأرسلها مثلاً؛ وقال قصير حين رأى ما قد عزم عليه: «لا يطاع لقيصر رأي»، فأرسلها مثلاً.

وظعن جذيمة حتى إذا عاين مدينتها وهي بمكان دون الخانوقة ونظر إلى الكتائب من دونها فهاله ما رأى، فقال: «أي قصير ما الرأي؟» ــ قال: «تركت الرأي ببقّة» ــ قال عند ذلك: «أشر عليّ» ــ قال: «إن لقيتك الكتائب فحيّتك بتحية الملك وانصرفوا أمامك فالمرأة صادقة، وإن هم أخذوا بجنبيك ووقفوا بعدك فالقوم منعطفون عليك فيما بينهم وبين جنودهم، فاركب العصا فإنها لا تدرك ولا تسبق» يعني فرساً كانت تجنب معه؛ فاستقبله القوم وأحاطوا به فلم يركب العصا فعمد إليها قصير فركبها وختل الخيل وانطلق فالتفت جذيمة فإذا هو بالعصا عليها قصير أمام خيلهم حتى توارت عنه فقال: «ما ضل من تجري به العصا».

وأُدخل على الزباء فاستقبلته وقد كشفت عن كعثبها وقد ضفرت اسبها، فقالت: «يا جذيمة أي متاع عروس ترى؟» ــ قال: «أرى متاع أمة لكعاء غير ذات خفر» ــ فقالت: «أما والله ما ذاك من عدم مواس ولا قلة أواس ولكن شيمة ما أناس»؛ ثم أجلسته على نطع ودعت له بطست من عسجد فقطعت رواهشه واستنزفته حتى إذا ضعفت قواه ضرب بيده فقطرت قطرة من دمه على دعامة من رخام، وقد قيل لها: إن وقع من دمه

شيء في غير الطست طُلب بدمه؛ فقالت: «أي جذيمة لا تضيّعنّ من دمك شيئاً، فإني إنما بعثت إليك وقد بلغني أن دمك شفاء من الخَبَل» ــ فقال جذيمة: «وما يحزنك من دم أضاعه أهله؟»؛ وفي ذلك يقول البعيث:

من الدارميين الذين دماؤهم شفاء من الداء المجنة والخَبْلِ

فاستصفت دمه وجعلته في برنيّة.

وقد قال بعضهم: دخل جذيمة عليها في قصر لها ليس فيه إلا الجواري وهي على سرير لها فقالت للإماء: «خُذن بيد سيدكنّ»، ثم دعت بنطع فأجلسته عليه؛ فعرف الشر وكشفت عن عورتها فإذا هي قد عقدت اسبها من ورائها فقالت: «أشوار عروس ترى؟» ــ فقال جذيمة: «بل شوار أمة بظراء»، فقالت: «أما والله ما ذلك من عدم مواس ولا من قلة أواس ولكن شيمة ما أناس»، ثم أمرت برواهشه فقطعت فجعل دمه يشخب في النطع كراهية أن يفسد مقعدها؛ فقال جذيمة: «لا يحزنك دم أراقه أهله».

ونجا قصير فأورد الخبر على عمرو بن عبد الجن التنوخي بالحيرة فأشفق من ذلك فقال له قصير: «اطلب بثأر ابن عمك وإلا سبّتك العرب»، فلم يحفل بذلك؛ فخرج قصير إلى عمرو بن عدي فقال له: «هل لك في أن أصرف الجنود إليك على أن تطلب بثأر خالك؟»، فضمن له ذلك فصرف وجوه الجنود إليه ومناهم بالمال والحال؛ فانصرف إليه منهم بشر كثير؛ والتقى هو والتنوخي، فلما خافوا الفناء تابعه التنوخي وتم الأمر لعمرو بن عدي.

فقال له قصير: «انظر فيما وعدتني به في الزبّاء» ــ فقال عمرو: «وكيف لنا بها وهي أمنع من عقاب الجو؟» ــ فقال: «أما إذا أبيت فإني جادع أنفي وأذني ومحتال لقتلها جهدي فأعنّي وخلاك ذم» ــ فقال له عمرو: «أنت أبصر وعليّ معونتك».

فجدع أنفه فقيل: «لأمرٍ ما جدع قصير أنفه». ثم انصرف حتى دخل على الزبّاء فقالت: «من أنت؟» ــ فقال: «أنا قصير لا وربّ المشرق ما كان على ظهر الأرض بشر كان أنصح لجذيمة ولا أغش لك مني حتى جدع عمرو بن عدي أنفي وأذني، فعرفت أني لم أكن مع أحد هو أثقل عليه مني معك» ــ فقالت: «أي قصير نقبل منزلتك ونصرفك في بضائعنا؟» ــ فأعطته مالاً للتجارة.

فأتى بيت مال الحيرة فاستخفّ ما فيه بأمر عمرو بن عدي وانصرف به إليها؛ فلما رأت

ما جاءها به فرحت بذلك وزادته مالاً إلى ما جاءها به وقال لها: «إنه ليس من ملك ولا ملكة إلا وهم يتخذون في مدائنهم أنفاقاً تكون لهم عدداً» ــ فقالت: «أما إني فقد فعلت ذلك قد نقبت سرباً وبنيته وجعلته من تحت سريري هذا حتى أخرج من تحت الفرات إلى سرير أختي رُحيلة»؛ فخزنها قصير؛ ثم ظعن حتى أتى عمراً؛ فركب عمرو في ألفي رجل على ألف بعير في الجواليق حتى سار إليها.

فتقدّم قصير وسبق الأبعرة فقال لها: «اصعدي حائط مدينتك وانظري إلى مالك وتقدّمي إلى بوّابك فلا يتعرّض لشيء من أعكامنا فإني قد جئت بمال صامت»، وكانت قد آمنته ولم تكن تخافه؛ فصعدت وفعلت ما أمرها؛ فلما نظرت إلى ثقل مشي الجمال قالت:

ما للجِمال مشيُها وئيدا أجندلاً يحمِلنَ أم حديدا

أم صرفاناً بارداً شديدا أم الرجال جُثّماً قعودا

ودخلت الإبل المدينة حتى إذا بقي آخرها جملاً عيل صبر البوّاب فطعن بمنخسة [كانت] في يده [في] خاصرة رجل فضرط فقال البوّاب: «بشتا بسقا» أي: شر في الجواليق؛ وثار الرجال من الجواليق ضرباً بأسيافهم فخرجت الزباء هاربة إلى سربها فأبصرت قصيراً عند نفقها مصلتاً سيفه فانصرفت راجعة وتلقّاها عمرو بن عدي فضربها؛ وقال بعضهم: مصّت خاتمها وكان فيه سم ساعة وقالت: «بيدي ولا بيد عمرو» وخربت المدينة وسبيت الذراري؛ فقالت الشعراء في أمرها وأمر قصير فأكثرت، فمن ذلك قول المتلمّس:

ومن طلبِ الأوتار ما حزّ أنفه قصيرٌ ورامَ الموتَ بالسيف بيْهَسُ

في أبيات، والأشعار في هذا كثيرة.

وكانت الزبّاء قلما تأتي حصناً إلا ضفرت باستها من خلفها وتقاعست به فتقلعه حتى فعلت ذلك بمارد حصن دومة الجندل وبالأبلق حصنين منيعين فقالت: «تمرّد مارد وعزّ الأبلق» فذهبت مثلاً وهما الحصنان اللذان تذكرهما العرب في أشعارها كثيراً قال الأعشى:

بالأبلق الفرْدِ من تيماء منزلُهُ حِصنٌ حصينٌ وجارٌ غير غدّار

وإنما سُمّي جذيمة الأبرش الوضّاح لأنه كان به برص فكُنّي عنه إعظاماً له.

قال المسعودي: فهذا بدء خبر عمرو بن عدي وما كان من أمره؛ ولما هلك عمرو بن عدي ـ وقد قدّمنا أن مدة ملكه كانت مائة سنة ـ ملك بعده ابنه امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ستين سنة؛ ثم ملك بعده عمرو بن امرىء القيس وهو محرّق العرب خمساً وعشرين سنة وكانت أمه مارية البرية أخت ثعلبة بن عمرو من ملوك غسان؛ ثم ملك النعمان بن امرىء القيس فاتك الفرس خمساً وستين سنة وكانت أمه الهيجمانة بنت سلول من مراد ويقال من إياد، وملك المنذر بن النعمان بن امرئ القيس خمساً وعشرين سنة وكانت أمه الفراسية بنت مالك بن المنذر من آل نصر.

وملك النعمان بن المنذر فارس حليمة وهو الذي بنى الخورْنق وكردس الكراديس خمساً وثلاثين سَنة وكانت أمه هند بنت زيد مناة من آل غسان، وملك الأسود بن النعمان عشرين سنة وكانت أمه هِر [بنت النعمان من] بني الهيجمانة من آل نصر؛ وملك المُنذر بن الأسود بن النعمان أربعاً وثلاثين سنة وكانت أمه ماء السماء بنت عوف [بن جُشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان بن سعد بن الخزرج بن تميم الله] بن النمِر بن قاسِط بن هِنْب بن أفصى بن دُعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، وإنما سُميت بماء السماء لحسنها وجمالها؛ ثم ملك بعده عمرو بن المنذر أربعاً وعشرين سنة وكانت أمه حليمة بنت الحارث من آل معدي كرب.

وملك المنذر بن عمرو بن المنذر ستين سنة وكانت أمه أخت عمرو وقابوس من آل نصر؛ ثم ملك قابوس بن المنذر ثلاثين سنة وكانت أمه هند بنت الحارث من آل معاوية بن معدي كرب؛ وملك النعمان بن المنذر وهو الذي يقال له أبيت اللعن اثنتين وعشرين سنة وكانت أمه سلمى بنت وائل بن عطية من كلب.

وقد كان النعمان قتل عدي بن زيد العبادي ـ وكان يكتب لِكسرى أبرويز بالعربية ويترجم له إذا وفدت إليه زعماء العرب ـ لموجدة وجدها عليه النعمان، في خبر طويل الشرح؛ فلما قُتل صار زيد بن عدي ابنه مكان أبيه؛ فذكر لأبرويز جمال نساء آل المنذر ووصفهنّ له، فكتب إلى النعمان يأمره أن يبعث إليه بأخته؛ فلما قرأ النعمان كتابه قال للرسول وهو زيد بن عدي: «أما لكسرى في مها السواد كفاية حتى يتخطّى إلى العربيات؟» ـ فقال زيد: «إنما أراد الملك إكرامك أبيت اللعن بصهرك، ولو علم أن ذلك يشق عليك لما فعل؛ وسأحسن ذلك عنده وأعذرك بما يقبله» ـ فقال له النعمان: «فافعل فقد تعرف ما على العرب في تزويج العجم من الفصاحة والبشاعة».

فلما انصرف إلى كسرى أخبره أنه رغب عنه وأدى إليه قوله في مها السواد على أقبح الوجوه وأوجده عليه، وقال: «ما المها؟» ـ قال: «البقر» ـ فقال: «رُبّ عبد قد صار من الطغيان إلى أكثر من هذا»؛ فلما بلغت كلمته النعمان تخوّفه، فخرج هارباً حتى سار إلى طيء لصهر كان له فيهم، ثم خرج من عندهم حتى أتى بني رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قُطيعة بن عبْس، فقالوا له: «أقم معنا فإنّا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا»؛ فجزاهم خيراً ثم رحل عنهم يريد كسرى ليرى فيه رأيه.

وفي ذلك يقول زهير بن أبي سُلمى:

ألم ترَ للنعمان كان بنجْوةٍ ... من الدهر لو أن امرأً كان ناجيا

فغيّر عنه مُلك عشرين حجة ... من الدهر يومٌ واحدٌ كان غاويا

فلم أرَ مسلوباً له مثل ملكه ... أقل صديقاً مُعطياً أو مُواسيا

خلا أن حيّاً من رواحةَ حافظوا ... وكانوا أناساً يتقون المخازيا

يسيرون حتى خيّموا عند بابه ... هجان المطايا والعتاق المذاكيا

فجازاهم خيراً وأثنى عليهم ... وودعهم توديع أن لا تلاقيا

فأقبل النعمان حتى أتى المدائن، فصفّ له كسرى ثمانية آلاف جارية عليهنّ المصبّغات صفّين؛ فلما صار النعمان بينهنّ قلن له: «أما فينا للملكِ غناءٌ عن بقر السواد؟»؛ فعلم النعمان أنه غير ناجٍ منه؛ ولقيه زيد بن عدي فقال له النعمان: «أنت فعلتَ هذا بي والله لئن تخلّصت لأسقيّنك بكأس أبيك!» ـ فقال زيد: «امضِ نُعَيْمُ فقد آخيت لك آخية لا يقطعها المهر الأرن»؛ وأمر به كسرى فحبس بساباط المدائن، ثم أمر به فرمي تحت أرجل الفِيلة، وقال بعضهم: بل مات في محبسه بساباط.

وقد كان النعمان حين أراد المضي إلى كسرى مستسلماً مر ببني شيبان بن ثعلبة فأودع سلاحه وعياله عند هانىء بن مسعود الشيباني؛ فلما أتى كسرى على النعمان بعث إلى هانىء بن مسعود يطالبه بتركته فامتنع وأبى أن يخفر الذمة فكان ذلك السبب الذي أهاج حرب ذي قار؛ وقد أتينا على ذلك في الكتاب الأوسط، فأغنى عن إعادته في هذا الكتاب.

قال المسعودي: فهؤلاء ملوك الحيرة إلى أن ورد الإسلام فأظهره الله وأذلّ الكافرين؛

فجميع من سمّينا من هؤلاء الملوك من ولْد عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش على حسب ما قدّمنا آنفاً في صدر هذا الباب؛ ثم جاء الإسلام وملك الفرس كسرى أبرويز بن هرمز فملّك على العرب بالحيرة إياس بن قبيصة الطائي، فكان ملكه تسع سنين؛ ولست سنين وثمانية أشهر مضت من ملك إياس كان مبعث رسول الله صلعم؛ ثم ملك الحيرة جماعة من الفرس، وقد كان قبل عمرو بن عدي ملوك على الحيرة على حسب ما ذكرنا؛ فكانت عدة الملوك بالحيرة ثلاثة وعشرين ملكاً من بني نصر وغيرهم من العرب والفرس، وكانت مدة ملكهم ستمائة سنة واثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر؛ وقد قيل إن عمران الحيرة وبدءه إلى أن خربت في وقت بناء الكوفة كان خمسمائة سنة وبضعاً وثلاثين سنة.

قال المسعودي: ولم يزل عمرانها يتناقض من الوقت الذي ذكرنا إلى صدر من أيام المعتضد، فإنه استولى عليها الخراب؛ وقد كان جماعة من خلفاء بني العباس كالسفّاح والمنصور والرشيد وغيرهم ينزلونها ويطلبون المقام بها لطيب هوائها وصفاء جوها وصحة تربتها وصلابتها وقرب الخورنق والنجف منها؛ وقد كان فيها ديارات كثيرة فيها رهبان فلحقوا بغيرها من البلاد لتداعي الخراب إليها؛ وأقفرت من كل أنيس فليس فيها في هذا الوقت إلا الصدى والبوم؛ وعند كثير من أهل الدراية بما يحدث في المستقبل من الزمان أن سعدها سيعود بالعمران وأن هذا النحس عنها سيزول وكذلك الكوفة.

في ذكر ملوك الشام من اليمن من غسان وغيرهم وما كان من أخبارهم

كان أول من ملك الشام من اليمن فالغ بن يغور، ثم ملك بعده يوتاب وهو أيوب بن زراح وقد ذكر الله تعالى في كتابه ما كان من خبره على لسان نبيه وما اقتص من أمره؛ ثم غُلبت اليمن على ديارها فتفرقوا في البلاد؛ فكانت قضاعة بن مالك بن حِمير أول من نزل بالشام وانضافوا إلى ملوك الروم فملّكوهم بعد أن دخلوا في دين النصرانية على من حوى الشام من العرب؛ فكان أول ملوك تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك؛ ثم ملك بعده عمرو بن النعمان بن عمرو؛ ثم ملك بعده الحواري بن النعمان ولم يملك من تنوخ إلا من ذكرنا وهو تنوخ بن مالك بن فهْم بن تيْم اللات بن الأزد بن وبرة بن تغلب بن حُلوان بن عمران بن ألحاف بن قُضاعة بن مالم بن حمير؛ وقد تنوزع في

قُضاعة أمن معد كان أم من قحطان: فقضاعة تأبى أن تكون من معد وتزعم أنها من قحطان على ما ذكرنا؛ وقد قيل في نسب قضاعة واتصالها بحمير غير ما ذكرنا من النسب.

ثم وردت سليح الشام فتغلّبت على تنوخ وتنصّرت فملّكتها الروم على العرب الذين بالشام وهم ولْد سليح بن حُلوان بن عمران بن ألحاف بن قضاعة، فاستقام ملك سليح بالشام وتفرّقت قبائل اليمن لما كان من [أمر] مأرب وقصة عمرو بن عامر مُزيقياء؛ فسارت غسان إلى الشام وهم من ولْد مازن؛ وذلك أن الأزد بن الغوْص بن نبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجُب بن يعرُب بن قحطان ولد مازن وإليه ترجع قبائل غسان؛ وإنما غسان ماء شربوا منه فسُموا به وهو ماء بين زبيد ورِمع وادي الأشعريين بأرض اليمن؛ وفي ذلك يقول حسان بن ثابت الأنصاري:

إمّا سألتَ فإنّا معشرٌ نجُبٌ الأزد نسبتُنا والماء غسّانُ

وسنذكر بعد هذا الموضع خبر عمرو بن عامر بن مُزيقياء وخبر سيل العرم وتفرّقهم في البلاد وخبر الماء المعروف بغسان؛ وقد ذُكر أن عمرو بن عامر حين خرج من مأرب لم يزل مقيماً على هذا الماء إلى أن أدركه الموت فكان عمره ثمانيمائة سنة: أربعمائة سوقة وأربعمائة ملكاً.

وغلبت غسان على من بالشام من العرب فملّكها الروم على العرب؛ فكان أول من ملك من ملوك غسان بالشام الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن وهو غسان بن الأزد بن الغوث، ثم ملك بعده الحارث بن ثعلبة بن جفْنة بن عمرو [...] وأمه مارية ذات القُرطين بنت أرقم بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو، وقد قيل إن أمه مارية بنت ظالِم بن وهْب بن الحارث بن معاوية بن ثوْر من كِندة، وهي التي ذكرتها الشعراء، وتنسب جماعة من ملوك غسان إليها؛ وملك بعده النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو، ثم ملك بعده المنذر أبو شمّر بن الحارث بن جبلة [بن الحارث] بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو ثم ملك بعده عوْف بن أبي شمر؛ ثم ملك بعده الحارث بن أبي شمر فكان ملكه حين بعث رسول الله صلعم.

ثم ملك بعده جبلة بن الأيْهم بن جبلة بن الحارث [بن جبلة بن الحارث] بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن وهو غسان بن

الأزد بن الغوث وهو الملك الذي امتدحه حسان بن ثابت وشعره فيه كثير مشهور.

وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرهما بين غوطة دمشق وأعمالها ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام؛ وجبلة هو الذي أسلم وارتدّ عن دينه خوف العار والقوَد من اللطمة، وخبره واضح مشهور، قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا، وسائر أخبار ملوك تنوخ وسليح وغسّان وغيرهم ممن ملك بالشام ودعاء النبي ﷺ الحارث بن أبي شمّر إلى الإسلام وترغيبه في الإيمان، وقد أتينا على خبره وما كان من أمر إسلامه وأخباره مع النبي ﷺ في كتابنا في أخبار الزمان ثم في الكتاب الأوسط.

فجميع من ملك من غسان الشام أحد عشر ملكاً؛ وقد كان بالشام ملوك ببلاد مادِب من أرض البلقاء من بلاد دمشق وكذلك مدائن قوم لوط من أرض الأردن وبلاد فلسطين، وكانت خمس مدن، وكانت دار المملكة منها والمدينة العظمى مدينة سدوم؛ وكانت سِمة كل ملك يملكها بارع، كذلك ذكر في التوراة وذكرت أسماء هذه المدن، أعرضنا عن ذكر ذلك إذ كان فيه خروج عن شرط الاختصار.

وقد كان لكِندة وغيرها من العرب من قحطان ومعد ملوك كثيرة لم نعرض لذكرها إذ كان لا سِمة لهم تعمّهم وتشهرهم كقولنا خليفة وكسرى وقيصر والنجاشي ولئلا يطول الكتاب بذكرهم، وقد أتينا على ذكر سائر ملوك العرب من معد وقحطان وغيرهم ممن وسم بالملك في بعض الممالك في سائر الأمم الخالية والممالك الباقية من البيضان والسودان ممن أمكن ذكره وتأتى لنا الإخبار عنه؛ وإنما ذكرنا في هذا الكتاب من الملوك من اشتهر ملكه وعرفت مملكته ميلاً إلى الاختصار وطلباً للإيجاز وتنبيهاً على ما سلف من أخبارهم في كتبنا المتقدم تصنيفها.

مكّة(*)

ولما أسكن إبراهيم ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر واستودعهما خالقه على حسب ما أخبر الله عنه وأنه أسكنه: ﴿بوادٍ غيْرِ ذي زرْع﴾ وكان موضع البيت ربوة حمراء، أمر إبراهيم ﷺ هاجر أن تتخذ عليها عريشاً يكون لها مسكناً وكنّاً، وكان من ظماء إسماعيل وهاجر ما كان إلى أن أنبع الله لهما زمزّم وأقحط الشحر واليمن فتفرّقت

(*) مروج الذهب، الفقرات ٩٣٨ ــ ٩٧١.

العماليق وجرْهُم في البلاد ومن هنالك من بقايا عاد.

فيممت العماليق نحو تِهامة يطلبون الماء والمرعى والدار الخصيبة وعليهم السميْدَع بن هُوبر بن لاوي بن قيطور بن كرْكَر بن حيْد؛ فلما أمعنت بنو كركر في السير وقد عدمت الماء والمرعى واشتد بهم الجهد أقبل السميدع بن هوبر يرتجز بشعر له يحثهم على المسير ويشجعهم فيما نزل بهم وهو يقول:

سيروا بني كركر في البلاد ... إني أرى ذا الدهر في فسادِ

قد سار من قحطان ذو الرشادِ ... جرْهُمُ لما هدّها التعادي

فأشرف روّادهم وهم المتقدّمون منهم لطلب الماء على الوادي فنظروا إلى الطير يرتفع وينخفض فاستبطنوا الوادي ونظروا إلى العريش على الربوة الحمراء وفيه هاجر أم إسماعيل وقد زمّت حول الماء بالأحجار ومنعته من الجريان؛ وقد روي في ذلك خبر عن النبي ﷺ أن قال: «رحم الله أمّنا هاجر لولا أنها بخلت ومنعت ماء زمزم أن يجري بما حوّطت حوله من الأحجار لجرى الماء على وجه الأرض»؛ فسلّم الروّاد عليها واستأذنوها في نزولهم وشربهم من الماء؛ فأنست إليهم وأذنت لهم في النزول فبلّغوا من كان وراءهم من أهلهم وأخبروهم خبر الماء فنزلوا بالوادي مطمئنين مستبشرين بالماء وبما أضاء الوادي من نور النبوّة وموضع البيت الحرام فرحين؛ فشبل إسماعيل وتكلّم بالعربية بخلاف لغة أبيه وقد ذكرنا في هذا الكتاب وغيره ما قاله الناس في ذلك من قحطان ونزار.

فتزوّج إسماعيل بالجدَاء بنت سعد العملاقي؛ وقد كان إبراهيم استأذن سارة في زيارة إسماعيل فأذنت له فوافى مكة وإسماعيل في الصيد والرعي ومعه أمه هاجر؛ فسلّم على الجداء بنت سعد زوجة إسماعيل فلم تردّ السلام؛ فقال: «هل من منزل؟» ـ فقالت: «لا ها الله» ـ قال: «فما يفعل رب البيت؟» ـ قالت: «هو غائب» ـ فقال لها: «إذا ورد فأخبريه أن إبراهيم يقول لك بعد مسألته عنك وعن أمك: استبدلْ بعتبة بيتك غيْرها»؛ وانصرف إبراهيم من فوره نحو الشام وراح إسماعيل وهاجر فنظر إلى الوادي وقد أشرق وأنار والأغنام تشم الآثار؛ فقال لزوجته العملاقية: «هل كان لكِ بعدي من خبر؟» ـ قالت: «نعم شيخ ورد»، وأخبرته بالقصة؛ فقال: «ذاك أبي خليل الرحمن وقد أمرني بتخليتك فالحقي بأهلك فلا خير فيك».

وتسامعت جُرْهم ببني كركر ونزولهم في الوادي وما هم فيه من الخصب وإدرار الضرع، وهم في حال قحط؛ فساروا نحو مكة وعليهم الحارث بن مُضاض بن عمرو بن سعيد بن الرقيب بن ظالم بن هيني بن نَبْت بن جُرْهُم، حتى أتوا الوادي ونزلوا مكة واستوطنوها مع إسماعيل ومن تقدّمهم من العماليق من بني كركر؛ وقد قيل في بني كركر أنهم من العماليق وقيل إنهم من جرْهم والأشهر أنهم من العماليق؛ وتزوّج إسماعيل زوجته الثانية وهي سامة بنت مُهلْهل بن سعْد بن عوْف بن هيني بن نبْت.

واستأذن إبراهيم سارة في زيارة إسماعيل فاستخلفته غيرةً عليه أنه إذا أتى الموضع لا ينزل من ركابه؛ وقد تنازع الناس على أي شيء كان راكباً: فمنهم من قال إنه كان راكباً على البُراق، ومنهم من قال على أتان، وقيل غير ذلك من الحيوان؛ فلما أتى إبراهيم الوادي سلّم على زوجة إسماعيل الجرهمية فسلّمت عليه ورحّبت به وتلقّته بأحسن لقيان، وسألها عن إسماعيل وهاجر؛ فأخبرته بخبرهما وأنهما في رعيهما وعرضت عليه النزول، فأبى؛ وقيل إن هاجر كانت قد ماتت ولها من السن تسعون سنة؛ وألحّت الجرهمية على إبراهيم في النزول فأبى؛ فقدّمت إليه لبناً وشرائح من لحم الصيد فدعا فيه بالبركة، وجاءته بحجر كان في البيت فمال على ركابه وجعلته تحت قدمه اليُمنى، ثم رجّلت شعره ودهنته ثم حوّلت الحجر إلى شماله فوضع رجله اليسرى عليه أيضاً، فمال برأسه نحوها فرجّلته ودهنته، وأثّرت قدماه في الحجر على حسب ما وصفنا من ترتيب اليمين والشمال؛ فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرته؛ وهذا الحجر هو مقام إبراهيم؛ فقال لها إبراهيم: «ارفعيه فسيكون له شأن ونبأ بعد حين» ثم قال لها: «إذا جاءك إسماعيل فقولي له إنّ إبراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك احتفظ بعتبة بيتك فنِعْمت العتبة هي»؛ وسار إبراهيم راجعاً إلى الشام.

وقيل إنما سُمّي إسماعيل لأن الله سمع دعاء هاجر ورحمها حين هربت من سيدتها سارة أم إسحق، وقيل إن الله سمع دعاء إبراهيم؛ وقُبض إسماعيل وله مائة وسبع وثلاثون سنة، فدُفن في المسجد الحرام حيال الموضع الذي كان فيه الحجر الأسود؛ وولد إسماعيل اثني عشر ذكراً وهم نابت وقِيْذار وأدبيل ومبْسَم ومِشمع ودُوما ودَوام ومسا وحَدار وثِيما ويطور ونافس؛ وكل هؤلاء قد أنسل، وقد كان إبراهيم قدم إلى مكة ولإسماعيل ثلاثون سنة حين أمره ببناء البيت؛ فبناه إسماعيل من حجارة عدة من الجبال وجعل طوله ثلاثين ذراعاً وعرضه اثنين وعشرين ذراعاً وسمكه تسعة أذرع وجعل

له باباً ولم يسقُفه ووضع الركن موضعه وألصق المقام بالبيت وذلك قوله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وإذْ يَرْفَعُ إبْراهيمُ القَوَاعدَ منَ البيْتِ وَإسماعَيلُ﴾ الآية.

وأمر الله إبراهيم أن يؤذّن في الناس بالحج؛ ولما قُبض إسماعيل قام بالبيت بعده نابت بن إسماعيل، ثم قام بعد نابت أناس من جُرْهم لغلبة جرهم على دار إسماعيل، وكان ملِك جرهم يومئذٍ الحارث بن مُضاض، وهو أول من ولي البيت؛ فكان ينزل هناك في الموضع المعروف بقُعَيْقعان في هذا الوقت؛ وكان كل من دخل مكة بتجارة عشّرها عليه وذلك من أعلى مكة؛ وملك العماليق السميدع بن هوبر ينزل أجياداً من أسفل مكة فيعشّر من دخل مكة من ناحيته.

فكانت بينهم حروب فخرج الحارث بن مُضاض ملك جرهم يتقعقع معه الرماح والدرق فسمّي الموضع بقُعيقعان لما ذكرنا؛ وخرج السميدع ملك العماليق ومعه الجياد من الخيل فعرف الموضع بأجياد إلى هذا الوقت؛ فكانت على الجرهميين فافتضحوا فسمّي الموضع بفاضح إلى هذا الوقت؛ ثم اصطلحوا ونحروا وطبخوا وسمي الموضع بمطابخ إلى هذه الغاية؛ وصارت ولاية البيت إلى العماليق، ثم كانت لجرهم عليهم فأقاموا ولاة البيت نحو ثلاثمائة سنة.

وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر بن عمرو بن الحارث بن مضاض الأكبر، وزاد في بناء البيت رفعه على ما كان عليه من بناء إبراهيم؛ وبغت جرهم في الحرم وطغت حتى فسق رجل منهم بامرأة في البيت وكان الرجل يُدعى بإساف والمرأة نائلة، فمسخهما الله حجرين صُيّرا بعد ذلك وثنيين وعُبدا تقرّباً بهما إلى الله، وقيل بل هما حجران نُحتا ومُثّلا بمن ذكرنا وسُمّيا بأسمائهما؛ فبعث الله على جرهم الرُّعاف والنمْل وغير ذلك من الآفات؛ فهلك كثير منهم؛ وكثر ولد إسماعيل وصاروا ذوي منعة وقوة فغلبوا على أخوالهم جرهم وأخرجوهم من مكة فلحقوا ببلاد جنيهة، فأتاهم في بعض الليالي السيل فذهب بهم؛ وكان الموضع يعرف بإضم.

وقد ذكر ذلك أمية بن أبي الصّلت الثقفي في شعر له فقال:

وجرهمٌ دمنوا تهامةَ في الـ ـدهر فسالت بجمعهم إضَمُ

وفي ذلك يقول الحارث بن مضاض الأصغر الجرهمي:

كأنْ لم يكن بين الحجون إلى الصّفا أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكة سامِرُ

بلى نحنُ كنا أهلها فأبادنا ... صروفُ الليالي والجدودُ العواثر
وكنا لإسماعيل صهراً وجيرة ... ولما تدُر فيها علينا الدوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابتٍ ... نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فبدّلنا ربّي بها دار غربةٍ ... بها الذئب يعوي والعدو المحاصِر

وفي ذلك يقول عمرو بن الحارث ابنه:

وكنا ولاة البيت والقاطنَ الذي ... إليه يوفّي نذْره كل مُحرمِ
سكنّا بها قبل الظباء وارثةً ... لنا من بني هيني بن نبْتِ بن جُرهمِ

وفي ذلك يقول:

كهفُنا جرهمٌ وآية كهْفِ ... وولاةٌ لبيته والحجابِ
فسقوا في الحرام بعد تُقاهُم ... واستعاضوا العِقابَ بعد الثوابِ

ثم صارت ولاية البيت في ولد إياد بن نزار بن معد ثم كانت حروب كثيرة بين ولد مضر وإياد، فكانت لمضر على إياد فانجلوا عن مكة إلى العراق؛ وسنورد بعد هذا جملاً من أخبار مكة وولد نزار وخُزاعة وغيرهم؛ قال المسعودي: وقد أتينا على جمل من الأخبار في هذا الباب من أخبار جرهم وغيرها.

ووجدتُ في وجه آخر من الروايات أن أول من ملك من ملوك جرهم بمكة مضاض بن عمرو بن سعيد بن الرقيب بن هيني بن نبت بن جرهم بن قحطان مائة سنة؛ ثم ملك بعده ابنه عمرو بن مضاضة مائة وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده الحارث بن عمرو مائتي سنة وقيل دون ذلك؛ ثم ملك بعده عمرو بن الحارث مائتي سنة؛ ثم ملك مضاض بن عمرو الأصغر بن الحارث بن عمرو بن مضاض بن عمرو [الأكبر] بن سعيد بن الرقيب بن هيني بن نبت بن جرهم بن قحطان أربعين سنة وانقرضت العرب العاربة من عاد وعبيل وثمود وجديس وطسم والعماليق ووبار وجرهم لم يبقَ من العرب إلا من كان من عدنان وقحطان، ودخل من بقي ممن ذكرنا من العرب البائدة في عدة قحطان وعدنان فامحت أنسابهم وزالت آثارهم.

وقد كانت العماليق بغت في الأرض، فسلّط عليهم ملوك الأرض فأفنتها؛ وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا الروم وأنسابها من لحق من ولد عملاق وغيرهم

ممن ذكرنا بولد عيصو بن إسحق بن إبراهيم وأن علماء العرب تنسبهم إلى غير ذلك وهو الأشهر في الناس؛ وقد رثتهم الشعراء فقال بعض من رثاهم:

مضى آل عملاقٍ فلم يبقَ منهمُ حقير ولا ذو نخوة متشاوسُ

عتوا فأدال الله منهم وحكمه على الناس هذا وعدُه وهو سائسُ

وأما طسْم وجديس فتفانت في نحو من سبعين سنة في البراري لما كان بينهم من الشحناء وطلب الرئاسة، فدثروا ولم يبق لهم باقية، فضربت بهم العرب المثل وصوبت بهم الشعراء المقال، وأما الرس وأصحابه فقد قدّمنا ذكرهم فيما سلف من كتبنا، وهم قوم حنْظلة بن صفْوانن العبْسي بعثه الله إليهم فكذّبوه، وقد قدّمنا من خبره لمعاً؛ وقد قيل في أصحاب الرس وجوه كثيرة غير ما ذكرنا في هذا الكتاب.

وقد ذُكرت هذه القبائل في التوراة وكل يرجع إلى ولد سام بن نوح من ولد أرم بن سام بن نوح من ولده عوص بن أرم؛ ومن ولده ماش بن أرم؛ فولد عوص بن أرم [غاثر بن عوص] وعاد بن عوص، وولد غاثر ثمود وجديس، وولد ماش بن أرم [أرم بن ماش و] نبيط بن ماش فسائر النبط وملوكها ترجع في أنسابها إلى نبيط بن ماش فحل عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح وولده الأحقاف من بلاد حضرموت؛ وحل ثمود بن غاثر [بن عوص] بن أرم بن سام بن نوح وولده أكناف الحجاز؛ وحل جديس بن غاثر بلاد جَوّ وهي بلاد اليمامة ما بين البحرين والحجاز، وهذا البلد في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة بيد ولد الأُخيضر العلوي وهو من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو مجاوِر للبحرين ومن فيها إلى هذا الوقت؛ وحلّ طسم بن لود بن سام بن نوح وولده اليمامة مع بني جديس؛ وحلّ عمليق بن لود بن سام بن نوح الحجاز.

وقد ذكرتا ولد عيلام فيما سلف من هذا الكتاب [و] أنهم حلّوا الأهواز وفارس، وهو عيلام بن سام بن نوح وحلّ نبيط بن ماش بن أرم بن سام بن نوح بابل فغلبوا على العراق وهم النبط، ومنهم ملوك بابل الذين قدّمنا ذكرهم فإنهم الملوك الذين عمّروا الأرض ومهّدوا البلاد وكانوا أشرف ملوك الأرض، فأذلّهم الدهر وسلبهم الملك والعز فصاروا على ما هم عليه من الذلة في هذا الوقت بالعراق وغيرها.

وقد زعم جماعة من المتكلمين منهم ضِرار بن عمرو وثُمامة بن أشرس وعمرو بن بحر الجاحظ أن النبط خير من العرب لأن من جعل الله ــ عزّ وجل ــ النبي صعلم منهم

فلم يدع أكبر شرف في الدنيا إلا وقد أعطاهم إياه ومن لم يجعله لهم فلم يدع أكبر شرف في الدنيا إلا وقد عرّاهم منه وسلبهم إياه ولا نعمة على من جعل الله النبي منهم أكبر من النبي ولا بلوى على من لم يجعل الله النبي منهم أكبر خروج النبي عنهم، إلا أنهم مع هذا كله لهم عند الله فضل بين النعمة والبلاء.

قال المسعودي: ولما لم يُبالِ من قدّمنا ذكرهم في تشريف النبط تفضيلهم على ولد قحطان وعدنان، وفيهم الفضل والشرف من النبوة والملك قال المحتج عن قحطان ونزار: إذا كان النبط قد صاروا أفضل من العرب لما امتحن به النبط من سلبه النبوة منهم وأنعم على العرب بكون النبي منهم، فللعرب أيضاً التعلّق بهذه العلة التي اعتلّ بها النبط فتقول: «قد صرنا بعد أفضل من النبط وقد امتحنا به معاشر العرب من سلب ما جعل الله للنبط من الفضل شدة امتحانهم بسلب النبي عنهم، والنبط أيضاً قد صاروا دون العرب إذ للعرب فضل المحنة التي جعل الله بهم بتعريتهم من فضل النبط على شدة امتحانهم بتعرية الله إياهم من النبي ما ليس للنبط، فتصير العرب أيضاً خيراً من النبط، وهذا لا يصح لهم إلا كما يصح عليهم والكلام متوجه عليهم فيما قالوه ومكافٍ لعلتهم فيما أورده من تفضيل النبط على العرب.

وقد ذكرنا تنازع الناس في الأنساب والفضل بها، والأعمال دون الأنساب ومن قال: العمل والنسب ومن قال: العمل دون النسب وما قالته الشعوبية وغيرها في كتابنا في المقالات في أصول الديانات؛ وقد ذكر أبو الحسن أحمد بن يحيى في كتابه في الرد على الشعوبية عللاً كثيرة وإدخالات فقال: «من اختصه الله من عباده واصطفاه من خلقه أذلك على طريق الثواب أم على طريق التفضيل؟ قال: فإن زعم زاعم أن ذلك ثواب خرج من معقول كلام العرب ومفهوم خطابها لأنه لا يقال لمن أعطى الأجير أجرته ووفى العامل ثوابه: قد اختص فلان فلاناً بعطيته، وإنما يقال ذلك إذا تطوّل عليه بالعطية بغير عمل ومنعها غيره بغير جرم.

«وإن زعموا أنه تفضّل، قلنا لهم: فإذا جاز أن يصرف الله عز وجل رحمته إلى بعض خلقه بغير عمل استحقوها به فلم لا يجوز أن يشرّفهم بأنسابهم وإن لم تكن الأنساب من أعمالهم؟؛ فإن قالوا: ليس من العدل أن يشرّفهم بغير أعمالهم؛ قلنا لهم: أرأيتم إن عارض معارض فزعم أنه ليس من العدل أن يَمُن عليهم برحمته دون غيرهم بغير عمل كان منهم وبغير معصية كانت من غيرهم، ماذا يكون الفصل يا معاشر الشعوبية بينكم

وبينه وقد أخبر الله عمّن اصطفاه من خلقه. قال الله: ﴿اصْطَفَى آدَمَ ونُوحاً وآلَ إبْراهِيم وآلَ عِمْرانَ على العالَمِينَ ذُرّيةً بعْضُها من بعْضٍ﴾ الآية».

فالواجب على ذي النسب الشريف والمجد الرفيع أن لا يجعل ذلك سُلّماً إلى التراخي عن الأعمال الموافقة لنسبه والاتكال على آبائه، فإن شرف الأنساب يحض على شرف الأعمال، والشريف بهذا أولى إذ كان الشرف يدعو إلى الشرف ولا يثبط عنه كما أن الحسن يدعو إلى الحسن ويحرك عليه؛ وأكثر الممدوحين إنما مُدحوا بأعمالهم دون أنسابهم؛ وهذا كثير في أشعار الناس ومنثور كلامهم.

وقد قال الشاعر في هاشم بن عبد مناف وهو إمام ذوي الأنساب:

عمرو العُلا هشم الثريدَ ورجالُ مكةَ مُسنتونَ عِجَافُ

فمدحه بعمله ولم يذكر نسبه، وإن كان شريفاً رفيعاً؛ وإنما ينبغي لذوي الأنساب أن يكونوا كما قال أخوهم وشريكهم في النسب الشريف عامر بن الطُفيْل:

فإني وإن كنتُ ابنَ فارس عامرٍ وفي السرِّ منها والصريح المُهذّبِ

فما سوّدتني عامرٌ عن وراثةٍ أبى الله أن أسمو بأمٍّ ولا أبِ

ولكني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمِقْنَبِ

قال المسعودي: ولما خرج عمرو بن عامر وولده من مأرب انخزع بنو ربيعة فنزلوا تِهامة خُزاعة لانخزاعهم؛ ولمّا ثارت الحرب بين إياد ومُضر ابني نزار وكانت على إياد اقتلعت الحجر الأسود ودفنته في بعض المواضع، فرأت ذلك امرأة من خُزاعة فأخبرت قومها فاشترطوا على مُضر أنهم إن ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم؛ فوفوا لهم بذلك ووليت خزاعة أمر البيت.

فكان أول من وليه منهم عمرو بن لُحيّ واسم لُحيّ [ربيعة بن] حارثة بن عامر فغيّر دين إبراهيم وبدّله وبعث العرب على عبادة التماثيل لخبر قد ذكرناه في هذا الكتاب وغيره حين خرج إلى الشام ورأى قوماً يعبدون الأصنام فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة؛ وقويت خزاعة وعم الناس ظلم عمرو بن لُحي، ففي ذلك يقول رجل من جرهم كان على دين الحنيفية:

يا عمرو لا تظلم بمـ ـكةَ إنها بلَدٌ حرام

سائل بعاد أين هم فكذلك تخترم الأنام

وبني العماليق الذين لهم بها كان السوام

ولما أكثر عمرو بن لحي من نصب الأصنام حول الكعبة وغلب على العرب عبادتها وامّحت الحنيفية منهم إلا لمعاً قال في ذلك شحنة بن خلف الجرهمي:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهةً شتّى بمكة حول البيت أنصابا

وكان للبيت رب واحد أبداً فقد جعلت له في الناس أربابا

لتعرفنّ بأنّ الله في مهل سيصطفي دونكم للبيت حُجّابا

وعمّر عمرو بن لحي ثلاثمائة سنة وخمساً وأربعين سنة؛ وكانت ولاية البيت في خزاعة، وفي مُضر ثلاث خصال: الإجازة بالناس من عرفة؛ الإفاضة بالناس غداة النحر إلى مِنى فانتهى ذلك منهم إلى أبي سيّارة فدفع أبو سيّارة الناس من المزدلفة إلى منى أربعين سنة على حمار له لم يعتلّ في ذلك حتى أدركه الإسلام؛ فكانت العرب تتمثل به فتقول: «أصح من عير أبي سيّارة» وفي أبي سيّارة يقول قائلهم:

نحن دفعنا عن أبي سيّاره حتى أفاض مُجرياً حماره

والنسيء للشهور الحرام. وكانت النسأة في بني مالك بن كِنانة، فكان أولهم أبو القَلَمّس حُذيفة بن عبد، ثم ولده قِلَع بن حُذيفة، وورد الإسلام وآخرهم أبو ثُمامة؛ وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وأرادت الصدر اجتمعت إليه، فيقوم ويقول: «اللهم إني قد أحللتُ أحد الصفريْن الصفر الأول ونسأتُ الآخر للعام المقبل»؛ فظهر الإسلام وقد عادت الشهور الحرم إلى بدئها على ما كانت عليها في أصلها؛ وذلك قول النبي صلعم: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلَق الله السموات والأرض»، وما ذكر عليه السلام في هذا الحديث إلى آخره؛ فأخبر الله ـ عزّ وجل ـ عنهم بذلك بقوله: ﴿إنمَا النَّسِيءُ زِيَادةٌ في الكُفْرِ﴾ الآية؛ وقد فخر بذلك عُمير بن قيس الفِراسي فقال في قصيدة له:

ألسنا الناسئين على معدٍّ شهور الحلّ نجعلُها حرامَا

وقد كان قُصي بن كلاب من مُرة تزوج بحُبّى بنت حُليل، وحُليل هذا هو آخر من ولي البيت من خزاعة؛ وقد كان عمرو بن لحيّ حين عمّر من السنين ما ذكرنا مات وله

من الولد وولد الولد ألف؛ ولما حضرت حليلاً الوفاة وهو آخر من ولي البيت من خزاعة على ما ذكرنا جعل ولاية البيت إلى ابنته زوج قُصي بن كلاب؛ فقيل له إنها لا تقوم بفتح البيت وغلقه، فجعل ولاية البيت إليها، وفتح البيت وغلقه إلى رجل من خزاعة يُعرف بأبي غُبشان الخزاعي فباع ذلك إلى قصي ببعير وزقّ خمر.

فأرسلت العرب ذلك مثلاً فقالت: «أخسر من صفقة أبي غُبْشان».

وقد كانت ولاية البيت في خزاعة ثلاثمائة سنة واستقام أمر قصيّ وعشّر على من دخل مكة من غير قريش، وبني الكعبة ورتّب قريشاً على منازلها في النسب بمكة وبيّن الأبطحي من قريش وهم الأباطح، وجعل الظاهري ظاهرياً؛ فقريش البطاح هي قبائل بني عبد مناف وبني عبد الدار وبني العُزى وبني عبد بن قصي وزُهرة ومخزوم وتيْم بن مُرّة وسهْم وعدي ـ وهم لعقة الدم ـ وبنو جِسْل بن عامر بن لويّ.

وقريش الظواهر: بنو مُحارب بنو الحارث بن فهر وبنو الأدرم بن غالب بن فهر وبنو معيص بن عامر بن لوي؛ وفي ذلك يقول ذكوان مولى عبد الدار للضحاك بن قيس الفهري:

تطاولتُ للضحّاك حتى رددتُه ... إلى حسبٍ في قومه مُتقاصرِ

فلو شاهدتني من قريشٍ عصابةٌ ... قريشِ البطاح لا قريش الظواهرِ

ولكنهم غابوا وأصبحتُ شاهداً ... فقبّحتُ من حامي ديار وناصرِ

والأحلاف من قريش بنو عبد الدار بن قصي وسهم وجُمَح وعدي ومخزوم؛ والمطيّبون بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العُزّى وبنو زُهرة وتيْم وبنو الحارث بن لؤي؛ وفي ذلك يقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي في امرأة:

ولها في المطيّبين جدودٌ ... ثم نالت ذوائب الأحلافِ

إنها بين عامر بن لؤيّ ... حين تُدعى وبين عبد منافِ

وأخذت قريش الإيلاف من الملوك وتفسير ذلك الأمن؛ وتقرّشت، والتقرش: الجمع، وفي ذلك يقول ابن حلّزة:

إخوةٌ قرّشوا الذنوب علينا ... في حديثٍ من دهرنا وقديمِ

وانحدرت قريش عند أخذها الإيلاف من الملوك إلى الشام واليمن والعراق والحبشة.

القسم السادس

شذرات من تاريخ الخلافة الإسلامية

١

عثمان(*)

بويع عثمان يوم الجمعة غرة المحرم لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وقتل لاثنتي عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وقيل غير ذلك مما سنورده بعد هذا الموضع إلا أنه في ذي الحجة؛ فجميع ما ولي اثنتا عشرة سنة إلا ثمانية [عشر] أيام، وقُتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ودُفن بالمدينة بموضع يعرف بحُش كوكب.

ذكر نسبه ولمع من أخباره وسيره

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ويكنّى عبد الله وأبي عمرو والأغلب منهما أبو عبد الله، وأمه أروى بنت كُريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس؛ وكان له من الولد: عبد الله الأكبر وعبد الله الأصغر أمهما رُقية بنت رسول الله صلعم وأبان وخالد وسعيد والوليد والمغيرة وعبد الملك وأم أبام وأم سعيد وأم عمرو وعائشة؛ وكان عبد الله الأكبر يلقّب بالمطرَف لحسنه وجماله وكان كثير التزوّج كثير الطلاق؛ وكان أبان أبرص أحول، قد حمل عنه أصحاب الحديث عدّة من السّنن وولي لبني مروان مكة وغيرها؛ وكان سعيد أحول بخيلاً وقُتل في زمن معاوية؛ وكان الوليد صاحب شراب وفتوّة ومجون، وقُتل أبوه وهو مخلّق الوجه سكران عليه مصبّغات واسعة؛ وبلغ عبد الله الأصغر من السن ستاً وسبعين سنة فنقره ديك على

(*) مروج الذهب، الفقرات ١٥٧٦ ـ ١٥٧٩ ـ ١٥٨٤ ـ ١٥٨٧، ١٥٩٠ ـ ١٥٩٢، ١٥٩٨ ـ ١٦٠٧، ١٦١١.

عينيه فكان ذلك سبب موته؛ وعبد الملك مات صغيراً ولا عقب له.

وكان عثمان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد فسلك عمّاله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا به في فعله؛ وبنى داره بالمدينة وشيّدها بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر، واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة؛ وذكر عبد الله بن عُتبة أن عثمان يوم قُتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلاً وإبلاً كثيرة.

وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الدور والضياع، منهم الزبير بن العوّام بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثماية ـ ينزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحريين وغيرهم، وابتنى أيضاً دوراً بالكوفة ومصر والإسكندرية، وما ذكرنا من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية؛ وبلغ ثمن ملك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار.

وقدم على عثمان عمه الحكَم بن أبي العاص وابنه مروان وغيرهما من بني أمية، والحكم طريد رسول الله صلعم الذي غرّبه عن المدينة ونفاه عن جواره، وكان عمّاله على أعماله جماعة، منهم الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط على الكوفة، وهو ممن أخبر رسول الله صلعم أنه من أهل النار، وعبد الله بن [سعد بن] أبي سرح على مصر، ومعاوية بن أبي سفيان على الشام وعبدالله بن عامر على البصرة، وصرف عن الكوفة الوليد بن عقبة وولاها سعيد بن العاص.

وكان السبب في صرف الوليد بن عقبة وولاية سعية ـ على ما روي ـ أن الوليد كان شرب مع ندمائه ومغنّيه من أول الليل إلى الصباح فلما آذنه المؤذن بالصلاة خرج متفضلاً في غلائله، فتقدّم إلى المحراب في صلاة الصبح فصلّى بهم أربعاً وقال: «أتريدون أن أزيدكم؟»؛ وقيل إنه قال في سجوده وقد أطال: «اشرب واسقني» ـ فقال له بعض من كان خلفه في الصف الأول: «ما تزيد لا زادك الله مزيد الخير؟ والله ما أعجب إلا ممن بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً!»؛ وكان هذا القائل عتّاب بن غيلان الثّقفي؛ وحصب الناس الوليد بحصى المسجد، فدخل قصره يتوبّخ وهو يتمثّل بأبيات لتأبط شراً:

ولستُ بعيداً عن مُدام وقينةٍ ولا بصفا صلدٍ عن الخمْر مُعزَل

ولكنني أروي من الخمر هامتي وأمشي الملا بالساحب المتُسلسَل

وفي ذلك يقول الحطيئة:

شهد الحطيئةُ يوم يلقى ربه أن الوليد أحق بالعذر

نادى وقد تمت صلاتُهُم أأزيدكم ثملاً وما يدري

ليزيدهم أخرى ولو قبلوا لقرنت بين الشفع والوتر

حبسوا عنانك إذ جريت ولو خلّوا عنانك لم تزل تجري

وشاع بالكوفة فعله وظهر فسقه ومداومته شرب الخمر، فهجم عليه جماعة في المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدي وجُندب بن زهير الأزدي وغيرهما فوجدوه سكران مضطجعاً على سريره لا يعقل؛ فأيقظوه من رقدته فلم يستيقظ، ثم تقيأ عليهم ما شرب من الخمر فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة؛ فأتوا عثمان بن عفان فشهدوا عنده على الوليد أنه يشرب الخمر؛ فقال عثمان: «وما يدريكما أنه يشرب الخمر؟» ـ فقالا: «هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية»، وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه؛ فزجرهما ودفع في صدورهما وقال: «تنحيا عني!» ـ فخرجا من عنده وأتيا علياً فأخبراه بالقصة؛ فأتى عثمان وهو يقول: «دفعتَ الشهود وأبطلت الحدود!» ـ فقال له عثمان: «فما ترى؟» ـ قال: «أرى أن تبعث إلى صاحبك فتحضره: فإن أقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يدرأ عن نفسه بحجة أقمت عليه الحد».

فلما حضر الوليد دعاهما [عثمان] فأقاما الشهادة عليه ولم يدل بحجة؛ فألقى عثمان السوط إلى عليّ، فقال عليّ لابنه الحسن: «قم فأقم عليه ما أوجبه الله» ـ فقال: «يكفينيه بعض من ترى؟» ـ فلما رأى امتناع الجماعة عن إقامة الحد عليه توقياً لغضب عثمان لقرابته منه، أخذ عليّ السوط ودنا منه؛ فلما أقبل نحوه سبّه الوليد وقال: «يا صاحب مكس!» ـ فقال: عقيل بن أبي طالب وكان فيمن حضر: «إنك لتتكلم يا ابن أبي مُعيط كأنك لا تدري من أنت وأنت علج من أهل صفُّورية» (وهي قرية عكا واللجون من أعمال الأردن من بلاد طبرية، كان ذكر أن أباه يهودي منها) فأقبل الوليد يروغ من عليّ فاجتذبه عليّ فضرب به الأرض وعلاه بالسوط؛ فقال عثمان: «ليس لك أن تفعل به هذا» ـ قال: «بل وشراً من هذا إذا فسق ومنع حق الله أن يؤخذ منه!».

وفي سنة خمس وثلاثين كثر الطعن على عثمان وظهر عليه النكير لأشياء ذكروها من فعله، منها ما كان بينه وبين عبد الله بن مسعود وانحراف هذيل عن عثمان من أجله، ومن ذلك ما نال عمّار بن ياسر من العنف وانحراف بني مخزوم عن عثمان من أجله؛ ومن ذلك فعل الوليد بن عقبة في مسجد الكوفة وذلك أنه بلغه عن رجال من اليهود من ساكني قرية من قرى الكوفة مما يلي جسر بابل يقال لها زُرارة أنه يعمل أنواعاً من السحر والخيالات وأعمالاً من الشعوذة يعرف ببطروني فأحضره فأراه في المسجد ضرباً من التخييل وهو أنه أظهر له في الليل قيلاً عظيماً على فرس يركض في صحن المسجد ثم صار اليهودي ناقة تمشي على حبل ثم أراه صورة حمار دخل من فيه وخرج من دبره ثم ضرب عنق رجل وفرة بين جسمه ورأسه ثم أمرّ السيف عليه فقام الرجل.

وكان جماعة من أهل الكوفة حضوراً منهم جُندب بن كعب الأزدي، فجعل يستعيذ بالله من فعل الشيطان ومن عمل يبعد من الرحمان، وعلم أن ذلك ضرب من السحر والتخييل فاخترط سيفه وضرب اليهودي ضربة أطارت رأسه عن بدنه وقال: ﴿جاءَ الحقُّ وزَهقَ الباطِلُ إنَّ البَاطِلَ كانَ زهُوقاً﴾؛ وقد قيل إن ذلك كان نهاراً وإن جندباً خرج إلى السوق ودنا من بعض الصياقلة فأخذ سيفاً ودخل فضرب به عنق اليهودي وقال: «إن كنت صادقاً فأحي نفسك!»؛ فأنكر عليه الوليد ذلك وأراد أن يقيده به فمنعته الأزد فحبسه وأراد قتله غيلةً، ونظر السجّان إلى قيامه ليله إلى الصبح فقال له: «انجُ بنفسك» ــ فقال له جندب: «تُقتل بي» ــ فقال: «ليس ذلك بكثير في مرضاة الله والدفع عن ولي من أوليائه»؛ فلما أصبح الوليد دعا به وقد استعدّ لقتله فلم يجده؛ فسأل السجّان فأخبره بهربه فضرب عنق السجان وصلبه بالكُناسة.

وقد كان عمّار حين بويع عثمان بلغه قول أبي سفيان صخر بن حرب في دار عثمان عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أمية؛ فقال أبو سفيان: «أفيكم أحد من غيركم؟» وقد كان عمي؛ قالوا: «لا» ــ قال: «يا بني أمية تلقّفوا تلقُّف الكرة: والذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثة!» فانتهره عثمان وساءه ما قال؛ ونمى هذا القول إلى المهاجرين والأنصار وغير ذلك من الكلام؛ فقام عمّار بن ياسر في المسجد فقال؛ «يا معشر قريش أما إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم هاهنا مرة وهاهنا مرة فما أنا بآمن أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غيره أهله».

وقام المقداد فقال: «ما رأيت مثل ما أوذي به أهل هذا البيت بعد نبيهم» ـ فقال له عبد الرحمان بن عوف: «وما أنت وذلك يا مقداد؟» ـ فقال: «إني والله لأحبهم لحب رسول الله صلعم إياهم وإن الحق معهم وفيهم يا عبد الرحمان أعجب من قريش وإنما تطوّلهم على الناس بفضل أهله هذا البيت وقد اتفقوا على نزع سلطان رسول الله صلعم بعده من أيديهم وأيم الله يا عبد الرحمان لو أجد على قريش أنصاراً لقاتلتهم كقتالي إياهم مع رسول الله صلعم يوم بدر!»؛ وجرى من الكلام خطب طويل وقد أتينا على ذكره في كتابنا في أخبار الزمان في أخبار الشورى والدار.

ولما كان في سنة خمس وثلاثين سار مالك بن الحارث النخعي من الكوفة في مائتي رجل وحكيم بن جبلة العبدي في مائة رجل من أهل البصرة ومن أهل مصر ستمائة رجل عليهم عبد الرحمان بن عُديس البلوي؛ وقد ذكر الواقدي وغيره من أصحاب السير أنه ممن بايع تحت الشجرة، إلى آخرين ممن كان بمصر مثل عمرو بن الحمق الخزاعي وسودان بن حُمران التُجيبي ومعهم محمد بن أبي بكر وقد كان تكلم بمصر وحرض الناس على عثمان لأمور يطول ذكرها كان السبب فيها مروان بن الحكم؛ فنزلوا بالموضع المعروف بذي خشُب.

فلما علم عثمان بنزولهم بعث إلى عليّ بن أبي طالب فأخبره وسأله أن يخرج إليهم ويضمن لهم عنه كل ما يريدون من العدل وحسن السيرة؛ فسار عليّ إليهم فكان بينهم خطب طويل فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا؛ فلما صاروا إلى الموضع المعروف بحسمى إذا هم براكب على بعير وهو مُقبل من المدينة فتأملوه فإذا هو ورش غلام عثمان فقرروه فأقرّ وأظهر كتاباً إلى ابن أبي سرح صاحب مصر وفيه: «إذا قدم عليك الجيش فاقطع يد فلان واقتل فلاناً وافعل بفلان كذا» وأحصى أكثر من في الجيش وأمر فيهم بما أمر؛ وعلم القوم أن الكتاب بخط مروان؛ فرجعوا إلى المدينة واتفق رأيهم ورأي من قدم من العراق ونزلوا المسجد وتكلموا وذكروا ما نزل بهم من عمالهم.

فرجعوا إلى عثمان فحاصروه في داره ومنعوه الماء؛ فأشرف على الناس وقال: «ألا أحد يسقينا؟» ـ وقال: «بماذا تستحلّون قتلي وقد سمعت رسول الله صلعم يقول «لا يحل دم امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان أو زناً بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس؟» والله ما فعلت ذلك في جاهلية ولا إسلام!» ـ فبلغ عليّاً طلبه الماء، فبعث إليه بثلاث قِرب ماء، فما وصل ذلك إليه حتى خرج من موالي بني هاشم وبني أمية

جماعة وارتفع الصوت وكثر الضجيج وأحدقوا بداره بالسلاح وطالبوه بمروان؛ فأبى أن يخلّي عنه؛ وفي الناس بنو زُهرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنه كان من أحلافها، وهُذيل لأنه منها، وبنو مخزوم وأحلافها لعمّار، وغفار وأحلافها لأجل أبي ذرّ، وتيم بن مرّة مع محمد بن أبي بكر، وغير هؤلاء ممن لا يحمل كتابنا ذكره.

فلما رأى عليّ أنهم يريدون قتله بعث بابنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه نصرة له وأمرهم أن يمنعوه منهم، وبعث الزبير ابنه عبد الله، وبعث طلحة ابنه محمداً، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم اقتداءً بمن ذكرنا؛ فصدُّوهم عن الدار، فرمى من وصفنا بالسهام واشتد القوم وجرح الحسن وشُج قنْبر وجرح محمد بن طلحة. فخشي القوم أن يتعصّب بنو هاشم وبنو أمية، فتركوا القوم في القتال على الباب.

ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوّروا عليه وكان ممن وصل إليه محمد بن أبي بكر ورجلان آخران؛ وعند عثمان زوجته وأهله ومواليه مشاغيل بالقتال؛ فأخذ محمد بن أبي بكر بلحيته، فقال: «يا محمد والله لو رآك أبوك لساءه مكانك!»؛ فتراخت يده وخرج عنه إلى الدار ودخل الرجلان فوجآه فقتلاه، وكان المصحف بين يديه يقرأ فيه؛ فصعدت امرأته فصرخت: «وقد قتل أمير المؤمنين»، ودخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بني أمية وغيرهم فوجدوه قد فاضت نفسه، فبكوا.

فبلغ ذلك عليّاً وطلحة والزبير وسعداً وغيرهم من المهاجرين والأنصار فاسترجع القوم، ودخل عليّ الدار وهو كالواله الحزين؛ فقال لابنيه: «كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟»؛ ولطم الحسن وضرب صدر الحسين وشتم محمد بن طلحة ولعن عبد الله بن الزبير؛ فقال له طلحة: «لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن! لو دفع إليهم مروان ما قُتل»؛ وهرب مروان وغيره من بني أمية وطُلبوا ليقتلوا فلم يوجدوا؛ وقال عليّ لزوجته نائلة بنت الفرافصة: «من قتله وأنتِ كنتِ معه؟» ـ فقالت: «دخل إليه رجلان» وقصّت خبر محمد بن أبي بكر في دخوله إليه وما خاطبه به عثمان فأحضر محمد بن أبي بكر فلم ينكر ما قالت وقال: «والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله، فلما خاطبني بما قال خرجت ولا أعلم بتخلُّف الرجلين عني؛ والله ما كان لي في قتله من سبب ولقد قُتل وأنا لا أعلم بقتله».

وكانت مدة ما حُوصر عثمان في داره تسعة وأربعين يوماً وقيل أكثر من ذلك؛ وقتل في الجمعة لليلة بقيت من ذي الحجة؛ وقيل إن أحداً الرجلين هو كنانة بن بشر التُّجيبي

ضربه بعمود على جبهته، والآخر منهما سودان بن حمران المُرادى، ضربه بالسيف على حبل عاتقه فحلّه؛ وقد قيل إن عمرو بن الحمِق الخزاعي طعنه بسهم تسع طعنات، وكان فيمن مال إلى قتله عُمير بن ضابىء التميمي البُرجمي وخضخض سيفه في بطنه.

ودفن على ما وصفنا في الموضع المعروف بحُش كوكب، وهذا الموضع فيه مقابر بني أمية ويُعرف أيضاً بحلّه؛ وصلّى جُبير بن مُطعم وحكيم بن حزام وأبو جهم بن حُذيفة؛ ولما حوصر عثمان كان أبو أيوب الأنصاري يصلّي بالناس، ثم امتنع، فصلى بهم سهل بن حُنيف؛ فلما كان يوم النحر صلى بهم علي؛ وقيل إن عثمان قُتل ومعه في الدار ثمانية عشر رجلاً من بني أمية منهم مروان بن الحكم.

قال المسعودي: ولعثمان أخبار وسير ومناقب حِسان قد أتينا على ذكرها في كتابنا المسمى أخبار الزمان وفي الأوسط، وكذلك ما كان في أيامه من الكوائن والأحداث والفتوح والحروب مع الروم وغيرهم.

٢

عليّ بن أبي طالب وبعض أخباره(*)

وفي سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج، فتذاكروا الناس وما هم فيه من الحرب والفتنة؛ فتعاهد ثلاثة منهم على قتل عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص وتواعدوا واتفقوا على أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذي يتوجه إليه حتى يقتله أو يقتل دونه؛ وهم عبد الرحمن بن مُلجم ـ وكان من تُجيب وكان عدادهم في مُراد فنُسب إليهم ـ وحجاج بن عبد الله الصريمي ـ ولقبه البُرك ـ وزادويه مولى بني العنبر؛ فقال ابن مُلجم: «أنا أقتل علياً» ـ وقال البُرك: «أنا أقتل معاوية» ـ وقال زادويه: «أنا أقتل عمرو بن العاص»؛ واتّعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان. وقيل ليلة إحدى وعشرين.

فخرج عبد الرحمن بن مُلجم المرادي إلى عليّ؛ فلما قدم الكوفة أتى إلى قطام بنت عمه وكان عليّ قد قتل أباها وأخاها يوم النهْروان، وكانت أجمل أهل زمانها؛ فخطبها فقالت: «لا أتزوّجك حتى تسمح لي» ـ قال: «لا تسأليني شيئاً إلا أعطيتك» ـ قالت: «ثلاثة آلاف وعبداً وقينة وقتل عليّ» ـ فقال: «ما سألت فهو لك إلا قتل عليّ، فلا أراك تدركينه» ـ فقالت: «بلى التمِس غرّته فإن أصبته شفيت نفسي ونفسك ونفعك العيش معي، وإن هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا» ـ فقال: «والله ما جاء بي إلى هذا المصر، وقد كنت هارباً منه، إلا ذلك؛ قد أعطيتك ما سألت»، وخرج من عندها وهو يقول:

(*) مروج الذهب، الفقرات ١٧٣٠ ـ ١٧٣٦، ١٧٤٤، ١٧٥٥ ـ ١٧٥٧.

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وقتل عليّ بالحُسام المصمّمِ

فلا مهر أغلى من عليّ وإن غلا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن مُلجمِ

فلقيه رجل من أشجع يقال له شبيب بن بجرة من الخوارج، فقال له: «هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟» ـ قال: «وما ذاك؟» ـ قال: «تساعدني على قتل عليّ» ـ قال: «ثكلتك أمك! جئت ﴿شيئاً إدّاً﴾ قد عرفت بلاءه في الإسلام وسابقته مع النبي ﷺ» ـ فقال ابن ملجم: «ويحك! أما تعلم أنه قد حكّم الرجال في كتاب الله ـ عزّ وجل ـ وقتل إخواننا المسلمين؟ فنقتله ببعض إخواننا»؛ فأقبل معه حتى دخلا على قطام وهي في المسجد الأعظم وقد ضربت كِلّة لها وهي معتكفة ليلة الجمعة لثلاث عشرة مضت من رمضان، فأعلمتهما أن مُجاشع بن وردان قد انتدب لقتله معهما، فدعت لهم بحرير فعصبتهم [به] وأخذوا أسيافهم وقعدوا مقابلين لباب السدة التي يخرج منها عليّ إلى المسجد، وكان عليّ يخرج كل غداة أول الأذان يوقظ الناس للصلاة؛ وقد كان ابن ملجم مرّ بالأشعث وهو في المسجد فقال له: «فضحك الله الصبح» فسمعها حُجر بن عديّ فقال: «قتلته يا أعور قتلك الله»؛ وخرج عليّ ينادي: «أيها الناس الصلاة الصلاة!»؛ فشدّ عليه ملجم وأصحابه وهم يقولون: «الحكم لله لا لك!»؛ وضب ابن ملجم على رأسه بالسيف في قرنه؛ وأما شبيب فوقعت ضربته بعضادة الباب؛ وأما مجاشع بن وردان فهرب، وقال عليّ: «لا يفوتنكم الرجل!»؛ فشدّ الناس على ابن ملجم يرمونه بالحصباء ويتناولونه ويصيحون، فضرب ساقه رجل من همدان برجله وضرب المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وجهه فصرعه، وأقبل به إلى الحسن، ودخل ابن وردان بين الناس فنجا بنفسه، وهرب شبيب حتى أتى رحله فدخل عليه عبد الله بن بجرة ـ وهو أحد بني أبيه ـ فرآه ينزع الحرير عن صدره، فسأله عن ذلك فخبّره خبره، فانصرف عبد الله إلى رحله وأقبل إليه بسيفه فضربه حتى قتله.

وذُكر أن عليّاً لم ينم تلك الليلة وأنه لم يزل يمشي بين الباب والحجرة وهو يقول: «والله ما كذبت ولا كُذبت وإنها الليلة التي وعدت بها»؛ فلما خرج صاح بطّ كان للصبيان فصاح بهنّ بعض من في الدار، فقال عليّ: «ويحك! دعهنّ فإنهنّ نوائح».

وقد ذكرت طائفة من الناس أن عليّاً أوصى إلى ابنيه الحسن والحسين لأنهما شريكاه في آية التطهير، وهذا قول كثير ممن ذهب إلى القول بالنص؛ ودخل عليه الناس يسألونه فقال بعضهم: «يا أمير المؤمنين أرأيتَ إن فقدناك ولا نفقدك أيبايع الناس الحسن؟» ـ

فقال: «لا آمركم ولا أنهاكم، وأنتم أبصر»؛ ثم دعا الحسن والحسين وقال: «أوصيكما بتقوى الله وحده، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها، قولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضعيف، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً، ولا تأخذكما في الله ﴿لؤمة لائم﴾»؛ ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال: «هل سمعت ما أوصيت به أخويك؟» ـ قال: «نعم» ـ قال: «أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك وتزيين أمرهما ولا تقطعنّ أمراً دونهما» ـ ثم قال لهما: «أوصيكما به فإنه صغيركما وابن أبيكما فأكرماه واعرفا حقه» ـ فقال له رجل من القوم: «ألا تعهد يا أمير المؤمنين؟» ـ قال: «لا، ولكنني أتركهم كما تركهم رسول الله صلعم» ـ قال: «فماذا تقول لربك إذا أتيته؟» ـ قال: «أقول: أللهم إنك أبقيتني فيهم ما شئت أن تبقيني ثم قبضتني وتركتك فيهم فإن شئت أفسدتهم وإن شئت أصلحتهم»؛ ثم قال: «أما والله إنها الليلة التي ضُرب فيها يُوشع بن نون لليلة سبعة عشر وقبض ليلة إحدى وعشرين»؛ وبقي عليّ الجمعة والسبت وقُبض ليلة الأحد ودُفن بالرحبة عند المسجد بالكوفة؛ وقدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب في أخباره تنازع الناس في موضع قبره وما قيل في ذلك؛ وقبض وقد أتى له اثنتان وسبعون سنة وقيل اثنتان وستون سنة؛ وقد قدّمنا التنازع في مقدار سنه.

وقال الحسن: «والله لقد قُبض فيكم الليلة رجلٌ ما سبقه الأولون إلا بفضل النبوة ولا يدركه الآخرون؛ إن رسول الله صلعم كان يبعثه لمبعث فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه»؛ وكان الذي صلّى عليه الحسن ابنه وكبّر سبعاً وقيل غير ذلك؛ ولم يترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه أراد أن يشتري بها خادماً لأهله؛ وقال بعضهم: ترك مائتين وخمسين درهماً ومصحفه وسيفه.

ولما أرادوا قتل ابن ملجم قال عبد الله بن جعفر: «دعوني حتى أشفي نفسي منه»؛ فقطع يديه ورجليه وأحمى له مسماراً حتى إذا صار جمرة كحله به؛ فقال: «سبحان الذي خلق الإنسان! إنك لتكحل عمك بملولٍ مضاض»؛ ثم إن الناس أخذوه وأدرجوه في بوارّى، ثم طلوها بالنفط وأشعلوا فيها النار، فاحترق؛ وفيه يقول عِمران بن حِطان الرقاشي يمدحه في ضربه لعليّ من شعر له طويل:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلُغ من ذي العرش رِضوانَا

إنـي لأذكـره يـومـاً فـأحـسِـبـه أوفـى الـبـريّـة عـنـد الله مِـيـزانـا

لم يلبس عليّ في أيامه ثوباً جديداً ولا اقتنى ضيْعة ولا ربعاً إلا شيئاً كان له بينبع مما تصدّق به وحبّسه؛ والذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيّف وثمانون خطبة يوردها على البديهة، تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً.

وفضائل علي ومناقبه ومقاماته ووصف زهده ونسكه أكثر من أن يأتي عليه كتابنا هذا أو غيره من الكتب أو يبلغه إسهاب مُسهب أو إطناب مُطنب؛ وقد أتينا على جُمل من أخباره وسيره وأنواع كلامه وخطبه في كتابنا المترجم بكتاب حدائق الأذهان في أخبار آل محمد عليه الصلاة والسلام، وفي كتاب مزاهر الأخبار وطرائف الآثار للصفوة النورية والذرية الزكية أبواب الرحمة وينابيع الحكمة.

قال المسعودي: والأشياء التي استحق بها أصحاب رسول الله صلعم الفضل هي: السبق إلى الإيمان والهجرة والنصرة لرسول الله صلعم والقُربى منه وبذل النفس له والعلم بالكتاب والتنزيل والجهاد في سبيل الله والورع والزهد والقضاء والحكم والفقه والعلم، وكل ذلك فلعليّ (رض) فيه النصيب الأوفر والحظ الأكبر، إلا ما ينفرد به من قول رسول الله صلعم حين آخى بين أصحابه: «أنت أخي»، وهو صلعم لا ضد له ولا ندّ، وقوله صلعم: «أنت منّي بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، وقوله عم: «من كنتُ مولاه فعليٌ مولاه أللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه»، ثم دعاؤه عليه الصلاة والسلام وقد قدّم إليه أنسُ الطائر: «أللهم أدخل إليّ أحبّ خلقك إليك يأكلْ معي من هذا الطائر»، فدخل عليه عليّ...، إلى آخر الحديث.

فهذا وغيره من فضائله وما اجتمع فيه من الخصال مما تفرّق في غيره؛ ولكل فضائل مما تقدّم وتأخّر؛ وقُبض النبي صلعم وهو راضٍ عنهم يخبر عن بواطنهم بموافقتها لظواهرهم بالإيمان؛ وبذلك نزل التنزيل وتولّى بعضهم بعضاً؛ فلما قُبض الرسول وارتفع الوحي حدثت أمور تنازع الناس في صحتها منهم وذلك غير يقين ولا يقطع عليهم بها، واليقين من أمرهم ما تقدّم، وما رُوي مما كان في أحداثهم بعد نبيّهم صلعم فغير متيّقن بل هو ممكن؛ ونحن نعتقد فيهم ما تقدّم والله أعلم بما حدث وهو وليّ التوفيق.

٣

معاوية(*)

وبويع معاوية في شوال سنة إحدى وأربعين ببيت المقدس؛ فكانت أيامه تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، وتوفي في رجب سنة إحدى وستين وله ثمانون سنة؛ ودُفن بدمشق بباب الصغير، وقبره يُزار إلى هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ـ وعليه بيت مبني يُفتح يوم اثنين وخميس.
وفي سنة ثلاث وخمسين قتل معاويةُ حُجر بن عدي الكنديّ وهو أول من قُتل صبراً في الإسلام؛ حمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها؛ فلما صار على أميال من الكوفة يراد به دمشق أنشأت ابنة له تقول ـ ولا عقب له من غيرها ـ:

ترفَّعْ أيها القمر المنيرُ ... لعلك أن ترى حُجراً يسيرُ
يسيرُ إلى معاوية بن حربٍ ... ليقتله، كذا زعم الأميرُ
ويصلبه على بابي دمشق ... وتأكل من محاسنه النسورُ
تجبّرتِ الجبابرُ بعد حُجرٍ ... وطاب لها الخورنقُ والسديرُ
ألا يا حجرُ حجرَ بني عديّ ... تلقّتك السلامةُ والسرورُ
أخافُ عليك ما أردى عديّاً ... ولم يُنحر كما نُحر البعيرُ

(*) مروج الذهب، الفقرات ١٧٧٢ ـ ١٧٨٣، ١٧٩٢ ـ ١٧٩٤، ١٧٩٧، ١٨٠١ ـ ١٨٠٢، ١٨٢٣ ـ ١٨٢٤، ١٨٢٧ ـ ١٨٣٨، ١٨٤٥، ١٨٤٧، ١٨٤٨، ١٨٧٥ - ١٨٧٦.

فإن يهلك فكلّ عميد قوم إلى هُلك من الدنيا يصيرُ

ولما صار إلى مرج عذْراء على اثني عشر ميلاً من دمشق تقدّم البريد بأخبارهم إلى معاوية؛ فبعث برجل أعور؛ فلما أشرف على حجر وأصحابه قال رجل منهم: «إن صدق الزجر فإنه سيقتل منا النصف وينجو الباقون» ـ فقيل له: «وكيف ذلك؟» ـ قال: «أما ترون الرجل المقبل مصاباً بإحدى عينيه؟»؛ فلما وصل إليهم قال لحجر: «إن أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك يا رأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولي لأبي تراب وقتل أصحابك إلا أن ترجعوا عن كُفركم وتلعنوا صاحبكم وتتبرّؤوا منه» ـ فقال حُجر وجماعة ممن كان معه: «إن الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعونا إليه؛ ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيّه أحب إلينا من دخول النار»، وأجاب نصف من كان معه إلى البراءة من عليّ؛ فلما قُدّم حجر ليقتل قال: «دعوني أصلّي ركعتين»؛ فطوّل في صلاته فقيل له: «أجزعاً من الموت؟» ـ قال: «لا، ولكني ما تطهّرت للصلاة قطُّ إلا صلّيت وما صلّيت قطُّ أخف من هذه، وكيف لا أجزع وإني لأرى قبراً محفوراً وسيفاً مشهوراً وكفناً منشوراً!»؛ ثم تقدّم فنُحر وألحق به من وافقه على قوله من أصحابه؛ وقيل إن قتلهم كان في سنة خمسين.

وذُكر أن عديّ بن حاتم الطائي دخل على معاوية، فقال له معاوية: «ما فعلت الطرفات؟ (يعني أولاده)» ـ قال: «قتلوا مع عليّ» ـ قال: «ما أنصفك عليّ: قُتل أولادك وبقي أولاده» ـ فقال عدي: «ما أنصفت عليّاً إذ قتل وبقيت بعده» ـ فقال معاوية: «أما إنه قد بقيت قطرة من دم عثمان ما يمحوها إلا دم شريف من أشراف اليمن» ـ فقال عديّ: «والله إن قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن أسيافنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا! ولئن أدنيت إلينا من الغدر فِتراً لندنينّ إليك من الشر شِبراً، وإن حزّ الحلقوم وحشرجة الحيْزوم لأهون علينا من أن نسمع المساءة في عليّ؛ فسِلْم السيف يا معاوية، يبعث السيف» ـ فقال معاوية: «هذه كلمات حكم فاكتبوها»؛ وأقبل على عديّ محادثاً له كأنه ما خاطبه شيء.

وذُكر أن معاوية تنازع إليه عمرو بن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله صلعم في أرض؛ فقال عمرو لأسامة: «كأنك تنكرني» ـ فقال أسامة: «ما يسرّني نسبك بولائي»؛ فقام مروان بن الحكم فجلس إلى جانب عمرو بن عثمان، وقام الحسن فجلس إلى جانب أسامة، وقام سعيد بن العاص فجلس إلى جانب مروان، وقام الحسين

فجلس إلى جانب الحسن، وقام عبد الله بن عامر فجلس إلى جانب سعيد، وقام عبد الله بن جعفر فجلس إلى جانب الحسين، وقام عبد الرحمان بن الحكم فجلس إلى جانب ابن عامر، وقام عبد الله بن العباس فجلس إلى جانب ابن جعفر؛ فلما رأى ذلك معاوية قال لهم: «لا تعجلوا أنا كنت شاهداً إذ أقطعها رسول الله صلعم أسامة»؛ فقام الهاشميون فخرجوا ظاهرين وأقبل الأمويون عليه فقالوا: «ألا كنت أصلحت بيننا؟» ـ قال: دعوني فوالله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين إلا لبس عليّ عقلي؛ وإن الحرب أولها نجوى وأوسطها شكوى وآخرها بلوى»، وتمثّل بأبيات امرىء القيس المتقدّمة في هذا الكتاب في أخبار عمر أولها:

الحرب أول ما تكون فتيّةٌ تدعو بزينتها لكل جهولِ

ثم قال: «ما في القلوب يشبّ الحروب، والأمر الكبير يدفعه الأمر الصغير»، وتمثّل:

قد يلحق الصغير بالجليل وإنما القَرْمُ من الأفِيل

وتسحق النخل من الفسيل

قال المسعودي: ولما همّ معاوية بإلحاق زياد بأبي سفيان أبيه وذلك في سنة أربع وأربعين، شهد عند زياد بن أسماء الحِرمازي ومالك بن ربيعة السلولي والمُنذر بن الزّبير بن العوّام أن أبا سفيان خبّر أنه ابنه وأن أبا سفيان قال لعلي حين ذكر زياداً عند عمر بن الخطاب:

أما والله لولا خوف شخصٍ يراني يا عليّ من الأعادي

لبيّن أمره صخرُ بن حربٍ ولم يكن المجمجم عن زياد

ولكني أخاف صروف كفٍّ لها نقم ونفيي عن بلادي

فقد طالت محاولتي ثقيفاً وتركي فيهم ثمر الفؤاد

ثم زاده يقيناً إلى ذلك شهادة أبي مريم السلولي وكان أخبر الناس ببدء الأمر أنه جمع بين أبي سفيان وسُمية أم زياد في الجاهلية على زنا وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف تؤدي الضريبة إلى الحارث بن كلدة وكانت تـ[illegible] الموضع الذي تنزل به البغايا بالطائف خارجاً من الحصن في محلة يقال لها حارة البغايا.

وكان سبب ادعاء معاوية له فيما ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنّى أن عليّاً كان ولاّه

فارس حين أخرج منها سهْل بن حُنيف، فضرب زياد بعضهم بعضاً حتى غلب عليها، وما زال ينتقل في كورها حتى أصلح أمر فارس؛ ثم ولاه عليّ اصطخر وكان معاوية يتهدده، ثم أخذ بُسر بن أرطاة عبيد الله وسالماً ولديه وكتب إليه يقسم ليقتلنّهما إن لم يراجع ويدخل في طاعة معاوية؛ وكتب معاوية إلى بُسر ألا يعرض لابنيْ زياد، وكتب إلى زياد أن يدخل في طاعته ويردّه إلى عمله؛ فقدم زياد على معاوية، فصالحه على مال وحُلي ودعاه معاوية إلى أن يستلحقه؛ فأبى زياد ذلك؛ وكان المُغيرة بن شُعْبة قال لزياد قبل قدومه على معاوية: «ارمِ الغرض الأقصى ودعْ عنك الفضول؛ فإن هذا الأمر لا يمدّ إليه أحد يداً إلا الحسن بن عليّ وقد بايع لمعاوية؛ فخذ لنفسك قبل التوطين» ـ قال زياد: «فأشِر عليّ» ـ قال: «أرى أن تنقل أصلك إلى أصله وتصل حبلك بحبله وتُعير الناس منك أذناً صمّاء» ـ فقال زياد: «يا ابن شُعبة أأغرس عوداً في غير منبته ولا مدرَة فتُحييه ولا عرق فيسقيه؟».ثم إن زياداً اعتزم على قبول الدعوة وأخذ برأي ابن شعبة، وأرسلت إليه جُويْرية بنت أبي سفيان عن أمر أخيها معاوية، فأتاها فأذنت له وكشفت عن شعرها بين يديه وقالت: «أنت أخي أخبرني بذلك أبي».

ثم أخرجه معاوية إلى المسجد، فجمع الناس فقام أبو مريم السلولي فقال: «أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف وأنا خمّار في الجاهلية، فقال: «أبغني بغياً»، فأتيته وقلت له: «لم أجد إلا جارية الحارث بن كلدة سمية»؛ فقال: «ائتني بها على ذفرها وقذرها» ـ فقال له زياد: «مهلاً يا أبا مريم! إنما بُعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً!» ـ فقال أبو مريم: «لو كنتم أعفيتموني لكان أحبّ إليّ وإنما شهدت بما عاينت ورأيت؛ والله لقد أخذ بكوْر درْعها وأغلقت الباب عليهما وقعدت دنفشاناً؛ فلم ألبث أن خرج عليّ يمسح جبينه؛ فقلت: «مه يا أبا سفيان؟» ـ فقال: «ما أصبت مثلها يا أبا مريم لولا استرخاء من ثدييها وذفر من فيها». فقام زياد فقال: «أيها الناس هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم ولست أدري حق ذلك من باطله؛ وإنما كان عبيد ربيباً مبروراً ووليا مشكوراً والشهود أعلم بما قالوا»؛ فقام يونس بن عبيد أخو صفية بنت عبيد بن أسيد بن علاج الثقفي ـ وكانت سفية مولاة سمية ـ فقال: «يا معاوية قضى رسول الله صلعم أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقضيت أنت أن الولد للعاهر وأن الحجر للفراش مخالفة لكتاب الله وانصرافاً عن سنّة رسول الله صلعم بشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان» ـ فقال معاوية: «والله يا يونس لتنتهينّ أو لأطيرن بك طيرةً بطيئاً وقوعها!» ـ فقال يونس: «هل

إلا إلى الله ثم أقع؟»؛ قال: «نعم وأستغفر الله».

فقال عبد الرحمان بن الحكم في ذلك. ويقال إنه ليزيد بن مفرّغ الحِميري:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مُغلغلةً عن الرجل اليماني

أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زاني

فأشهدُ أن رِحمك من زيادٍ ... كرِحم الفيل من ولد الأتانِ

وفي زياد وإخوته يقول خالد النجار:

إن زياداً ونافعاً وأبا ... بكرة عندي من أعجبِ العجبِ

إن رجالاً ثلاثةً خُلِقوا ... من رحم أنثى مخالفي النسب

ذا قُرشي فيما يقول وذا ... مولى وهذا بزعمه عربي

ومما كتب به معاوية إلى عليّ: «أما بعد فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض، وإن كنا قد غُلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نندم به ما مضى ونصلح به ما بقي؛ وقد كنت سألتك الشام على أن لا تلزمني لك طاعة وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس؛ فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف؛ وقد والله رقّت الأجناد وذهبت الرجال ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل يستذلّ به عزيز ويسترقّ به حرّ والسلام».

فكتب إليه عليّ: «من عليّ بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد: فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض وأنا وإيّاك نلتمس منها غايةً لم نبلغها بعد؛ فأما طلبك مني الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس؛ وأما استواؤنا في الخوف والرجاء، فلست بأمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة؛ وأما قولك إنا بنو عبد مناف، فكذلك نحن، وليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطّلب ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا الطليق كالمهاجر ولا المُبطل كالمُحق؛ وفي أيدينا فضل النبوّة التي قتلنا بها العزيز وبعنا بها الحر والسلام».

وحدّث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عن محمد بن حُميد الرازي عن ابن مجاهد عن محمد بن إسحاق عن ابن أبي نجيح قال: لما حج معاوية طاف بالبيت

ومعه سعد؛ فلما فرغ انصرف معاوية إلى دار الندوة فأجلسه معه على سريره ووقع معاوية في علي وشرع في سبّه فرجف سعد ثم قال: «أجلستني معك على سريرك ثم شرعت في سب عليّ؟ والله لأن يكون فيّ خصلة واحدة من خصال عليّ أحب إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس؛ والله لأن أكون صهراً لرسول الله صلعم وأن لي من الولْد ما لعليّ أحب إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس؛ والله لأن يكون رسول الله صلعم قال لي ما قال يوم خيبر: لأعطينّ الراية رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، ليس بفرّار يفتح الله على يديه، أحبّ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله لأن يكون رسول الله قال لي ما قال في غزوة تبوك ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، أحب إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس؛ وأيم الله لا دخلتُ لك داراً ما بقيت!»؛ ثم نهض.

وكان سعد وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة ممن قعد عن عليّ بن أبي طالب وأبوا أن يبايعوه وغيرهم ممن ذكرنا من القعَدة عن بيعته؛ وذلك أنهم قالوا إنها فتنة، ومنهم من قال لعليّ: «أعطنا سيوفاً نقاتل بها معك، فإذا ضربنا بها المؤمنين لم تعمل فيهم ونبت عن أجسامهم وإذا ضربنا بها الكافرين سرت في أبدانهم»؛ فأعرض عنهم عليّ وقال: ﴿ولَوْ عَلِمَ اللهُ فيهِمْ خيْراً لأَسْمَعَهمْ ولوْ أسْمَعَهُمْ لتَولَّوْا وهُمْ مُعرِضُونَ﴾.

ودخل قيس بن سعد بعد وفاة عليّ ووقوع الصلح في جماعة من الأنصار على معاوية فقال لهم معاوية: «يا معشر الأنصار بمَ تطلبون ما قِبلي؟» فوالله لقد كنتم قليلاً معي كثيراً عليّ! ولفللتم حدي يوم صفين حتى رأيت المنايا تلظى في أسنّتكم ولهجوتموني بأشد من وخز الأشافي، حتى إذا أقام الله ما حاولتم مثله قلتم: ارعَ فيها وصية رسول الله صلعم؛ هيهات يأبى الحقين العذرة». ــ فقال قيس: «نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله، لا بما يُمت به إليك الأحزاب؛ وأما عدواتنا لك فلو شئت كففتها عنك؛ وأما هجاؤنا إياك فقول يزول باطله ويثبت حقه؛ وأما استقامة الأمر فعلى كره كان منا؛ وأما فلّنا حدّك يوم صفين فإنا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة؛ وأما وصية رسول الله بنا فمن آمن به رعاها بعده؛ وأما قولك: يأبى الحقين العذرة، فليس دون الله يد تحجزك [من] مساءتك يا معاوية!» ــ فقال معاوية يموّه: «ارفعوا حوائجكم»؛ وقد كان قيس بن سعد من الزهد والديانة والميل إلى عليّ بالموضع العظيم؛ وبلغ من خوفه

وطاعته إياه أنه كان يصلّي فلما أهوى بالسجود إذا في موضع سجوده ثعبان عظيم مطوق فمال على الثعبان برأسه وسجد إلى جانبه؛ فتطوّق الثعبان في رقبته لم يقصر الصلاة ولا نقص منها شيئاً حتى فرغ، ثم أخذ الثعبان فرمى به؛ كذلك ذكر الحسن بن علي بن عبد الله بن المُغيرة عن معمر بن خلاد عن أبي الحسن عليّ بن موسى الرضى.

وقال عمرو بن العاص لمعاوية ذات يوم: «قد أعياني أن أعلم أجبان أنت أم شجاع، لأني أراك تتقدم حتى أقول: أراد القتال ثم أراك تتأخّر حتى أقول: أراد الفرار» ـ قال له معاوية: «والله ما أتقدّم حتى أرى التقدّم غنماً ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزماً، كما قال الطائي:

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة وإلا تكن لي فرصة فجبانُ».

ولما هلك المغيرة ضم معاوية الكوفة إلى زياد فكان أول من جمع له ولاية العراقين البصرة والكوفة؛ وفي سنة ثمان وأربعين قبض معاوية فدك من مروان بن الحكم وقد كان وهبها له قبل ذلك فاستردها؛ وقد كان معاوية حج في سنة خمسين وأمر بحمل منبر النبي صلعم من المدينة إلى الشام، فلما حُمل كسفت الشمس ورؤيت النجوم بالنهار، فجزع من ذلك وأعظمه وردّه إلى موضعه وزاد فيه ستة مراقٍ.

وفي سنة ثلاث وخمسين هلك زياد بن أبيه بالكوفة في شهر رمضان؛ وكان يُكنى أبا المغيرة؛ وقد كان كتب إلى معاوية أنه قد ضبط العراق بيمينه وشماله فارغة فجمع له الحجاز مع العراقين واتصلت ولايته بأهل المدينة، فاجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله صلعم وضجوا إلى الله ولاذوا بقبر النبي صلعم ثلاثة أيام لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعنف؛ فخرجت في كفه بثرة ثم حكها ثم سرت واسودّت فصارت أكلة سوداء، فهلك بذلك، وهو ابن خمس وخمسين سنة وقيل اثنتين وخمسين سنة؛ ودفن بالثوية من أرض الكوفة؛ وقد كان زياد جمع الناس بالكوفة بباب قصره ليحرّضهم على لعن عليّ؛ فمن أبى ذلك عرضه على السيف.

وفي سنة تسع وخمسين وفد على معاوية وفود الأمصار من العراق وغيرها؛ فكان ممن وفد من أهل العراق الأحنف بن قيس في آخرين من وجوه الناس؛ فقال معاوية للضحّاك بن قيس: «إني جالس من غد للناس فأتكلم بما شاء الله فإذا فرغت من كلامي فقل في يزيد الذي يحق عليك وادع إلى بيعته؛ فإني قد أمرت عبد الرحمان بن عثمان الثقفي وعبد الله بن عضاة الأشعري وثور بن معن السلمي أن يصدّقوك في

كلامك وأن يجيبوك إلى الذي دعوتهم إليه»؛ فلما كان من الغد قعد معاوية فأعلم الناس بما رأى من حسن رعية يزيد ابنه وهديه وأن ذلك دعاه إلى أن يوليه عهده؛ ثم قام الضحّاك بن قيس فأجابه إلى ذلك وحض الناس على البيعة ليزيد، وقال لمعاوية: «اعزم على ما أردت»؛ ثم قام عبد الرحمان بن عثمان الثقفي وعبد الله بن عضاة الأشعري وثور بن معن فصدّقوا قوله.

ثم قال معاوية: «أين الأحنف بن قيس؟»؛ فقام الأحنف فقال: «إن الناس قد أمسَوا في منكر زمان قد سلف ومعروف زمان يؤتنف، ويزيد حبيب قريب فإن تُولِّه عهدك فعن غير كبر مفنٍ أو مرضٍ مُضنٍ؛ وقد حلبت الدهور وجربت الأمور فاعرف من تُسند إليه عهدك ومن توليه الأمر من بعدك واعصِ رأي من يأمرك ولا يقدر لك ويشير عليك ولا ينظر لك»؛ فقام الضحّاك بن قيس مغضباً فذكر أهل العراق بالشقاق والنفاق وقال: «اردد رأيهم في نحورهم»؛ وقام عبد الرحمان بن عثمان فتكلّم بنحو كلام الضحّاك، ثم قام رجل من الأزد فأشار إلى معاوية وقال: «أنت أمير المؤمنين، فإذا مت فأمير المؤمنين يزيد؛ فمن أبى هذا فهذا» (وأخذ بقائم سيفه فسلّه) ـ فقال له معاوية: «اقعد فأنت من أخطب الناس».

فكان معاوية أول من بايع لابنه يزيد بولاية العهد؛ وفي ذلك يقول عبد الله بن همّام السلولي:

فإن تأتوا برملة أو بهند ... نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى ... نعد ثلاثة متناسقينا
فيا لهفاً لو أن لنا ألوفاً ... ولكن لا نعود كما عنينا
إذاً لضُربتم حتى تعودوا ... بمكة تلعقون بها السخينا
خشينا الغيظ حتى لو شربنا ... دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا

وأنفذت الكتب ببيعة يزيد إلى الأمصار، وكتب معاوية إلى مروان بن الحكم، وكان عامله على المدينة، يعلمه باختياره يزيد ومبايعته له بولاية العهد ويأمره بمبايعته وأخذ البيعة له على من قبله، فلما قرأ مروان ذلك خرج مغضباً في أهل بيته وأخواله من بني

كنانة حتى أتى دمشق، فنزلها ودخل على معاوية يمشي بين السماطين، حتى إذا كان منه بقدر ما يسمعه صوته سلم وتكلّم بكلام كثير يوبّخ به معاوية، منه: «أقم الأمور يا ابن أبي سفيان واعدل على تأميرك الصبيان واعلم أن لك من قومك نظراء وأن لك على مناواتهم وزراء» ــ فقال له معاوية: «أنت نظير أمير المؤمنين وعدّته في كل شديدة وعضده والثاني بعد ولي عهده». وجعله ولي عهد يزيد وردّه إلى المدينة؛ ثم إنه عزله عنها وولاها الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان، ولم يفِ لمروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد بن معاوية.

قد ذكرنا فيما تقدّم جملاً من أخبار معاوية وسيره؛ فلنذكر الآن في هذا الباب جملاً من أخلاقه وسياساته وطرائف من عيون أخباره وغير ذلك مما لحق بهذا المعنى إلى وفاته.

وكان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات؛ كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزءه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى، ثم يصلي أربع ركعات، ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدونه من يومهم إلى العشي، ثم يؤتى بالغداء الأصغر وهو فضلة عشاء الليل من جدْي بارد أو فرخ أو ما يشبهه، ثم يتحدث طويلاً، ثم يدخل إلى منزله لِما أراد.

ثم يخرج فيقول: «يا غلام أخرج الكرسي»؛ فيخرج إلى المسجد فيوضع فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسي ويقوم الأحراس، فيتقدم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فيقول: «ظُلمت»، فيقول: «أعزّوه»؛ ويقول: «عُدِي عليّ»، فيقول: «ابعثوا معه»؛ ويقول: «صُنِع بي»، فيقول: «انظروا في أمره»، حتى إذا لم يبق أحد، دخل فجلس على السرير؛ ثم يقول: «ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني أحد عن رد السلام»، فيقال: «كيف أصبح أمير المؤمنين؟ ــ أطال الله بقاه ــ»، فيقول: «بنعمة من الله»؛ فإذا استووا جلوساً قال: «يا هؤلاء إنما سُميتم أشرافاً لأنكم شرّفتم من دونكم بهذا المجلس؛ ارفعوا إلينا حاجة من لا يصل إلينا»؛ فيقوم الرجل فيقول: «استُشهد فلان» ــ فيقول: «افرضوا لولده»، ويقول آخر: «غاب فلان عن أهله» ــ فيقول: «تعاهدوهم، أعطوهم، اقضوا حوائجهم، اخدموهم».

ثم يؤتى بالغداء، ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له: «اجلس على

المائدة»، فيجلس فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً، والكاتب يقرأ كتابه، فيأمر فيه بأمره فيقول: «يا عبد الله اعقب»، فيقوم ويتقدّم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء، ثم يرفع الغداء ويقال للناس: «أجيزوا»، فينصرفون؛ فيدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر، فيخرج فيصلّي، ثم يدخل فيصلّي أربع ركعات ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة.

فإن كان الوقت شتاءً أتاهم بزاد الحاجّ من الأخبصة اليابسة والخُشكنانج والأقراص المعجونة باللبن والسكر ودقيق السميد والكعك المسمّن والفواكه اليابسة والذانْجُوج، وإن كان الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة؛ ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم، ويجلس إلى العصر، ثم يخرج فيصلّي العصر، ثم يدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره، ويؤذن للناس على منازلهم، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب، ولا يدعى له بأصحاب الحوائج، ثم يُرفع العشاء وينادى بالمغرب، فيخرج فيصلّي ثم يصلّي بعدها أربع ركعات، يقرأ في كل ركعة خمسين آية يجهر تارةً ويخافت أخرى.

ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلّي، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم ويسمُر ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياساتها وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياساتها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة؛ ثم تأتيه الطُرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها، فيمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات؛ ثم يخرج فيصلّي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم.

وقد كان يمّم بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه ولا إتقانه ولا التأني للأمور ولا مداراته للناس على منازلهم ورفقه بهم على طبقاتهم.

وبلغ من إحكامه السياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حال منصرفهم من صفين؛ فادّعاه رجل من

دمشق فقال: «هذه ناقتي أخذت مني بصفّين»؛ فارتفع أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة، يشهدون أنها ناقته؛ فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه؛ فقال الكوفي: «أصلحك الله إنه جمل وليس بناقة!» ـ فقال معاوية: «هذا حكم قد مضى»؛ ودسّ إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره؛ فدفع إليه ضعفه وبره وأحسن إليه وقاله له: «أبلغ علياً أني أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل!».

وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان إلى الشام وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر ونزل عبد الله بن عليّ على الشام ووجّه إلى أبي العباس السفاح أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرئاسة من سائر أجناد الشام، فحلفوا لأبي العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله صلعم «قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة»؛ فقال في ذلك إبراهيم بن المهاجر ليجلى:

أيها الناس اسمعوا أخبركم … عجباً زاد على كل العجب

عجباً من عبد شمس إنهم … فتحوا للناس أبواب الكذب

ورثوا أحمد فيما زعموا … دون عباس بن عبد المطلب

كذبوا والله ما نعلمه … يحرز الميراث إلا مَن قرُبْ

ومن أخلاق العامة أن تسوّد غير السيد وتفضّل غير الفاضل وتقول بعلم غير العالم، وهم أتباع من سبق إليهم من غير تمييز بين الفضل والنقصان ولا معرفة للحق من الباطل؛ ثم انظر هل ترى إذا اعتبرت ما ذكرنا ونظرت في مجالس العلماء هل تشاهدها إلا مشحونة بالخاصة من أولي التمييز والمروّة والحجى، وتفقد العامة في احتشادها وجموعها فلا ترهم الدهر إلا مرفلين إلى قائد دب وضارب بدف على سياسة قرد، أو متشوقين إلى اللهو واللعب أو مختلفين إلى مشعبذ متنمّس مُمْخرق، أو مستمعين إلى قاص كذّاب، أو مجتمعين حول مضروب أو وقوفاً عند مصلوب؛ ينعق بهم فيتبعون ويُصاح بهم فلا يرتدعون، لا ينكرون منكراً ولا يعرفون معروفاً ولا يبالون أن يلحقوا البر بالفاجر والمؤمن بالكافر؛ وقد بيّن ذلك رسول الله صلعم فيهم حيث يقول: «الناس اثنان: عالم ومتعلّم، وما عدا ذلك همج رعاع لا يعبأ الله بهم».

وكذلك ذكر عن عليّ وقد سئل عن العامة فقال: «همج رعاع أتباع كل ناعق لم

يستضيؤوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق. وأجمع الناس في تسميتهم على أنهم غوغاء وهم الذين إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرّقوا لم يُعرفوا».

وذكر محمد بن إسحاق وغيره من نقلة الآثار أن معاوية دخل الحمّام في بدء علته التي كانت وفاته منها، فرأى نحول جسده، فبكى لفنائه وما قد أشرف عليه من الدثور الواقع بالخليقة، فقال متمثّلاً بهذه الأبيات:

أرى الليالي أسرعت في نقضي — أخذْن بعضي وتركن بعضي

حنين طولي وحنينَ عرضي — أقعدنني من بعد طول نهضي

ولما أزف أمره وحان فراقه واشتدت علّته وأيس عن برئه أنشأ يقول:

فيا ليتني لم أغنَ في الملك ساعةً — ولم أك في اللذات أعشى النواظرِ

وكنت كذي طمرين عاش ببلغة — من الدهر حتى زار أهل المقابر

٤

الحجّاج بن يوسف(*)

في ذكر جمل من أخبار الحجّاج وخطبه وما كان منه في بعض أفعاله

كانت أم الحجاج عند الحارث بن كلدة؛ فدخل عليها في السحر فوجدها تتخلل؛ فبعث إليها بطلاقها فقالت: «لم بعثت إليّ بطلاقي؟ ألشيء رابك مني؟» ـ قال: «نعم، دخلت عليك عند السحر فوجدتك تتخللين: فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة» ـ قالت: «كل ذلك لم يكن، لكنني تخللت من شظايا السواك».

فتزوجها بعده يوسف بن أبي عقيل الثقفي أبو الحجاج فولدت له الحجاج مشوّهاً لا دُبر له، فنقب عن دبره؛ فأبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها؛ فأعياهم أمره؛ فيقال إن الشيطان تصوّر لهم في صورة الحارث بن كلدة، فقال لهم: «ما خبركم؟» ـ فقالوا: «ابن وُلد ليوسف من الفارعة (وكان اسمها) وأبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها» ـ فقال: «اذبحوا جدياً أسود وأولغوه دمه؛ فإذا كان في اليوم الثاني فافعلوا به كذلك؛ فإذا كان في اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود فأولغوه دمه، ثم اذبحوا له أسود سالخاً فأولغوه دمه واطلوا به وجهه، فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع»؛ قال: «ففعلوا به ذلك فكان لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في بدء أمره؛ وكان الحجاج يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يُقدم عليها غيره ولا سبق إليها سواه.

(*) مروج الذهب، الفقرات ٢٠٥٢ ـ ٢٠٧٠.

وحدّث أبو جعفر محمد بن سليمان بن داود البصري المنقري قال: «حدثنا ابن عائشة قال: سمعت أبي يقول: لما غلبت الخوارج على البصرة بعث إليهم عبد الملك جيشاً فهزموه؛ فقال: «من للبصرة والخوارج؟» ـ فقيل له: «ليس لهم إلا المهلّب بن أبي صُفرة»؛ فبعث إلى المهلّب فقال: «على أن لي خراج ما أجليتهم عنه» ـ قال: «إذاً تشركني في ملكي» ـ قال: «فثلثاه» ـ قال: «لا» ـ قال: «فنصفه والله لا أنقص منه شيئاً، على أن تمدني بالرجال، فإن أخللت فلا حق لك عليّ»؛ فولّى عبد الملك على العراق رجلاً ضعيفاً فجعل يُقل بعث المّهب حتى جازت الخوارج فركبت دجلة؛ فكتب المهلّب إلى عبد الملك: «إنه ليس عندي رجال أقاتل بهم: فإما بعثت إليّ بالرجال وإما خلّيتُ بينهم وبين البصرة».

فخرج عبد الملك إلى أصحابه وقال: «ويلكم من للعراق؟» ـ فسكت الناس؛ فقام الحجاج، فقال: «أنا لها» ـ قال: «إجلس»؛ ثم قال: «ويلكم من للعراق؟»؛ فصمتوا وقام الحجاج، فقال: «أنا لها» ـ قال: «إجلس»، ثم قال: «ويلكم من للعراق؟»؛ فصمتوا وقام الحجاج الثالثة وقال: «والله أنا لها يا أمير المؤمنين» ـ قال: «أنت زنبورها»، وكتب له عهده.

فلما بلغ القادسية أمر الجيش أن يقبلوا وأن يروحوا وراءه، ودعا بجمل عليه قتب فجلس عليه بغير حشية ولا طاء، وأخذ الكتاب بيده ولبس ثياب السفر وتعمم بعمامة حتى دخل الكوفة وحده وجعل ينادي الصلاة جامعة، وما منهم رجل جالس في موضعه إلا ومعه العشرون والثلاثون وأكثر من ذلك من أهله ومواليه؛ فقال بعضهم لبعض: «قوموا حتى نحصبه»، ودخل محمد بن عمير الدارمي في مواليه؛ فلما رأى الحجاج جالساً على المنبر لا يجنب ولا ينطق قال: «لعن الله بني أمية حين يولّون العراق مثل هذا! لقد ضيّع الله العراق جيث يكون مثل هذا عليه!»؛ ثم ضرب بيده إلى حصباء المسجد ليحصبه وقال: «والله لو وجدوا أذم من هذا لبعثوه إلينا!»؛ فلما همّ أن يحصبه، قال له بعض أهل بيته: «أصلحك الله اكفف عن الرجل حتى نسمع ما يقول»؛ فمن قائل يقول: حصر الرجل فما يقدر على الكلام، ومن قائل يقول: أعرابي ما أبصر حُجته.

فلما غصّ المسجد بأهله حسر اللثام عن وجهه ثم قام ونحّى العمامة عن رأسه؛ فوالله ما حمد الله ولا أثنى عليه ولا صلّى على رسوله، وكان أول ما ابتدأهم به أنه قال:

أنا ابن جلا وطلاعُ الثنايا متى أضعِ العمامةَ تعرفوني

«إني والله لأرى أبصاراً طامحة وأعناقاً متطاولة ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وكأني أنثر إلى الدماء ترفرف بين العمائم واللِحى». ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفّها الليل بسوّاقٍ حُطَمْ

ليس براعي إبل ولا غنمْ ولا بجزّار على ظهْر وضَمْ

وقال:

قد لفّها الليل بعصلبي أروعَ خرّاجٍ من الدوي

مهاجرٍ ليس بأعرابي

وقال:

قد شمّرت عن ساقها فجدّوا والقوس فيها وترٌ عُرُدُّ

مثل ذراع البكر أو أشد

«إن أمير المؤمنين نثر كنانته [فعجم عيدانها] فوجدني أمرّها طعماً وأحدّها سناناً وأقواها قداحاً؛ فإن تستقيموا تستقم لكم الأمور، وإن تأخذوا إلى بنيّات الطريق تجدوني إلى كل مرصد مُرصداً؛ والله لا أقبل لكم عثرة ولا أقبل منكم عذرة! يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق والله ما أُغمز كتغْماز التين ولقد فُررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة والله لألوحنّكم لحوَ العود ولأعصبنّكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ولأقرعنّكم قرع المروة! يا أهل العراق طالما أوضعتم في الضلالة وسلكتم مسلك الغواية وسننتم سنن السوء وتماديتم في الجهالة! يا عبيد العصا وأولاد الإماء أنا الحجاج بن يوسف؛ إني والله لا أعد إلا وفيت ولا أخلق إلا فريت! فإياكم وهذه الزرافات والجماعات وقيلاً وقالاً وما يكون وما هو كائن! وما أنتم وذلك يا بني اللكيعة؟ لينظر الرجل في أمر نفسه وليحذر أن يكون من فرائسي! يا أهل العراق إنما مثلكم كما قال الله تعالى ﴿قرْيةً كانت آمنَةً مُطمَئنةً يأْتِيها رزْقُها رَغَداً من كُلِّ مكانٍ﴾ الآية؛ فاستوسقوا واستقيموا واعتدلوا ولا تميلوا وشايعوا وبايعوا واخضعوا واعلموا أنه ليس مني الإكثار والإهذار ولا منكم النفار والفرار؛ إنما هو انتضاء السيف، ثم لا أغمده شتاءً ولا صيفاً حتى يقيم الله لأمير المؤمنين أودكم ويُذل له صعبكم؛ إني

نظرت فوجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور في النار؛ ألا وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وإشخاصكم إلى محاربة عدوكم من المهلّب وقد أمرتكم بذلك وأجّلتكم ثلاثاً وأعطيت الله عهداً يؤاخذني به ويستوفيه مني ألا أجد أحداً من بعْث المهّلب بعدها إلا ضربت عنقه وأنهبت ماله؛ يا غلام! إقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين!».

فقال الكاتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين سلام عليكم؛ فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو...» ـ فقال الحجاج: «أسكت يا غلام»، ثم قال مغضباً: «يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق يا أهل الفرقة والضلال يسلّم عليكم أمير المؤمنين فلا تردّون عليه السلام؟ أما والله لئن بقيت لكم لأنجرنّكم نجر العود ولأودّبنّكم أدباً سوى هذا الأدب! هذا أدب ابن نِهية (وهو صاحب شرطة كان بالعراق) إقرأ يا غلام الكتاب»؛ فلما بلغ [إلى] السلام قال أهل المسجد: «وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته»؛ ثم نزل وأمر للناس بأعطياتهم، والمهلّب يومئذٍ بمهرجان قُذف يقاتل الأزارقة.

فلما كان اليوم الثالث، جلس الحجاج بنفسه يعرض الناس فمرّ به عُمير بن ضابىء البرُجمي وكان من أشراف أهل الكوفة وكان من بعث المهلّب فقال: «أصلح الله الأمير إني شيخ كبير عليل زمن ضعيف، ولي عدة أولاد فليختر الأمير أيّهم شاء مكاني أشدهم ظهراً وأكرمهم فرساً وأتمهم أداةً» ـ قال الحجاج: «لا بأس بشاب مكان شيخ» ـ فلما ولّى قال له عنْبسة بن سعيد ومالك بن أسماء: «أصلح الله الأمير، أتعرف هذا؟» قال: «لا» ـ قالا: «هو عُمير بن ضابىء التميمي الذي وثب على أمير المؤمنين عثمان وهو مقتول فكسر ضلعاً من أضلاعه» ـ فقال الحجاج: «عليّ به!»؛ فأُتي به فقال له: «أيها الشيخ أنت الواثب على أمير المؤمنين عثمان بعد قتله والكاسر ضلعاً من أضلاعه» ـ فقال له: «كان حبس أبي شيخاً كبيراً ضعيفاً ولم يطلقه حتى مات في سجنه» ـ فقال الحجاج: «أما أمير المؤمنين عثمان فتغزوه بنفسك، وأما الأزارقة فتبعث إليهم بالبدلاء! أوَ ليس أبوك الذي يقول:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني فعلت وولّيت البكاء حلائله

أما والله إن في قتلك أيها الشيخ لصلاح المصرين»؛ ثم أقبل يصعّد بصره إليه ويصوّبه

ويعضّ على لحيته مرة ويسرحها أخرى؛ ثم أقبل عليه فقال: «يا عُمير سمعت مقالتي على المنبر؟» ـ قال: «نعم» ـ قال: «والله إنه لقبيح بمثلي أن يكون كذّاباً! قم إليه يا حرسيُّ فاضرب عنقه»؛ ففعل.

فلما قُتل، ركب الناس كل صعب وذلول [وخرجوا] على وجوههم يريدون المهلّب؛ فازدحموا على الجسر حتى سقط بعض الناس في الفرات، فأتى صاحب الجسر فقال: «أصلح الله الأمير! قد سقط بعض الناس في الفرات» ـ قال: «ويحك ومَّ ذلك؟» ـ قال: «أهل البعث ازدحموا على الجسر حتى سقط بعض الناس» ـ فقال: «انطلق فاعقد لهم جسرين».

وخرج عبد الله بن الزبير الأسدي مذعوراً حتى إذا كان عند اللجامين لقيه رجل من قومه يقال له إبراهيم فقال له: «ما الخبر؟» ـ فقال ابن الزبير: «الشر الشر! قُتل عُمير من بعث المهلّب»، فأنشأ يقول:

أقول لإبراهيم لما لقيته — أرى الأمر أمسى مهلكاً متصعّباً

تجهّز فإما أن تزور ابن ضابىء — عُميراً وإما أن تزور المهلّبا

هما خُطتا خسف نجاؤك منهما — ركوكب حوليّا من الثلج أشهبا

فأضحى ولو كانت خراسان دونه — رآها مكان السوق أو هي أقربا

وإلا فما الحجاج مغمد سيفه — مدى الدهر حتى يترك الطفل أشيبا

وخرج الناس هرباً إلى السواد وأرسلوا إلى أهاليهم أن: «زوّدونا ونحن بمكاننا» ـ وقال الحجاج لصاحب الجسر: «افتح ولا تحُل بين أحد وبين الخروج» ووجّه العرّاض إلى المهلّب، فما أتت على المهلّب عاشرة حتى ازدحموا عليه فقال: «من هذا الذي استعمل على العراق؟ هذا والله الذكر من الرجال، قوتل والله العدوُّ إن شاء الله!».

وقد كان الحجاج استعمل عبد الرحمان بن محمد بن الأشعث على سجستان وبُست والرُّخج؛ فحارب من هناك من أمم الترك وهم أنواع من الترك يقال لهم الغُزّ والخلّخ، وحارب من يلي تلك البلاد من ملوك الهند مثل زُنْبيل وغيره؛ وقد قدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب مراتب ملوك الهند وغيرهم من ملوك العالم وذكرنا مملكة كل واحد منهم والصقع الذي هو به وذوي السمات منهم، وبيّنا أن ملكاً يلي هذا الصقع يقال له

زُنبيل؛ فخلع ابن الأشعث طاعة الحجّاج وسار إلى بلاد كرمان فثنّى بخلع عبد الملك وانقاد إلى طاعته أهل البصرة والجبال مما يلي الكوفة والبصرة وغيرهما؛ وسار الحجاج إلى البصرة وسار ابن الأشعث إليه؛ فكانت لهم حروب عظيمة؛ وفي عبد الرحمان بن الأشعث يقول الشاعر:

خلع الملوكَ وسار تحت لوائهِ   شجرُ العُرى وعراعِرُ الأقوامِ

فكتب الحجاج إلى عبد الملك بخبر ابن الأشعث فكتب إليه عبد الملك: لعمري لقد خلع طاعة الله بيمينه وسلطانه بشماله وخرج من الدين عرياناً، وإني لأرجو أن يكون هلاكه وهلاك أهل بيته واستئصالهم في ذلك على يدي أمير المؤمنين وما جوابه عندي في خلع الطاعة إلا قول القائل:

أناةً وحِلماً وانتظاراً بهم غداً   فما أنا بالواني ولا الضرع الغُمرِ

أظنُّ صروف الدهر والجهل منهم   ستحملهم مني على مركب وعْرِ

ألم تعلموا أني تخاف عرامتي   وأن قناتي لا تلين على الكسرِ

ودخل ابن الأشعث الكوفة وكتب الحجاج إلى عبد الملك كتاباً يذكر فيه جيوش ابن الأشعث وكثرتها ويستنجد عبد الملك ويسأله الأمداد ويقول في كتابه «واغوثاه واغوثاه»، فأمده بالجيوش وكتب إليه «يا لبيكاه يا لبيكاه»، فالتقى الحجاج وعبد الرحمان بن الأشعث بالموضع المعروف بدير الجماجم، فكانت بينهم الوقائع نيف وثمانون وقعة تفانى فيها الخلق، وذلك في سنة اثنتين وثمانين؛ وكانت على ابن الأشعث؛ فمضى حتى انتهى إلى ملوك الهند ولم يزل الحجاج يحتال في أمره حتى قُتل وأتي برأسه.

فعلا منبر الكوفة فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله ثم قال: «يا أهل العراق! إن الشيطان [قد] استنطنكم فخالط اللحم والدم منكم والعظم والأطراف والأعضاء، وجرى منكم مجرى الدم وأفضى إلى الأضلاع والأمخاخ فحشى ما هنالك شقاقاً وخلافاً ونفاقاً؛ ثم ارتفع فيه فعشّش وباض فيه وفرّخ واتخذتموه دليلاً تبايعونه وقائداً تطاوعونه ومؤامراً تستأمرونه؛ ألستم أصحابي بالأهواز حين سعيتم بالغدر بي واستجمعتم عليّ وحين ظننتم أن الله سيخذل دينه وخلافته وأقسم بالله أني لأرمينكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذاً منهزمين سراعاً متفرقين، كل امرئ منكم على عنقه السيف

رعباً وجبناً؛ ثم يوم الزاوية بها كان فشلكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم، إذ ولّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها لا يسأل الرجل عن بنيه ولا يلوي امرؤ على أخيه حتى عضّكم السلاح ووقصتكم الرماح؛ ويوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم، به كانت الملاحم والمعارك العظائم

ضرباً يزيل الهام عن مقيلهِ ويذهل الخليلَ عن خليلهِ

فما الذي أرجو منكم يا أهل العراق أو ما الذي أتوقعه ولماذا أستبقيكم ولأي شيء أدخركم؟ أللفجرات بعد الغدرات أم للنزوة بعد النزوات؟ وما الذي أراقب فيكم وما الذي أنتظر منكم؟ إن بُعثتم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم! ولا تجزأون بحسنة ولا تشكرون نعمة؛ يا أهل العراق هل استنبحكم نابح أو استشلاكم غاوٍ أو استخفكم ناكث أو استفزكم عاصٍ إلا بايعتموه وتابعتموه وآويتموه وكفيتموه! يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زقا كاذب إلا كنتم أنصاره وأشياعه؟ يا أهل العراق ألم تنفعكم التجارب وتحفظكم المواعظ وتعظكم الوقائع؟ هل يقع في صدوركم ما أوقع الله بكم عند مصادر الأمور ومواردها؟ يا أهل الشام إنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنهنّ القذر ويُكنهنّ من المطر ويحفظهنّ من الذئاب ويحميهنّ من سائر الدواب، لا يخلص إليهنّ معه قذى ولا يفضي إليهنّ ردى ولا يمسهنّ أذى؛ يا أهل الشام أنتم العدة والعدد والجُنة في الحرب؛ إن نحارب حاربتم أو نجانب جانبتم؛ وما أنتم وأهل العراق إلا كما قال نابغة بني جعدة:

وإنّ تداعيكم حظهم ولم ترزقوه ولم نكذبِ

كقول اليهود: قتلنا المسيح ولم يقتلوه ولم يصلبِ

وهي أبيات.

ولما أسرف الحجاج في قتل أُسارى دير الجماجم وإعطاء الأموال بلغ ذلك عبد الملك؛ فكتب إليه: «أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفُك في الدماء وتبذيرك في الأموال؛ ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين [الخصلتين] لأحد من الناس؛ وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء: في الخطاء الدية وفي العمد القوَد، وفي الأموال: ردها إلى مواضعها، ثم العمل فيها برأيه؛ فإنما أمير المؤمنين أمين الله وسيّان عنده منع حق وإعطاء باطل؛ فإن كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم؛

وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران: لين وشدة، فلا يؤنسنّك إلا الطاعة ولا يوحشنّك إلا المعصية؛ وظُنّ بأمير المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ؛ وإذا أعطاك الله الظفر على قوم فلا تقتلنّ جانحاً ولا أسيراً».

وكتب في أسفل كتابه:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها ... وتطلب رضاي بالذي أنا طالبهْ

وتخش الذي يخشاه مثلك هارباً ... إلى الله منه ضيّع الدرّ حالبُهْ

فإن تر مني غفلةً قُرشيةً ... فيا ربما قد غُصّ بالماء شاربهْ

وإن تر مني وثبةً أمويةً ... فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبهْ

فلا لا تلمني والحوادث جمةٌ ... فإني مجزيٌّ بما أنت كاسبهْ

ولا تعدُ ما يأتيك مني وإن تعُدْ ... يقوم بها يوماً عليك نوادبهْ

ولا تنقصن للناس حقاً علمته ... ولا تعطينْ ما ليس لله جانبهْ

وهي أبيات من جيد ما اخترناه من قول عبد الملك.

فلما قرأ الحجاج كتابه أجابه: «أما بعد، فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الدماء وتبذيري في الأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هم أهله وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه؛ فإن كان قتلي أولئك العصاة سرفاً وإعطائي أولئك المطيعين تبذيراً فليسوّغني أمير المؤمنين ما سلف، وليحدّ لي فيه حداً أنتهي إليه إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ووالله ما عليّ من عقل ولا قود، وما أصبت القوم خطأً فأديهم ولا ظلمتهم فأقاد بهم ولا أعطيت إلا لك، ولا قتلت إلا فيك؛ وأما ما أتاني من أمريْك فألينهما عدة وأشدهما محنة؛ فقد عبّأت للعدة الجلاد وللمحنة الصبر».

وكتب في أسفل كتابه:

إذا أنا لم أتبعْ رضاك وأتقي ... أذاك، فيومي لا تزول كواكبهْ

وما لامرىء بعد الخليفة جُنةٌ ... تقيه من الأمر الذي هو كاسبهْ

أسالم من سالمت من ذي مودة ... ومن لم تسالمه فإني محاربهْ

إذا قارف الحجاج منك خطيئةً ... فقامت عليه في الصباح نوادبهْ

إذا لم أُدنِ الشفيق لنصحه ... وأُقصِ الذي تسري إليّ عقاربهْ

فمن ذا الذي يرجو نوالي ويتقي ... مُصاولتي والدهر جمّ نوائبهْ

فقف بي على حد الرضى لا أجوزه ... مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبهْ

وإلا فدعني والأمور فإنني ... شفيق رفيقٌ أحكمتْني تجاربهْ

وهي أبيات؛ وهذا من جيد ما اخترناه من شعر الحجاج؛ فلما انتهى كتابه إلى عبد الملك قال: «خاف أبو محمد صولتي ولن يعود لشيء نكرهه».

وذكر المدائني أن الحجاج لم يكن يظهر لندمائه بشاشة ولا سماحة في الخلق إلا يوم دخلت عليه ليلى الأخيلية؛ فقال لها: «لقد بلغني أنك مررت بقبر توبة بن الحُميّر وعدلت عنه، فوالله ما وفيتِ له، ولو كان هو بمكانك وأنت بمكانه ما عدل عنك» ـ قالت: «أصلح الله الأمير إن لي عذراً» قال: «وما هو؟». قالت: «إني سمعته يقول:

ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت ... عليّ وفوقي تربةٌ وصفائحُ

لسلّمت تسليم البشاشة أو زقا ... إليها صدى من جانب القبر صائحُ

وكانت معي نسوة قد سمعن قوله فكرهت أن أكذّبه»؛ فاستحسن الحجاج قولها وقضى حوائجها وانبسط في محادثتها، فلم تُر منه بشاشة وأريحية داخلته مثل ذلك اليوم.

وأخذ الحجاج جرير بن الخطفى قتله؛ فمشى إليه قومه من مُضر فقالوا: «أصلح الله الأمير! لسان مضر وشاعرها هبه لنا»؛ فوهبه لهم؛ وكانت هند بنت أسماء زوج الحجاج ممن طلب فيه؛ فقالت للحجاج: «ائذن لجرير عليّ يوماً أستنشده من وراء حجاب» ـ فقال لها: «نعم»؛ فأمرت بمجلس لها فهُيّىء، فجلست فيه والحجاج معها، ثم بعثت إلى جرير، فدخل عليها يسمع كلامها ولا يراها، فقالت: «يا ابن الخطفى أنشدني ما شببت به النساء» ـ فقال لها: «ما شبّبت بامرأة قط وما خلق الله شيئاً وهو أبغض إليّ من النساء».

قالت: «يا عدو الله وأين قولك؟

طرقتْكَ صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلامِ

تُجري السواكَ على أغرَّ كأنهُ ... بردٌ تحدّر من متون غمامِ

إن كنتِ صادقة بما حدثتنا ... لوصلت ذاك وكان غير لمامِ

سرت الهمومُ فبتن غير نيامِ ... وأخو الهموم يروم كل مرامِ

قال: «ما قلت هذا ولكني أنا الذي أقول:

لقد جرّد الحجاج للحق سيفهُ ... ألا فاستقيموا لا يميلنّ مائلُ

وما يستوي داعي الضلالة والهدى ... ولا حجة الخصمين حقٌّ وباطلُ

قالت: «دع عنك هذا: فأين قولك؟

خليليّ لا تسغزرا الدمع في هند ... أعيذكما بالله أن تجدا وجْدي

ظمئت إلى شرب الشراب وحسنه ... كذي مُزنمة يُرجى جداها وما تجدي

قال لها: «ما قلت هذا، ولكني أنا الذي أقول:

ومن يأمن الحجاج أما عقابهُ ... فمرٌّ وأما عقدهُ فوثيقُ

يُسرّ لك البغضاء كل منافقٍ ... كما كل ذي برّ عليك شفيقُ

قالت: «دع عنك هذا؛ فأين قولك؟:

يا عاذلي دعا الملامة واقصدا ... طال الهوى وأطلتما التفنيدا

إني وجدتكِ لو أردت زيادةً ... في الحب عندي ما وجدت مزيدا

فقال: «الباطل أصلحك الله! ولكني أنا الذي أقول:

من سدّ مُطّلع النفاق عليهم ... أم من يصول كصولة الحجاجِ

أم من يغار على النساء حفيظةً ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواجِ

هذا ابن يوسف فافهموا وتفهّموا ... برح الخفاء وليس حين تناجي

فلربّ ناكث بيعتين تركته ... وخضابُ لحيته دم الأوداجِ

فقال الحجاج: «يا عدوّ الله تخضّض عليّ النساء؟» ـ فقال: «لا والله الذي أكرمك أيها الأمير ما فطنت لهذا البيت قبل ساعتي هذه، وما علمت بمكانك؛ أقلني جعلني الله فداك» ـ قال: «قد فعلت»؛ فأمرت له هند بجائزة وكسوة، وأوفده الحجاج على عبد الملك.

ولما انهزم ابن الأشعث بدير الجماجم حلف الحجاج ألا يؤتى بأسير إلا ضرب عنقه؛ فأُتي بأسارى كثيرة؛ فكان أول من أُتي به أعشى همدان، وهو أول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدي ابن الأشعث بسجستان؛ فقال له الحجاج: «إيه أنت القائل:

من مبلغُ الحجاج أني ... قد جنيت عليه حربا
ووضعت في كف امرئٍ ... جلداً إذا ما الأمر عبّا
أنت الرئيس ابن الرئيس ... وأنت أعلى الناس كعبا
فابعث عطية بالخيو ... لِ يكبّهن عليه كبّا
وانهض هُديت لعله ... يجلو بك الرحمان كربا
نبّئتُ أن بُنيّ يو ... سفَ خرّ من زلقٍ فتبّا

وأنت القائل:

شطّت نوى من داره بالإيوانْ ... إيوان كسرى ذي القرى والريحانْ
من عاشقٍ أمسى بزابلستانْ ... أن ثقيفاً منهم الكذّابانْ
كذّابها الماضي وكذّابها ثانْ ... أمكن ربي من ثقيف همدان
يوماً إلى الليل يُسلّي ما كان

وأنت القائل:

وسألتماني: المجد أين محلّهُ ... فالمجد بين محمد وسعيدِ
بين الأشج وبين قيس باذخٌ ... بخ بخ لوالده وللمولودِ

قال: «لا ولكني الذي أقول:

أبى الله إلا أن يتمم نوره ... ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا
وينزل ذُلاً بالعراق وأهله ... لما نقضوا العهد الوثيق المؤكّدا
وما أحدثوا من بدعة وضلالة ... من القول لم تصعد إلى الله مصعدا

قال: «لسنا نحمدك على هذا القول، إنما قلته تأسفاً على أن لا تكون ظفرت وظهرت، وتحريضاً لأصحابك علينا؛ وليس عن هذا سألتك؛ أخبرني عن قولك:

أمكن ربي من ثقيف همدان

فكيف ترى الله أمكن ثقيفاً من همدان ولم يمكن همدان من ثقيف؟

وقولك حين تقول:

بين الأشج وبين قيس باذخٌ بخ بخ لوالده وللمولود

والله لا تبخبخ لأحد بعدها!»، وأمر به فضربت عنقه.

٥

نهاية الدولة الأموية(*) وبنو العباس

وبويع مروان بن محمد بن مروان بدمشق يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وعشرين ومائة، وقيل إنه دعا إلى نفسه بمدينة حرّان من ديار مُضر وبويع له بها؛ وأمه أم ولد يقال لها ريا وقيل طروبة كانت لمصعب بن الزبير فصارت بعد مقتله لمحمد بن مروان أبيه؛ وكان مروان يكنى أبا عبد الملك، واجتمع أهل الشام على بيعته إلا سليمان بن هشام بن عبد الملك وغيره من بني أمية؛ فكانت أيامه منذ بويع بمدينة دمشق من أرض الشام إلى مقتله خمس سنين وعشرة أيام، وقيل خمس سنين وثلاثة أشهر؛ وكان مقتله في أول سنة اثنتين وثلاثين ومائة؛ ومنهم من رأى أن ذلك كان في المحرّم ومنهم من رأى أنه كان في صفر، وقيل غير ذلك مما تنازع فيه أصحاب التواريخ والسير على حسب تنازعهم في مقدار ملكه؛ فمنهم من ذهب إلى أن مدته خمس سنين وثلاثة أشهر، ومنهم من قال خمساً وشهرين وعشرة أيام، ومنهم من قال خمساً وعشرة أيام؛ وكان مقتله ببوصير قرية من قرى الفيوم من صعيد مصر.

وقد تنوزع في مقدار سنه كتنازعهم في مقدار ملكه؛ فمنهم من زعم أنه قتل وهو ابن سبعين سنة، ومنهم من قال تسعاً وستين سنة، ومنهم من قال اثنتين وستين سنة، ومنهم من قال ثماني وخمسين سنة؛ وإنما نذكر هذا الخلاف في قولهم لئلا يظنّ أنّا قد أغفلنا ما ذكروه أو في تركنا شيئاً مما وصفوه فيما إليه قصدنا في كتابنا هذا. وإن كنّا قد أتينا

(*) مروج الذهب، الفقرات ٢٢٧٣ ـ ٢٢٧٥، ٢٢٦٦، ٢٢٧٩ - ٢٢٨٨.

على مبسوط ما قيل في ذلك في كتابينا أخبار الزمان والأوسط؛ وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب جملاً من كيفية مقتله وأخباره وجوامع من سيره وحروبه وما كان من أمر الدولتين في ذلك الوقت من الماضية وهي الأموية والمستقبلة في ذلك الزمان وهي العباسية، مع إفرادنا باباً نذكر فيه جوامع تاريخ ملك الأمويين وهو الباب المترجم بذكر مقدار المدة من الزمان وما ملكت فيه بنو أمية من الأعوام؛ ثم نعقب ذلك بلمع من أخبار الدولة العباسية وأخبار أبي مسلم وخلافة أبي العباس السفّاح ومن تلا عصره من خلفاء بني العباس إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة من خلافة أبي إسحاق المتقي لله إبراهيم بن المقتدر بالله، إن شاء الله تعالى ولي التوفيق.

في ذكر مقدار المدة من الزمان وما ملكت فيه بنو أمية من الأعوام

كان جميع ملك بني أمية إلى أن بويع أبو العباس السفاح ألف شهر كاملة لا تزيد ولا تنقص، لأنهم ملكوا تسعين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً. قال المسعودي: والناس متباينون في تواريخ أيامهم، والمعول عليه ما نورده وهو الصحيح عند أهل البحث ومن عُني بأخبار هذا العالم.

وذكر المنقري قال؛ سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصّليها عُقيب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: «ما كان سبب زوال ملككم؟» ـ قال: «إنّا شغلنا بلذّاتنا عن تفقّد ما كان تفقّده يلزمنا؛ فظلمنا رعيّتنا، فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منّا وتحومل على أهل خراجنا فخلّوا عنّا وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أموراً أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا، فزالت طاعتهم لنا واستدعاهم عداتنا فتضافروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلّة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا»؛والله ولي التوفيق.

في ذكر الدولة العباسية ولمع من أخبار مروان ومقتله وجوامع من حروبه وسيره

قد قدّمنا في الكتاب الأوسط ما ذكرته الراوندية ـ وهم شيعة ولد العباس بن عبد المطّلب من أهل خراسان وغيرهم ـ [من] أن رسول الله صلعم قُبض وأنّ أحق الناس بالإمامة بعده العباس بن عبد المطلب لأنه عمه ووارثه وعصبته لقول الله عزّ وجل: ﴿وأُولو الأرْحامِ بعْضُهمْ أولى بِبعضٍ في كتَابِ اللهِ﴾ وأن الناس اغتصبوه حقه وظلموه

أمره إلى أن رده الله إليهم، وتبرؤوا من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأجازوا بيعة عليّ بن أبي طالب رضه بإجازة ابن عباس له وذلك حين قال: «يا ابن أخي هلمّ إليّ أبايعك فلا يختلف عليك اثنان»؛ ولقول داود بن علي على منبر الكوفة يوم بويع لأبي العباس: «يا أهل الكوفة، لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله صلعم إلا عليّ بن أبي طالب وهذا القائم فيكم» يعني أبا العباس السفاح.

وقد صنّف هؤلاء كتباً في هذا المعنى الذي ادّعوه، هي متداولة في أيدي أهلها ومنتحليها، منها كتاب صنفه عمرو بن بحر الجاحظ وهو المترجم بكتاب إمامة ولد العباس، يحتج فيه لهذا المذهب ويذكر فعل أبي بكر في فدك وغيرها، وقصته مع فاطمة رضي الله عنها ومطالبتها بإرثها من أبيها صلعم واستشهادها ببعلها وابنيها وأم أيمن، وما جرى بينها وبين أبي بكر من المخاطبة، وما كثر بينهم من المنازعة، وما قالت وما قيل لها عن أبيها عم من أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نرث ولا نورث»، وما احتجت به من قوله عزّ وجل ﴿وورِثَ سُليمانُ داوُد﴾، [على] أن النبوّة لا تورث ولم يبق إلا التوارث، وغير ذلك من الخطاب؛ ولم يصنّف الجاحظ هذا الكتاب ولا استقصى فيه الحجاج للراوندية وهم شيعة ولد العباس لأنه لم يكن مذهبه ولا كان يعتقده، لكن فعل ذلك تماجناً وتطرباً.

وقد صنّف كتاباً استقصى فيه الحجاج عند نفسه وأيده بالبراهين وعضده بالأدلة فيما تصوّره من عقله، ترجمه بكتاب العثمانية يحل فيه عند نفسه فضائل عليّ رضه ومناقبه ويحتج فيه لغيره طلباً لإماتة الحق ومضادة لأهله ﴿والله متمّ نُورهِ ولوْ كرِهَ الكافِرونَ﴾؛ ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بالعثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر في إمامة المروانية وأقوال شيعتهم، ورأيته مترجماً بكتاب إمامة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، في الانتصار له من علي بن أبي طالب رضه وشيعته الرافضة، يذكر فيه رجال المروانية ويؤيد فيه إمامة بني أمية من بني مروان وغيرهم؛ ثم صنّف كتاباً آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية يذكر فيه ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين عليّ ومناقبه فيما ذكرنا.

وقد نقضتُ عليه ما ذكرنا من كتبه ككتاب العثمانية وغيره وقد نقضتها جماعة من متكلمي الشيعة كأبي عيسى الورّاق والحسن بن موسى النوبختي وغيرهما من الشيعة ممن ذكر ذلك في كتبه في الإمامة مجتمعاً ومفترقاً؛ وقد نقض على الجاحظ أيضاً

كتاب العثمانية رجل من شيوخ المعتزلة البغداديين ورؤسائهم وأهل الزهد والديانة منهم ممن يذهب إلى تفضيل عليّ والقول بإمامة المفضول وهو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي، وكانت وفاته سنة أربعين ومائتين؛ وفيها مات أحمد بن حنبل؛ وسنذكر وفاة الجاحظ فيما يرد من هذا الكتاب ووفاة غيره من المعتزلة وإن كنا قد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا.

والذي ذهب من تأخر من الراوندية وانتقل وتحيّز عن جملة الكيسانية القائلين بإمامة محمد ابن الحنفية وهم الجريانية أصحاب أبي مسلم عبد الرحمان بن محمد صاحب الدعوة العباسية وكان يلقّب بجريان، أن محمد ابن الحنفية هو الإمام بعد عليّ بن أبي طالب، وأن محمداً أوصى إلى ابنه أبي هاشم، وأن أبا هاشم أوصى إلى عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وأن عليّ بن عبد الله أوصى إلى ابنه محمد بن عليّ، وأن محمداً أوصى إلى ابنه إبراهيم الإمام المقتول بحرّان، وأن إبراهيم أوصى إلى أخيه أبي العباس عبد الله ابن الحارثية.

وقد تنوزع في أمر أبي مسلم؛ فمن الناس مَن رأى أنه كان من العرب، ومنهم من رأى أنه كان عبداً فأعتق وكان من أهل البِرس والجامعين من قرية يقال لها خرطينة وإليها تضاف الثياب البِرسيّة المعروفة بالخرطينيّة وذلك من أعمال الكوفة وسَوادها؛ وكان قهرماناً لإدريس من مَعْقِل العِجليّ ثم آل أمره ونمت به الأقدار إلى أن اتّصل بمحمد بن عليّ ثم بإبراهيم بن محمد الإمام: فأنفذه إبراهيم إلى خُراسان وأمر أهل الدعوة بإطاعته والانقياد إلى أمره ورأيه؛ فقوي أمره وظهر سلطانه وأظهر السّواد وصار زينةً في اللباس والأعلام والبنود؛ فكان أوّل مَن سوَّد من أهل خُراسان بنيسابور وأظهر ذلك فيهم أُسيّدُ بن عبدالله، ثم نمى ذلك في الأكثر من المدن والكُوَر بخراسان.

وقوي أمر أبي مسلم وضعف أمر نَصْر بن سيّار صاحب مروان بن محمد الجعدي على بلاد خُراسان، فكانت له مع أبي مسلم حروب أكثر فيها أبو مسلم الحِيَل والمكايد من تفريقه بين مَن نصره مِن اليمانية والنزاريّة بخراسان وغير ذلك مما احتال به على عدوّه، وقد كان لنصر بن سيّار حروب كثيرة مع الكِرمانيّ إلى أن قُتِل، أتينا على ذكرها في كتابينا أخبار الزمان والأوسط وذكرنا بدء أخبار الكرمانيّ جُدَيع بن عليّ وما كان بينه وبين سَلم بن أحوَز صاحب نَصْر بن سيّار وما كان من أمر خالد بن بَرْمَك وقَحْطَبة بن شَبيب وغيرهما من الدُّعاة المقيمين بخراسان للدعوة العبّاسية، كسُليمان بن كَثير وأبي

داود خالد بن إبراهيم ونظرائهما، وما كان من شِعارهم عند إظهار الدعوة وندائهم عند الحروب: «محمّد يا منصور»، والسبب الذي له ومن أجله أظهروا استعمال السّواد دون سائر الألوان.

وطالت مكاتبة نصر بن سيّار مروان وإعلامُه بما هو فيه وإظهار أمر العبّاسيّة وتزايدها في كل وقت؛ فكان فيما كتب به إليه إعلامُه بحال أبي مسلم وحال مَن معه وأنّه كشف عن أمره وبحث عن حاله فوجده يدعو إلى إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس وضمّن كتابه أبياتاً من الشعر وهي:

أرَى خَلَلَ الرَّماد وَميض جَمْرٍ ... ويوشِكُ أن يكونَ له ضِرامُ

فإنّ النار بالعُودَيْن تُذكَى ... وإنّ الحربَ أوّلُها الكلامُ

فإن لم تُطفِئوها تَجْنِ حرباً ... مُشمِّرة يَشيبُ لها الغُلامُ

أقول من التعجُّب: ليت شعري ... أأيقاظ أُميّةُ أم نِيامُ

فإن يك قومنا أضحوا نياماً ... فقل: قوموا فقد حان القيام

فَصِرِّي عن رحالكِ ثمّ قولي: ... على الإسلام والعرب والسلامُ!

فلمّا ورد الكتاب على مروان وجده مشتغلاً بحروب الخوارج بالجزيرة وغيرها، وما كان من خبره في حروبه مع الضحّاك بن قَيْس الحَروريّ حتى قتله مروان بعد وقائع كثيرة بين كفَر تُوتى ورأس العين، وكان الضحّاك خرج من بلاد شَهْرَزور ونصبت الخوارجُ بعد قتل الضحّاك عليها الخَيْبَري، فلمّا قُتل الخَيْبَريّ ولّت الخوارج عليها أبا الدَّلفاء شيْبان الشيْبانيّ، وما كان من حروب مروان مع نُعَيْم بن ثابت الجُذاميّ وكان خرج عليه ببلاد طَبريّة والأردن من بلاد الشام حتى قتله مروان، وذلك في سنة ثمان وعشرين ومائة، فلم يدرِ مروان كيف يصنع في أمر نصر بن سيّار وخُراسان وإنجاده لِمَا هو فيه من الحروب والفِتَن، فكتب إليه مروان مجيباً عن كتابه: «إنّ الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، فاحسِم الثؤلول قِبَلك»؛ فلمّا ورد الكتاب على نصر قال لخواصّ أصحابه: «أمّا صاحبكم فقد أعلمكن ألاّ نصَر عنده».

وأقام مروان أكثر أيّامه لا يدنو من النساء إلى أن قُتِل، وتراءت له جارية من جواريه يوماً فقال لها: «والله لا دنوت منك ولا حللتُ لك عقدة وخُراسان ترجف وتضرم

بنصر بن سيّار وأبو مجْرِم قد أخذ منه بالمخنق»، وكان مع ما هو فيه يديم قراءة سِيَر الملوك وأخبارها في حروبها من الفُرس وغيرها من ملوك الأمم؛ وعذله بعض أوليائه ممّن كان يأنس إليه في ترك النساء والطيب وغير ذلك من اللّذات؛ فقال له مروان: «يمنعني منهنّ ما منع أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان»؛ فقال له الرجل: «وما ذاك يا أمير المؤمنين؟» ـ قال: حمل صاحب إفريقِيّة إليه جاريةً ذات بهاء وجمال، تامّة المحاسن شهية للمتأمل؛ فلمّا وقفت بين يديه تأمّل حسنها وبيده كتاب ورد من الحجّاج وهو بدَيْر الجماجم مواقفاً لابن الأشعث؛ فرمى الكتاب عن يده وقال لها: أنتِ والله مُنية النفس ـ فقالت الجارية: ما يمنعك يا أمير المؤمنين إذا كنتُ بهذا الوصف؟ ـ فقال: يمنعني والله منك بيتٌ قاله الأخطل [بسيط]:

قومٌ إذا حاربوا شدّوا مآزرهمْ ... دون النساء ولو باتت بأطهارِ

أألتذّ بالعيش وابن الأشعث مصافّ لأبي محمد، وقد هلكت فيه زعماء العرب! لا والله إذاً. ثم أمر بصيانتها، فلما قتل ابن الأشعث كانت أول جارية خلا بها».

٦

خلافة المأمون(*)

وبويع المأمون عبدُ الله بن هارون ـ وكنيتُه أبو جعفر، وأمُّه باذْغيسيّة اسمها مراجل، وقيل إن كنيته أبو العباس ـ وهو ابن ثمان وعشرين سنة وشهرين؛ وتوفي بالبُدَنْون على عين العَشيرة وهي عين يخرج منها هذا النهر المعروف بالبدنون، وقيل إن اسمها بالروميّة أيضاً رقّة، وحُمِل إلى طرسوس فدُفن بها على يسار المسجد، سنة ثماني عشرة ومائتين، وهو ابن تسع وأربعين سنة؛ فكانت خلافته إحدى وعشرين سنة، منها أربعة عشر شهراً كان يحارب أخاه محمد بن زُبَيْدة على ما ذكرنا، وقيل سنتان وخمسة أشهر وكان أهل خراسان يسلّمون عليه في تلك الحروب بالخلافة ويُدعى له على المنابر في الأمصار والحرَمَيْنِ والكُوَر والسهل والجبل ممّا حواه له طاهر وغلب عليه، ويسلّم على محمّد بالخلافة مَن كان ببغداد خاصة لا غير.

ذكرُ جُمل من أخباره وسيَره ولمع مما كان في أيّامه

وغلب على المأمون الفضلُ بن سهل، حتى ضايقه في جارية أراد شراءها فقتله، وادّعى قومٌ أن المأمون دسّ عليه مَن قتله؛ ثم سلّم عليه الوزراء بعد ذلك، منهم أحمد بن [أبي] خالد الأحول وعَمر بن مَسْعدة وأبو عبّاد، وكلّ هؤلاء سلم عليهم برسم الوزارة؛ ومات عمرو بن مسعدة سنة سبع وعشرة ومائتين، فعرض لماله ولم يعرض لمالِ وزيرٍ غيره؛ وغلب على المأمون آخراً الفضل بن مروان ومحمّد بن يزداذ.

(*) **مروج الذهب**، الفقرات، ٢٦٩٤ - ٢٧١٣، ٢٧٢٠، ٢٧٢٦، ٢٧٣٠، ٢٧٣٨ - ٢٧٣٩، ٢٧٤١، ٢٧٥٤، ٢٧٧٥ - ٢٧٧٦، ٢٧٧٩ - ٢٧٨٣.

وفي خلافته قُبِض عليّ بن [موسى] الرِّضا مسموماً بطُوس ودُفن هنالك، وهو يومئذ ابن تسع وأربعين سنة وستّة أشهر، وقيل غير ذلك.

وهجا المأمونُ إبراهيم بن المهديّ المعروف بابن شِكلة عمّه، وكان المأمون يُظهر التشيّع وابن شِكلة التسنُّن؛ فقال المأمون:

إذا المُرجيّ سَرَّك أن تراه ... يَموت لحينِه من قَبل مَوْتِهْ
فجدِّد عنده ذِكرى عليّ ... وصلِّ على النبيّ وأهل بيْتِهْ

فأجابه إبراهيم رادّاً عليه:

إذا الشيعيّ جَمْجَمْ في مقالٍ ... فسَرَّك أن يبوح بذات نفسِهْ
فَصَلِّ على النبيّ وصاحبيْه ... وَزيريْه وجاريْه برمْسِهْ.

ولإبراهيم بن المهديّ مع المأمون أخبارٌ حسان هي موجودة في كتاب الأخبار لإبراهيم بن المهديّ.

ودخل أبو دُلَف القاسم بن عيسى العِجليّ على المأمون، فقال له: «يا قاسم ما أحسن أبياتك في صفة الحرب ولذاذتك بها وزُهدك في المغنّيات!» ـ قال: يا أمير المؤمنين أيّ الأبيات هي؟» ـ قال: «قولك»:

لَسَلُّ السيوف وشقُّ الصفوفِ ... ونَفضُ التُّراب وضربُ القُلَلْ

قال: «ثمّ ماذا يا قاسم؟» ـ قال:

ولبْسُ العَجاجةِ والخافقاتُ ... تُريك المنايا برُوس الأسَلْ
وقد كشفتْ عن شبا نابها ... عروسُ المنيّةِ بين الشُّعَلْ
وجاءت تَهادَى وأبناؤها ... كأنّ عليهم شروقَ الطّفَلْ
خَروسٌ نطوقٌ إذا استُنطِقَتْ ... جهولٌ تطيش على مَن جهِلْ
إذا خُطِبَتْ أخذتْ مهرَها ... رُؤوساً تَساقَطَ بين القُلَلْ
ألذّ وأشهى من المُسْمِعات ... وشُرب المُدامة في يوم طَلّ
أنا ابن الحسام وتِرب الهياج ... ورَيْب المنون وقرب الأجَلْ

ثمّ قال: «يا أمير المؤمنين، هذه لذّتي مع أعدائك وقُوّتي مع أوليائك، ويدي معك، فإن استلذّ مستلذّ شيئاً من المعاقرة مِلْتُ إلى المصادمة والمحاربة» ـ قال: «يا قاسم، إذا كان هذا النمط من الأشعار شأنك واللّذّة لذّتك، فماذا تركت للوسنان ممّا خلفت وأظهرت له من قليل ما سترت؟» ـ قال: «يا أمير المؤمنين وأيّ أشعاري؟» ـ قال: «حيث تقول»:

أيّـها الـراقـد الـمُـؤرّقُ عـيـنـي ... نَـمْ هـنـيـئـاً لـك الـرقـادُ الـلـذيـذُ

عـلـم الله أنّ قـلـبـي مـمّـا ... قـد جَـنَـتْ مُـقـلـتـاك فـيـه وقـيـذُ

قال: «يا أمير المؤمنين سهوة بعد سهرة غلبت، وذلك قسم متقدّم، وهذا ظنّ متأخر» ـ قال: «يا قاسم، ما أحسن ما قال صاحبُ هذين البيتين:

أذُم لـك الأيّـام فـي ذات بـيـنِـنـا ... وما لِـلـيـالـي فـي الـذي بـيـنـنـا عُـذرُ

إذا لـم يـكـن بـيـن الـمـحـبّـيـن زَوْرة ... سوى ذِكر شيء قد مضى دَرَس الفكرُ

فقال أبو دلف: «وما أحسن ما قال يا أمير المؤمنين! هذا السيّد الهاشميّ والملك العبّاسيّ» ـ قال: «وكيف أدّتْك الفطنة ولم تداخلْك الظُّنّة، حتى تحقّقت أني صاحبهما ولم يداخلْك الشكّ فيهما؟» ـ قال: «يا أمير المؤمنين إنّما الشعر بِساطُ صوف فمن خَلط الشعر بنقيّ الصوف ظهر رونقُه عند التصنيف وبان ضوؤه عند التأليف».

وكان المأمون يقول: «الملكُ يغتفر كلَّ شيء إلاّ القدح في الملك وإفشاء السرّ والتعرّض للحرم»؛ وقال المأمون: «أخِّرِ الحرب ما استطعت، فإن لم تجد منها بُدّاً فاجعلها في آخر النهار» وذُكر أنه من كلام أنو شروان؛ وكان المأمون يقول: «أعيَت الحيلة في الأمر إذا أقبل أن يُدبر وإذا أدبر أن يُقبل»؛ ولما تأتّى الملك المأمون وخلص قال: «هذا جسم لولا أنه عديم، وهذا مُلك لولا أنه بعده هُلك، وهذا سرور لولا أنه بعده غرور، وهذا يوم لو كان يُوثق بِغده»؛ وكان المأمون يقول: «البشر منظرٌ مُونِق وخلق مُشرق وزارع للقلوب ومحلّ مألوف وفضل منتشر وثناء بسيط وتحف للأحرار وذرع رحيب، وأوّل الحسنات ذريعة إلى الجاه وأحمد الشيّم وباب لرضى العامّة ومفتاح لمحبة القلوب»؛ وكان المأمون يقول: «سادة الناس في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء؛ وإن الرزق الواسع لمن لا يستمتع به بمنزلة الطعام موضوع على ميزاب البخل: لو كان طريقاً ما سلكته ولو كان قميصاً ما لبسته».

وحضر المأمون إملاكاً لبعض أهل بيته، فسأله بعض مَن حضر أن يخطب فقال:

«الحمدلله المحمودُ الله، والمصطفى رسولُ الله، وخيرُ ما عُمِل به كتابُ الله، قال الله تعالى ﴿وَأنكِحوا الأيَامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِين مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إنْ يَكُونُوا فُقَراء يُغْنِهِمْ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ واللّه وَاسعٌ عَلِيمٌ﴾ ولو لم يكن في المناكحة آية محكمة ولا سنة متّبعة إلاّ ما جعل الله في ذلك من تأليف البعيد والقريب لَسارع إليها الموفّقُ المصيب وبادر إليها العاقل اللبيب؛ وفُلان مَن عرفتمون في نسب لم تجهلوه خطب إليكم فلانة فتاتكم وبذل لها من الصداق كذا وكذا فشفّعوا شافعنا وأنكحوا خاطبَنا وقولوا خيراً تُحمدوا عليه وتؤجَروا؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

وذكر ثُمامة بن أشرس قال: كنا يوماً في مجلس المأمون فدخل يحيى بن أكثم وكان قد ثقل عليه موضعي منه؛ فتذاكرنا شيئاً من الفقه؛ فقال يحيى في مسألة دارت: «هذا قول عمر بن الخطّاب وعبدالله بن مسعود وابن عُمَر وجابر» ــ قالت: «أخطأوا كلهم وأغفلوا وجه الدلالة»؛ فاستعظم ذلك يحيى وأكبره، وقال: «يا أمير المؤمنين إن هذا يُخطّيء أصحاب رسول الله صلعم كلّهم» ــ فقال المأمون: «سبحان الله! أكذا يا ثُمامة؟» ــ قلت: «يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يبالي ما قال ولا ما شنّع به»؛ ثم أقبلتُ عليه فقلت: «ألستَ تزعم أن الحقّ في واحد عند الله جلّ وعز؟» ــ قال: «نعم» ــ قلت: «فزعمتِ أن تسعة أخطأوا وأصاب العاشر، وقلت أنا: أخطأ العاشر فما أنكرتَ؟» فنظر المأمون إليّ وتبسّم وقال: «لم يعلم أبو محمّد أنك تجيب بهذا الجواب» ــ قال يحيى: «وكيف ذلك؟» ــ قلت: «ألستَ تقول إنّ الحقّ في واحد؟» ــ قال: «بلى» ــ قلت: «فهل يُخلي الله عزّ وجلّ هذا الحقّ من قائل يقول به من أصحاب رسول الله صلعم؟» ــ قال: «لا» ــ قلت: «أفليس مَن يخالفه ولم يقل به فقد أخطأ عندك الحقّ؟» ــ قال: «نعم» ــ قلت: «فقد دخلتَ فيما عِبتَ وقلتَ بما أنكرتَ وبه شنّعت؛ وأنا أصحّ دلالةً منك لأني خطّأتهم في الظاهر وكلٌّ مصيب عند الله الحقّ وإنما خطّأتُهم عند الخلاف وأدّتْني الدلالة إلى قول بعضهم؛ فخطّأتُ مَن خالفني وأنت خطّأتَ من خالفك في الظاهر وعند الله عزّ وجلّ».

وقدم وفْدُ الكوفة إلى بغداد فوقفوا للمأمون، فأعرض عنهم، فقال شيخ منهم: «يا أمير المؤمنين يدُكَ أحقّ يد بتقبيل لعلوّها في المكارم وبُعدها عن المآثم، وأنت توسع العفو المذنب ومن أرادك بسوء جعله الله حصَيدَ سيفك وطريد خوفك وذليل دولتك» ــ فقال: «يا عمرو، نِعْمَ الخطيب خطيبهم! اقضِ حوائجهم»؛ فقضيت.

وذكر ثمامة بن أشرس وقال: بلغ المأمونَ خبَرُ عشرة من الزنادقة ممّن يذهب إلى قول ماني ويقول بالنور والظلمة من أهل البصرة؛ فأمر بحملهم إليه بعد أن سُمّوا له واحداً واحداً؛ فلمّا جُمِعوا نظر إليهم طُفَيْليٌّ. فقال: «ما اجتمع هؤلاء إلاّ لصنيع!»، فدخل في وسَطهم ومضى مَعهم وهو لا يعلم بشأنهم، حتى صار بهم الموكّلون إلى السفينة؛ فقال الطفيليّ: «نُزهة لا شكّ فيها!»؛ فدخل معهم السفينة؛ فما كان بأسرع من أن جيء بالقيود فقيّد القوم والطفيليّ معهم؛ فقال الطفيليّ: «بلغ أمر تطفيلي إلى القيود!»؛ ثم أقبل على السيوخ فقال: «فَدَيْتكم إيش أنتم؟» ــ قالوا بل أيش أنت وممّن إخواننا أنت؟» ــ قال: «والله ما أدري ما أنتم، غير أني والله رجل طفيليّ خرجت في هذا اليوم من منزلي فلقيتكم، فرأيت منظراً جميلاً وعوارض حسنة ونعمةً ظاهرة، فقلت: شيوخ وكهول وشبّان جمعوا لوليمة. فدخلت في وسطهم وحاذيْت بعضكم كأني في جملة أحدكم؛ فصرتم إلى هذا الزورق؛ فرأيته قد فُرِش بهذا الفرش ومُهد، ورأيت سُفَراً مملوءة وجُرُباً وسِلالاً، فقلت: نُزهة يمضون إليها إلى القصور والبساتين، إنّ هذا اليوم مبارك! فابتهجت سروراً، إذ جاء هذا الموكل بكم فقيّدكم وقيّدني معكم؛ فورد عليَّ ما قد أزال عقلي؛ فأخبروني ما الخبر».

فضحكوا منه وتبسّموا وفرحوا به وسُرّوا، ثم قالوا: «الآن قد حصلت في الإحصاء وأوثقت في الحديد؛ وأما نحن فمانيّة غُمِز بنا إلى المأمون، وسندخل إليه ويسائلنا عن أحوالنا ويستكشفنا عن مذهبنا، ويدعونا إلى التوبة والرجوع عنه بامتحاننا بضروب من المحَن، منها إظهار صورة ماني لنا، ويأمرنا أن نتفُل عليها ونتبرّأ منها، ويأمرنا بذبح طائر ماء وهو التدْرُج؛ فمَن أجابه إلى ذلك نجا، ومن تخلّف عنه قُتل؛ فإذا دُعيت وامتُحنت فأخبر عن نفسك واعتقادك على حسب ما تؤدّيك الدلالة إلى القول؛ وأنت زعمتَ أنك طُفيليٌ، والطفيلي يكون معه مداخلات وأخبار، فاقطَعْ سفرَنا هذا إلى مدينة بغداد بشيء من الحديث وأيام الناس».

فلما وصلوا إلى بغداد وأُدخلوا على المأمون، جعل يدعو بأسمائهم رجلاً رجلاً، فيسأله عن مذهبه، فيُخبره بالإسلام، فيمتحنه وبدعوه إلى البراءة من ماني ويظهر له صورته ويأمره أن يتفُل عليها والبراءة منها وغير ذلك؛ فيأبون فيُمرّهم على السيف، حتى بلغ إلى الطفيليّ بعد فراغه من العشرة، وقد استوعبوا عدّة القوم؛ فقال المأمون للموكّلين: «مَن هذا؟» ــ قالوا: «والله ما ندري! غير أنّا وجدناه مع القوم فجئنا به» ــ فقال له

المأمون: «ما خبرك؟» ـ قال: «يا أمير المؤمنين امرأتي طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئاً! وإنّما أنا رجل طفيليّ»، وقصّ عليه خبره من أوّله إلى آخره؛ فضحك المأمون، ثم أظهر له الصورة فلعنها وتبرّأ منها، وقال: «أعطونيها حتى أسلح عليها! والله ما أدري ما ماني أيهوديّاً كان أم مسلماً» ـ فقال المأمون: «يؤدّب على فرط تطفّله ومخاطرته بنفسه».

وكان إبراهيم ابن المهديّ قائماً بين يدي المأمون فقال: «يا أمير المؤمنين، هبْ لي ذنبه وأحدّثك بحيث عجيب في التطفيل عن نفسي» ـ قال: «قُل يا إبراهيم» ـ قال: «يا أمير المؤمنين، خرجت يوماً فمررتُ في سِكَك بغداد متطرّقاً حتى انتهيتُ إلى موضع فشممت رائحة القتير من جناح دار عالية وقدور فاح قتارها؛ فتاقت نفسي إليها، فوقفتُ على خيّاط فقلتُ: «لِمَن هذه الدار؟» ـ فقال: «لرجل من التجّار من البزّازين» ـ قلت: «ما اسمه؟» ـ قال «فلان بن فلان»؛ فرفعت طرفي إلى الجناح، فإذا فيه شبّاك، فنظرت إلى كفٍّ قد خرجت من الشبّاك ومِعْصَم ما رأيتُ أحسن منهما قطّ، فشغلني يا أمير المؤمنين حسن الكفّ والمعصم عن رائحة القدور، فبقيت باهتاً قد ذُهِل عقلي؛ ثم قلتُ للخيّاط: «هو ممّن يشرب النبيذ؟» ـ قال: «نعم وأحسب أن عنده اليوم دعوة ولا ينادم إلا تجاراً مثله مستورين»؛ فأنا كذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب؛ فقال لي الخياط: «هذان ندماه» ـ قلت: «ما اسماهما وما كناهما؟» ـ فقال: «فلان وفلان»؛ فحرّكت دابّتي حتى دخلت بينهما وقلت: «جعلتُ فداكما قد استبطأكما أبو فلان أعزّه الله، وسايرتُهما حتى انتهينا إلى الباب؛ فقدّماني، فدخلت ودخلا؛ فمّا رآني صاحب المنزل لم يشكّ أنّي منهما بسبيل؛ فرحّب وأجلسني في أجلّ موضع، فجيء يا أمير المؤمنين بالمائدة وعليها حل نظيف، وأُتينا بتلك الألوان؛ فكان طعمها أطيب من رائحتها؛ فقلت في نفسي: «هذه الألوان قد أكلتُها، وبقي الكفّ والمعصم!»؛ ثم رُفع الطعام فغسلنا أيدينا، ثم صرنا إلى مجلس المأدبة، فإذا هو أنبلُ مجلس وأجلّ فرش، وجعل صاحب المجلس يلطف بي ويُقبل عليّ بالحديث، والرجلان لا يشكّان أنه منّي بسبيل، وإنما كان ذلك الفعل منه بي لمّا ظن أني منهما بسبيل؛ حتى إذا شربنا أقداحاً، خرجت علينا جارية تتثنى كأنّها غصن بان؛ فأقبلت وسلّمت غير خجلة وهيّئت لها وسادة، وأُتي بعود فوُضع في حجرها، فجسّته فتبيّنتُ الحذق في جسّها.

ثمّ اندفعت تغنّي بهذا الصوت:

توهّمها طَرْفي فآلم خدّها ... فصار مكانَ الوهم من نظري أُثُرُ
وصافحها قَلْبي فآلم كفّها ... فمن لمس قَلْبي في أناملها عَقْرُ
ومرّت بقلبي خاطراً فجرحتُها ... ولم أرَ شيئاً قطّ يجرَحه الفِكْر

فهيجت والله يا أمير المؤمنين عليّ بلابلي وطربتُ لحسن غنائها وحذقها؛ ثم اندفعت تغني:

أشرتُ إليها هل علمتِ مودّتي؟ ... فردّت بطَرْف العين: إني على العهْدِ
فحِدتُ عن الإظهار عمداً لسِرّها ... وحادت عن الإظهار أيضاً على عَمْدِ
أليس عجيباً أنَّ بيتاً يضُمّني ... وإيّاك لا نخلو ولا نتكلّمُ؟
سوى أعينٍ تشكو الهوى بجفونها ... وترجيعِ أحشاءٍ على النار تضرم
إشارةِ أفواه وغمزِ حواجب ... وتكسيرِ أجفان وقلب يسلّمُ

فحسدتُها والله يا أمير المؤمنين على حِذْقها ومعرفتها بالغناء وإصابتها معنى الشعر، وأنّها لم تخرج من الفنّ الذي ابتدأته؛ فقلتُ: «بقي عليك يا جارية شيء»؛ فغضبت وضربت بعودها الأرض؛ ثم قالت: «متى كنتم تُحضرون مجالسكم البغضاء؟»؛ فندمت على ما كان منّي ورأيت القوم قد تغيّروا إليّ فقلت: «أليس ثَم عود»؟ ـ قالوا: «بلى يا سيّدنا»؛ فأتيت بعود، فأصلحت من شأنه ما أردت واندفعت أغنّي:

ما للمنازل لا يُجِبْنَ حزيناً ... أصمَمْنَ أم بعُدَ المدى فبَلَيْنا؟
راحوا العشيّة روحةً مذكورةً ... إن مُتْنَ مُتْنَ وإن حيينَ حيينا

«فما استتمته جيداً حتى خرجت الجارية فأكبّت على رجلي تقبّلها وهي تقول: «المعذرة والله إليك يا سيّدي! فما سمعتُ مَن يغنّي هذا الصوت مثلك»؛ وقام مولاها وكلّ من كان عنده فصنعوا كصنعها، وطرب القوم واستحثّوا الشرب فشربوا بالطاسات، ثم اندفعت أغني:

أبالله هل تُمسينَ لا تذكُرينني ... وقد سَجَمَتْ عيناي من ذكرك الدَّمَا؟
إلى الله أشكو بخلَها وسماحتي ... لها عسل منّي وتبذُل عَلْقَما

إلى الله أشكو أنّها أجنبيّة ... وأنّي لها بالودّ ما عشتُ مُكرما
فرُدّي مُصاب القلب أنت قتلتِه ... ولا تتركيه ذاهل العقل مُغرَمَا

فجاء من طرب القوم ما خشيت أن يخرجوا من عقولهم، فأمسكت ساعةً حتى إذا هدأ القوم اندفعتُ أغنى الثالثة:

هذا محبُّك مطويٌّ على كَمَدِهْ ... صبٌّ مدامعهُ تجري على جَسَدِهْ
له يدٌ تسأل الرحمانَ راحته ... ممّا به، ويدٌ أخرى على كبدِهْ
يا من رأى كَلِفاً مستهتراً أسفاً ... كانت منيّتُهُ في عينه ويدِهْ

فجعلت الجارية يا أمير المؤمنين تصيح: «السلامة! هذا والله الغناء يا مولاي!»».

«وسكر القوم وخرجوا من عقولهم، وكان صاحب المنزل جيّد الشراب؛ فأمر غلمانه مع غلمانهما يحفظهما وصرفهم إلى منازلهم، وخلوت معه؛ فشربنا أقداحاً، ثم قال: «يا سيّدي ذهب والله ما خلا من أيّامي باطلاً إذ كنتُ لا أعرفك! فمَن أنتَ يا مولاي؟»، ولم يزل يُلحّ عليَّ حتى أخبرته؛ فقام وقبّل رأسي وقال: «يا سيّدي أنا أعجب أن يكون هذا الأدب إلاّ لمثلك! وإذا أنا منذ اليوم مع الخلافة ولا أعلم!»؛ وسألني عن قصّتي وكيف حملت نفسي على ما فعلتُه؛ فأخبرته خبر الطعام والكفّ والمِعصم؛ فقال: «يا فلانة (الجارية له) قولي لفلانة تنزل»؛ فجعل ينزل إليَّ جواريه واحدة واحدة فأنظر إلى كفّها وأقول: «ليس هي». حتى قال: «والله ما بقي غير أمي وأختي ولأنزلنهما إليك»؛ فعجبتُ من كرمه وسعة صدره؛ فقلت له: «جعلت فداك، ابدأ بالأخت قبل الأم، فعسى أن تكون صاحبتي» ـ فقال: «صدقت»؛ ففعل؛ فلما رأيت كفها ومعصمها قلت: «هي هي! جعلت فداك».

فأمر غلمانه من فوره، فصاروا إلى عشرة مشايخ من جِلّة جيرانهم فأُحضروا وجيء ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم، ثم قال: «هذه أختي فلانة وأنا أُشهدكم أنني قد زوجتها من «سيدي إبراهيم ابن المهديّ»، وأمهرتُها عنه عشرين ألف درهم»؛ فرضيتُ وقبلت النكاح ودفعت إليها البدرة الواحدة وفرّقتُ الأخرى على المشايخ، وقلت لهم: اعذروا فهذا الذي حضرني في هذا الوقت»؛ فقبضوها وانصرفوا ثم قال: يا سيّدي أمهّد لك بعض البيوت تقم مع أهلك»؛ فأحشمني والله يا أمير المؤمنين ما رأيتُ من كرمه وسعة صدره فقلت: «بل أحضر عمارية وأحملُها إلى منزلي»؛ فقال: «افعل ما

شئتَ»؛ فأحضرت عمّاريّة، وحملتها إلى منزلي؛ فوَحقِّك يا أمير المؤمنين لقد حمل إليّ من الجهاز ما ضاق عنه بعض دوري».

فتعجب المأمون من كرم ذلك الرجل وأطلق الطفيليّ وأجازه جائزة سنيّة وأمر إبراهيم بإحضار ذلك الرجل؛ فصار بعد من خواص المأمون وأهل مودّته ولم يزل معه على أهل الأحوال السارّة في المنادمة وغيرها.

قال أبو العتاهية: وجّه إليّ المأمون فصرت فألفيتُه مُطرقاً مفكّراً مغموماً؛ فأحجمتُ عن الدنوّ إليه وهو على تلك الحال؛ فرفع رأسه وأشار بيده: أن ادنُ؛ فدنوت فأطرق مليّاً ثم رفع رأسه، وقال: «يا إسماعيل، شأن النفس الملَل وحبّ الاستطراف، وقد تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة» ـ فقلت: «أجلْ يا أمير المؤمنين، ولي في هذا بيتُ شعر» ـ قال: «وما هو؟» ـ قلت:

لا يُصلحُ النفسَ إذ كانتْ مصرّفة　　إلاّ التنقُّلُ من حالٍ إلى حالِ

فقال: «أحسنتَ، زِدْني» ـ قلت: «لا أقدر على ذلك»؛ وآنستُه بقيّة يومه وأمر لي بمال، فانصرفتُ.

وكان يحيى بن أكثم يقول: كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء؛ فإذا حضر الفقهاء ومَن يناظره من سائر أهل المقاولات، أُدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم: «انزعوا أخفافكم»، وأحضرت الموائد فقيل لهم: «أصيبوا من الطعام والشراب وجدِّدوا الوضوء ومَن ضاق عليه خفّه فلينزعه، ومَن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها»؛ فإذا فرغوا أُتوا بالمجامر فبخروا وتطيّبوا، ثم خرجوا، فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبّرين، فلا يزال كذلك إلى أن تزول الشمس، وتنصب المائدة ثانية فيطعمون وينصرفون.

قال: فإنه يوماً لجالسٌ إذ دخل عليه عليّ بن صالح الحاجب فقال: «يا أمير المؤمنين رجل واقف بالباب، عليه ثياب بِيض غلاظ مشمّرة يطلب الدخول للمناظرة»؛ فعلمت أنه بعض الصوفيّة فأردتُ أن أشير أن لا يأذن له؛ فبدأ المأمون فقال: «ائذن له»؛ فدخل رجل عليه ثيابٌ قد شمّرها ونعله في يده؛ فوقف على طَرَف البساط ثمّ قال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!» ـ فقال المأمون: «وعليك السلام» ـ قال: «أتأذن لي في الدنو منك؟» ـ قال: «ادنُ»؛ فدنا، ثم قال: «اجلس»، فجلس، ثم قال: «أتأذن في

كلامك؟» ـ فقال له المأمون: «تكلّم بما تعلم، إن لله فيه رضاً» ـ قال: «أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت جلسته: أباجتماع من المسلمين عليك ورضاً بك أم بالمغالبة لهم والقوة عليهم بسلطانك؟» ـ قال: «لم أجلسه باجتماع منهم ولا مغالبة لهم، وإنما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلي احتمله المسلمون إما على رضاً وإما على كره؛ فعقد لي ولآخر معي ولاية هذا الأمر بعده في أعناق من حضره من المسلمين، فأخذ على من حضر بيت الله الحرام من الحاج البيعة لي ولآخر معي، فأعطوه ذلك إما طائعين وإما كارهين؛ فمضى الذي عقد له الأمر معي على السبيل التي مضى عليها، فلما صار الأمر إليّ علمتُ أني أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على الرضا بي؛ ثم نظرتُ فرأيت أني متى خلّيت على المسلمين أمورهم اضطرب حبل الإسلام ومرج عهدهم وانتقضت أطرافهم وغلب على الناس الهرج والفتنة، ووقع التنازع، فتعطّلت أحكام الله عزّ وجل ولم يحجّ أحد بيته الحرام ولم يجاهد الناس في سبيله ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويسوسهم، وانقطعت السبل ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم؛ فقمت بهذا الأمر حياطةً للمسلمين ومجاهداً لعدوهم وضابطاً لسبلهم وآخذاً على أيديهم إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضا به فأسلّم الأمر إليه وأكون كرجل من المسلمين؛ وأنت أيها الرجل رسولي إلى جماعة المسلمين: فمتى اجتمعوا على رجل ورضوا به خرجتُ إليه من هذا الأمر» ـ فقال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، وقام.

فأمر المأمون عليّ بن صالح الحاجب أن يوجّه من يتبعه حتى يعلم أين يقصد؛ ففعل ذلك ثم رجع وقال: «يا أمير المؤمنين وجّهت من اتّبع الرجل فمضى إلى مسجدٍ فيه خمسة عشر رجلاً في هَيْئته وزيّه؛ فقالوا له: لقيت الرجل؟ ـ قال: نعم ـ قالوا: فما قال لك؟ ـ قال: ما قال إلا خيراً. ذكر أنّه ضبط أمر المسلمين حتى تأمن سُبُلُهم ويقوم بالحج ويجاهد في سبيل الله ويأخذ للمظلوم من الظالم ولا تتعطّل الأحكام؛ فإذا رضي المسلمون برجل فاجتمعوا عليه سلّم إليه الأمر وخرج إليه منه ـ فقالوا: ما نرى بهذا الأمر بأساً؛ وافترقوا»؛ فأقبل عليّ المأمون وقال: «يا أبا محمد كفينا مؤونة هؤلاء بأيسر الخطب» ـ فقلت له: «الحمدلله يا أمير المؤمنين على ما ألهمك من السداد والصواب في القول والفعل».

قال المسعوديّ: كان يحيى بن أكثم قد وليَ قضاء البصرة قبل تأكّد الحال بينه وبين

المأمون، ونثر شكوى أهل البصرة به ورُفِعَ إلى المأمون فيه بما هو عليه من اللواط وأنّه قد أفسد أولادهم بكثرة لواطه؛ فقال المأمون: «لو طعنوا عليه في أحكامه قُبِل ذلك منهم»؛ وقالوا: «يا أمير المؤمنين قد ظهرت منه الفواحش وارتكاب الكبائر واستفاضَ ذلك منه، وهو القائل يا أمير المؤمنين في صفة الغلمان وطبقاتهم ومراتبهم في أوصافهم قولَه المشهور» ـ قال المأمون: «وما الذي قال؟» ـ فرفعت القصيدة إليه وفيها جُمل ما رُمِيَ به منها وما حُكِيَ عنه في هذا المعنى، وهو قوله:

أربعة تَفتِنُ ألحاظُهُمْ فعينُ مَن يعشِقهُمْ ساهرَهْ
فواحدٌ دنياه في وجهه منافقٌ ليست له آخره
وآخر دنياه مفتوحة من خلْفِه آخرةٌ وافره
ورابعٌ قد ضاع ما بينهم ليس بذي دنيا ولا آخره

فأنكر ذلك المأمون في الوقت واستعظمه، وقال: «أيّكم سمع منه هذا القول؟» ـ قالوا: «كذا استفاض من قوله فينا يا أمير المؤمنين»؛ فأمر بإخراجهم عنه وعزل يحيى عنهم.

وفي يحيى وما كان منه بالبصرة يقول ابن أبي نعيم:

يا ليت يحيى لم يلدْه أكثَمُهْ ولم تطأ أرض العراق قَدَمُهْ
ألوَطُ قاضٍ في العراق نعلمُه أيّ دواة لم يلقَها قلمُهْ
وأيّ شعب لم يلجْه أرقمُه

وحدّث العُمَريّ، قال: ادَّعى رجل النبوّة بالبصرة أيّام المأمون فحُمل إليه مُوثَقاً بالحديد؛ فمثل بين يديه، فقال له: «أأنت نبيّ مرسل؟»، ـ قال: «أما الساعة فأنا مُوثَق!» ـ قال المأمون: «ويلَك! مَن غرّك؟» ـ قال: «أبهذا تخاطب الأنبياء؟ أما والله لولا أنّي مُوثق لأمرتُ جبريل أن يدَمْدِمها عليكم» ـ قال: «والموثق لا تُجاب له دعوة؟» ـ قال: «الأنبياء خاصةً إذا قُيّدت لا يرتفع دعاؤها»؛ فضحك المأمون، وقال: «مَن قيّدك؟» ـ قال: «هذا الذي بين يديك» ـ قال: «فنحن نُطلقك، وتأمر جبريل أن يدمدمها: فإن أطاعك آمنّا بك وصدّقناك» ـ فقال: «صدق الله إذ يقول: ﴿فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ إن شئت فافعل»؛ فأمر بإطلاقه؛ فلمّا وجد راحة العافية قال: «يا جبريل (ومدَّ بها صوته) ابعثوا مَن شئتم، فليس بيني وبينكم عمل؛ غيري يملك الأموال وأنا لا

شيء معي؛ ما يذهب لكم في حاجة إلاّ كشخان!»؛ فأمر بإطلاقه والإحسان إليه.

وحدّث ثُمامة بن أشرَس قال: شهدت مجلساً للمأمون وقد أُتي برجل ادَّعى أنه إبراهيم الخليل، فقال المأمون: «ما سمعت بأحد أجرأ على الله من هذا!» ـ قلت: «إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في كلامه» ـ قال: «شأنَك وإيّاه» ـ قلت: «يا هذا، إن إبراهيم عليه السلام كان له براهين» ـ قال: «وما هي؟» ـ قلت: «أُضرمتْ له النار وأُلقِيَ فيها فكانت عليه ﴿بَرْداً وسَلاَماً﴾ فنحن نُضْرِم لك ناراً ونطرحك فيها: فإن كانت عليك كما كانت عليه، آمنّا بك وصدّقناك» ـ قال: «هات ﴿ما هو﴾ ألين عليَّ من هذا» ـ قلت: فبراهين موسى ـ قال: «وما هي»؟ قلت: «ألقى العصا ﴿فَإِذَا [هِيَ] حَيَّةٌ تَسْعَى﴾، تَلَقفُ ما يأفكون، وضرب بها ﴿البَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ وبياض يده من غير سوء» ـ قال: «هذا أصعب؛ ولكن هات ما هو ألين عليّ من هذا» ـ قلت: «فبراهين عيسى» ـ قال: «وما براهينه؟» ـ قلت «أحيَى الموتى...»؛ فقطع الكلام في براهين عيسى وقال: «جئتُ بالطّامّة الكبرى! دَعْني من براهين هذا» ـ قلت: «فلا بدّ من براهين» ـ قال: «وما معي من هذا كلّه شيء؛ وقد قلت لجبريل: «إنكم توجّهونني إلى شياطين؛ فاعطُوني حجةً أذهب بها، وإلاّ لم أذهب»، فغضب عليَّ جبريل فقال: «قد جئتَ بشرّ من الساعة! إذهب أولاً فانظر ما يقول لك القوم»!، فضحك المأمون، وقال: «هذا من الأنبياء التي تصلح للمنادمة».

وظهر في أيام المأمون بمكة ونواحي الحجاز محمد بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ، وذلك في سنة مائتين ودعا إلى نفسه وإليه دعت الشُّمَيْطِيّة؛ من فِرَق الشيعة وقالت بإمامته، وقد افترقوا فِرَقاً: فمنهم مَن غَلا، ومنهم من قصّر وسلك طريق الإماميّة؛ وقد ذكرنا ذلك في المقالات في أصول الديانات وفي كتاب أخبار الزمان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة، في الفنّ الثلاثين من أخبار خلفاء بني العباس ومَن ظهر في أيامهم من الطالبيين.

وقيل إنّ محمّد بن جعفر هذا دعا في بدء أمره وعنفوان ظهوره إلى محمد بن إبراهيم بن طَباطَبا صاحب أبي السرايا، فلما مات ابن طباطبا، دعا إلى نفسه وتَسمّى بأمير المؤمنين، وليس في آل محمد ممن ظهر لإقامة الحقّ ممّن سلف وخلف قبله وبعده مَن تسمّى بأمير المؤمنين غيرُ محمد بن جعفر هذا؛ وكان يُسمى بالديباجة لحسنه وجماله وما كان عليه من البهاء والكمال، وقد كان له بمكة ونواحيها قصص حُمل فيها إلى

المأمون بخُراسان، والمأمون يومئذٍ بمرْو، فأمّنه المأمون وحمله معه؛ فلما صار المأمون إلى جُرجان مات محمّد بن جعفر بها فدفن هنالك؛ وقد أتينا على كيفيّة وفاته وما كان من أمره وأمر غيره من آل أبي طالب ومقاتلهم ببقاع الأرض في كتابنا حدائق الأذهان في أخبار آل أبي طالب.

وظهر في أيّام المأمون أيضاً بالمدينة الحسين بن الحسن بن عليّ بن عليّ بن الحسين بن عليّ، وهو المعروف بابن الأفطَس؛ وقيل إنّه دعا في أول أمره إلى ابن طَباطَبا؛ فلما مات ابن طباطبا دعا إلى نفسه والقول بإمامته، وسار إلى مكة فأتى الناس وهم بمِنىً، وعلى الحاج داود بن عيسى بن موسى الهاشميّ؛ فهرب داود، ومضى الناس إلى عَرفة ووقفوا بالمزْدَلِفَة بغير إنسان عليهم من قِبَل ولد العبّاس؛ وقد كان ابن الأفطس وافَى الموقف بالليل، ثم صار إلى المزدلفة والناس بغير إمام؛ فصلّى بهم ثم مضى إلى منىً فنَحَرَ، ودخل مكة وجرّد البيت مما عليه من الكسوة إلا القَباطي البيض فقط.

وفي سنة مائتين ظفر حمّاد المعروف بالكُنْدُغُوش بأبي السرايا الهاشميّ؛ فأتى به الحسن بن سهل، فقتله وصلبه على الجسر ببغداد، وقد أتينا في كتابنا في أخبار الزمان على أخبار أبي السرايا وخروجه وما كان منه في حروبه وقتله عبدوس بن محمد بن أبي خالد ومن كان معه من قواد الأبناء واستباحته عسكره.

قال المسعودي: وفي سنة مائتين بعث المأمون برجاء بن أبي الضحّاك وياسر الخادم إلى عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن عليّ الرِّضا لإشخاصه إليه: فحُمل إليه مُكرَماً؛ وفيها أمر المأمون بإحصاء ولد العباس من رجالهم ونسائهم وصغيرهم وكبيرهم؛ فكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً.

ووصل إلى المأمون أبو الحسن عليّ بن موسى الرضا، وهو بمدينة مرْو، فأنزله المأمون أحسن إنزال، وأمر المأمون بجمع خواصّ الأولياء وأخبرهم أنه نظر في ولد العبّاس بن عبدالمطلب وفي ولد عليّ بن أبي طالب، فلم يجد في وقته أحداً أفضلَ ولا أحقَّ بالأمر من عليّ بن موسى الرِّضا؛ فبايع له بولاية العهد، وضرب اسمه على الدنانير والدراهم، وزوّج ابنه محمد بن علي من ابنته أم الفضل بنت المأمون، وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام، وأظهر بدلاً من ذلك الخُضرة في اللباس والأعلام، وغير ذلك؛ ونمى ذلك إلى مَن بالعراق من ولد العبّاس فاستعظموه وعلموا أن ذلك خروج الأمر عنهم؛ وحجّ بالناس إبراهيم بن موسى بن جعفر أخو الرِضا بأمر المأمون؛ واجتمع مَن بمدينة

السلام من ولد العبّاس ومواليهم وشيعتهم على خلع المأمون ومبايعة إبراهيم ابن المهديّ المعروف بابن شِكْلة، فبويع له يوم الخميس لخمس ليال خلون من المحرّم سنة اثنتين ومائتين؛ وقد قيل إن ذلك في سنة ثلاث ومائتين.

وفي سنة اثنتين ومائتين قُتِل الفضل بن سهْل ذو الرئاستين في حمّامٍ غيلةً، وذلك بمدينة سَرَخَسْ من بلاد خُراسان، وذلك في دار المأمون، في مسيره إلى العراق؛ فاستعظم المأمون ذلك وقتل قَتَلَته؛ وسار المأمون إلى العراق؛ وقُبِض عليّ بن موسى الرِضا بطوس لِعنَب كان أكله وأكثرَ منه؛ وقيل إنّه كان مسموماً؛ وذلك في سنة ثلاث ومائتين في صَفَر منها، وصلّى عليه المأمون، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، وقيل تسع وأربعين سنة وستة أشهر؛ وكان مولده بالمدينة سنة ثلاث وخمسين ومائة للهجرة، وقد كان المأمون زوّج ابنته أمّ حبيب لعليّ بن موسى الرضا؛ فكانت إحدى الأختين تحت محمد بن عليّ والأخرى تحت أبيه علي بن موسى الرضا.

واضطربت بغداد في أيام إبراهيم ابن المهديّ وثارت الرُّوَيْبِضَة وسمّوا أنفسهم بالمطّوّعة، وهم رؤساء العامة والتوابع؛ ولما قرب المأمون من مدينة السلام صلى إبراهيم ابن المهديّ بالناس في يوم النحر واختفى في اليوم الثاني من النحر، وذلك في سنة ثلاث ومائتين؛ فخلعه أهل بغداد؛ وكان دخول المأمون بغداد سنة أربع ومائتين، ولباسه الخضرة، ثم غيّر ذلك وعاد إلى السواد وذلك حين قدم طاهر بن الحُسَين من الرقّة إليه.

وبثّ المأمون عيونَه ببغداد في طلب إبراهيم ابن المهديّ، وقد علم باختفائه فيها؛ فظفر به ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبع ومائتين في زِيّ امرأة، ومعه امرأتان؛ أخذه حارس أسود في الدرب المعروف بالطويل ببغداد، فأُدخل إلى المأمون فقال: «يه! يا إبراهيم!» ــ فقال: «يا أمير المؤمنين وليّ الثأر محكَّم في القِصاص، والعفو ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ ومَن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مُدَّ له من أسباب الشقاء، أمكن عادية الدهر من نفسه؛ وقد جعلك الله فوق كلّ ذي عفو، كما جعل كلّ ذي ذنب دوني، فإن تُعاقبْ فبحقّك وإن تعفُ فبفضلك» ــ قال: «بل العفو يا إبراهيم»؛ فكبّر ثم خرّ ساجداً.

فأمر المأمون فصُيّرت المقنعة التي كانت عليه في صدره ليرى الناس الحال التي أُخذ عليها؛ ثم أمر به فصيّر في دار الحَرس أيّاماً ينظر الناس إليه. ثم حُوّل إلى أحمد بن أبي خالد، ثم رضي عنه من بعد أن كان وكّل به، فقال في ذلك إبراهيم ابن المهديّ من

كلمة له:

إنّ الـذي قَـسَـم الـمـكـارم حـازهـا　　مـن صُـلـب آدم لـلإمـام الـسـابـعِ
جمع القلوبَ عليك جامعُ أهلها　　وحـوى ودادُك كـلّ خـيـرٍ جـامـعِ
فـبذلـتَ أعـظـم مـا يـقـوم بـحـمْـلـه　　وسعُ الـنـفـوس من الـفَـعـال البـارعِ
وعـفـوتَ عـمّـن لـم يـكـن عـن مثلِهِ　　عـفـوٌ ولـمْ يـشـفَـعْ إلـيك بـشـافِـعِ

وانحدر المأمون إلى فم الصلح في شعبان سنة تسع ومائتين وأمْلَك بخديجة بنت الحسن بن سهل التي تسمَّى بوران؛ ونثر الحسن في ذلك الإملاك: [من الأموال] ما لم ينثره ولم يفعله ملكٌ قطّ في جاهليّة ولا إسلام؛ وذلك أنه نثر على الهاشميين والقُوّاد والكُتّاب والوجوه بَنادِقَ مسكٍ فيها رِقاع بأسماء ضِياع وأسماء جَوارٍ وصفات دوابّ وغير ذلك؛ فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرُّقعة فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها فيمضي إلى الوكيل الذي نُصِب لذلك فيقول: «ضَيْعة يُقال لها فلانة من طَسّوج كذا من رُسْتاق كذا؛ وجارية يُقال لها فلانة الفلانية؛ ودابّة صِفَتُها كذا وكذا»؛ ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونَوافِج المِسك وبَيْض العنبر، وأنفق على المأمون وعلى جميع قوّاده وأصحابه وسائر مَن كان معه من جنوده أيّام مُقامه عنده حتى المُكارين والملاّحين والحمّالين وكلّ من ضمّه عسكرهُ من تابع ومتبوع مرتزق وغيره، فلم يكن أحد [من] الناس يشتري فيها شيئاً في عسكر المأمون ممّا يطعم ولا ممّا تعتلفه البهائم.

فلمّا أراد المأمون أن يصعد في دجلة منصرفاً إلى مدينة السلام قال للحسن: «حوائجك يا أبا محمّد» ـ قال: «نعم يا أمير المؤمنين، أسألك أن تحفظ عليَّ مكاني من قلبك، فإنه لا يتهيّأ لي حفظُه إلاّ بك»؛ فأمر المأمون بحمل خراج فارس وكُوَر الاهواز إليه لسنة؛ وقالت الشعراء في ذلك فأكثرت، وأطنبت الخطباء وتكلّمت، فممّا استُظرف مما قيل في ذلك من الشعر قول ابن حازِم الباهليّ:

بـارَكَ اللهُ لـلـحَـسَـنْ　　ولـبـورانَ فـي الـخَـتَـنْ
يـا ابـنَ هـارونَ قـد ظـفـرْ　　تَ ولـكـنْ بـبـنـت مَـنْ؟

لمّا نمى هذا الشعر إلى المأمون قال: «والله ما ندري أخيراً أراد أم شرّاً؟».

ودخل إبراهيم ابن المهديّ يوماً على المأمون بعد مدّة من الظفر به فقال: «إنّ هذين يحملانني على قتلك» (يعني المعتصم أخاه والعبّاس بن المأمون) ــ فقال: «ما أشارا عليك إلا بما يُشار على مثلك؛ ولكن تدَعُ ما تخاف لما ترجو»، وأنشد:

رَدَدتَ ما لي ولم تبخل عليَّ به ... وقبل ردِّك ما لي قد حقَنتَ دَمي

فبؤتَ منها وما كافيتُها بيدٍ ... هما الحياتان من موت ومن عَدَم

البِرّ وطّأ منك العُذْرَ عندك ليّ ... فيما أتيتُ ولم تعذُل ولم تَلُمِ

وقام عُذْرَك بي فاحتجّ عندك لي ... مقامَ شاهدِ عدلٍ غير مُتّهمِ

وفي سنة اثنتيْ عشرة ومائتين نادى منادي المأمون: «برئت الذِمّة من أحد الناس ذكر معاوية بخير أو قدَّمه على أصحاب رسول الله وتكلّم في أشياء من التلاوة أنها مخلوقة»، وغير ذلك؛ تنازع الناس في السبب الذي من أجله أمر بالنداء في أمر معاوية، فقيل في ذلك أقاويل، منها أن بعض سُمّاره حدّث بحديث مُطرِّف بن المُغيرة بن شُعبة الثقفيّ، وقد ذكر هذا الخبر الزبير بن بكّار في الأخبار المعروفة بالموفَّقيّات التي صنّفها للموفّق، وهو أن الزُّبير قال: سمعت المدائنيّ يقول: قال مطّرف بن المغيرة بن شعبة: وفدتُ مع أبي المغيرة إلى معاوية؛ فكان أبي يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب ممّا رأى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء فرأيته مغتمّاً فانتظرته ساعةً وظننتُ أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا؛ فقلت له: «ما لي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟» ــ قال: «يا بنيَّ إنّي جئتُ من عند أخبث الناس» ــ قلت له «وما ذاك؟» ــ قال: «قلت له وقد خلوتُ به: «إنّك قد بلغتَ منّا يا أمير المؤمنين! فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنك قد كبرت ولو نظرتَ إلى إخوتك من بني هاشم فوصلتَ أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه!» ــ فقال لي: «هيهات هيهات! مَلَكَ أخو تيْم فعدل وفعل وما فعل، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل: أبو بكر؛ ثم ملك أخو عديّ فاجتهد وشمّر عشر سنين، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، ألا أن يقول قائل: عُمَر؛ ثم ملك أخونا عثمان، فملك رجلٌ لم يكن أحد في مثل نسبه، فعمل ما عمل [وعُمل به ما عُمل]، فوالله ما عدا أن هلك، فهلك ذكره وذكر ما فُعل به؛ وإن أخا هاشم يُصرَخ به في كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله! فأيّ عمل يبقى مع هذا لا أمّ لك والله إلا دُفنا دفناً».

وإن المأمون لمّا سمع هذا الخبر بعثه ذلك على أن أمر بالنداء على حسب ما وصفنا، وأُنشئت الكتب إلى الآفاق بلعنه على المنابر، فأعظم الناس ذلك وأكبروه، واضطربت العامّة منه، فأُشير عليه بترك ذلك فأعرض عمّا كان همّ به منه.

قال المسعوديّ: وأخبرنا القاضي أبو محمد عبدالله بن أحمد بن زيد الدمشقيّ بدمشق قال: لمّا توجّه المأمون رحمه الله غازياً ونزل البَذَنْدون جاءه رسول ملك الروم فقال له: «إن الملك يخيّرك بين أن يردَّ عليك نفقتك التي أنفقتها في طريقك من بلدك إلى هذا الموضع، وبين أن يُخرِج كلّ أسير من المسلمين في بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار، وبين أن يعمّر لك كلّ بلد للمسلمين ممّا خربت النصرانيّة ويردّه كما كان، وترجع عن غَزاتك»؛ فقام المأمون ودخل إلى خيمته، فصلّى ركعتين واستخار الله عزّ وجلّ خرج فقال للرسول: قل له: «أما قولك تردّ علي نفقتي فإني سمعت الله تعالى يقول في كتابه العزيز حاكياً عن بلقيس: ﴿وإِنّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ، فَلَمّا جاءَ سُلَيْمانَ قَالَ: أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتانيَ اللهُ خَيْرٌ مِمّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ وأما قولك إنك تُخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم فما يدك إلا أحد رجُلين: إمّا رجل طلب الله عزّ وجلّ والدار الآخرة فقد صار إلى ما أراد، وإما رجل طلب الدنيا فلا فَكّ الله أسره؛ وأمّا قولك إنك تعمّر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم فلو أني قلعت أقصى حجر في بلد الروم وما اعتضت بامرأة عثرت عثرةً في حال أسرها، فقالت: وامحمّداه وامحمّداه، عُدْ إلى صاحبك، فليس بيني وبينه إلا السيف، يا غلام اضرِب الطبل».

فرحل فلم ينثنِ عن غزّاته حتى فتح أربعة عشر حصناً، وانصرف من غزاته فنزل على عين البذندون المعروفة بالعشيرة على حسب ما قدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب، وأقام هنالك حتى ترجع رُسُلُه من الحصون؛ فوقف على العين ومنبع الماء فأعجبه بَرْد مائها وصفاؤه وبَياضه وطيب الموضع وكثرة الخضرة، فأمر بقطع خَشَب طوال وأمر به فبُسط على العين وجُعل فوقه كالأزج من الخشب وورق الشجرة، وجلس تحت الكنيسة التي عقدت له والماء تحته، وطُرح في الماء درهم صحيح فقرأ كتابته وهو في قرار الماء لصفاء الماء، ولم يقدر أحد يدخل الماء من شدّة برْده، فبينما هو كذلك إذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة، فجعل لمن يُخرجها سبقاً، فبدر بعض الفرّاشين فنزل وأخذها وصعد؛ فلما صار على حرف العين أو على الخشب الذي عليه المأمون اضطربتْ

وانملست من يد الفرّاش فوقعت في الماء كالحجر فنضحت من الماء على صدر المأمون ونحره وتَرْقُوتِه فبلّت ثوبه؛ ثم انحدر الفرّاش ثانيةً فأخذها ووضعها بين يدي المأمون في منديل تضطرب؛ فقال المأمون: «تُقلى الساعة».

ثم أخذته الرعدة من ساعته ولم يقدر يتحرّك من مكانه فغُطيّ باللحف والدواويج وهو يرتعد كالسعفة ويصيح: «البرد البرد!»، ثم حُوّل إلى المضرب ودثر وأوقدت النيران حوله وهو يصيح: «البرد البرد!» ثم أُتيَ بالسمكة وقد فُرغ من قليها، فلم يقدر على الذوّاق منها، وقد شغله ما هو فيه عن تناول شيء منها؛ ولما اشتدّ الأمر بالمأمون سأل المعتصمُ بَختِيشوع وابن ماسَوَيْه في ذلك الوقت عن المأمون وهو في سكرات الموت، وما الذي يدلّ عليه علم الطبّ من أمره، وهل يمكن برؤه وشفاؤه؛ فتقدّم ابن ماسويْه فأخذ إحدى يديه وبختيشوع الأخرى، وأخذا المجسّة من كلتا يديه فوجدا نبضه خارجاً عن الاعتدال منذراً بالفناء والانحلال، والتزقت أيديهما ببشرته لعَرَق كان يظهر منه من سائر جسمه وسائل كالرُّبّ أو كلعاب بعض الأفاعي، فأُخبر المعتصم بذلك فسألهما عن ذلك العرق فأنكرا معرفته وذكرا أنّهما لم يجداه في شيء من الكتب وأنه دالّ على انحلال الجسد.

وأفاق المأمون من غشيتِه وفتح عينيه من رَقدته، فأمر بإحضار أناس من الروم، فسألهم عن اسم الموضع والعين فأحضر عدّة من الأسارى والأدلاّء فقيل لهم: «ما تفسير هذا الاسم وهو العشيرة؟» ـ فقالوا: «تفسيره: مُدَّ رجليك»، فلمّا سمعها اضطرب من هذا الفأل وتطيّر به وقال: «سَلوهم ما اسم الموضع بالعربيّة» فقالوا: «الرقّة»، وكان فيما عُمل من مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقّة، فكان المأمون كثيراً ما يحيد عن المقام بمدينة الرقّة خوفاً من الموت؛ فلمّا سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذي وُعِد فيه فيما تقدّم من مولده أن فيه وفاته؛ وقيل إن اسم البُدَنْدون تفسيرُهُ «مُدّ رجليك»، والله أعلم بكيفيّة ذلك.

فأحضر المأمون الأطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه؛ فلما ثقل قال: «أخرجوني أُشرف على عسكري وأنظر إلى رجال وأتبيّن ملكي»، وذلك بالليل؛ فأُخرج فأشرف على الخيَم والجيش وانتشاره وكثرته وما قد أوقدوا من النيران؛ فقال: «يا مَن لا يزول ملكه ارحم مَن زال ملكه»؛ ثم رُدَّ إلى مرقده وأجلسَ المعتصمُ رجلاً يلقّنه الشهادة لما ثقل؛ فرفع صوته ليقولها المأمون؛ فقال له ابن ماسويه: «لا تَصِحْ فوالله ما يفرق بين ربّه وبين ماني

في هذا الوقت!»؛ ففتح المأمون عينيه من ساعته وبهما من العِظَم والكِبَر والاحمرار ما لم يُر مثلُه قطّ، وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه، ورام مخاطبته فعجز عن ذلك؛ فرمى بطرْفه نحو السماء وقد امتلأت عيناه دموعاً فانطلق لسانه من ساعته وقال: «يا من لا يموت أرحم مَن يموت!»؛ وقضى من ساعته وذلك في يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثماني وعشرة ومائتين، وحُمل إلى طرسوس فدُفن بها على حسب ما قدّمنا في أوّل أخباره من هذا الكتاب.

٧

في خلافة المعتزّ بالله(*)

بويع المعتزّ بالله ـ وهو الزّبير بن جعفر المتوكّل، وأمّه أمّ ولد يقال لها قبيحة، ويكنّى أبا عبدالله، وله يومئذ ثماني عشرة سنة ـ بعد خلع المستعين لنفسه، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرّم، وقيل لثلاث خلون منه، سنة اثنتين وخمسين ومائتين على ما قدّمنا؛ وباعيه القوّاد والموالي والشاكريّة وأهل بغداد، وخُطب له في المسجد الجامع ببغداد في الجانبين؛ ثم خلع المعتز نفسه يوم الإثنين لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، ومات بعد أن خلع نفسه بستة أيام؛ فكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر؛ ودُفن بسامرّا؛ فجملة أيامه منذ بويع بسامرّا قبل خلع المستعين إلى اليوم الذي خلع فيه أربع سنين وستة أشهر وأياماً ومنذ بويع له بمدينة السلام ثلاث سنين وسبعة أشهر؛ وتوفّي وله أربع وعشرون سنة.

ولما خُلِع المستعين بالله وأُحدِر إلى واسط بعد أن أشهد على نفسه أنه قد برئ من الخلافة وأنه لا يصلح لها لِمَا رأى من الخلاف الواقع، وأنّه قد جعل الناس في حلّ من بيعته، قالت في ذلك الشعراء فأكثرت، ووصفته في شعرها فأغرقت، فقال في ذلك البحتريّ من قصيدة طويلة:

إلى واسطٍ خلف الدجاج ولم يكن ... لينبت في لحم الدجاج مخالبُهْ

وفي ذلك يقول الشاعر المعروف بالكنانيّ من قصيدة:

إنّي أراكَ من الفِراق جَزوعاً ... أمسى الإمام مسيّراً مخلوعَا

(*) مروج الذهب، ٣٠٦٥ - ٣٠٦٨، ٣٠٧٠ - ٣٠٧٥، ٣٠٨١ - ٣٠٩٠، ٣٠٩٥ - ٣١٠٢.

وغدا الخليفة أحمد بن محمّد بعد الخلافة والبهاء خليعا

كانت به الأيام تضحك زهرة وهو الربيع لِمَن أراد ربيعا

فأزاله المقدر عن رُتَبِ العلى فثوى بواسِطَ لا يُحسّ رجوعا

وكان بين خلع المستعين وقتله تسعة أشهر ويوم. ومات في خلافة المستعين جماعة من أهل العلم والمحدّثين، منهم: أبو هاشم محمّد بن يزيد الرّفاعيّ، وأيّوب بن محمد الورّاق، وأبو كُرَيْب محمد بن العلاء الهَمَدانيّ بالكوفة، وأحمد بن صالح المصريّ، وأبو الوليد السَّرِيّ الدِمشقيّ، وعيسى بن حمّاد زُغبة المصريّ بمصر ويكنّى أبا موسى، وأبو جعفر بن سوّار الكوفيّ وذلك في سنة ثمان وأربعين ومائتين.

وفي خلافة المستعين وذلك في سنة تسع وأربعين ومائتين كانت وفاة الحسن بن الصبّاح البزّار وكان من عِلية أصحاب الحديث، وهشام بن خالد الدمشقيّ، ومحمد بن سليمان الجُهَنيّ بالمصّيصة، والحسن بن محمّد بن طالوت، وأبو حفص الصيرفي بسامرّا، ومحمد بن زنبور المكيّ بمكة، وسليمان بن أبي طَيِّبة، وموسى بن عبدالرحمان البرقيّ.

وقد كان المستعين في سنة ثمان وأربعين ومائتين أخرج من خزانة الخلافة فصّ ياقوت أحمر يُعرف بالجبَل، وكانت الملوك تصونه، وكان الرشيد اشتراه بأربعين ألف دينار، ونقش عليه اسمه أحمد ووضع ذلك الفصّ في إصبعه؛ فتحدّث الناس بذلك؛ وقد ذُكر أن هذا الفص قد تداولته الملوك من الأكاسرة وقد نُقش في قديم الزمان، وذُكر أنه لم ينقشه ملك إلاَّ مات قتيلاً، وكان الملك إذا مات وجلس تاليه في الملك حكّ النقش، فتداولته في اللبس الملوك وهو غير منقوش، فيقع النادر من الملوك فينقشه؛ وكان ياقوتاً أحمر يُضيء بالليل كضياء المصباح، إذا وُضع في بيت لا مصباح فيه أشرق، ويُرى فيه بالليل تماثيل تلوح، وله خبر طويل ظريف قد ذكرناه في كتابنا أخبار الزمان في ذكر خواتم ملوك الفرس، وقد كان ذلك الفصّ ظهر في أيام المقتدر ثم خفي أثره بعد ذلك.

وقد كان جماعة من الشعراء قالوا في المعتزّ حين استتمّ له الأمر واستقامت له الخلافة وخلعها المستعين أقوالاً كثيرة؛ فمن ذلك قول مروان بن أبي الجنوب من قصيدة طويلة:

إنّ الأمور إلى المعتزّ قد رجعتْ والمستعين إلى حالاته رجَعَا

قد كان يعلم أنّ المُلك ليس له وأنّه لك لكنْ نفْسَه خدَعا

وفي ذلك يقول رجل من أهل سامرّاء وقد قيل إنّه البحتريّ:

لـلـه درٌّ عـصـابـةٍ تـركـيـةٍ ردّوا نـوائـب دهـرهـم بـالـسـيـفِ
قتلوا الخليفة أحمد بن محمّد وكسَوا جميع الناس ثوبَ الخيْفِ
وطغوا فأصبح ملكنا متبدّداً وإمامنا فيه شبيه الضيفِ

وفي المعتزّ ورجوع الأمر إليه واتفاق الكلمة عليه يقول أبو عليّ البصير:

آبَ أمر الإسلام خير مآبهْ وغدا الملك ثابتاً في نِصابهْ
مستقرّاً قراره مطمئنّاً آهلاً بعد نأيه واغترابهْ
فأحمد الله وحده والتمس بالعـ ـفو عمّن عفا جزيلُ ثوابهْ

وكان على وزارة المعتزّ جعفر بن محمود [الإسكافي]، ثم استوزر جماعةً؛ فكانت الكتب تخرج باسم صالح بن وصيف كأنه مرسوم بالوزارة.

وكانت وفاة أبي الحسن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد في خلافة المعتزّ بالله، وذلك يوم الإثنين لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين، وهو ابن أربعين سنة، وقيل ابن اثنتين وأربعين سنة، وقيل أكثر من ذلك؛ وسُمع في جنازته جارية تقول: «ماذا لقِينا في يوم الإثنين قديماً وحديثاً؟»؛ وصلّى عليه أحمد بن المتوكّل على الله في شارع أبي أحمد وفي داره بسامرّا ودُفن هناك.

قال المسعودي: وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين، وذلك في خلافة المعتزّ، مات محمّد بن عبد الله بن طاهر للنصف من ذي القعدة، بعد قتل وصيف بثلاثة عشر يوماً، والقمر منكسف؛ وكان من الجود والكرم وغزارة الأدب وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان وملوكيّة المجالسة على ما لم يكن عليه أحد من نظرائه في عصره؛ وفيه يقول الحسين بن عليّ بن طاهر من قصيدة له:

كسف البدرُ والأميرُ جميعاً فانجلى البدر والأمير غمِيدُ
عاود البدر نوره لتجلّيهِ ونور الأمير ليس يعودُ
يا كسوفين ليلة الأحد النحس أحلّتكما هناك السعودُ
واحد كان حدُّه مثل حدّ السيف والنار شُبّ فيها الوقودُ

وذكر أبو العباس المبرّد، قال: ارتاح محمد بن عبد الله بن طاهر يوماً للمنادمة، وقد

حضره ابن طالوت وكان وزيره وأخصّ الناس به وأحضرهم لخلواته؛ فأقبل عليه وقال: «لا بدّ لنا اليوم من ثالث تطيب لنا به المعاشرة وتلذّ بمنادمته المؤانسة؛ فمن ترى أن يكون؟ وأعفِنا أن يكون شرير الأخلاق أو دنس الأعراق أو ظاهر الإملاق»؛ فأعمل ابن طالوت الفكر وقال: «أيها الأمير خطر ببالي رجل ليس علينا من مجالسته من مؤونة، وقد برىء من إبرام المجالسين وخلا من ثقل الموانسين، خفيف الوطأة إذا أحببت، سريع الوثبة إذا أمرت» ـ قال: «من ذلك؟» قال: «ماني المَوَسْوِس» ـ قال: «أحسنت والله! فليتقدّم إلى أصحاب الثمانية والعشرين الرُبع في طلبه يرفعوه رفعةً».

فما كان بأسرع من أن اقتنصه صاحب الكرْخ، فصار به إلى باب الأمير؛ فأُخذ وحُذف ونُظّف وأُدخل الحمام وأُلبس ثياباً نظافاً وأُدخل عليه، فقال: «السلام عليك أيها الأمير» ـ فقال محمد: «وعليك السلام يا ماني، ألم يئِنْ لك أن تزورنا على حين توقان منّا إليك ومنازعة قلوب منّا نحوك؟» ـ فقال ماني: «الشوق شديد والحب عتيد والمزار بعيد، والحجاب صعب والبوّاب فظّ، ولو سُهل لنا في الإذن لسهلت علينا الزيارة» ـ فقال: «ألطفتَ في الاستئذان، فليُلطف لك في الإذن؛ لا يُمنع ماني أي وقت ورد من ليل أو نهار»؛ ثم أذن له في الجلوس، فجلس، ودعا بالطعام فأكل، ثم غسل يديه وأخذ مجلسه.

وكان محمّد قد تشوّق إلى السماع من ننوسة جارية بنت المهدي، فأُحضرت؛ فكان أول ما غنّت به:

ولستُ بناس إذا غدوْا فتحمّلوا … دموعي على الأحباب من شدة الوجْدِ

وقولي وقد زالت بليلٍ حمولُهمْ: … بواكر تُحْدى لا يكن آخر العهدِ

فقال ماني: «أحسنت وبحق الأمير إلا ما زدت فيه:

وقمتُ أناجي الفكر والدمع حائر … بمقلة موقوف على الضرّ والجهْدِ

ولم يُعدِني هذا الأمير بعزّه … على ظالم قد لجّ في الهجر والصدِّ

فاندفعت تغنّيه؛ فقال له محمد: «أعاشق أنت يا ماني؟»؛ فاستحيا، وغمزه ابن طالوت ألا يبوح له بشيء فيسقط من عينيه؛ فقال: «مبلغ طرب وشوق كان كامناً فظهر؛ وهل بعد الشيب صبوة؟»؛ ثم اقترح محمد على ننُوسة هذا الصوت:

حجّبوها عن الرياح لأني ... قلت: يا ريحُ بلّغيها السّلاما

لو رضُوا بالحجاب هان، ولكنْ ... منعوها عند الرياح الكلاما

فغنّته؛ فطرب محمد ودعا برطل، فشرب فقال ماني: «قائل هذا الشعر لو زاد فيه:

فتنفّستُ ثم قلت لطيفي: ... آه إن زرتَ طيفها إلماما

خُصّها بالسلام مني فأخشى ... يمنعوها لشقْوتي أن تناما

لكان أثقب لزند الصبابة بين الأحشاء وأشدّ تغلغلاً إلى الكبد الصدي من زلال الماء، مع حسن تأليف نظامه والانتهاء بالمعنى إلى نهاية تمامه».

فقال محمد: «أحسنت يا ماني»؛ ثم أمر تنوسة بإلحاقهما بالبيتين الأولين والغناء بهما؛ ثم غنّت بهذين البيتين:

يا خليليّ ساعةً لا تريما ... وعلى ذي صبابة فأقيما

ما مررنا بدار زينب إلا ... هتك الدمعُ سِرّنا المكتوما

فاستحسنه محمد؛ فقال ماني: «لولا رهبة التعدي لأضفت إلى هذين البيتين بيتين لا يردان على سمع ذي لبّ فيصدران إلا عن استحسان لهما» ــ فقال محمد: «يا ماني، الرغبة في حسن ما تأتي به حائلة دون كل رهبة؛ فهات ما عندك».

فقال:

ظبيةٌ كالهلال لو تلحظ الصخـ ... ـر بطرْفٍ لغادرته هشيما

وإذا ما تبسّمت خلتَ إيما ... ضَ بروقٍ أو لؤلؤاً منظوما

فقال: «أحسنت يا ماني؛ فأجز هذا الشعر:

لم تطبِ اللذاتُ إلا بمنْ ... طابت بها اللذات نانوسهْ

غنّت بصوتٍ أطلقت عبرةً ... كانت بسجن الصبر محبوسهْ

فقال ماني:

وكيف صبرُ النفس عن غادةٍ ... تظلمها إن قلت طاؤوسهْ

وجُزتَ إن سمّيتها بانةً ... في جنة الفردوس مغروسهْ

وغـيـر عـدلٍ إن عـدلْـنـا بـهـا جـوهـرةً فـي الـبـحـر مـغـمـوسـهْ

ثم سكت؛ فقال محمد: «ما عدا في وصفه لها» ـ فقال ماني:

جـلّـتْ عـن الـوصـف فـمـا فـكـرةٌ تـلـحـقـهـا بـالـنـعـت مـحـسـوسـهْ

فقال محمد: «أحسنت» ـ فقالت ننوسة: «وجب شكرك يا ماني؛ فساعدك دهرك وعطف عليك إلفك وقارنك سرورك وفارقك محذورك، والله يديم لنا ذلك ببقاء من به اجتمع أهلنا» ـ فقال لها ماني عند قولها: «وعطف عليك إلفك» مجيباً:

لـيـس لـي إلـف فـيـعـطـفـنـي فـارقـتْ نـفـسـي الأبـاطـيـلُ

أنـا مـوصـول بـنـعـمـة مـن حـبْـلُـه بـالـمـجـد مـوصـولُ

أنـا مـغـبـوط بـنـعـمـة مـن طـبْـعُـه بـالـخـيـر مـجـبـولُ

فأومأ إليه ابن طالوت بالقيام؛ فنهض وهو يقول:

مـلـكٌ قـلّ الـنـظـيـرُ لـه زانـه الـغُـرُّ الـبـهـالـيـلُ

طـاهـريٌّ فـي مـواكـبـه عـرفُـه فـي الـنـاس مـبـذولُ

يـا أبـا الـعـبّـاس صُـنْ أدبـاً حـدُّه بـالـدهـر مـفـلـولُ

فقال محمد: «وجب جزاؤك لشكرك على غير نعمة سبقت»؛ ثم أقبل على ابن طالوت فقال: «ليست خساسة المرء ولا اتضاع المنظر ولا نبوّ العين عن الظاهر بمُذهب جوهرية الأدب المركّب في الأسنان؛ وما أخطأ صالح بن عبد القدّوس حيث يقول:

لا يـعـجـبـنّـك مـن يـصـون ثـيـابـه حـذر الـغـبـار وعِـرضـه مـبـذولُ

فـلـربـمـا افـتـقـر الـفـتـى فـرأيـتـه دنِـس الـثـيـاب وعـرضُـه مـغـسـولُ

قال ابن طالوت: «فما رأيتُ أحضر ذهناً منه، إذ تقول الجارية عطف عليك إلفك، وإنشاده عند قولها ذلك:

لـيـس لـي إلـف فـيـعـطـفـنـي فـارقـت نـفـسـي الأبـاطـيـلُ

قال: فلم يزل محمد مُجرياً عليه رزقه حتى توفي.

ونمى إلى المعتزّ أن المؤيّد يدبّر عليه وأنه قد استمال جماعةً من الموالي؛ فحبس المؤيّد وأبا أحمد ـ وهما لأب وأم ـ وطولب المؤيّد بأن يخلع نفسه من ولاية العهد؛ فضُرب

أربعين عصاً إلى أن أجاب وأشهد على نفسه بذلك؛ ثم اتصل بالمعتزّ أن جماعة من الأتراك اجتمع رأيهم على إخراج المؤيّد من حبسه؛ فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين أُخرج المؤيّد ميتاً وأُحضر القضاة والفقهاء حتى رأوه ولا أثر فيه؛ فيقال إنه أدرج في لحاف سمّور وشُدّ طرفاه حتى مات فيه.

وضُيّق حبس أبي أحمد؛ فكان بين دخوله سر من رأى وما لقي بها من الإكرام، وبين حبسه ستة أشهر وثلاثة أيام؛ ثم أُشخص إلى البصرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان بعد قتل المؤيد بخمسين يوماً؛ ورُتّب إسماعيل ابن قبيحة ــ وهو أخو المعتزّ لأبيه وأمه ــ مكان المؤيّد في ولاية العهد؛ واجتمع قوّاد الموالي إلى المعتزّ فسألوه الرضا عن وصيف وبُغا، فأجابهم إلى ذلك.

وفي هذه السنة ــ وهي سنة ثلاث وخمسين ومائتين ــ مات صفوان العُقيليّ صاحب ديار مُضر في حبس سامرّا؛ وفي هذه السنة [كان] قتل أهل كرْخ سامرّا من الفراعنة والأتراك لوصيف التركي، وتخلص بغا منهم؛ واشتدّ أمر مُساور الشاريّ ورُتبّ صالح بن وصيف موضع وصيف.

وفي سنة أربع وخمسين ومائتين خرج بُغا من سامرّا إلى ناحية الموصل؛ فانتبهت الموالي داره وانفضّ من كان معه من الجيش؛ وانحدر في زورق متنكّراً، فوقع به بعض المغاربة بجسر سامرّا، فقُتل ونُصب رأسه بسامرّا؛ وهو بُغا الصغير؛ ثم أحدر الرأس إلى مدينة السلام فنُصب على الجسر؛ وكان المعتزّ في حياة بغا لا يلتذّ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا في ليل ولا في نهار خوفاً من بغا؛ وقال: «لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم لبغا رأسي أو رأسه لي»؛ وكان يقول: «إني لأخاف أن ينزل عليّ بغا من السماء أو يخرج عليّ من الأرض»؛ وقد كان بغا عزم على أن ينحدر سرّاً فيصل إلى سامرّا في الليل ويصرف الأتراك عن المعتزّ ويفيض فيهم الأموال؛ فكان من أمره ما وصفنا.

ولما رأى الأتراك إقدام المعتزّ على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة في إفنائهم، وأنه قد اصطنع المغاربة والفراعنة دونهم، صاروا إليه بأجمعهم، وذلك لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وجعلوا يقرّعونه بذنوبه ويوبّخونه على أفعاله، وطالبوه بالأموال؛ وكان المدبّر لذلك صالح بن وصيف مع قوّاد الأتراك؛ فلجّ وأنكر أن يكون قِبَله شيء من المال؛ فلما حضر المعتزّ في أيديهم بعث إلى مدينة السلام في محمد ابن الواثق الملقّب بالمهتدي، وقد كان المعتزّ نفاه إليها واعتقله فيها؛ فأُتي به في يوم وليلة إلى

سامرّا؛ فتلقّاه الأولياء في الطريق ودخل إلى الجوسق وأجاب المعتزّ إلى الخلع على أن يعطوه الأمان أن لا يُقتل وأن يؤمنوه على أهله وماله وولده؛ وأبى محمد ابن الواثق أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة حتى يرى المعتزّ ويسمع كلامه.

فأُتي بالمعتزّ عليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل؛ فلما رآه محمد ابن الواثق وثب إليه فعانقه، وجلسا جميعاً على السرير؛ فقال له محمد ابن الواثق: «يا أخي، ما هذا الأمر؟» ـ قال المعتز: «أمر لا أُطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له»؛ فأراده المهتدي على أن يتوسط أمره ويُصلح الحال بينه وبين الأتراك؛ فقال المعتز: «لا حاجة لي فيها، ولا يرضوْنني لها» ـ قال المهتدي: «فأنا في حِلّ من بيعتك؟» ـ قال: «أنت في حل وسعة»؛ فلما جعله في حلّ من بيعته حوّل وجهه عنه؛ فأقيم عن حضرته ورُدّ إلى محبسه، فقُتل في محبسه بعد أن خُلع بستة أيام، على ما قدّمنا في صدر هذا الباب.

وقد قالت الشعراء في خلع المعتزّ وقتله فأكثرت، ورثته فأحسنت؛ فمن ذلك قول بعض أهل هذا العصر من قصيدة له:

عينُ لا تبخلي بسفح الدموعِ ... واندُبي خيرَ فاجعٍ مفجوعِ

خانه الناصح الشفيق ونالتـ ... ـه أكفّ الرّدى بحتفٍ سريعِ

بكّر التركُ ناقمين عليه ... خالعيه، أُفديه من مخلوعِ

قتلوه ظلماً وجوراً فألفوْ ... هُ كريم الأخلاق غير جزوعِ

كان يغشى بحسنه بهجة البد ... رِ فتلقاه مظهراً للخضوعِ

وترى الشمس تستكين فلا تُشر ... ق إما رأته وقت الطلوعِ

لم يهابوا جيشاً ولا رهبوا السيـ ... ـف فلهفي على القتيل الخليعِ

أصبح الترك مالكي الأمر والعا ... لم ما بين سامعٍ ومطيعِ

وترى الله فيهمُ مالك الأمـ ... ـر سيجزيهمُ بقتل ذريعِ

وقال فيه آخر من قصيدة طويلة:

أصبحت مُقلتي بدمعٍ سفوحا ... حين قالوا: أضحى الإمامُ ذبيحا

قتلوه ظلماً وجوراً وغدراً ... حين أهدوْا إليه حتفاً مريحا

نضّر الله ذلك الوجه وجهاً ... وسقى الله ذلك الروح روحا

أيها الترك سوف تلقوْن للدهـ ... ـر سيوفاً لا تستبلّ الجريحا

فاستعدّوا للسيف عاقبة الأمـ ... ـر فقد جئتمُ فِعالاً قبيحا

وقال آخر من قصيدة طويلة أيضاً:

أصبحت مُقلتي تسحُّ الدموعا ... إذ رأت سيّد الأنام خليعا

لهفَ نفسي عليه ما كان أعلا ... ه وأسراه تابعاً متبوعا

ألزموه ذنباً على غير جرم ... فثوى فيهمُ قتيلاً صريعا

وبنو عمّه وعمّ أبيه ... أظهروا ذلّة وأبدوْا خضوعا

ما بهذا يصحّ مُلكٌ ولا يُغـ ... ـزى عدوٌّ ولا يكون جميعا

وكان المعتزّ أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب؛ وكان من سلف قبله من خلفاء بني العباس، وكذلك جماعة من بني أمية، يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق وأنجاد السيوف والسروج واللجم؛ فلما ركب المعتزّ بحلية الذهب اتبعه الناس في فعل ذلك؛ وكذلك المستعين قبله أحدث لبس الأكمام الواسعة، ولم يكن يعهد ذلك؛ فجعل عرضها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك، وصغّر القلانس وكانت قبل ذلك طولاً كأقباع القضاة.

٨

خلافة القاهر(*)

وبويع القاهر محمد بن أحمد المعتضد بالله يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة؛ ثم خلع يوم الأربعاء لخمس خلوان من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وسُملت عيناه؛ فكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام؛ ويكنّى بأبي منصور؛ وأمه أم ولد.

واستوزر القاهر أبا عليّ محمد بن عليّ بن مقلة في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ثم عزله واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله ابن سليمان، ثم عزله واستوزر أبا العباس أحمد بن عبيد الله الخصيبي، وكانت أخلاقه لا تكاد تحصل لتقلبه وتلوّنه، وكان شهماً شديد البطش بأعدائه، وأباد جماعةً من أهل الدولة، منهم مؤنس الخادم ويلبق وعليّ بن يلبق؛ فهابه الناس وخشوا صولته؛ واتخذ حربةً عظيمةً يحملها في يده إذا سعى في داره، ويطرحها بين يديه في حال جلوسه، يباشر الضرب بتلك الحربة لمن يريد قتله؛ فسكن من كان يستعمل على من قبله من الخلفاء الشغب والتوثب عليهم.

وكان قليل التثبّت في أمره مخوف السطوة؛ فأداه ما وصفنا من فعله إلى أن احتيل عليه في داره، فقبض عليه وسُملت كلتا عينيه، وهو حي في هذا الوقت، في الجانب الغربي في دار ابن طاهر، على ما نمى إلينا من خبره واتصل بنا من أمره؛ وذلك أن الراضي غيّب خبره وقطع ذكره: فلما بويع إبراهيم المتقي لله أصيب القاهر معتقلاً في بعض المقاصير؛ فأمر به إلى دار ابن طاهر، فاعتقل بها إلى هذه الغاية على ما وصفنا.

(*) مروج الذهب، الفقرات ٣٤٤١ - ٣٤٦٤.

وذكر محمد بن علي المصري الخراساني الأخباري، وكان القاهر به آنساً، قال: خلا بي القاهر فقال: «لتصدقني أو هذه» (وأشار إليّ بالحربة)؛ فرأيت والله الموت عياناً بيني وبينه؛ فقلت: «أصدقك يا أمير المؤمنين» ـ فقال لي: «أنظر» (يقولها ثلاثاً) ـ قلت: «نعم، يا أمير المؤمنين» ـ قال: «عما أسألك عنه ولا تغيّب عني شيئاً، ولا تحسّن القصة ولا تسجع فيها ولا تُسقط في أخلاقهم وشيمهم من أبي العباس السفاح فمن دونه» ـ فقلت: «على أن الأمان لي، يا أمير المؤمنين» ـ قال: «ذلك لك».

قلت: «أما أبو العباس السفّاح فكان سريعاً إلى سفك الدماء، واتّبعه عماله في الشرق والغرب في فعله، واستنّوا بسيرته، مثل محمد بن الأشعث بالمغرب وصالح بن عليّ بمصر وخازم بن خزيمة وحميد بن قحطبة؛ وكان مع ذلك نجداً سمحاً وصولاً جواداً بالمال؛ وسلك من ذكرنا من عماله وغيرهم ممن كان في عصره سبيله وذهبوا مذهبه مؤتمين به».

قال: «فأخبرني عن المنصور» ـ قلت: «الصدق، يا أمير المؤمنين؟» ـ قال: «الصدق» ـ قلت: «كان، والله، أول من أوقع الفُرقة بين ولد العباس بن عبد المطلب وبين آل أبي طالب؛ وقد كان قبل ذلك أمرهم واحداً؛ وكان أول خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم؛ وكان معه نوبخت المجوسي المنجّم، وأسلم على يديه وهو أبو هؤلاء النوبختية، وإبراهيم الفزاري المنجّم صاحب القصيدة في النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئات الفلك، وعليّ بن عيسى الأسطرلابي المنجّم؛ وكان أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغة العجمية إلى العربية، منها كتاب كليلة ودمنة، وكتاب السند هند، وترجمت له كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها، وتُرجم له كتاب المجسطي لبَطْليموس، وكتاب إقليدس وكتاب الأرثماطيقي وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية، وأخرجت إلى الناس، فنظروا فيها وتعلّقوا إلى علمها؛ وفي أيامه وضع محمد بن إسحاق كتب المغازي والسير وأخبار المبتدأ، ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنّفة؛ وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه في أعماله وصرفهم في مهامه وقدمهم على العرب، فامتثلت ذلك الخلفاء من بعده من ولده، فسقطت قيادات العرب وزالت رئاستها وذهبت مراتبها؛ وأفضت الخلافة إليه فنظر في العلم وتقرّأ المذاهب وارتاض في الآراء ووقف على النحل وكتب الحديث، فكثرت في أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم».

فقال القاهر: «قد قلت فأحسنت وعبّرت فبيّنت؛ فأخبرني عن المهدي كيف كانت أخلاقه» ـ قلت: «كان سمحاً سخياً كريماً جواداً، فسلك الناس في عصره سبيله وذهبوا في أمورهم مذهبه، فاتسعوا في مساعيهم؛ وكان من فعله في ركوبه أن يحمل بدر الدنانير والدراهم أمامه، فلا يسأله أحداً إلا أعطاه، وإن سكت ابتدأه المفرّق بين يديه، وقد تقدّم بذلك إليه؛ وأمعن في قتل الملحدين والذاهبين عن الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته، لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية، وما صنفه في ذلك الوقت ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس تأييداً لمذاهب المانية والديصانية والمرقيونية؛ فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس؛ وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم، فأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين، فأوضحوا الحق للشاكّين؛ وشرع في بناء المسجد الحرام ومسجد النبي صلعم على ما هما عليه إلى هذه الغاية؛ وبنى بيت المقدس وقد كان هدمته الزلازل».

قال: «فأخبرني عن الهادي على قِصَر أيّامه، كيف كانت أخلاقه وشِيَمه» ـ قلت: «كان جبّاراً عظيماً، وأوّل مَن مشت الرجال بين يديه بالسيوف المُرهَفة والأعمدة المُشهرة والقِسيّ الموتورة؛ فسلكت عمّاله طريقته ويمّموا منهجه، وكثر السلاح في عصره» ـ قال: «لقد أجدتَ في وصفك وبالغت فيما ذكرت من قولك؛ فأخبرني عن الرشيد كيف كانت طريقته».

ـ قلت: «كان مواظباً على الحجّ متابعاً للغزو واتخذ المصانع والآبار والبِرَك والقصور في طريق مكّة، وأظهر ذلك بها وبمِنًى وعَرَفات ومدينة النبيّ صلعم؛ فعمّ الناس إحسانه مع ما قرن به من عدله؛ ثم بنى الثغور ومدّن المدن وحصّن فيها الحصون مثل طرسوس وأذَنة وعمّر المصيصة ومَرْعَش وأحكم بناء الحرب وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للمرابطين؛ واتّبعته عمّاله وسلكوا طريقته، وَقَفَتْه رعيّته مقتديةً بعمله مستنّة بإمامته؛ فقمع الباطل وأظهر الحق وأنار الإسلام وبرّز على سائر الأمم؛ وكان أحسن الناس في أيّامه فعلاً أمّ جعفر زُبَيْدة بنت جعفر بن المنصور لِمَا أحدثته من بناء دور السبيل بمكّة واتّخاذ البرك والمصانع والآبار بمكّة وطريقها المعروفة إلى هذه الغاية، وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر بالشاميّ وطرسوس، وما أوقفت على ذلك من الوقوف؛ وما ظهر

في أيّامه من فعل البرامكة وجُودهم وإفضالهم وما اشتهر عنهم من أفعالهم؛ وكان الرشيد أوّل خليفة لعب بالصولنجان في الميدان ورمى بالنشّاب في البرجاس ولعب بالكرة والطبطاب، وقرّب الحذّاق في ذلك؛ فعمّ الناس ذلك الفعل؛ وكان أوّل من لعب بالشّطرنج من خلفاء بني العبّاس وبالنرد، وقدّم اللُعّاب وأجرى عليهم الأرزاق؛ فسمّى الناس أيّامه، لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها، أيّام العروس؛ وكثير ممّا يجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف».

قال القاهر: «فأراك قد قصرت في أفعال أمّ جعفر، فلمَ ذلك؟» ـ قلت: «يا أمير المؤمنين، ميلاً إلى الاختصار وطلباً للإيجاز» ـ قال: فتناول الحربة وهزّها، فرأيت الموت الأحمر في طَرَفها ثمّ برق عينيه مع ذلك فاستلمت، وقلت: «هذا مَلَك الموت، ولم أشكّ أنّه يقبض روحي»؛ فأهوى بها نحوي، فزُغْت منها، فاسترجع وقد أخطأتني فقال: «ويلك! أبغضت ما فيه عيناك ومللت الحياة؟» ـ قلت: «ما هو، يا أمير المؤمنين؟» ـ قال: «أخبار أمّ جعفر؛ زدني منها» ـ قلت: «نعم، يا أمير المؤمنين؛ كان من فعلها وحسن سيرتها في الجدّ والهزل ما برّزت فيه على غيرها؛ فأمّا الجدّ والآثار الجميلة التي لم يكن في الإسلام مثلها مثل حفرها للعين المعروفة بعين المُشاش بالحجاز، فإنّها حفرتها ومهّدت الطريق لمائها في كل خَفْض ورَفْع وسَهْل وجبل ووَعْرحتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكّة؛ فكانت جملة ما أنفقت عليها، ممّا ذُكر وأُحصي، ألف ألف وسبعمائة ألف دينار؛ وما قدّمتُ ذكره من المصانع والدور والبِرَك والآبار بالحجاز والثغور، وإنفاقها الألوف على ذلك، دون ما كان في وقتها من البذل وعمّ أهل الفاقة من المعروف والخصب؛ وأمّا الوجه الثاني ممّا تتباهى به الملوك في أعمالهم وينعمون به في أيّامهم ويصونون به دولهم ويُدوّن في أفعالهم وسِيَرهم، فهو أنّها أوّل مَن اتّخذ الآلهة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر، وأصطنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ ثوب وشي أتخذ لها خمسين ألف دينار؛ وهي أوّل مَن اتّخذ الشاكريّة والخدم والجواري يختلفون على الدوابّ في جهاتها ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها؛ وأول مَن اتّخذ القباب من الفضّة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضّة ملبّسة بالوشي والسكّور والديباج وألوان الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، وأوّل مَن اتّخذ الخفاف المرصّعة بالجوهر وشمع العنبر؛ وتشبّه الناس في أفعالهم بأمّ جعفر».

ـ «ولما أفضى الأمر إلى ولدها، يا أمير المؤمنين، قدّم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ككَوْثَر وغيره من خدمه؛ فلمّا رأت أمّ جعفر شدّة شغَفَه بالخدم واشتغاله بهم، اتّخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعمّمت رؤسهنّ وجعلت لهنّ الطُرَر والأصداغ والأقفية وألبستهنّ الأقبية والقراطق والمناطق، فماست قدودهن وبرزت أردافهنّ، وبعثت بهنّ إليه فاختلفنَ بين يديه، فاستحسنهنّ واجتذبن قلبه إليهنّ وأبرزهنّ للناس من الخاصّة والعامّة؛ فاتّخذ الناس من الخاصّة والعامّة الجواريَ المطمومات، وألبسوهن الأقبية والمناطق وسمّوهن الغلاميّات».

ـ فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الطرب والسرور والفرح ونادى بأعلى صوته: «يا غلام، قَدَح على وصف الغلاميّات!»؛ فبادر إليه جوار كثيرة قدّهنّ واحد توهّمتَهن غلماناً بالقراطق والأقبية والطُرَر والأُقفية ومناطق الذهب والفضّة، فأخذ الكأس بيده؛ فأقبلت أتأمّل صفاء جوهر الكأس ونوريّة الشراب وشعاعه وحسن أولئك الجواري، والحربة بين يديه، فأسرع في شربه وقال: «هيه».

فقلت: «نعم يا أمير المؤمنين، ثم أفضى الأمر إلى المأمون؛ فكان في بدء أمره، لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره، يستعمل النظر في أحكام النجوم وقضاياها، وينقاد إلى موجباتها ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأردشير بن بابك وغيره، واجتهد في قراءة الكتب القديمة، وأمعن في درسها، وواظب على قراءتها؛ فافتن في فهمها وبلغ درايتها؛ فلما كان من الفضل بن سهل ذي الرئاستين ما اشتهر وقدم العراق، انصرف عند ذلك كله وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد، وجالس المتكلمين وقرّب إليه كثيراً من الجدليين المبرّزين والمناظرين كأبي الهذيل وأبي إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما، وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء، وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق؛ فرغب الناس في صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل؛ ووضع كل فريق منهم كتباً ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله؛ وكان أكرم الناس عفواً وأكثرهم احتمالاً وأحسنهم مقدرةً وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم للعطايا وأبعدهم من النفاسة؛ واتبعه وزراؤه وأصحابه في فعله وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه».

«ثم المعتصم؛ فإنه، يا أمير المؤمنين، سلك في النحلة رأي أخيه المأمون، وغلب عليه حب الفروسية والتشبه بالملوك الأعاجم في الآلة وليس القلانس والشاشيات؛ فلبسها

وكثر معروفه؛ وأمر القضاة في سائر الأعمال أن لا يقبلوا شهادة من خالفه؛ وكان كثير الأكل واسع العطاء، سلس القياد متحنناً على رعيته».

«ثم المتوكل يا أمير المؤمنين؛ فإنه خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد، ونهى عن الجهد والمناظرة في الآراء وعاقب عليه، وأمر بالتقليد، وأظهر الرواية للحديث؛ فحسنت أيامه وانتظمت دولته ودام ملكه، وغير ذلك، يا أمير المؤمنين، مما اشتهر من أخلاقه».

قال القاهر: «قد سمعت كلامك وكأني مشاهد للقوم على ما وصفت، معاين لهم فيما ذكرت؛ ولقد سرّني ما سمعت منك ولقد فتحت أبواب السياسة وأخبرت عن طرق الرئاسة»؛ ثم أمر لي بجائزة عجّل لي عطاءها في وقتها؛ ثم قال لي: «إذا شئت»؛ فقمت وقام على أثري بحربته، فخيّل والله إليّ أنه يرميني بها من ورائي؛ ثم عطف نحو دار الحرم؛ فما مضت إلا أيام يسيرة حتى كان من أمره ما ظهر.

قال المسعودي: وهذا الرجل الذي أخبرت عنه بهذا الخبر فله أخبار حسان وهو حي يرزق إلى هذه الغاية ـ وهي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ـ مدّاحاً للملوك معاشراً لأهل الرئاسات، حسن الفهم جيد الرأي.

وفي خلافة القاهر بالله، وذلك سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة كانت وفاة أبي بكر محمد بن الحسن بن دُريد ببغداد؛ وكان ممن قد برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين؛ وكان يذهب في الشعر كل مذهب: فطوراً يجزل وطوراً يرقّ، وشعره أكثر من أن نحصيه أو يأتي عليه كتابنا هذا.

فمن جيد شعره قصيدته المقصورة التي يمدح بها الشاه بن ميكال، ويقال إنه أحاط فيها بأكثر المقصور وأولها:

إما تري رأسي حاكى لونه — طرة صبحٍ تحت أذيال الدجى

واشتعل المبيضُ في مسوده — مثل اشتعال النار في جزل الغضى

ومنها:

إن الجديدين إذا ما استوليا — على جديدٍ أدنياه للبلى

وفيها يقول:

لست إذا ما بهظتني غمرةٌ ... ممن يقول: بلغ السيل الربى

وإن ثوت بين ضلوعي زفرةٌ ... تملأ ما بين الرجا إلى الرجا

ـ وقد عارضه في هذه القصيدة المقصورة جماعة من الشعراء، منهم أبو القاسم عليّ بن محمّد بن داود بن فَهْم التّنوخي الأنطاكيّ، وهو في وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ـ بالبصرة في جملة البَريديّين؛ وأوّل قصيدته المقصورة التي يمدح فيها تَنُوخَ وقومه من قُضاعة:

لولا انتهائي لم أطع نهي النهى ... أي مدى يطلب من جاز المدى

وإن كنت أقصرت ما أقصر قلـ ... ـب دامياً تدميه ألحاظ الدمى

ومقلة إن مقلت أهل الغضا ... أغضت وفي أجفانها جمر الغضى

وفيها يقول:

وكم ظباء رعتها ألحاظها ... أسرع في الأنفس من حد الظبى

أسرع من خوف إلى جوف ومن ... حب إلى حبة قلب وحشى

قضاعة بن ملك بن حمير ... ما بعد ذا للمرتقين مرتقى

وقد سبق إلى المقصورة أبو المقاتل نصر بن نصير الحلواني في محمد زيد الداعي الحسني بطرستان بقوله:

قفا خليلي على تلك الربى ... وسائلاها أين هاتيك الدمى

أين اللواتي ربعت ربوعها ... عليك باستخبارها تشفي الجوى

ولابن ورقاء في المقصورة أيضاً:

ما شئت قل: هي المها هي القنى ... جواهر بكين أعطاف الدمى

وممن تأخر موته بعد موت ابن دريد العماني أبو عبد الله المفجّع، وكان كاتباً شاعراً بصيراً بالغريب، وهو صاحب الباهلي البصري الذي كان يناقض ابن دريد؛ فمما جوّد فيه المفجّع قوله:

ألا طـــرب الـــفـــؤادُ إلـــى زُديـــنِ ودون مـــزارهـــا ذو الـــجـــلـــهـــتـــيـــنِ
ألـــم خـــيـــالـــهـــا وهـــنـــاً بـــرحـــلـــي فـــولّـــى رعـــيـــة الـــشـــرطـــيـــن عـــيـــنـــي

٩

خلافة المطيع(*)

وبويع المطيع لله، وهو أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر، لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وقيل إنه بويع في جمادى الأولى من هذه السنة.

وغلب على الأمر ابن بُويه الديلمي، والمطيع في يده لا أمر له ولا نهي ولا خلافة تُعرف ولا وزارة تذكر؛ وقد كان أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد يدبّر الأمر بحضرة الديلمي قيّماً بأمر الوزارة برسم الكتابة، ولم يخاطب بالوزارة إلى أن استأمن الحسن بن عبد الله بن حمدان إلى الجانب الغربي، وخرج معه عند خروجه إلى ناحية الموصل إلى أن اتهمه بتغريته الأتراك عليه، فسمل عينيه.

وقد قيل إن أبا الحسن عليّ بن محمد بن علي ابن مُقلة يعرض الكتب على الديلمي والمطيع ويتصرّف برسم الكتابة، لا برسم الوزارة في هذا الوقت، وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة؛ ولم نفرد بجوامع تأريخ المطيع باباً مفصّلاً عن أخباره كإفرادنا لغيره مما سلف ذكره في هذا الكتاب لأنا في خلافته بعد.

قال المسعودي: وقد كنّا اشترطنا على أنفسنا في صدر كتابنا هذا أن نذكر مَقاتل آل أبي طالب ومن ظهر منهم في أيام بني أمية وبني العباس وما كان من أمرهم من قتل أو حبس أو هرب، ثم ذكرنا ما تأتّى لنا ذكره من أخبارهم من قتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وبقي علينا من ذلك ما لم نورده وقد ذكرناه في هذا الموضع

(*) مروج الذهب، الفقرات ٣٥٧١ - ٣٦٠٦.

وفاءً بما تقدم من شرطنا في هذا الكتاب.

فمن ذلك أنه ظهر بصعيد مصر أحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراعيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، فقتله أحمد بن طولون بعد أقاصيص قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا، وذلك نحو سنة سبعين ومائتين؛ وكذلك ذكرنا خروج أبي عبد الرحمان العجمي على أحمد بن طولون بصعيد مصر وما كان من أمره إلى أن قُتل.

ومن ذلك ظهور ابن الرضا وهو محسّن بن جعفر [بن علي] بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنهم ــ، في أعمال دمشق سنة ثلاثمائة؛ فكانت له مع أميرها أحمد بن كيغلغ حروب فقُتل صبراً، وقيل: قُتل في المعركة وحُمل رأسه إلى مدينة السلام، فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربي.

وظهر ببلاد طبرستان والديلم الأطروش وهو الحسن بن علي بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنهم ــ وأخرج عنها المسودة، وذلك في سنة إحدى وثلاثمائة؛ وقد كان أقام في الديلم والجيل سنين، وهم جاهلية ومنهم مجوس، فدعاهم إلى الله تعالى فاستجابوا وأسلموا، إلا قليلاً منهم في مواضع من بلاد الجيل والديلم في جبال شاهقة وقلاع وأودية ومواضع خشنة، على الشرك إلى هذه الغاية؛ وبنى في بلادهم مساجد؛ وقد كان للمسلمين بإزائهم ثغور مثل قزوين وشالوس وغيرها من بلاد طبرستان؛ وقد كان بمدينة شالوس حصن منيع وبنيان عظيم بنته ملوك فارس يسكن فيه الرجال المرابطون بإزاء الديلم؛ ثم جاء الإسلام فكان كذلك إلى أن هدمه الأطروش.

وقد كان بين الأطروش والحسن بن القاسم الحسنيّ الداعي حروب على بلاد طبرستان، فكانت بينهم سجالاً؛ وقد كان الحسن بن القاسم الحسنيّ الداعي وافى الري، وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، في جيوش كثيرة من الجيل والديلم وغيرهم، ومعه ماكانُ بن كاكي الديلمي، أحد فُتاك الديلم ووجوهها؛ فأخرج عساكر نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحبه عنها، واستولى عليها وعلى قزوين وزنجان وقُم وأبهر وغير ذلك مما اتصل بالري؛ فكتب المقتدر إلى نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان ينكر عليه ذلك ويقول: «إني ضمّنتك المال والدم فأهملت أمر الرعية وأضعفتها

وأهملت البلد حتى دخلته المبيّضة» وألزمه إخراجهم عنه.

فوقع اختيار نصر صاحب خراسان على إنفاذ رجل من أصحابه من الجيل يقال له أسفار بن شيرويه وأخرج معه ابن المحتاج، وهو أمير من أمراء خراسان، في جيش كثير ليحارب من مع الداعي وماكان بن كاكي لما بين الجيل والديلم من الضغائن والتنافر؛ فسار أسفار بن شيرويه فيمن معه من الجيوش إلى حدود الري، فكانت الوقعة بين أسفار بين شيرويه الجيلي وماكان بن كاكي الديلمي، فاستأمن أكثر أصحاب ماكان وقوّاده مثل مشيز وتالجين وسليمان بن شركله الأشكري ومرد الأشكري وهشونه بن أومكر في آخرين من قواد الجيل؛ فحمل عليهم ماكان في نفر يسير من غلمانه سبع عشرة حملة وصبرت له عساكر خراسان ومن معه من الأتراك، فولّى ماكان بن كاكي ودخل بلاد طبرستان وانهزم الداعي بين يدين وماكان على حاميته؛ فلحقته خيول خراسان والجيل والديلم والأتراك، فيهم أسفار بن شيرويه ومضى ما كان لكثرة الخيول وإنجاز الداعي، وقد لحق بقرب آمل قصبة بلاد طبرستان إلى طاحونة هنالك، وقد تخلّى عنه من كان معه من أنصاره؛ فقتل هنالك ولحق ماكان بالديلم.

واستولى أسفار بن شيرويه على بلاد طبرستان والري وجرجان وقزوين وزنجان وأبهر وقم وهمذان والكرج، ودعا لصاحب خراسان، واستوثقت له الأمور وعظمت جيوشه وكثرت عدّته؛ فتجبّر وطغى، وكان لا يدين بملة الإسلام، وعصى صاحب خراسان وخالف عليه، وأراد أن يعقد التاج على رأسه وينصب بالري سريراً من ذهب للملك ويتملّك على ما في يديه مما ذكرنا من البلاد ويحارب السلطان وصاحب خراسان؛ فسيّر المقتدر هارون بن غريب في الحال نحو قزوين، فكانت له مع أصحاب أسفار بن شيرويه وقعة عظيمة؛ فانكشف هارون وقُتل من أصحابه خلق كثير، وذلك بباب قزوين؛ وقد كان أهل قزوين عاونوا أصحاب السلطان، فقُتل منهم عدة وكانت لهم بعد هزيمة هارون بن غريب مع الديلم حروب.

وسار إليهم أسفار بن شيرويه فأتى على خلق كثير بها وملك القلعة التي في وسط قزوين وتُدعى بالفارسية كشوين، وهو الحصن الذي كان بالمدينة أولاً في نهاية المنعة، مما كانت الفرس جعلته ثغراً بإزاء الديلم وشحنته بالرجال، لأن الديلم والجيل ـ مذ كانوا ـ لم ينقادوا إلى ملّة ولا استنهجوا شرعاً؛ ثم جاء الإسلام وفتح الله على المسلمين البلاد، فجعلت قزوين ثغراً للديلم وغيرها مما أطاف ببلاد الديلم والجبل،

وقصدها المطوّعة والغزاة؛ فرابطوا وغزوا ونفروا منها، إلى أن كان من أمر الحسن بن علي العلويّ الأطروش الداعي وإسلام من ذكرنا من ملوك الجيل والديلم على يديه ما قدّمنا ذكره في صدر هذا الباب من خبره؛ والآن فقد فسدت مذاهبهم وتغيّرت آراؤهم وألحد أكثرهم؛ وقد كان قبل ذلك جماعة من ملوك الديلم ورؤسائهم يدخلون في الإسلام وينصرون من ظهر ببلاد طبرستان من آل أبي طالب مثل الحسن ومحمد ابني زيد الحسني.

وخرّب أسفار قزوين لما كان من فعل أهلها ومعاونتهم أصحاب السلطان على رجاله، وقلع أبوابها وسبى وأباح الفروج؛ وسمع المؤذّن يؤذّن على صومعة الجامع، فأمر أن ينكس منها على أم رأسه، وخرّب المساجد ومنع الصلوات؛ فاستغاث الناس في المساجد في أمصار المشرق واستفحل أمره.

وسار صاحب خراسان يريد الري لحرب أسفار في عساكره، وانفصل عن مدينة بُخارا، وهي دار مملكة صاحب خراسان في هذا الوقت، وعبر نهر بلخ فنزل مدينة نيسابور؛ وسار أسفار إلى الري وجمع عساكره وضمّ إليه رجاله من الأطراف وعزم على محاربة صاحب خراسان؛ فأشار عليه وزيره، وهو مطرّف الجرجاني وكان يخاطب بالرئيس، أن يلاطف صاحب خراسان ويرفق به ويراسله ويطمعه في المال وإقامة الدعوة: «فإن الحرب تارات وأوقاتها سجال والإنفاق عليها من رأس المال؛ فإن جنح إلى ما دعوته إليه وراسلته به، وإلا فالحرب بين يديك، لأن من معك من الأتراك وأكثر فرسان خراسان إنما هم رجاله؛ وإنما تملّكتهم بالإحسان إليهم، ولا تدري لعله، إذا قرب منك، صاروا إلى صاحبهم»؛ فقبل قوله وأمر بمكاتبته.

فلما وردت الكتب على صاحب خراسان أبى أن يقبل شيئاً من ذلك وعزم على المسير إليه؛ فأشار عليه وزيره أن يقبل منه ما بذل وأن يرضى منه بما تحمّل من الأموال وإقامة الدعوة: «فإن الحرب عثراتها لا تستقال ولا يُدرى إلى ما تؤول لأن الرجل قوي بالمال والرجال، فإن هُزم لم يكن في ذلك كبير فتح، إذ كان رجل من رجالك انتدبته لحرب عدوّك وضممت إليه عساكرك وغلمانك فخالف عليك؛ وإن كانت، وعائذ بالله، عليك لم تستقلْ من ذلك»؛ فشاور صاحب خراسان ذوي الرأي من قوّاده وأصحابه فيما قال وزيره، فصوّبوا رأيه؛ فجنح إلى قولهم وما أشير به عليه؛ فأجاب أسفار إلى ما سأل وأعطاه ما طلب بعد شروط اشترطها عليه من حمْل أموال وغير ذلك. فلما ورد

الكتاب على أسفار قال لوزيره: «هذه أموال عظيمة قد اشترط علينا حملها، ولا سبيل إلى إخراجها من بيت المال؛ فالواجب أن نستفتح خراج هذه البلاد» ـ فقال له وزيره: «إن في استفتاح الخراج في غير وقته مضرّةً على أرباب الضياع وخراب البلاد وجلاء لكثير من أهل الضياع قبل إدراك غلاّتهم» ـ قال له أسفار: «فما الوجه؟» ـ قال الكاتب: «الخراج إنما يخصّ بعض الناس من أرباب الضياع وغيرهم من المسلمين وسائر أهل الملل من أهل هذه البلاد وغيرهم من الغرباء من غير ضرر عليهم ولا كثير مؤونة، بل إعطاء شيء يسير، وهو أن تجعل على كل رأس ديناراً فيكون في ذلك ما اشترط علينا حمله من المال وزيادة عليه كثيرة».

فأمر أسفار بذلك فكُتب أهل الأسواق والمحالّ من المسلمين وأهل الذمة حتى وُصل في الإحصاء إلى من في الفنادق والخانات من الغرباء من التجار وغيرهم وحُشر الناس إلى دار الخراج بالريّ وسائر أعمالها، وطولبوا بهذه الجزية؛ فمن أدّى كتب له براءة بالأداء مختومة على حسب ما تُكتب براءة أهل الذمة عند أدائهم الجزية في أمصار الإسلام؛ فأخبرني جماعة من أهل الريّ وغيرهم ممن طرأ إليها من الغرباء من التجار وغيرهم، وأنا يومئذٍ بناحية الأهواز وفارس، أنهم أدّوا هذه الجزية وأخذوا هذه البراءة بأدائها؛ فاجتمع من ذلك أموالٌ عظيمة، حُمل منها ما اشترط عليه وكان الباقي من ذلك ألف دينار ونيفاً، وقيل: أضعاف ما ذكرنا على حسب الخلائق الذين بالريّ وأعمالها.

ورجع صاحب خراسان إلى بخارا، وعظم أمر أسفار على خلاف ما عهد، وبعث برجل من أصحابه كان صاحب جيشه من الجيل، يقال له مرَداويج بن زيَار إلى ملك من ملوك الديْلم مما يلي بلاد قزوين، وهو صاحب الطرْم من أرض الديْلم، وهو ابن أسوار المعروف بسلاّر، الذي ولده في هذا الوقت صاحب آذربيجان وغيرها، ليأخذ عليه البيعة لأسفار بن شيرويه والعهْد والدخول في طاعته؛ فسار مرداويج بن زيار إلى سلاّر، فتشاكيا ما نزل بالإسلام من أسفار بن شيرويه وإخرابه وقتله الرعية وتركه العمارة والنظر في عواقب الأمور؛ فتحالفا وتعاقدا على التظافر على أسفار والتعاون على حربه.

وقد كان أسفار سار في عساكره إلى قزوين، وقرب من تُخوم الديْلم من أرض الطرْم من مملكة ابن أسوار منتظراً لصاحبه مرداويج، وأنه وإن لم ينقدِ ابن أسوار إلى طاعته ورجع رسوله إليه بما لا يحبّ، وطيء بلاده؛ وسلاّر هذا هو خال عليّ بن وهْسُوذان

المعروف بابن حسّان، ملك آخر من ملوك الديلم، وهو الذي قُتل بالريّ، قتله ابن أسوار هذا، في خبر طويل.

فلما قرب مرداويج من عسكر أسفار راسل قوّاده وكاتبهم في معاونته على الفتْك بأسفار وأعلمهم مظافرة سلاّر عليه؛ وقد كان القوّاد وسائر أصحابه سئِموا وملّوا دولته وكرهوا سيرته؛ فأجابوا مرداويج إلى ذلك؛ فلما دنا من الجيش، استشعر أسفار بن شيرويه البلاء وعلم توجُّه الحيلة عليه، وأن لا ناصر له من أصحابه ولا غيرهم لما تقدّم من سوء سيرته؛ فهرب في نفر من غلمانه؛ فوافى مرداويج، وقد فاته أسفار، فاستولى على الجيش وحاز الخزائن والأموال؛ وأحضر وزير أسفار المعروف بمطرّف الجرجاني فاستخرج منه الأموال، وأخذ البيعة على القوّاد والرجال، وفرّق فيهم الأموال من الأرزاق والجوائز، وزاد في إنزالهم وأحسن إليهم بما لم يكونوا يعرفونه من أسفار.

ومضى أسفار إلى نحو مدينة السارية من بلاد طبرستان، فلم يتوجه له ملجأ يقصده، وحار في أمره؛ فرجع يريد قلعةً من قلاع الديْلم منيعة تعرف بقلعة الموت، كان فيها شيخ من شيوخ الديلم، يكنّى أبا موسى، مع عدة من الرجال، قبله ذخائر أسفار بن شيرويه وكثير من خزائنه وأمواله؛ وقد كان مرداويج، لما توجّه له ما ذكرنا وملك الجيش والأموال خرج يتصيّد على أميال من قزوين نحو الطريق الذي سلكه أسفار ليأخذ أسفار ويستعلم خبره وأي البلاد سلك وإلى أي القلاع لجأ؛ فمال إلى القلعة، فنظر إلى خيل يسيرة في بعض الأودية فتسرّع بعض أصحابه نحوها ليأخذوا خبرها، فوجدوا أسفار بن شيرويه في عدّة يسيرة من غلمانه يؤم القلعة ليأخذ ما له فيها من الأموال، ويجمع الرجال من الديْلم والجيل ويعود لحرب مرداويج بن زيار؛ فأُتي به مرداويج؛ فلما وقعت عليه عينه، نزل فذبحه من ساعته.

وأقبلت رجال الجيل والديْلم نحو مرداويج لما ظهر من بذله وإحسانه إلى جنده؛ وتسامع الناس بإدراره الأرزاق على جنده، فقصدوه من سائر الأمصار، فعظمت عساكره وكثرت جيوشه واشتد أمره؛ ولم يسعه ما في يديه من الأمصار ولا كفى رجاله ما فيها من الأموال؛ ففرّق قوّاده إلى بلاد قُمّ وكرَج بن أبي دُلف والبرج وهمذان وأبهر وزنجان.

فكان من أنفذ إلى همذان ابن أختٍ له في جيش كثيف مع جماعة من قوّاده ورجاله، وكان بها جيش للسلطان مع أبي عبد الله محمد بن خلف الدينوري النيرماني، ومعه

خفيف غلام أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان، في جماعة من قوّاد السلطان؛ فكانت لهم مع الديْلم حروب كثيرة ووقائع متصلة؛ وعاون أهل همذان أصحاب السلطان، فقُتل من رجال مرداويج خلقٌ كثير من الجيل والديلم، نحو أربعة آلاف وقُتل ابن أخت مرداويج صاحب الجيش، والمعروف بأبي الكرادِيس ابن عليّ بن عيسى الطلحي، وكان من وجوه رجال مرداويج؛ وولّت الديْلم نحو مرداويج أوحش هزيمة؛ فلما أتاه الخبر وضجّت أخته ورأى ما قد نزل بها من أمر ولدها سار عن الري في جيشه حتى نزل مدينة همذان على الباب المعروف بباب الأسد.

وإنما سُمي هذا الباب بباب الأسد لأن أسداً من حجارة كان على ربوة من الأرض على الطريق المؤدّية إلى الريّ وجادّة خراسان، أعظم ما يكون من الأسد كالثور العظيم أو كالجمل البارك، كأنه أسد حيّ حتى يدنو منه الإنسان فيعلم أنه حجر قد صُوّر أحسن صورة ومُثّل أقرب ما يكون من تمثيل الأسد؛ فكان أهل همذان يتوارثون أخبارهم عن أسلافهم مستفيضاً فيهم أن الإسكندر بن فيلبس بنى همذان حين انصرافه من بلاد خراسان ورجوعه من مطافه من الهند والصين وغير ذلك، وأن ذلك الأسد جُعل طِلسماً للمدينة وسورها وأهلها، وأن خراب البلد وفناء أهله وهدم سورها والقتل الذريع يكون عند كسر ذلك الأسد وقلعه من موضعه، وأن ذلك من جهة الديْلم والجيل؛ فكان أهل همذان يمنعون من يجتاز بهم من العساكر والسابلة والمتولّعة من أحداثهم أن يقلّبوا ذلك الأسد أو يكسروا منه شيئاً، ولم يكن ينقلب لِعظَمه وصلابة حجره إلا بالخلق الكثير من الناس؛ وقد كان عسكر مرداويج الذي سيّره مع ابن أخته إلى همذان نزلوا على هذا الباب وانبسطوا على تلك الصحراء قبل الوقعة بينهم وبين أصحاب السلطان؛ فقلب على ما ذكر هذا الأسد فكُسر، فكان من أمر الوقعة ما ذكرنا، وذلك على طريق الولع من الديْلم.

فلما سار مرداويج ونزل على هذا الباب ونظر إلى مصارع أصحابه وقتل أهل همذان لابن أخته، اشتدّ غضبه لذلك؛ فكانت بينه وبين أهل همذان ثورة؛ ثم ولّي القوم وقد أسلمهم قبل ذلك أصحاب السلطان ورحلوا عنهم، فقُتل منهم في اليوم الأول في قول المقلّل من الناس على ما ذُكر لنا ممن أدركه الإحصاء ممن حمل السلاح في المعركة نحو من أربعين ألفاً.

وأقام السيف يعمل فيهم ثلاث أيام والنار والسبي؛ ثم نادى برفع السيف في اليوم

الثالث وأمّن بقيّتهم ونادى أن تخرج شيوخ البلد ومستوروه إليه، فلما سمعوا النداء أمّلوا الفرج؛ فخرج من وثق منهم بنفسه من الشيوخ وأصحاب الستْر ومن لحق بهم، فساروا إلى المصلّى؛ فدخل إليه صاحب عذابه وكان يقال له السقطّي فسأله عن أمره فيهم؛ فأمر أن يطوف بهم الديْلم والجيل بحرابهم وخناجرهم ويُؤتى عليهم، فأطافت بهم الرجال من الديْلم والجيل فأُتي على القوم جميعاً وأُلحقوا بمن مضي منهم.

وبعث بقائد من قوّاده يقال له ابن علاّن القروي، وكان يلقّب بخواجه (وذلك أن أهل خراسان إذا عظّموا الشيخ فيهم سمّوه بخواجه) في عسكر من عساكره إلى مدينة الدّينَور، ومن همذان إليها ثلاثة أيام؛ فدخلها بالسيف وقتل من أهلها في اليوم الأول سبعة عشر ألفاً في قول المقلّل، والمكثر يقول: خمسة وعشرين ألفاً؛ فخرج إليه في مستوري أهل البلد وصوفيّتها وزهّادها رجل يقال له ابن مشاد، وبيده مُصحف قد نشره؛ فقال لابن علاّن المعروف بخواجه: «اتقِ الله وارفع السيف عن هؤلاء المسلمين؛ فلا ذنب لهم ولا جناية يستحقّون بها ما قد نزل بهم»؛ فأمر بأخذ المصحف من يده، فضرب به وجهه ثم أمر به فذُبح، وسبى وأباح الأموال والدماء والفروج.

وبلغت عساكر مرداويج وجنوده إلى الموضع المعروف بالشجرتين وهو فرز بين بلاد الجيل وأعمال حُلوان مما يلي العراق، وذلك بين بلاد طرر والمطامِير ومرْج القلعة، قتلاً وسبياً وغنم الأموال؛ ثم ولّت جيوشه راجعة وقد غنمت الأموال وقتلت الرجال وملكت الأولاد، وأخذوا الغلمان وتملّكوهم وسبوْا من بلاد الدينَوَر وقرماسين والزبيديّة إلى حيث ما بلغوا مما وصفنا من هذه البلاد ممن أدركه الإحصاء من الجواري العواتق والغلمان في قول المقلّل خمسين ألفاً، وفي قول المكثر: مائة ألف.

فلما تم لمرداويج ما وصفنا وحُملت إليه الأموال والغنائم، بعث إلى إصبهان بجماعة من قوّاده في قطعة من عساكره، فملكوها وأقيمت لهم الأنزال والعلوفات، وعُمرت له قصور أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلَف العِجلي، وهُيّئت له البساتين والرياض، وزُرع فيها له أنواع الزهر على حسب ما كان في أيام ابن عبد العزيز؛ فسار مرداويج إلى إصبهان فنزلها وهو في نحو خمسين ألفاً وقيل: أربعين ألفاً، سوى ما له بالريّ وقُم وهمذان وسائر أعماله من العساكر.

وقد كان أنفذ جماعةً من قوّاده وعساكره مع أبي الحسن محمد بن وهبان الفُضيلي، وهو الذي استأمن بعد ذلك إلى السلطان؛ ثم قصد بعد ذلك إلى محمد بن رائق، وهو

بالرقة من ديار مُضر قبل دخوله الشام ومحاربته الإخشيد محمد بن طُغج؛ فاحتال عليه رافع القرمطيّ، وكان من قوّاد ابن رائق، حتى فرّق بينه وبين عسكره وغرّقه في الفرات، وذلك نحو رحبة مالك بن طوق؛ وقد أتينا على خبره وما كان من الحيلة في أمره ومدة بقائه في الماء مقيّداً إلى أن خرج، ثم قتل بعد ذلك، في الكتاب الأوسط في أخبار محمد بن رائق؛ فسار ابن وهبان فيمن معه من العساكر إلى صقع كُور الأهواز، وذلك على طريق مناذر وتُسْتَر وإيذَج، واحتوى على هذه البلاد وجبى أموالها، وحمل ذلك إلى مرداويج.

وطغى مرداويج وتكبّر، وعظمت جيوشه وأمواله وعساكره، وضرب سريراً من الذهب رصّعه بالجوهر، وعُملت له بدنة وتاج من الذهب؛ وجُمع في ذلك أنواع الجواهر؛ وقد كان سأل عن تيجان الفرس وهيآتها فصُوّرت له ومُثّلت؛ فاختار صفة تاج أنوشروان؛ وقد كان نمى إليه من كتّابه ومن بلاد إصبهان، فتظهر بها ديانة وينصب بها سرير ملكها، وتجبى إليها كنوز الأرض، وأن الملك الذي يليها يكون مُصفَرّ الرجلين، ويكون من صفته كيت وكيت، وأن مدّة عمره في الملك كذا وكذا، ثم يتلوه من ولده بعده في هذه المملكة أربعون ملكاً؛ وقرّبوا إليه الزمان في ذلك وحدّوه وتقرّبوا إليه بأشياء من هذه المعاني مما مال إليه هواه واستدناه منهم واستهواه؛ فأظهر أنه المصفرّ الرجلين الذي يملك الأرض.

وكان معه من الأتراك نحو من أربعة آلاف مماليك له في خاصته، دون من في عسكره من الأتراك مع أمرائه وقوّاده؛ وكان سيىء الصحبة لهم، كثير القتل فيهم؛ فعملوا على قتله وتحالفوا؛ وقد كان على المسير إلى مدينة السلام والقبض على الملك وتولية أصحابه مدن الإسلام بأسرها في شرق الأرض وغربها مما في يد ولد العباس وغيرهم، فأقطع الدور ببغداد لأصحابه ولم يشكّ أن الأمر في يده والملك له.

فخرج ذات يوم إلى الصيد وهو فرح مسرور، وانصرف وهو كذلك لما قد تمّ له من الأمر وتأتى من الملك؛ فدخل الحمام بعد رجوعه في قصر أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلف بإصبهان، فدخل إليه غلام من وجوه الأتراك، وهو بجْكَم، وكان من خواص الغلمان، ومعه ثلاثة نفر من وجوه الأتراك، أرى أن أحدهم توزون مدبّر الدولة بعد بجكم؛ فقتلوه وخرج بجكم ومن معه؛ وقد كان أعلم الأتراك بذلك فكانوا له متأهبين دون سائر من في العسكر؛ فركبوا من فورهم، وذلك في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة في خلافة الراضي.

وتفرّق الجيش عند وقوع الضجة، وانتهب بعض الناس بعضاً وأُخذت الخزائن وانتُهبت الأموال؛ ثم إن الجيل والديلم ثابوا واجتمعوا وتشاوروا؛ فقالوا: «إن بقينا على ما نحن عليه من التحزّب بغير رئيس ننقاد إليه هلكنا»؛ فاجتمع أمرهم على مبايعة وشْمكير أخي مرداويج (وتفسير وشمكير بالعربية الآخذ بـ [سُماني، وتفسير مرداويج معلّق الرجل، وقد يُكتب مرداويز بالزاي)؛ فبايعوا وشمكير] بعد أن تفرّق كثير من الجيش؛ ففرّق فيهم كثيراً مما بقي من الأموال وأحسن إليهم، وتوجّه فيمن معه من العساكر إلى الريّ فنزلها.

وصار بجكم التركي فيمن معه من الأتراك، وقد جمعوا أنفسهم إلى أن يخلصوا من الديلم، وسار إلى بلاد الدينور فجبى منها الخراج وأخذ كثيراً من الأموال، وسار إلى النهْروان على أقلّ من يوم من مدينة السلام، فراسل الراضي؛ وكان الغالب على أمره الساجية وعدّة من غلمان الحُجَرية؛ فأبوا أن يتركوه يصل إلى الحضرة خوفاً [من] أن يغلب على الدولة؛ فمضى بجكم لما مُنع من الحضرة إلى واسط، إلى محمد بن رائق، وكان مقيماً بها؛ فأدناه وحباه وغلب عليه؛ وقوي أمر بجكم واصطنع الرجال وضعف [أمر] ابن رائق عنه؛ فكان من أمره ما قد اشتهر وقدّمنا ذكره فيما سلف من كتبنا من اختفائه وخروج بجكم مع الراضي إلى الموصل ومعهم عليّ بن خلف بن طيّاب إلى ديار بني حمدان من بلاد الموصل وديار ربيعة، وظهور محمد بن رائق ببغداد، ومعاونة الغوغاء إياه، ومسيره إلى داره السلطان وقتله لابن بدر الشّرابي وخروجه عن الحضرة ومن تبعه من الجند والقرامِطة مثل رافع وعُمارة وغيرهما، وكانوا أنصاره، ومسيره إلى ديار مُضر ونزوله الرقة، وما كان بينه وبين نُميْرة، ودخول يانس المؤنسيّ في جملته، ومسيره إلى جند قِنّسرين والعواصم، وإخراجه طريفاً السُّبكريّ عنها، وتوليته الثغور الشامية.

وقد أتينا في الكتاب الأوسط الذي كتابنا هذا تالٍ له ــ والأوسط تالٍ لكتابنا أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة ــ على ما كان من ومحاربته الإخشيد محمد بن طغج بالعريش من بلاد مصر، وانكشافه ورجوعه إلى دمشق، وما كان من قتله الإخشيد محمد بن طغج باللجّون من بلاد الأردن، وما كان من قبل وقعة العريش بينه وبين عبيد الله بن طغج ومن كان معه من القوّاد، وانكشافهم عنه، واستئمان من استأمن منهم إليه مثل محمد بن تكين الخاصة

وتكين الخاقانيّ غلام خاقان المُفْلحي وغيرهم، وغير ذلك من أخباره وأخبار غيره؛ وذكرنا مقتل طريف السُّبكري في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة على باب طرسوس، وما كان من وقعته مع الثُّميْليّة، وهم غلمان ثُميْل الخادم؛ فأغنى ذلك عن إعادته مبسوطاً في هذا الكتاب.

وإنما تغلغل بنا الكلام في التصنيف فيما ذكرناه من أخبار الديلم والجيل وما كان من أمر أسفار بن شيرويه ومرداويج عند ذكرنا لأخبار آل أبي طالب وأمر الداعي الحسن بن القاسم الحسنيّ صاحب طبرستان ومقتله وخبر الأطروش الحسن بن عليّ الحسنيّ؛ قال المسعودي: وقد أتينا على ذكر سائر الأحداث والكوائن في أيام من ذكرنا من الخلفاء والملوك في كتابينا أخبار الزمان والأوسط؛ وذكرنا في هذا الكتاب ما يكتفي به الناظر فيه، وانتهى بنا التصنيف إلى هذا الوقت وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ونحن بفسطاط مصر.

والغالب على أمر الدولة بالحضرة أبو الحُسين أحمد بن بُويْه الديلميّ المسمّى مُعزّ الدولة وأخوه الحسن بن بويه الديلمي صاحب بلاد إصبهان وكور الأهواز وغيرها المسمّى ركن الدولة، وأخوهما الأكبر والرئيس فيهم المعظّم عليّ بن بويه الملقّب بعماد الدولة المقيم بأرض فارس، والمدبّر منهم لأمر المُطيع أحمد بن بويه مُعزّ الدولة، وهو المحارب للبريديين بأرض البصرة، والمطيع معه على حسب ما ينمو إلينا من أخبارهم.

كتب صدرت للمؤلف

ابن خلدون وتاريخه، دار الطليعة، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٨١.

التراث بين السلطان والتاريخ، دار الطليعة، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٨٧.

العرب والبرابرة، رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٩١.

المنتخب من مدونات التراث: محمد بن عبد الوهاب، رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الأولى بيروت، ٢٠٠٠.

المنتخب من مدونات التراث: ابن تيمية، رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

المنتخب من مدونات التراث: ابن خلدون، الطبعة الأولى، آذار/مارس ٢٠٠١.

المنتخب من مدونات التراث: الماوردي، الطبعة الأولى، شباط ٢٠٠١.

المنتخب من مدونات التراث: أبو بكر الرازي، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ف

ق

ل

م